

ريتشارد دوكنز

THE GOD DELUSION

الكتاب الممنوع في جميع الدول العربية

مقدمة المترجم

عندما يتناول ريتشارد دوكنز نقد الاديان في كتابه (وهم الاله) فأن الله بكل عظمته و جلاله يقف وجهاً لوجه امام عالم الطبيعة و الفلسفة دوكنز على خط المواجهة. الله يقدم ما عنده من انبياء و كتب و دوكنز يقدم ما عنده من أدلة و براهيين علمية في دراما عقلية رائعة تتخطى كل ما قرأتهُ سابقاً من كتب تناولت نقد الاديان.

الكتاب يبدأ بمقولة لدوغلاس آدمز هي أشبه برصاصة الرحمة لكل أفكار الايمان الغيبي, يتسآءل الكاتب معنا اذا كانت هناك حاجة حقيقية للايمان بالغيبيات كي ندرك جمال الواقع كما هو ونعيش فيه؟ الا يكفي جمال الطبيعة و روعة الحياة كما هي دون الحاجة لمكياج ألايمان الملئ بعفاريت مرعبة و شخوص غابرة و أشباح لا احد يعرف عنها شئ سوى ما توارثناه من ناس بدورهم لم يعرفوا عنها شيئ ايضاً؟ الا تكفي روعة الجسد دون الحاجة للاعتقاد بان هناك روح تعيش فيه؟ ثم ينتقل المؤلف ليصف لنا بوضوح ومن دون رتوش صفات الذات الالهية كما نقرأ عنها في الاديان الابراهمية.

أن نقصان عدد الالهة من زمن كانت تتعدد فيه الالهة و أنتقالنا للتوحيد كخطوة تطويرية لم يؤثر على حياة البشر حقيقة فلماذا نقصان هذا الاله الاخير المتبقي منهم سيؤثر علينا الان على حد قول دوكنز؟ يتناول دوكنز هنا الدلائل على وجود الله واحداً تلو الاخر, و يدحضها بصورة منطقية و علمية واضحة وجلية. ثم يشرح لنا ببساطة و بخفة الاسلوب لماذا أن الاحتمال الاكبر هو عدم وجود الله. و أن الحلقة المفقودة حقيقية مفقودة بوجود الله وليس بغيابه, لان بغيابه لدينا تفسير منطقي للاشياء, ولكن لا تفسير منطقي او غاية لوجوده.

قد يحتج القارئ العربي هنا و يقول بان الاديان بذاتها لها قيمة ما فكرية أو نفسية أيجابية, وهنا يتناول المؤلف مصدر الاديان و ماهي الحاجة الحقيقية لها التي أدت لظهورها. وما سبب كل هذه العدوانية التي تظهره الاديان تجاه بعضها, بل تجاه حتى أتباعها. أمثلة كثيرة يقوم دوكنز بطرحها على الخطر الحقيقي الذي تمثله الاديان و الايمان بالغيبيات على النمو الفكري و النفسي للاطفال و المجتمعات بشكل عام. يطرح أمثلة موثقة للأذى الذي لحق بأطفال أبرياء لا ذنب لهم سوى انهم ولدوا لعائلة تعتنق ديناً ما. ولكن, هناك هذه دعوة و طريق للخروج من هذه المحنة, بل اللعنة التي أسماها الدين, كلنا يملك الحق في الاختيار وكلنا يستطيع ان يختار ولو مع نفسه البقاء على حاله او الخروج من هذه المأساة التي نعيشها يومياً سوية دون ان نجرؤ ان ننظر بعيون بعض و نعترف بالسبب الحقيقي لكل مآسينا.

بالرغم من الجهد المبذول في أعادة تنسيق و ترتيب اللغة الادبية الى العربية كي تناسب القارئ العربي دون النيل من البناء الفكري للكتاب كما قدمه الكاتب لقرآءه في اللغة الام, الا انني اجد متعتي كمترجم تطوع من أجل نقل تجربتهُ الشخصية التي عاشها مع هذا الكتاب قبل بضعة سنوات و الذي اطلق سراحي من وهم كنت اتصور انني ولدت كي اعيش و أموت فيه.

البريطاني كلينتون ريتشارد دوكنز هو عالم بيولوجيا جزيئية و إيثولوجيا وفيلسوف في الأديان. ولد دوكنز في نيروبي، كينيا في 26 مارس 1941، ويعمل حاليا لأكثر من جهة منها جامعة أوكسفورد البريطانية وجامعة كاليفورنيا في بيركيلي بالولايات المتحدة. إلى جانب أعماله في البيولوجيا الجزيئية، دوكنز يقدم نفسه على أنه ملحد، إنساني علماني شكوكي و عقلاني علمي وهو معروف بآرائه في الإلحاد ونظرية التطور كما أنهُ من أبرز منتقدي نظرية الخلق ونظرية التصميم الذكي التي يروج لها المؤمنين بالاديان الابراهيمية في أنحاء العالم. له الكثير من المقابلات في التلفزيون والراديو كذلك له مجموعة من الافلام الوثائقية التي تتناول موضوع الايمان و الالحاد و علاقة الاديان بالعلم و تأثيرها عليه.

قرآءة ممتعة
بسام البغدادي
ستوكهولم 2009

الى ذكرى دوغلاس آدامز

1952- 2001

الا يكفي النظر لروعة الحديقة و جمالها

لماذا يجب علينا الاعتقاد بان هُناكَ جنيات خلفها أيضاً؟

تخيل مع جون لينون[1] عالماً بدون دين. عالم بدون أنتَحاريين أو تفجيرات 11 أيلول, بلا تفجيرات لندن أو حملات صليبية, بدون تقسيم للهند أو حرب فلسطينية أسرائيلية, بدون مذابح الصرب و الكروات للمسلمين و بدون أضطهاد لليهود كونهم "قتلة المسيح" أو مشاكل في أيرلندا شمال. بدون "جرائم الشرف" أو مبشرين أنجيليين بهندام لامع على التلفزيون ألأمرَيكي يأخذ أموال السذج (الرب يريدك أن تعطي حتى الالم). تخيل انه لا وجود لطالبان ليفجروا تماثيل بوذا الأثرية. لا قطع للرؤس بشكل علني للكفار و لا سياط على جسم المرأة لان أحداً لمح من جلدها سنتمتراً. لقد تصادف أن أخبرني صديق اسمه ديزموند موريس بأن اغنية جون لينون العظيمة تغنى بعض الاحيان في أمريكا مع تحوير أو حذف لعبارة "و بدون دين ايضاً" لابل انهم في بعض الاحيان يبدلونها بوقاحة بعبارة "و دين واحد ايضاً".

ربما تفكر هنا بان اللاأدرية هي الموقف المعقول و اأن الإلحاد هو توجه عقائدي تماماً كالتوجه الديني؟ في هذهِ الحالة فأنا أعتقد أن الفصل الثاني من هذا الكتاب سيغير رأيك و ذلك بأقناعك بأن "فرضية ألإله" هي عبارة عن فرضية علمية عن الكون و يجب تحليلها و دراستها بصورة نقدية كأي فرضية أخرى. ربما أنك درست بأن الفلاسفة و عُلماء الدين لديهم العديد من الاسباب المُقنعة للأيمان بالله. لو أنك ممن يفكر بذلك, فربما أنك ستستمتع بقراءة الفصل الثالث الذي يناقش "الدليل على وجود الله" و فيه يظهر الضعف المُدهش لهذه الأدلة. ربما تعتقد بأن وجود ألإله هو من المسلمات الواضحة و إلا فكيف خَلَقَ الكون و وصل الى ما وصل اليه الان؟ وكيف يمكن تفسير الحياة و تنوعها الغني و كل كائن حي يبدو كما لو كان "مصمماً"؟ لو أن تفكيرك طابق ما ذكر في السطور السابقة فأتمنى أن يجيب الفصل الرابع "لماذا الاحتمال الاكبر هو عدم وجود الله" عن بعض هذهِ التساؤلات بعيداً عن فكرة المصمم و الوهم عن تصميم الحياة يمكن تفسيره بطريقة أكثر عقلانية و منطق بناء على نظرية الانتخاب الطبيعي لداروين. على الرغم من أن نظرية الانتخاب الطبيعي محصورة بتفسير العالم الحي فإن باستطاعتها أن ترفع مستوى الوعي للادراك و القابلية للمقارنة عندنا مما يساعد على فهم

1. جون جون وينتسون أونو لينون JOHN WINSTON ONO LENNON مغنٍ وشاعر وعازف غيتار لفرقة البيتلز له اغنية مهشورة تحميل اسم تخيل IMAGINE (المترجم)

الكون نفسه. أن قوة نظرية كالانتخاب الطبيعي و قدرتها على رفع مستوى الوعي هي ثاني رسالة للفت الانتباه من الرسائل الاربعة.

ربما تعتقد بأن الوجود الألهي هو أحدى الضرورات لان عُلماء التأريخ و الحياة أخبرونا بأن المؤمنين كانوا العامل الاكبر في نشوء و أرتقاء كُل الحضارات الأنسانية. لو وجدت هذهِ الفكرة مُقنعة فأرجو أن تقرأ الفصل الخامس عن "جذور الدين" و الذي يشرح سبب أنتَشار الأيمان في كُل مكان. هل أنتَ ممن يعتقد بأن وجود الدين ضروري لتقويم الأنسان و أيجاد أسس أخلاقية حصينة؟ الا نحتاج لوجود الهي كي نكون صالحين؟ فأقرأ الفصلين السادس و السابع لمعرفة أن ألأمرَ ليس كذلك أبداً. لو انك فقدت أيمانك و لكنك لاتزال تفكر بأن وجود الدين شئ جيد في الحياة؟ أذن في الفصل الثامن ستعرف لماذا أن وجود الدين بحد ذاته أمر مُضر للبشرية.

أذا كنت تشعر بانك عالق في الدين الذي تربيت عليه أذن فأن السؤآل الذي يطرح نفسه هو: كيف تم ذلك؟ الجواب نجدهُ عادة في التلقين الذي نتلقاه في مراحل الطفولة. لو أنك مُتدين فالاحتمال الاكبر أنك على دين آبائك. لو ولدت في آركنساس[1] ستفكر بان المسيحية هي الدين الحق و الاسلام كذبة كبرى و تعلم تماماً بان العكس هو الصحيح فيما لو كنت مولوداً في أفغانستان. لهذا فأنت ضحية تلقين ديني من مرحلة الطفولة في كُل من آركنساس أو افغانستان.

الفصل التاسع يعالج بالدين و الطفولة بشكل خاص و الذي يتضمن رسالتي الثالثة للفت الانظار. تماما كما يكشر المُنادون بحقوق المرأة عندما يسمعون "هو" عوضاً عن "هو أو هي", أُريد من الجميع أن يجفلوا عند سماع كلمات مثل "طفل كاثوليكي" أو "طفل مسلم". بالأمكان السماح بقول "طفل لأبوين كاثوليكيين" لكن لو سمعنا أحداً يتكلم عن "طفل كاثوليكي" فلنوقفه و نحاول بلباقة لفت أنتَباهه بأن الاطفال أصغر من أن يكونوا على أي دين أو يعرفوا موقفهم منه, تماما كما هم صغار ليعرفوا موقفهم من الاحداث الاقتصادية و السياسية. ولان موقفي هنا هو موقف أرشادي فلن أعتذر عن التكرار و ذكر هذا ألأمرَ مرة تلو الاخرى في الفصل التاسع. لأننا لن نكرر هذا بما فيه

1. أحدى الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الامريكية (المترجم)

الكفاية من المرات مهما حاولنا. و سأقولها ثانية. ليس هُناكَ طفل مُسلم, بل هُناكَ طفل لابوين مسلمين. الطفل صغير جداً لمعرفة إذا ما كان مسلماً. لا وجود لما يمكن تسميته بالطفل المسلم, ليس هُناكَ مانسمية طفلاً مسيحياً.

الفصل الاول و العاشر يستهلان و يختمان الكتاب بالشرح و بطريقتيهما المُختلفتين, كيف أنه, بواسطة فهم روعة العالم الحقيقي كما هو و بدون الحاجة الى أي تدين نستطيع أن نحصل على ما يكفي من الالهام, الحق الذي اغتصبه رجال الدين و حرموا منه الاخرين عبر التأريخ.

الرسالة الرابعة للفت النظر هي مسألة أن الإلحاد ليس بالشئ الذي يدعو للخجل. على العكس, أنه شئ يدعو للفخر بشموخ للمواجهة مع الافق البعيد, لطالما كان الإلحاد مصحوباً بأستقلالية صحية للعقل و أبداع عليه تفكير بناء. هُناكَ العديدون ممن يعرفون بأنهم مُلحِدين و لكنهم لايجرؤون على الاعتراف لعائلاتهم أو حتى لانفسهم في بعض الحالات. سبب ذلك ولو بشكل جزئي هو أن كلمة "مُلحِد" قد تم تحميلها الشئ الكثير كي تعني شيئا قبيحاً و مخيفاً. الفصل التاسع يقتبس مشهداً من الممثلة الكوميدية جوليا سويني[1] و قصتها مع أهلها بعد أن عرفوا عن طريق الجريدة أن ابنتهم مُلحِدة. لقد تقبلوا على مضض عدم أيمانها بالله و لكن أن تكون مُلحِدة.. مُلحِدة **(صوت الام يعلو لحد للصراخ في المشهد)** أُريد أن اقول شيئا للقراء ألأمريكان فيما يخص هذهِ النقطة, أن ظاهرة الدين في أمريكا ظاهرة تستحق الاهتمام فعلاً. ليس من المبالغة ما قالته المحامية ويندي كاميني عن أن السخرية من الدين في أمريكا لهي كإحراق علم امريكي في معسكر يعج بالجنود ألأمرَيكان. وضع المُلحِدين في أمريكا الآن يشبه وضع المثليين جنسياً فيها منذ حوالي 50 عاماً. والان, بعد حركة الفخر بالمثلية[2], أصبح من الممكن "الى حد ما" أن يُنتَخب المثليي جنسياً لمركز حكومي مرموق. في أستطلاع للرأي أجري عام 1999 عن مدى أستعداد الناخب لأنتخاب شخص بشكل عام ذات مواصفات جيدة لمنصب اداري فكانت النتائج كالتالي: 95% فيما لو كان الشخص

---

1. كاتبة و ممثلة و مقدمة عروض امريكية. (المترجم)
2. حركة الفخر بالمثلية (GAY PRIDE) هي حركة تدعو المثليين للفخر بميولهم الجنسية لانها شئ طبيعي و الى عدم الخجل منها. (المترجم)

أمرأة و 94% فيما لو كان الشخص كاثوليكي و 92% لو كان يهودياً و 79% فيما لو كان مورمون[1] و 79% لو كان مثلياً و 49% لو كان مُلحِداً.

من الواضح أن الطريق أمامنا لازال طويلاً. لكن المُلحِدين أكثر عدداً مما كنا نتصور و خصوصاً بين النخبة المُثقفة. الحال كان كذلك حتى في القرن التاسع عشر عندما قال جون ستيوارت: "**من المحتم أنها ستكون صدمة هائلة لوعرف العالم كم هي نسبة المشككين في الدين بين الحاصلين على أعلى الاوسمة لتميزهم اللامع في مجالات العِلمْ و الفكر**".

من المؤكد أن هذهِ المقولة تصلح أكثر في أيامنا هذهِ بدون أي شك و لدي الادلة و البراهيين على ذلك في الفصل الثالث من الكتاب. أن السبب الرئيسي لعدم أنتَشار فكرة وجود المُلحِدين بين عامة الشعب هي أننا نتردد في الظهور علناً. و أملي أن يساعد كتابي هذا الناس ليتجرأوا على الظهور. تماماً كما كان الحال مع المثليين, فكلما ظهر عدد اكبر منهم سيصبح من الاسهل للاخرين أن ينضموا للمجموعة. ربما أن هُناكَ مايسمى بالكتلة الحرجة لبدء ظهور سلسلة من ردود الأفعال.

أستطلاعات الرأي ألأمرَيكية تظهر بان عدد المُلحِدين و اللاأدريين في أمريكا أكثر بكثير من عدد اليهود المُتدينين و حتى أكثر من العديد من المجموعات الدينية الاخرى. لكن على عكس اليهود الاشهر في مجال الضغوط السياسية في أمريكا, و على عكس المسيحيين الانجيليين الذين قواعدهم السياسية تفوق تلك التي لدى لليهود, لايوجد تنظيم للمُلحِدين و اللاأدريين و بالتالي فليس لهم أي تأثير. لاعجب في ذلك, لان تنظيم المُلحِدين سيكون أشبه بمحاولة أنشاء قطيع من القطط, شئ مستحيل حيث هم معتادون على التفكير المستقل وعدم الانصياع لاي نوع من السلطات الفكرية. لكن كخطوة أولى فأن عدد كاف من الذين يرغبون بألأعلان عن ألحادهم كافي لتشجيع الاخرين على عمل الشئ نفسه. برغم اننا لانستطيع تنظيم قطيع من القطط و لكن وجود عدد كاف منهم سيؤدي لضجة كافية و لن يكون من الممكن أهمالهم.

---

1. طائفة مسيحية أمريكية لا تعترف بالفاتيكان. (المترجم)

كلمة "وهم" في العنوان أرقت بعض عُلماء الطب النفسي و الذين يعتبرونها كلمة تقنية بحتة لا يجب أستخدامها كيفما أقتضى. ثلاثة منهم أقترحوا في رسائلهم لي استعمال كلمات تقنية جديدة تماما كـــ "ديهم[1] – مشتقة من كلمتي دين و وهم" للتعبير عن حالة الوهم الديني. ربما أن كلمة كهذه سيكتب لها الانتشار و لكنني سأبقي على كلمة وهم في الوقت الحاضر و لهذا فانا بحاجة لتبرير أستعمالي لهذه الكلمة بالذات.

يعرف القاموس كلمة وهم كالتالي "أيمان خاطئ أو مزيف". و للمفاجأة, فإن الشرح المصاحب للكلمة هو من مقولة لفيليب جونسون: "**الداروينية هي قصة تحرير الأنسان من الوهم القائل بأن مصيره مرتبط بقوة أعلى منه**". هل من الممكن أن يكون هذا نفسه فيليب الذي قاد حملة الاعتقاد بالخالق و قاضى الداروينية في أمريكا؟ بالتأكيد, و هذا الشرح المصاحب الذي قدمته كما لاحظتم لهو مجتزئ من المحتوى. آمل بملاحظة انني قد وفيت الحق الكامل للفكرة بأعترافي هذا, لانني لم احصل على نفس الحق من بعض المنادين بنظرية الخلق و الذين أجتزأوا بعض الجمل من سياقها في أعمالي, مع سبق الاصرار أستعملوها لتضليل الاخرين. بغض النظر عن المعني الذي قصده جونسون, سأكون سعيداً بتبني العبارة كماهي حرفياً. يُعِرف القاموس المرافق لبرنامج ميكروسوفت للكتابة كلمة الوهم بـــ(الاعتقاد الخاطئ و المستمر بفكرة بعناد في وجه أدلة قوية معاكسة تنفيها, وخاصة كأعراض لأمراض نفسية). القسم الاول من التعريف ينطبق بدقة على حالة الأيمان الديني. فيما يخص الجزء الخاص بالمرض النفسي فأنا أميل لاتباع روبرت بيرسيغ كاتب **الزن[2] وفن صيانة الدراجة النارية** في قوله: "الجنون صفة لشخص واحد يعاني من وهم ما, أما عندما يعاني العديدون من نفس الوهم يدعى هذا الوهم ديناً".

أذا كان فعل هذا الكتاب كما أتصوره أنا, فان القارئ المُتدين الذي يفتح هذا الكتاب سينهيه و قد اصبح مُلحِداً. يالهذا التفاؤل المُتعجرف! من المؤكد بأن المؤمن الجاد عندهُ مناعة هائلة ضد الحجج و النقاش العقلاني. هذه المقاومة بنيت عبر سنين طويلة من التلقين المُستمر من مرحلة الطفولة بإستعمال

1. اقتراحات كل من د. زو هوكنز و د. بيتا آدمز و د. باول سانت جون سميث في رسائل خاصة للمؤلف.
2. هي طائفة بوذية يابانية تفرعت عن فرقة" تشان "البوذية الصينية. (المترجم)

طرق صقلت عبر مئات السنين (سواء بالتطور أو بالتصميم الذكي). ومن أشد أجهزة المناعة نجاحاً تحذيرات خطرة لتجنب حتى فتح كتاب مثل هذا و الذي هو بالتأكيد من عمل الشيطان. لكنني مؤمن بأن هُناكَ العديد من العقول النيرة هنا و هناك, عقول لم يتم أقفالها بالتلقين في عمر الطفولة أو لأسباب أخرى لم يصابوا بالــ"عدوى" أو أذكياء لدرجة تغلبهم على العدوى هذهِ. عقول نيرة كتلك يكفيها القليل من التشجيعكي تتحرر من كُل رجال الدين و تعاليمهم. على أقل تقدير, آمل أن لا يقول أحد ما بعد قراءة هذا الكتاب "ما عرفت أني كنت أستطيع فعل ذلك".

ساعدني في التحضير لهذا الكتاب العديد من الاصدقاء و أنا ممتن لهم جميعا و ليس بالمستطاع ذكرهم جميعاً و لكن وكيل اعمالي جون بروكمان و محرري مقالاتي سالي غامينارا (ترانسورلد) و آيمون دولان (هوغوتان ميفلين) كلاهما قرأآ الكتاب بتمعن و حساسية و المعية شديدة و أعطوني مزيجا مُفيداً جداً من النقد و النصائح. أيمانهم العميق و المتحمس بهذا الكتاب أعطاني الكثير من الشجاعة. جيليان سومرسكايل كانت مثالاً للمحرر و الناسخ بافكارها و اقتراحاتها البناءة كما كانت بعمقها في التدقيق. مُمتن أيضاً لآخرين ممن ساهموا في تدقيق و نقد المسودات المختلفة, أشكر بعمق كل من جيري كوين جي, آندرسون تومسون آر و اليزابيت كورنويلل و اورسولا غودنو و لاثا مينون و أخص كارين آونز, الناقدة المثالية و التي بمرور الوقت تعرفت على كل الاجزاء و المسودات المُختلفة تماماً كمعرفتي بتلك التفاصيل.

يقوم هذا الكتاب جزئياً على (والعكس بالعكس) البرنامج الوثائقي التلفزيوني جذرة الشر و الذي قدمته على قناة بي بي سي القناة الرابعة في كانون الثاني من عام 2006 و أدين بالامتنان لكل من شارك في هذا البرنامج, ديبرا كيد و راسل بارنز و تيم كراغ و آدم بريسكود و آلآن كليمنت و هاميش مايكورا على سماحهم لي باستعمال جمل أستخدمت في البرنامج. أشكر كذلك أي دبليو سي و القناة الرابعة. البرنامج حصل على تقدير مُمتاز في بريطانيا و طلبته هيئة البث الأسترالية أيضاً. بقي أن نرى أن كانت أي قناة في التلفزيون ألأمرَيكي ستجرؤ على بثه. البرنامج موجود الآن على أقراص للبيع على العنوان www.richarddawkins.net/store.

فكرة هذا الكتاب ولدت في رأسي و نمت خلال بضعة سنوات. بعض الافكار التي فيه طرحتها في بعض المحاضرات كما في محاضرتي في هارفارد و بعضها طرحته في مقالات صحفية. الذي يقرأ مقالاتي في مجلة التحقيق الحر[1] سيجد بأن بعض الجمل مألوفة. وانا ممتن لتوم فلين محرر هذهِ الصحيفة الجديرة بالاعجاب لدفعي معنوياً بعرضه لان أكون كاتِباً مستمراً لعمود في الجريدة. و آمل أن أعاود الكتابة بعد أنقطاعي لفترة أنهيت بها هذا الكتاب و بدون شك سأستعمل عمودي لمجابهة ردود الافعال الناتجة عن الكتاب و الرد عليها.

لأسباب مختلفة أدين بالامتنان لكل من دان دانيت و مارك هاوسر و ميشيل ستيرات و سام هاريس و هيلين فيشير و مارغريت داوني و ابن وراق و هيرميون لي و جوليا سويني و دان باركر و جوزفين ولش و يان بيرد و خصوصا جورج سكالز. في أيامنا هذهِ لايكتمل كتاب الا إذا كان نواة لموقع حي على الانترنت و موضوع نقاش في منتدى الكتروني لمَدة بمَواد و أفكار مُكمِلة و ردود أفعال و نقاشات و أسئلة و أجوبة – و لانعرف ما قد يأتي به المستقبل. آمل أن يقوم موقع ريتشارد داوكينز للعلم و المنطق بملئ هذا الدور. و أنا ممتن بشدة لجوش تيمونين لعمله الفني و المحترف و الجهد الذي بذله لتحقيق ذلك. واليكم العنوان.

http://www.RichardDawkins.net

قبل كُل شيء أتقد بالشكر لزوجتي ليلى وارد التي كانت عامل أقناعي الاكبر في معظم حالات التردد و الشك و ليس فقط بالدعم المعنوي و الاقتراحات المفيدة و لكن بقراءة الكتاب بصوت عال على مسمعي في مرحلتين مختلفتين من تأليفه و الذي ساعدني لأفهم وقعه على القراء الاخرين. أنصح بهذا التكنيك لكل الكتاب و لكن علي أن اقول أنه للحصول على أفضل النتائج يجب على الذي يقوم بالقرآءة بصوت عال أن يكون مُمثلا محترفا بأذن موسيقية مجهزة لاستيعاب موسيقا اللغة.

1. مجلة دورية HTTP://WWW.SECULARHUMANISM.ORG (المترجم)

الفصل الاول

أحتِرام مُستحق

ربما ماكان ليتوجه لخدمة الكنيسة و أنما لتفهم موقف داروين و وجهة نظره عن أن كُل شئ هو "خلاصة للقوانين التي تعمل من حولنا".

> بشكل مباشر من قلب حروب الطبيعية, من المجاعات و الموت يظهر أكثر الأشياء غرابة و رفعة نستطيع أن نتخيلها, ألا وهي ظهورالحيوانات الراقية. هنالك الكثير من العظمة في هذهِ الرؤيا للحياة بكل أنواع القوى فيها و حصلت على الروح في بعض الانواع و ربما نوعاً واحداً, و بداية من أبسط الاشكال البدائية, تطورت أعداد لامنتهية من الصور و الاشكال الرائعة. بينما هذا الكوكب أستمر بالدوران في مساره تماشياً مع قوانين الجاذبية الغير متغييرة.

كتب كارل ساغان في كتابه **النقطة الزرقاء الفاتحة:**

> أعجب أنه لم يحصل قط أن نظر دين ما الى العِلمْ و أستنتج "ذلك أفضل مما ظننا ! الكون أكبر و أعظم بكثير بل أدهى و أشد أناقة بكثير مما أخبرنا عنه الانبياء"؟ بدلا عن ذلك يقولون "لا, لا, لا! ألهي هو ذلك ألإله الصغير و أريد له أن يبقى كذلك". لو أن ديناً ما قديما أو حديثا قد أصر بشدة على الدهشة بعظمة الكون كما كشفهُ العِلمْ الحديث لحصل ربما على قدر كبير من التقديس بدون أي ضرورة لوجود أي نوع من الأيمان التقليدي المتعارف عليه.

كل نهايات كتب ساغان تصيب نهايات الاعصاب و تسبب دهشة متعالية كانت حكرا على الدين في القرون الماضية. كتبي كذلك تطمح لنفس الشئ. خلاصة يتم غالباً وصفي بالتدين. كتبت احدى الطالبات ألأمرَيكيات عن رأي بروفيسور لها عندما سألته عني. "**من المؤكد أن علمهُ لايتطابق مع الدين. لكنه مشمع بنشوة عارمة عن الطبيعة والكون. و هذا تدين بالنسبة لي.**" لكن هل الدين هو الكلمة المناسبة؟ لا أعتقد ذلك. هذه النقطة تكلم عنها حامل جائزة نوبل للفيزياء (المُلحِد) ستيفن واينبرغ في **الحلم بالنظرية النهائية:**

يحمل البعض رؤيا عريضة ومرنة جداً عن الله ومن المحتم انهم سيجدون الله أينما بحثوا. نسمع أقوالا مثل "الله هو النهائي" أو "الله هو طبيعتنا المثلى" أو "الله هو الكون". بدون شك, يمكن أن نعطي كلمة الله ,تماماً مثل أي كلمة أخرى, أي معني نريده. عندما تقول أن "الله طاقة" فسنجده أذن في قطعة الفحم.

وآينبرغ على حق بدون أدنى شك و حتى لاتكون الكلمة "الله" عديمة المعنى و بدون فائدة علينا أن نضع لها تعريفاً عاماً يفهمهُ الجميع: كلمة تدل على خالق من عالم ماوراء الطبيعة و " شئ جدير بأن نتوجه له بالعابدة".

الكثير من اللغط والحيرة سببها الفشل في التمييز بين ما نسميه الدين الآينشتايني من الدين الغيبي. استعمال آينشتاين لكلمة الله (وهو ليس المُلحِد الوحيد الذي فعل ذلك) بتضرع كان ولايزال سبب لسوء الفهم من قبل العديد من الغيبيين المُتدينين والمتلهفين لسوء الفهم ليستطيعوا الادعاء بأن ذالك العالم اللامع كان واحِداً منهم. كذلك النهاية الدرامية (هل كانت مؤذية ايضاً؟) لكتاب ستيفن هاوكينج تأريخ موجز للزمان. " وبذلك نعرف مكنونات تفكير الاله" يساء فهما بشكل مقصود. وسبب ذلك الاعتقاد (الخاطئ طبعاً) عند البعض بأن هاوكينج رجل مُتدين. عالمة البيولوجيا الخلوية ارسولا غودنوف, في كتابها المقدسات في اعماق الطبيعة, تبدو أكثر تديناً من هاوكينج وآينشتاين. انها تحُبّ الكنائس والمساجد والمعابد, و بعض العبارات في كتبها تبدو وكأنها تتوسل لان تجتزأ من المحتوى العام وتستخدم كذخيرة للمُتدينين الغيبيين. بل تفعل هي أكثر من ذلك بأن تدعو نفسها "مُتدينة نصيرة للطبيعية". و لكن قراءة دقيقة لكتبها تكشف بأنها في الحقيقة مُلحِدة قوية مثلي.

"نصير الطبيعة" كلمة تحمل عدة معاني. وبالنسبة لي فإني اناشد بطل طفولتي, دكتور دوليتل للكاتب هوغو لوفتينغ (والذي له تأثير أكثر من ملموس في موضوع "الفلسفة الطبيعية"). لاتزال كلمة طبيعي تعني ماكانت تعنيه الكلمة في القرنين الماضيين: دارس للطبيعة. ومنذ عهد جلبرت وايت في هذا السياق كان معظم الطبيعيين رجال دين. كان من المقدر على داروين نفسه أن يلتحق بخدمة الكنيسة, أملاً منه بأن حياة الرغد الريفية سوف تعطيه

الامكانية لمتابعة شغفه بالخنافس. و لكن الفلاسفة يستعملون كلمة طبيعي بطريقة مختلفة تماما كمضاد لكلمة "ماوراء الطبيعي". جوليان باغيني يشرح في كتابه "الإلحاد: تعريف قصير جداً" المعنى وراء التزام المُلحِد بالطبيعية: "**ما يؤمن به غالبية المُلحِدون هو انه على الرغم من أن الكون مادي بحت فإن العقل و الجمال و العواطف و القيم الأخلاقية و بإختصار كُل ما في سلسلة الظواهر التي تعطي الحياة الأنسانية قيمتها قد انبثقت منه**".

أن عواطف وافكار الأنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ. والمُلحِد في هذهِ الحالة بنظر الفيلسوف الطبيعي هو شخص لايؤمن بأن هُناكَ شي ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي و ليس هُناكَ من خالق متفكر ماوراء الطبيعة يتسنط من وراء الكون, ليس هُناكَ روح تبقى بعد بلاء الجسد و لا معجزات لكن هُناكَ الآن بعض الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعد. وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيرات لهذه الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية. أن معرفتنا لأسباب تكون قوس قزح لا يقلل ذلك من روعته وجماله, هذا هو العلم.

عندما نفحص بعمق أيمان العُلماء الكبار في ايامنا والذين يبدون كمُتدينين في بعض الاحيان, نرى بأنهم ليسوا كذلك. وهذا بالتأكيد صحيح في حالة آينشتاين وهاوكينج. عالم الفضاء المعاصر ورئيس الجمعية الملكية الحالي, مارتن ريس, قال لي بأنه يذهب للكنيسة "كإنجيلي **كافر... وفقط بسبب ما اطلق عليه تسمية الولاء القبلي**". لايؤمن بالمعتقدات, ويستفزه الاحساس الشاعري تجاه الكون ككل الطبيعيين الذين نوهت عنهم. و في معرض المناقشات التلفزيونية تحديت صديقي طبيب التوليد روبرت وينستون, أحد اركان الجالية اليهودية في إنجلترا, بأن يهوديته هي جزء من شخصيته وانه لا يؤمن بأي شئ ماوراء طبيعي. وكان على قاب قوسين أو أدني من ألإعتراف بذلك و لكن تغلب عليه خجله في النهاية (الحق يقال, كان من المفترض أن يجري هو المقابلة معي و ليس العكس). عندما ضغطت عليه, قال بأنه وجد أن الالتزام باليهودية ساعده على تنظيم حياته وجعلها جيدة بشكل أو بآخر. ربما كان ذلك صحيحا و لكن, بالطبع, ليس لهذا أي صلة بمصداقية الغيبيات. هُناكَ العديدين من اللامعين المُلحِدين والذين يلقبون انفسهم باليهود ويؤدون الطقوس اليهودية, ربما بسبب الولاء لتقاليد قديمة أو

لأقارب قتلوا, و لكن أيضاً بسبب الحيرة والسعي لطمغ صفة "مُتدين" على العلامة المميز و المستحق للاحترام الابدي البرت آينشتاين. ربما انهم لايؤمنون بالاله و لكن, هنا استعير عبارة دان دينيت, "يؤمنون بالأيمان"

احدى اشهر العبارات التي نقلت عن آينشتاين "علم بدون دين هو علم أعرج و دين بدون علم هو دين أعمى" لكنه قال ايضاً:

> ماقرأتموه عن موضوع تديني هو كذب بالطبع, كذبة تكررت بشكل مدروس. أنا لاأؤمن بالاله الشخصي و لم انكر ذلك أبداً بل على العكس ,فقد عبرت عن الموضوع بشكل واضح. لو كان في داخلي شي من الممكن دعوته بالدين فهو الاعجاب الغير محدود بهذا الكون المحكم بقدر ما قدرنا الكشف عنه بواسطة العلم حتى الان.

هل يناقض آينشتاين نفسه؟ بأن يعطينا كلمات نستطيع بها دعم الطرفين النقيضين؟ بالطبع لا. آينشتاين يعني بكلمة "الدين" شيئاً مختلفاً تماماً عن المعنى المتعارف عليه. سأسهب في توضيح الفرق بين الدين الغيبي و الدين الآينشتايني, ضع في الاعتبار دائما أن الآلهة الوحيدة التي سأدعوها بالوهمية هي ألآلهة الغيبية. هُناكَ بعض العبارات المنقولة عن آينشتاين لتعطينا فكرة عن نوعية الدين الآينشتايني.

> أنا مُتدين عميق بعدم الأيمان. وهذا بشكل ما نوع جديد من التدين. لم أنسب مطلقاً للطبيعة هدفاً أو دوراً أو أي شي ممكن يمكن فهمه بشكل سرمدي. ما أراه في الطبيعة هو بناء مدهش و نحن نفهمهُ بشكل ناقص على أحسن الاحوال, هذا ما يملأ المفكر التواضع بالنشوة. هذا بشكل عام شعور تدين بدون أن يكون له علاقة بالروحانيات.

> فكرة ألإله ألشخصي فكرة غريبة تماماً عني بل و أعتبرها ساذجة ايضاً.

ومنذ وفاته و المُتدينون بالطبع يحاولون الادعاء بأنهُ واحد منهم و بأعداد متزايدة. لكن المُتدينين المعاصرين له كانت لهم وجهة نظر مختلفة بشكل كبير. في عام 1940 كتب آينشتاين مقالاً يبرر فيه مقولته "لا أؤمن بالاله الشخصي" تلك المقالة وغيرها أثارت سيلاً عاصفاً من ردود الفعل من المُتدينين, والكثير منهم لمح لاصله اليهودي. المقاطع التالية مأخوذة من كتاب آينشتاين والدين (والذي هو مرجعي الاساسي عن المقولات المنقولة عن آينشتاين في موضوع الدين. قال أسقف الكاثوليك في مدينة كنساس: "من المحزن أن نرى رجلاً يعود أصله لقوم العهد القديم و تعاليمه ينفي التعليمات العظيمة لذويه". قسيس آخر استغل الموقف: "ليس هُناكَ من إله شخصي! .. آينشتاين لا يدرك ما يقول. وهو مخطئ كلياً. البعض يعتقد بانه يحق لهم أبداء الرأي في كُل شي فقط لانهم قد وصلوا لدرجة عليا في أحد الفروع العلمية". الفكرة بأن الدين هو أحد الأختصاصات و التي يحق للبعض أن يدعي الخبرة بها لن تمر بدون علامة أستفهام. القسيس أعلاه لا تتم الاشارة له كـــ"عالم بالجن" لخبرتهِ في أنواع و ألوان الجن هنا. كل القسيس والأسقف هنا يعتقدون بأن كون آينشتاين لم يدرس اللاهوت يعني انهُ قد فهمَ طبيعة ألإله بشكل خاطئ. الحقيقة عكس ذلك تماماً, آينشتاين يعرف تماما ماذا نوع الأله الذي ينفيه.

أحد المحامين الكاثوليكيين ألأمريكان و الذي يعمل لصالح منظمة تحالف الموحدين الدولية كتب لآينشتاين:

> نأسف جداً لتصريحك... والذي فيه تسخر من فكرة ألإله الشخصي. في خلال العشر سنين ألأخيرة لم يكن هُناكَ ما اعطى مبررا لهتلر لطرد اليهود كتصريحك هذا. أعترف بحقك في حرية التعبير بالرغم من ذلك أعتبر تصريحك أعظم مصدر للنزاع في أمريكا.

حاخام نيويورك صرح بما يلي: "**آينشتاين بلا شك عالم حاذق و لكن وجهة نظره الدينية تناقض تماما الدين اليهودي**". "لكن"؟ لماذا "لكن"؟ لماذا ليس "و".[1]

1. لتصبح الجملة. عالم حاذق , ووجهة نظره الدينية الخ.... (المترجم)

عميد جمعية التأريخيين في نيوجرسي كتب رسالة أدانة صريحة لآينشتاين و فيها أكثر مما يمكن أن يكون فضيحة عن نقاط الضعف للعقل الديني, وتستحق القراءة مرتين على الاقل:

نحترم علمك د. آينشتاين و لكن يبدو أن هُناكَ شئ ما قد فاتك تتعلمه, ذلك بان الله روح و لا يُمكنك رؤيته بالمرصاد الفلكي أو المجهر. تماماً كما لن تجد افكاراً و مشاعراً من تحليل الدماغ. كما يعرف الجميع فإن الدين مبني على الأيمان الغيبي و ليس على المعرفة. كُل شخص مفكر قد مر بفترة داهمتهُ فيها الشكوك الدينية. أيماني أنا بالذات قد أهتز في العديد من المرات. لكنني لم اجهر لأحد بضياعي ولسببين: (1). لخوفي من أن مجرد ألأقتراح يمكنه أن يدمر حياة و أمل أنسان ما. (2). لانني أتفق تماما مع الكاتب الذي قال: "هناك خيط من الخبث في أي أنسان من الممكن أن يُدمر أيمان أنساناً آخر" .. و كلي أمل يا د. آينشتاين أنه قد أُسيء فهمك و أنكَ سوفَ تقول شيئاً لأرضاء الشعب ألأمريَكي الذي يعزهُ فعلاً تشريفك بينهم.

ما أسوأ ماتكشفه هذهِ الرسالة! كُل جملة فيها تقطر بالجبن الفكري والأخلاقي.
الخباثة أقل و لكن الصدمة أكبر في رسالة من مؤسس جمعية معبد الجمجمة في اوكلاهوما.

بروفيسور آينشتاين, أنا أؤمن بأن كُل مسيحي في الولايات المتحدة سيجبيك "لن نترك أيماننا بإلهنا و أبنه المسيح عيسى و ندعوك جميعا بأن تعود من حيث أتيت إذا لم تؤمن بإله هذهِ ألأمة". لقد باركتُ أسرائيل بكل ما في طاقتي و ألآن تأتي أنتَ و بجُملة واحدة مِن لسانك الكافر لتُسبب أذٍ كبيراً لشعبكَ و أكبر من أن يستطيع المُحُبّون لإسرائيل و الساعين لإخماد المعاداة للسامية تحملهُ في ارضنا.

بروفيسور آينشتاين, كُل المسيحيين ألأمرَيكيين سيجيبونك مباشرة "خذ نظريتك المجنونة و الخاطئة عن التطور و أرحل بها عائداً لألمانيا من حيث أتيت و ألا فعليك أن تتوقف عن محاولة هز أيمان الشعب الذي رحب بك عندما أُجبرت على الهرب من بلدك".

الشئ الوحيد الذي أصاب به المؤمنون كان بأن آينشتاين ليس واحِداً منهم. كان ساخطاً دائماً على الاقاويل التي تحاول وصمهُ بالأيمان. فهل كان إلوهياً؟ كما كان فولتير وديدروت؟ ام كان خلوقياً, كما كان سبينوزا و الذي كان معجباً بفلسفته اشد الاعجاب: "**أنا اؤمن بإله سبينوزا و الذي يكشف عن نفسه بالتألف المرتب لكُل الموجودات, و ليس بالاله الذي يشغل نفسه بمصير البشر و تصرفاتهم؟**"

لِنتذكر التعريفات مجددا: المؤمن هو الذي يُفكر بأن هُناكَ خالق ذكي الذي بالاضافة لخلقهِ ألكون و ما فيه يشرف على كل ما يحصل و يتدخل في أحداث ما خلقه هو بالاساس. في العديد من ألانظمة الإلوهية, فالأله يتدخل بشكل حميم في أمور البشر. يستجيب للصلوات و يغفر و يعاقب الاخطاء. يتدخل في العالم بأعاجيب. يقضي بسوء و حسن الافعال و يعلم متى نفعلهم (ومتى نفكر بفعلهم ايضاً). الربوبي يؤمن أيضاً بالخالق الذكي و لكن نشاطاته كانت محدودة بصناعة و ضبط قوانين الكون و صياغتها. إلههُ لا يتدخل بعد ذلك في شئ و بالتأكيد ليس لديه أي اهتمام بأمور الأنسان. الطبيعيون لايؤمنون بالاله الغيبي بأي شكل و يستعملون كلمة الله للدلالة على الطبيعة أو الكون أو الاحكام و القوانين التي تعملان بها. الربوبيون يختلفون عن المؤمنين بأن آلِههم لايستجيب للصلوات و ليس له أدنى أهتمام بذنوبهم أو اعترافاتهم, لا يقرأ ألافكار و لايتدخل بمعجزاته النزوية. الربوبي يختلف عن الطبيعي بان إله الربوبي هو نوع من الوجود الكوني الذكي و قد قصد ما فعل بعكس الطبيعي الذي يطلق التسمية كبديل لقوانين الكون. الطبيعي من مشتقات المُلحِدين و الربوبي نوع مخفف من التدين.

لدينا الكثير من العبارت المشهورة لآينشتاين و التي تدل على أن آينشتاين كان طبيعياً و ليس ربوبياً مثل "ألاله خفي و لكنه ليس خبيث" أو "الاله لا

يلعب النرد"[1] أو "هل كان لله خيار في خَلقَ الكون؟" بالتأكيد لم يكن مؤمناً. يمكن تفسير "الله لا يلعب النرد" بـــ"العشوائية ليست من صميم الأشياء". و "هل كان لله خيار في خَلقَ الكون" يمكن تفسيرها بـــ"هل هُناكَ أمكانية لتكون بداية الكون مُختلفة عن التي كانت عليه؟" آينشتاين أستعمل كلمة الله بشكل مجازي و رمزي. نفس الشئ فعلهُ ستيفن هوكينج و الكثيرين من الفيزيائيين الذين عبروا بلغة الدين المجازية. باول دافيس في كتابه **عقل ألإله** يبدو بشكل ما بين طبيعية آينشتاين و الربوبية الغامضة. كتابه هذا أكسبهُ جائزة تمبلتون (مبلغ كبير من المال يدفع سنويا من منظمة تمبلتون عادة لعالم ما مُستعد لقول أشياء جيدة عن الدين).

دعني ألخص دين آينشتاين ببعض ما قاله هو نفسه: "ألاحساس بأن خلف ما نعرفهُ و نحس بهِ يوجد شيء ما لا نستطيع أدراكه و هذا ألشئ يمسنا بجماله و سموه بطريقة غير مباشرة و بشكل يكاد يكون غير محسوس, هذا شعور ديني. و أنا بهذا المعنى مُتدين". حسنا... بهذا المعنى فأنا مُتدين أيضاً مع التحفظ على عبارة "لا يمكننا ادراكه" والتي لا يجب أن تعني "لن يمكننا ادركه يوماً ما". لكنني لا أفضل نعت نفسي بالمُتدين بأي شكل لأن ذلك سيؤدي لسوء الفهم. حيث أن الدين يعني للغالبية المطلقة "الدين الغيبي". كارل ساغان عبر عن ذلك بطريقة جيدة: "لو عنينا بكلمة ألإله مجموعة القوانين التي تحكم الكون, فهذا ألإله موجود بالتأكيد و لكن مثل هذا ألإله لن يشبع رغباتنا العاطفية... لأنهُ من غير المنطقي أن تصلي و تطلب غفران الخطايا من قانون الجاذبية".

المدهش هنا أن المعنى الذي نوه له ساغان كان بمثابة انذار من الماضي حيث عام 1940 عندما نوه اليه البروفيسور د. فالتون شين, المرسوم كبروفيسور قس في الكلية الكاثوليكية في أمريكا, كجزء من هجومه الشرس في الرد على مقولة ألإله الشخصي لآينشتاين. شين سأل بسخرية فيما إذا كان هُناكَ من يريد وهب حياته لمجرة درب التبانه. ظن بأنه في ذلك يناقض مقولة آينشتاين و لكن هذا في الحقيقة دعم لها, حيث انه يستطرد قائلا: "هُناكَ خطأ واحد في دينه الكوني, حرف واحد فقط"[2]. في الحقيقة انه لاشي كوميدي

1. رد آينشتاين الشهير على النظرية الكمية التي لم يقدر التصديق بها. (المترجم).
2. تلاعب بالالفاظ الانكليزية (COSMIC و COMIC). (المترجم.)

في معتقدات آينشتاين. لكن و على كافة الاحوال آمل أن يتوقف الفيزيائيون عن إستعمال كلة الله بمعناها المجازي. الله المجازي للربوبيين هو بعيد بسنين ضوئية عن الله التقليدي للمؤمنين و معجزته و تدخله في حياة الأنسان وعقابه على ألذنوب أو استجابته للصلوات, وكل ما يعنى به في اللغة المحكية. أن خلط الاثنين معا في رأيي هو خيانة فكرية على أعلى المستويات.

إحترام غير مُستحق

وهذا كل شئ". "لم لا يحق لأحد؟ لانه لا يحق لأحد أنتقادها". عندما يصوت أحدهم لحزب لاتتفق أنتَ مع أفكاره فبأمكانك مناقشة ذلك قدر ما تشاء, كُل لديه فكرة يطرحها بدون أن يسبب الحزن لأحد. عندما يفكر أحد ما أن الضرائب يجب أن تخفض أو ترفع فأنك حر في مناقشته بذلك. لكن من جهة أخرى و عندما يقول أحد ما "أنا لن أشعل مصباح الكهرباء يوم السبت" يجب عليك ان تقول "و أنا احترم ذلك".

لماذا من المقبول جداً أن ندعم حزب العمل أو حزب المحافظين, الجمهوريين أو الديموقراطيين, هذا المخطط الاقتصادي أو ذاك, ماكنتوش أو ويندوز – لكن عندما نصل للتساؤل عن أصلِ الكون, عن من خلقه... لا.. هذا مُقدس؟ لقد اعتدنا عدم مناقشة الافكار الدينية و لكن من المدهش أن نرى كمية الغضب التي سببها ريتشارد[1] عندما ناقش هذا الموضوع!. الكل أصبح مسعوراً و حساساً, لأنك لاتستطيع قول شئ كهذا. لكن لو نظرت للموضوع بتعقل فلن ترى من سبب يمنع أفكاراً كهذه من أن تكون موضوعاً للنقاش العام أقل أو أكثر من غيرها, عدا أتفاقنا بشكل ما على أن شيئا كهذا لايجب فعله.

اليكم هذا المثال عن غرور مجتمعنا بأحترام الدين, مثال مهم فعلاً. التدين هو الطريق الاسهل للحصول على ألإعفاء من الخدمة العسكرية في زمن الحرب و يتم تصنيفه كأستعفاء أحتراماً للمشاعر الدينية. بإمكانك أن تكون فيلسوفاً لامعاً بأطروحة دكتوراه نالت العديد من الجوائز و تشرح فيها شرور الحرب و على الرغم من ذلك ستواجه وقتاً عصيبا أمام لجنة الخدمة الالزامية عند تقييم طلبك للأستعفاء. لكن لو قلت بأن أحد أو كِلا أبويك ينتميان لجمعية الكواكريين[2] لأعفيت على الفور و لن يكون هنالك أي اعتبار لعدم كفائتك أو معرفتك بحجج الدفاع السلبي و لا حتى طبعاً بالنظرية الكواركية نفسها.

---

1. يقصد الكاتب ريتشاد دوكنز.
2. جمعية مسيحية مناهضة للعنف أسِست في القرن السابع عشر. (المترجم)

على النقيض من ذلك, هُناكَ تردد جبان من وسم فصائل متقاتلة بأسماء دينية. في شمال ايرلندا يسمون الكاثوليكيين والبروتستانتيين بـــ "القوميين" و "المحافظين". نقحت الكلمة "دين" بشكل ما لتعني "المجموعة" كما هو الحال في كُل الحروب الداخلية. العراق و كنتيجة للغزو ألأمرَيكي- البريطاني في 2003 تفسخ الى مجموعات طائفية في حرب مذهبية بين السنة و الشيعة. هذا أوضح الأمثِلة على النزاع الديني بالرغم من ذلك فإن جريدة الاندبندنت في عددها الصادر في 20 أيار 2006 و بالخط العريض على الصفحة الاولى وصفت ما يحصل بـــ"التطهير العرقي". أرادو تلطيف الموضوع بإحلال كلمة عرقي, بينما ما نراه في العراق هو تطهير ديني واضح. التلطيف لهذه الكلمة بدأ أصلا في "التطهير العرقي" الذي وصمت به الحرب في يوغوسلافيا جدلاً لتعني تطهير ديني أطرافهُ الصرب الارثوذوكس و الكروات الكاثوليك و البوسنيين المسلمين.

لقد نوهت سابقا لنقطة الدعم الذي يلقاه الدين في مناقشات عامة عن الأخلاق في الاوساط الاعلامية و الحكومية. عند نشوء أي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس أو ألأنجاب فإنه من المؤكد أن قادة الفصائل الدينية من مختلف الاتجاهات سيكونون أحد الاطراف في لجنة النظر في هذا الخلاف أو في أي برنامج يناقش هذا الموضوع في الراديو أو التلفزيون. أنا لا اقترح هنا أن نكمم أفواه هؤلاء أو نستبعد وجهة نظرهم من المجتمع. و لكن أسأل, لماذا يطرق مُجتمعنا باب هؤلاء و يعتبر أن لديهم الخبرة في مواضيع كهذه بل ويضع آرائهم جنبا لجنب آراء الفلاسفة و المحامين و الأطباء؟

هاكم مثالاً عجيباً آخر على الامتيازات التي تتمتع بها الاديان. في 21 شباط 2006 و في المحكمة العليا في الولايات المتحدة صدر الحكم بأستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الاخرين جميعاً, ضد تناول عقار للهلوسة. أعضاء هيئة "آسبريتا بييفسينته أونياو دو فيجيتال" يعتقدون بأنهم يتواصلون مع الله فقط عندما يتناولون نوعا من شاي الهواسكا و الذي يحتوي على عقار الهلوسة الغير قانوني و الممنوع أستخدامه و أسمهُ العلمي ديميثيلتريبتامين. لنلاحظ بأنه من الكافي أن **يعتقدوا** بأن المُخدر يؤدي لتحسين توآصلهم. ليس عليهم أن يقدموا أي ادلة على ذلك. بل على العكس

من ذلك هنالك العديد و العديد من الاثباتات على أن نبات القنب الهندي[1] يخفف من الآلام و معاناة المصابين بالسرطان الخاضعين للمعالجة الكيميائية. لكن المحكمة العليا حكمت في 2005 بأن كُل الذين يستعملون نبات القنب لأغراض صحية مُعرضون للاتهمام و الملاحقة القانونية (حتى في الولايات القليلة التي تسمح قوانينها المحلية بهذه الممارسة). الدين, كالعادة صاحب ورقة اليانصيب الرابحة. تخيل أعضاء مجموعة من المُشتغلين بالفن يدعون في محكمة ما بأنهم بحاجة لعقار مهلوس ليحسن فهمهم للوحات الانطباعيين أو السرياليين. لكن عندما تطلب الكنيسة ذلك فأنها تلقى الدعم من أعلى هيئة قانونية في الدولة. هذا مثال على القوة السحرية للدين.

منذ سبعة عشر عاماً, كنت أحد أعضاء لجنة مكونة من 36 كاتِباً و فناناً مكلفين من مجلة نيو ستايسمان بكِتابة مقال لدعم الكاتب المميز سلمان رشدي و الذي هُدِرَ دمهُ لكتابته رواية آيات شيطانية [2]. أستبد بي الغضب وقتها من "التعاطف" ضد "أيذاء" مشاعر المسلمين و التهجم الذي أبداه بعض القيادات المسيحية و حتى بعض العلمانيين و أستنتجت الخلاصة التالية:

> لو أن دعاة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا أستعملوا ذكائهم و أدعو- بصدق كالعادة - بأن خلط الاجناس يتعارض مع دينهم لأنسحب قسم كبير من معارضيهم على رؤوس أصابعهم. الأدعاء بأن هذا التشبيه في غير محلهِ لن يفيد هنا, فالعنصريين لا يملكون تفسيراً مَنطقياً لنظريتهم. كذلك موضوع الأيمان الديني و قوته و أنتصاراته قادمة من أنه لا يملك بدوره أي تفسير منطقي. لكن من المتوقع منا "نحن الآخرين" أن نُبرر إجحافنا بحقه. لكن لو سأل أحدنا أحد المُتدينين أن يبرر تدينه لأتهمنا بأننا ننتهك "حرية الاديان".

لم أتوقع وقتها بأن شيئا مُماثلا سيحصل في القرن الواحد والعشرين. لوس انجلوس تايم 10 نيسان 2006 كتبت تقريراً عن اعداد من مجموعات مسيحية في البعض من المُدن الجامعية في الولايات المتحدة أقاموا دعوات

1. **القنب الهندي او البانجو** Cannabis **:نبات ذو تأثيرات مخدرة ينتشر في البلدان العربية بعدة أسماء. (المترجم)**
2. **تستطيع قرآءة المقال في صحيفة** 'The irrationality of faith', New Statesman (London), , 31 آذار 1989 .

قضائية ضد جامعاتهم لأن الجامعات فرضت قوانين منع التمييز فيها, مما يتضمن عدم مضايقة المثليين أو التحامل عليهم. اليكم مثال آخر 2004, جيمس نيكسون, صبي في الثانية عشرة من العمر من أوهايو, ربح بواسطة القضاء الحق في أرتداء قميص تي شيرت يحمل الكلمات التالية "**المثلية خطيئة, الاسلام كذبة, الاجهاض جريمة.** بعض الأشياء فيها أسود و أبيض فقط". المدرسة طلبت منهُ أن لا يلبس هذا القميص فرفع أهلهُ دعوة قضائية على المدرسة. ربما سيكون للأهل الحق لو بنوا قضيتهم على البند الاول من الدستور و الذي يعطي الحق بحرية الرأي. لكنهم لم يفعلوا ذلك. بدلاً لحرية الرأي طالب مُحامي العائِلة في دعم قضيته ألأعتماد على قانون حرية الاديان. النصر في هذهِ القضية كان مدعوما من "جمعية الاصدقاء المدافعين" في آريزونا, وهي جمعية هدفها الضغط لربح "المعارك القانونية لحرية الاديان".

رجل الدين ريك سكاربوروغ و بدعمه لموجة القضايا المسيحية القضائية وصل لحد المطالبة باعتبار الدين سبباً كافياً لمُمارسة التمييز العنصري ضد المثليين و المجموعات الاخرى و سمي هذا بحركة (التحرير للقرن إلحادي و العشرين). "**المسيحيون سيجبرون على أخذ موقف للدفاع عن حقهم ليعيشوا كمسيحيين**". مرة أخرى, لو أن هؤلاء أعتمدو في موقفهم على مبدأ حرية التعبير فلربما حصلوا على "تعاطفنا" بشكل أو نوع ما. لكن ليس هذا لب الموضوع. فالقضية المرفوعة لصالح التمييز العنصري ضد المثليين رُفعت على أساس إنها دعوى ضد دعوى مزعومة تطالب بالتمييز العنصري ضد المُتدينين! يبدو أن القانون أحترم هذا. لن يفلت أحد من القانون فيما لو أدعى "أذا حاولت منعي من إهانة أنسان مثلي جنسيا فأنت تحرمني حقي بأمتلاك أفكار جاهزة عن الاخرين". لكنك تفلت حتما لو قلت أن هذا المنع يؤثر على "حريتي في ممارسة عقيدتي". لنفكر ماهو الفرق هنا؟ هل ترى؟ مرة أخرى, الدين هو البوق الاعلى صوتا.

سأنهي هذا الفصل بدراسة تلقي المزيد من الضوء على المغالاة من قبل المجتمع في إحترام الدين و جعلهِ فوق كُل مستويات الاحترام للأنسان. قضية أحدثت ضجة في شباط 2006, قضية سخيفة تأرجحت بين الكوميديا والتراجيديا. في شهر ايلول من عام 2005 أصدرت صحيفة جيلياند بوست

أثني عشر رسماً كاريكاتورياً يصورون به النبي محمد. خلال الثلاثة أشهر التالية و بطريقة مدروسة بدقة تم أشعال نار النقمة و الغضب عبر العالم الإسلامي من قبل مجموعة صغيرة من المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك و بقيادة إمامين أثنين كانوا قد مُنِحوا حق اللجوء فيها. في نهاية 2005 سافر هذان اللاجئان الحقودان من الدانمارك الى مصر ومعهم ملف طبع و وزع من هُناكَ لكل العالم الاسلامي, ومن ضمنه اندونيسيا لأهميتها.[1] المصنف تضمن معلومات باطلة عن المعاملة السيئة التي يتلقاها المسلمون في الدانمارك و الكذبة العجيبة و التي تقول بان صحيفة جيليلاند بوست هي صحيفة حكومية. يتضمن الملف أيضاً الرسوم الاثني عشر و التي أضاف لها الأئمة ثلاث صور أخرى غير معروفة الاصل و لكن بدون شك ليست لها أي صلة بالدانمارك. هذه الرسوم الثلاث كانت بحق أكثر هجومية من الرسوم الاخرى – أو بالاحرى ستكون أكثر هجومية لو كان القصد فيها محمد كما أدعى دعاتنا المتحمسون. إحدى هذهِ الصور و الأكثرها هجومية لم تكن رسم كارتوني على الاطلاق بل كانت صفحة مرسلة بالفاكس فيها صورة رجل ملتحي يلبس أنف خنزير بلاستيكي مربوط بمطاطة. بالنتيجة و بعد التحريات كانت هذهِ الصورة مأخوذة من الاسوشيتد برس وهي عبارة عن صورة رجل فرنسي يشترك في مسابقة محلية لتقليد صوت الخنازير في أحد مسابقات القرى في فرنسا. ليس لتلك الصورة علاقة بالنبي محمد أو حتى بالاسلام على الاطلاق و بالتأكيد لاعلاقة لها بالدانمارك ايضاً. لكن هؤلاء المسلمون المتحمسون رتبوا كُل شي لرحلتهم المُضِلِلة للقاهرة مع معرفة مسبقة بالنتيجة.

هذه التكثيف المتقن للشعور بالحيف و الأهانة أدى الى أنفجار بعد حوالي خمسة شهور من نشر تلك الصور الاثني عشر في جيلاند بوست. متظاهرين في باكستان و أندونيسيا أحرقوا اعلام دانماركية (من أين أتو بها؟). بصيحات هستيرية طالبوا الحكومة الدانماركية بالاعتذار. (لماذا تعتذر الحكومة الدنماركية؟ فليست هي التي رسمت الرسوم أو نشرتها. الشعب الدنماركي شعب يعيش في ظل حرية كاملة للصحافة, وهذا بحد ذاته صعب الاستيعاب بشكل كبير للكثيرين ممن يعيشون في البلدان الاسلامية). تضامناً مع الصحيفة الدنماركية أعادت صحف سويدية و نرويجية و فرنسية و حتى

1. HTTP://GATEWAYPUNDIT.BLOGSPOT.COM/2006/02/ISLAMIC-SOCIETY-OF-DENMARK-USED-FAKE.HTML

أمريكية (لكن و لا صحيفة بريطانية) نشر الصور مما أدى لسكب الزيت على النار. فخربت سفارات و قنصليات و قوطعت البضائع الدنماركية و تعرض الدانماركيين خصوصاً و الغربيين عموماً لتهديدات و أحرقت كنائس مسيحية في باكستان ليس لها أي علاقة بالدنمارك أو حتى أوروبا. تسعة أشخاص قتلوا في الهجوم الذي قام بهِ متظاهرون ليبيون على القنصلية الايطالية في بنغازي. تماماً كما كتب جرمان غرير[1], مايحبهُ هؤلاء و يجيدون فعله حقيقة هو أثاره الضوضاء فقط.

احد الائمة في باكستان وضع مكافأة بقيمة مليون دولار ثمنا لرأس "الرسام الدنماركي على ما يبدو لم يعرف حتى أن هنالك أثني عشر رساماً لهذه الصور و بدون شك لايعرف بأن الصور الثلاثة الاكثر إثارة للغضب ليس لها أي علاقة بالدنمارك لامن قريب و لامن بعيد (بالمناسبة .. من اين سيأتي هذا الامام بالمليون دولار؟). في نيجيريا, أحرق المتظاهرون المسلمون عدة كنائس مسيحية و أستعملوا المناجل للهجوم و قتل مسيحيين (نيجيريين سود البشرة) في الشوارع. أحد المسيحيين تم وضعهُ في أطار سيارة و أغراقهِ بالبنزين و أُضرام النيران فيه. أُخِذت صور عديدة لِمُتظاهرين في أنجلترا وهم يحملون لافتات كتب عليها "لنذبح الذين أهانوا الاسلام", "أوروبا: ستدفعين الثمن و ستهدمين قريبا" إضافة الى و بدون أي سخرية أو مبالغة "أقطعوا رأس كُل من يقول بأن الاسلام دين عنف". لحسن الحظ كان لدينا قادتنا السياسيين بمتناول اليد و الذين ذكرونا بأن الاسلام دين السلام و المحبة الأنسانية.

على إثر ذلك أجرى الصحفي آندرو موللر مقابلة مع أشهر المسلمين "المعتدلين" في إنجلترا, السيد أقبال ساكراني[2]. ربما إنه معتدل في مقاييس المسلمين هذهِ الأيام و لكن بالنسبة لموللر فإن ما قالهُ يوم صدور فتوى هدر دم سلمان رشدي بسبب روايته لايزال مأخذاً عليه حيث قال "الموت قليلٌ بحقه". تصريحٌ مخزي جداً و يضعه على نقيض سلفه الشجاع و الذي كان أكثر من أثر في المسلمين في إنجلترا وقتها الدكتور زكي بدوي و الذي عرض على سلمان رشدي ملجأ له في بيتهِ. ساكراني صرح لموللر كم هو

---

1. INDEPENDENT, 5 FEB. 2006.

2. ANDREW MUELLER, 'AN ARGUMENT WITH SIR IQBAL', INDEPENDENT ON SUNDAY, 2 APRIL 2006, SUNDAY REVIEW SECTION, 12-16.

قلق من موضوع الصور الدنماركية. موللر كان بدوره قلقاً و لكن كما يبدو لإسبابٍ مُختلِفة: "**أنا قلق من أن رد الفعل السخيف و الغير متكافئ بالمرة مع موضوع نشر الصور في صحيفة دنمركية غير معروفة سوف يثبت .. بأن الاسلام و الغرب لا يمكن التوحيد بينهما**". من الجهة الاخرى كان ساكراني يمتدح الصحف الانكليزية لانها لم تعيد نشر الصور و جواب موللر على ذلك برأيي يعكس الحقيقة في تفكير كُل البريطانيين بأن "**تم منع نشر الصور ليس كنتيجة للتعاطف و الحساسية تجاه مشاعر المسلمين بقدر ماهو بسبب الخوف من أن تكسروا نوافذنا**".

ساكراني أستطرد بأن "**التقدير العميق لشخص النبي ,عليه الصلاة و السلام, من الاساسيات في العالم الإسلامي, والحُبّ والمودة له لا يُمكن التعبير عنها بالكلمات. أنها تذهب لأبعد من حُبّ الاهل و الاحباب و حتى الاولاد. ذلك جزء من الأيمان. وهناك تعليمات في الدين أن لا يتم تصوير النبي برسوم**" واستنتاج موللر كان كالتالي:

> يفترض أي مسلم بأن قيم الدين الاسلامي تعلو على أي شيء آخر. تماما كما يفترض أن المؤمن بأي دين آخر بأن طريقهُ هو الحقيقة و النور الذي يملكه هو وحده وما سواه. لو أختار البعض أن يحبوا واعظاً من القرن السابع أكثر من حبهم لعائلاتهم فهذا شأنهم و لكن لا أحد مجبر أن يأخذ أمراً كهذا بجدية...

لكن لو إنكَ لم تأخذ الموضوع بجدية و تصرفت حياله بإحترام فستكون مهدداً بالعنف لدرجة لم يعرفها أي دين منذ العصور الوسطى. لا أستطيع فهم ضرورة هذا العنف و هنا نوه موللر لإدعائهم ذاته بقوله: "**أيها المهرجون لو صح إنكم مقتنعين بأي شيء مما تدعون فإن هؤلاء الرسامين سيذهبون لجهنم في كُل الاحوال – أليس هذا كافيا لكم؟ لو اردتم أشعال غيرتكم و حماسكم على الاسلام و الاهانات التي يتعرض لها المسلمون فلتقرأوا تقارير هيئة العفو الدولية عن السعودية و سوريا**".

الكثيرون لاحظوا التباين بين إدعاء المسلمين الهستيري بجرح مشاعرهم و الجاهزية و السرعة التي قامت بها أجهزة الاعلام العربية نشر صور معادية

لليهودية. في أحد المُظاهرات في باكستان حملت امرأة ترتدي البرقع لافتة مكتوب عليها "ليبارك الله هتلر".

كردة فعل على هذهِ الضوضاء المسعورة قامت بعض الصُحف المحترمة بإستهجان العُنف و أقامت بعض الضجة الرمزية مطالبة بحرية الرأي. لكن بنفس الوقت أبدت "الاحترام" و "التعاطف" لــ"الاهانة العميقة" و"الاذى" الذي حل بالمسلمين و جعلهم "يعانون". لنتذكر أن "الاذى" و "المعاناة" المقصودين هنا لا يعنيان ممارسة العنف الجسدي و إلحاق الالم بشخص ما. ليس هنالك أكثر من بعض الحبر على ورق جرائد لم و لن يراها أحد خارج الدنمارك لولا الحملة المتعمدة لإثارة الفوضى التي دبرها هؤلاء.

أنا لست مع الاذى والاهانة لأي أنسان. لكنني لا أفهم سر هذهِ الامتيازات الغير منطقية التي يتمتع بها الدين في ما نسميه بمجتمعاتنا العِلمانية. على كُل السياسيين أن يعتادوا رؤية رسوم ساخرة لوجوههم, لاأحد يهتز للدفاع عنهم. ماهو الشي المميز للدين و الذي يجعلنا نعطيه نوعا فريدا من الاحترام؟ أذكر ما قاله مينكين في هذا الصدد: "**عليك بأحترام دين ألآخر و لكن ليس أكثر من احترامك لأعتقاده بأن زوجته جميلة و أولاده اذكياء**".

في ضوء هذهِ النظرية الفريدة لأحترام الدين[1] سأبدأ أولا بالقول: لن أكلف نفسي من أجل جرح أو أهانة ما و لكن في نفس الوقت لن أعطي أعتبارات للدين لا أعطيها لاي موضوع آخر. لن أعامل الدين بطريقة مختلفة عن معاملتي لاي شي آخر.

1. في حادثة مثيرة للعجب كمثال لهذا "الاحترام" قرأتها في نيويورك تايمز. في كانون الثاني 2007 عندما قدمت امرأة المانية مسلمة بتقديم طلب تطليقها للمحكمة مع الاشارة الى أنها تعيش في عنف أسري منذ بداية زواجهما. القاضي كريستيا داتس وينتر لم تنكر الحقائق التي أكدت بأنها تتعرض للعنف الاسري ولكنها رفضت طلب المرأة بناء على تعاليم القرآن. " في قرار جدير بالاهتمام و الذي يظهر بوضوح التعارض بين العادات الاسلامية و القوانين الاوربية كتبت قاضية المحكمة بأن الزوجان قادمان من بيئة مغربية حيث أن العنف الاسري هناك ليس بالظاهرة الغريبة. القرآن نفسه يضمن العنف الجسدي تجاه المرأة". هذه القصة المحزنة لم تكن لترى الضوء لو لم يقم محامي تلك المرأة المسكينة من نشر الفضيحة القضائية هذه حيث تم عزل القاضية داتس ونتر من القضية, مع ذلك ينهي الصحفي الخبر بان هذه القضية سوف تؤثر بشكل سلبي جداً على كل النساء الذين يتعرضون للعنف الاسري في منازلهم. " الكثير منهن يعيشن في خوف كبير من مقاضاة رجالهن امام القضاء, هناك حالات من جرائم الشرف حيث يقوم بعض الرجال بقتل النساء أو البنات. أن حكم داتس و نتر يتم الاشارة له بانه كان من اجل "احترام الاختلافات الثقافية" ولكن هناك اسم آخر وهو " أستعلاء وقح" حيث "تحن" الاوربين لن نحلم بأننا سوف نتصرف يوماً ما هكذا تجاه نسائناً ولكن العنف الاسري جزء من "ثقافتهم" هم و حق من حقوقهم الــ " دينية" هم و يجب علينا "أحترامه".

الفصل الثاني

لا جدال بأن إله العهد القديم[1] هو من أسوأ الشخصيات الادبية: غيور و فخور بذلك و يدقق بالتوافه و ظالم و غير عادل و متسلط قاسي و منتقم و متعطش للدماء و مميت للأعراق و كاره لِلنساء و المثليين و عنصري و قاتل لِلأطفال و الشعوب و قاتل للأبناء و مسبب للامراض و مصاب بجنون العظمة و سادي و ماسوشي و نزوي و حقود شرس يضرب بذات اليمين و الشمال دون حساب. العديدين مِنا والذين تم تلقينهم منذ الطفولة عنه أعتادو على إرهابه. لو أخذنا وجهة نظر طفل ما قد نعتبره ساذجاً بأمور الدين لرأيناها أوضح بعض الشئ. بشكلٍ ما إستطاع راندولف نجل ونستون تشرشل تدبر أمره ليبقى جاهلاً بالنصوص المقدسة حتى اليوم الذي راهنتهُ فيه ايفلين فوش و ضابط آخر معه في الخدمة خلال الحرب بأنهُ لن يستطيع قراءة الكتاب المُقدس كله خلال أسبوعين و عن ذلك يقول الضابط: "**لِخيبة الأمل لم نَحصل على النتيجة التي أمِلناها. أنه لم يقرأ أياً من الكتب الدينية مسبقا و الان, يواظب على القراءةِ بحماس و أحيانا بصوت عال, أراهن بأنك لم تكن لِتعرف بأن هذا مذكور في الكتاب المقدس**" أو يضرب على ساقه براحة يده و ويتأفأف "**يا ألهي .. ما أحقر الله**". توماس جفرسون – قارئ أفضل عن هذا الموضوع – كان رأيه مشابها: "**الاله الانجيلي شخصية مرعبة, قاس و منتقم و نزوي و ظالم**".

ليس من العدل أن نهاجم هدفاً سهلا كهذا. نظرية ألإله لا يجب أن تسقط أو تثبت من خلال أبشع التشخيصات للأله بشخص "يهوه" ولا من خلال الوجه المسيحي المُخفف المعاكس له, "**يسوع اللطيف الوديع و المعتدل**". **(**لنكن عادلين و علينا أن ننوه بأن الشخصية المخنثة التي يوصف بها المسيح تدين لاتباعه من العصر الفيكتوري أكثر منه شخصياً, هل يمكن لأي شئ أن يكون مثيراً للغثيان كتصريح السيدة س. ف. الكسندر "**الاطفال المسيحيين يجب أن يكونوا لطيفين و مطيعين و جيدين كما كان هو**"؟**)** لن أهاجم أي من المواصفات المُحددة ليهوه أو المسيح أو الله أو أي إله آخر مثل زيوس[2] أو بعل[3] أو أودن[4]. سأعطي تعريفا مُحدداً للإله في البدء: **يوجد هُناكَ قدرة**

---

1. **يتكون العهد القديم من 46 كتاباً يطلق عليها أسم أسفار, هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدس و يحتوي على جميع كتب اليهود بما فيها التوراة (الكتب الخمسة الأولى). (المترجم)**
2. **إله السماء و الرعد في الميثولوجيا الاغريقية. (المترجم)**
3. **أحد الالهة السورية القديمة. (المترجم)**
4. **كبير الآلهة في الميثولوجيا الاسكندنافية. (المترجم)**

متوحدة خارقة للقدرات تعمدَت خَلقَ الكون وكل شيء فيه بما فيه نحن. هذا الِكتاب سيدافع عن وجهة نظر أخرى الا وهي: **أي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شئ لاتأتي ألا كنتيجة تراكم تدريجي طويل الامد لعملية تطورية.** أي تطورات للقدرات الخلقية يجب أن تكون بالضرورة قد حصلت في وقت مُتأخِر من تأريخ الكون و بالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تصميمه. بهذا المعنى فإن ألإله سيكون وهما و في فصل آخر سأبين بأنه وهم خبيث ايضاً.

بما إن ألأمرَ كلهُ مبني على تقاليد شعبية و رؤى شخصية عوضاً عن ادلة ثابته فأنه ليسَ من المُفاجئ أن يكون لِنَظرية ألإله عدة أصدارات. دارسي التأريخ الديني يعرفون عن هذا التطور لهذه السلسلة و الذي يبدأ بالروحانيات القبلية البدائية مروراً بتعدد الآلهة كالاغريقيين و الرومان و غيرهم حتى الوصول للتوحيد في اليهودية و مشتقاتها كالمسيحية والاسلام.

تعدد ألالِهة

كان التعصبُ للتوحيد ظاهِراً حتى فترة قريبة في قوانينِ التبرُعات في إنجلترا واسكتلندا, التمييز ضِدَ التعدُدية كان واضحاً في قوانينِ الإعفاء من الضرائب لمن أخذ على عاتقهِ الدعوة لدين توحيدي و عدم التدقيق الصارم و المطلوب في حالة التبرعات لجهات عِلمانية. أطمح بعض الاحيان في خيالي بأن أقنِعَ أحد اعضاء الجالية الهندوسية لرفع دعوى قضائية ضد هذا التكبر المعادي للتعددية.

الحلُ ألأفضل بالطبع هو أن نترك موضوع التبرعات للدعوة الدينية برمته. سيكون لذلك فوائد كبيرة و خصوصا في الولايات المتحدة حيث الاموال الممتصة من قبل الكنائس لتلميع أحذية الدعاة الانجيليين في محطات الدعوة التلفزيونية تصل لحد من الممكن وصفه بالبذائة بدون أن نكون ظالمين. الداعية أورال روبرتس قال لمشاهديه في التلفزيون بأن الله سوف يقتله أن لم يعطوه ثمانية ملايين دولاراً. وصدق أو لاتصدق, فقد حصل عليها, هذا و بدون ضرائب! روبرتس هذا يزيد قوة يوماً بعد يوم تماماً مثل جامعة "اورال روبرتس" في تولسا بأوكلاهوما و التي تقدر قيمة أبنيتها بـــ250 مليون دولار بنيت بتكليف من الله نفسه كما في الخطاب التالي: "حث تلاميذك حتى يسمعوا صوتي و ليخرجوا هناك حيث يشع نوري بشكل خافت و ليسمع صوتي كالهمس الى أقاصي حدود المعمورة. عملهم سيتجاوز عملك و عندها سأكون راضيا".

لهذا, فمن ألأفضل أن يلعب صديقي الهندوسي التخيلي لعبة "اذا لم يكن بإمكانك أن تهزمهم فألأفضل أن تنضم لهم". التعدُدية ليست في الحقيقة الا توحيداً متنكرا في شكل تعددية. هُناكَ إله واحد فقط. الرب براهما الخالق, أما الرب فيشنو الحافظ والرب شيفا المدمر و الربات ساراسفاتي و لاكسمي و بارافاتي (زوجات براهما و فيشنو وشيفا) والرب غانيش إله الفيلة و المئات الاخرين, فهم ليسوا الا تجسيدا و وجوها متعددة لهذا ألإله الواحد.

على المسيحيين أن يتعاطفوا مع مثل هذهِ السفسطة. فقد أرُيقت أنهار من الحبر أن لم نقل الدم أيضاً, في العصور الوسطى على "سِر" الثالوث المُقدس وأي تغيير فيه جوبه بالقمع كما حصل مع آريوس الاسكندري في القرن الرابع ميلادي, حيث انه أنكر أن يكون المسيح من جوهرِ ألإله. ربما أنت

تتسأل ألآن, هل هُناكَ معنى فعلي لجملة كهذه؟ جوهر؟ أي جوهر؟ ماذا نقصد بذلك؟ الأجابة ألأكثر أقناعا هي "لاشئ تقريبا". الخلاف على المعنى شطرالعالم المسيحي لمدة قرن كامل و أمر ألإمبراطور قسطنطين بحرق كُل كُتب آريوس. هذهِ طريقة اللاهوت منذ الازل... التفرقة.

هل هُناكَ إله بثلاثة اقسام أم ثلاثة آلهة في واحد؟ الموسوعة الكاثوليكية تشرح الاجابة في مقطع يشع فكرا وحكمة كمثال رائع للمنطق اللاهوتي:

> في رأس ألإله الموحد يوجد ثلاث اشخاص, ألإب و ألإبن والروح القُدس, كُل مميز عن الاخر. و لهذا, و في عقيدة أغناطيوس: ألآب إله و ألإبن إله و ألروح القُدس إله أيضاً و بالرُغم من ذلك فليس هُناكَ ثلاثة آلِهة بل هُناكَ إله واحد.

كما لو أن ماسبق لم يكن واضحا بشكل كاف. الموسوعة تضيف مقولة القديس غريغوري أبو المعجزات من القرن الثالث:

> ولهذا لايوجد أي شي مخلوق و لا مستويات بين الواحد و ألآخر في الثالوث المقدس. ولاشئ أُضيفَ لاحقا كما لو انهُ لم يكُن موجوداً سابقاً. ولهذا فإن الآب لم يكن ابداً بدون الإبن و لم يكن ألإبن بدون الروح القدس أبداً, وهذا الثالوث منيع للتغير والتبديل منذ الازل والى الابد.

مهما كان نوع المعجزات التي أكتَسبَ بها القديس غريغوري اسمه الحركي, فمن ألمؤكد أنها ليست معجزات عن البلاغة و الامانة الفكرية. فكِلماتهُ محملة بطعم الرجعية اللاهوتية, و التي هي – على عكس العِلمْ والفروع الاخرى للثقافة الأنسانية – لم تتغير خلال ثمانية عشرَ قِرنا. توماس جفرسون أصاب ,كعادته غالِباً, عندما قال "**السخرية هي السلاح الوحيد ألواجِب أستِخدامه ضدَ المقترحات الغير واضحة. يجب أن تكون الافكار واضحة قبل الاقبال على أي تصرف بناء عليها, و لا أحد على الاطلاق عندهُ فِكرة واضحة عن الثالوث المُقدس. انها الــ"أفتح يا سمسم" للنصابين ممن يسمون انفسهم كهنة المسيح**".

شئٌ آخر لا يُمكن عدم ألإشارةِ إليه ألا وهو ألثقة العمياء التي يُصرح بها الدين عن تفاصيل دقيقة لأمور شتى لم و لن يستطيعوا تقديم أي دليل واضِح لِبُرهانِها. و ربما أن هذا هو السبب في تبنيهم العداوة المتشددة تجاه كُل من له آراء أُخرى مختلفة عن آرائِهم, ونلاحظ هذا بوضوح في موضوع الاقانيم الثلاثة المنوه عنه أعلاه. جفرسون يسخر بشدة من المذهب الذي وصفهُ في معرض نقدهِ لنظرية كالفن[1] الدينية بقوله "**هناك ثلاثة آلِهة**" و لكن الفرع المسيحي الممثل بالكنيسة الكاثوليكية ومغازلتها المستمرة لِتعدد ألآلِهة هو ما يدفع هذا التعدد في إتجاه التَضَخُم. الثالوث المقدس (سوآل كان واحداً أو ثلاثة) يحصل على رفقة "ملكة السماء" مريم, إلهة بكل معنى الكلمة ماعدا ألاسم, و ثاني شخصية إلوهية بعد الله في مواضيعِ الدُعاء و الصلوات. ومجموعة هؤلاء المهمين تتضخم و تنتفخ بِجيش من القديسين, وإن لم ترقى بِهم قِواهم المتوسطة ليكونوا أنصاف آلِهة, فهُم على الاقلِ مُستحقين للتقدير في مجالاتهم التخصصية.

توجد قائمة عند مجمع المنتدى الكاثوليكي بـــ5120 قديساً مع أختِصاصاتِهم المختلفة, و التي تضم أوجاع البطن و ضحايا العُنف و فقدان الشهية و تُجار ألأسلِحة و الحدادين و العِظام المكسورة و المشتغلين بالمواد المتفجرة و إصابات الامعاء و لن نذهب أبعد من ذلك. و علينا أن لا ننسى جوقة المضيفين الملائكيين الاربعة مصفو فين في تسع ترتيبات مختلفة: السيرافيين و الكاروبيين و ملائكة العرش و ملائكة الخير و رؤساء الملائكة (رؤساء ملائكة الخير) و عدد من الملائكة العاديين مثلا ملاكنا القديم الذي يرعانا عبر الاجيال, الملاك الحارس. أن قِلة الذوق في هذهِ الاساطير تصدمني بشكل ما و لكن ما يثيرني بشكل خاص هو تلك اللامبالاة الوقحة لدى هؤلاء الذي يخترعون كُل هذهِ التفاصيل ماداموا اوجدوها. كُل هذا الخداع المشين.

لقد سمى البابا يوحنا بولس الثاني[2] من القديسين أكثر من جميع من سبقه لقرون مضت مجتمعين, و لديه صلة خاصة مع مريم العذراء. و رغبتهِ في تعدد ألآلِهة ظهرت بشكل درامي عام 1981 عندما تعرض لِلأغتيال في

1. جون كالفن مُصلِح ديني فرنسي قام بأعادة بناء الكنيسة الغربية بناء على نظرية عرفت فيما بعد بأسمه (المذهب الكالفيني). (المترجم)
2. هو بابا الكنيسة الكاثوليكية الـــ **264** في السنوات ما بين 1978 و2005 . (المترجم)

روما. و نسب الفضل في نجاتهِ لِتدخُل سيدتنا الام مريم الفاطمية[1]: "أن يدا امومية وجهت الرصاصة.". هل نستطيع ان نمنع أنفسنا من التساؤل هنا لِماذا لم توجه تلك اليد الرصاصة كيلا تصيبهُ على الإطلاق. و ربما نفكر بأن فريق الجراحين الذين عملوا لست ساعات لإنقاذهِ يستحقون بعض التقدير, و لكن ربما أن أيديهم أيضاً كانت موجهه بواسطة يد نفس الام. النقطة هنا أن اليد في رأي البابا ليست يد أي سيدة من سيداتنا المريميات و لكن يد السيدة الام الفاطمية بالتحديد هي التي وجهت الرصاصة لكيلا تصيب مقتلاً منهُ. و على ذلك فسيدتنا لورد, و سيدتُنا مريم في غوادالوب, و سيدتُنا في آكيتا, و سيدتُنا في غاراباندال و سيدتُنا في نوك كانوا ربما مشغولين وقتها بمهام اخرى.

كيف تمكن الاغريق والفايكينج[2] من التوافق مع مشاكل و ألغاز التعدُدية؟ هل فينوس هو اسم آخر لافروديت, أم كان هنالك إلهتين متميزتين للحُبّ؟ هل كان ثور[3] وجها آخر لفوتان, ام كان إلهاً مُنفصلاً؟ و لكن من الذي يهتم بهذا؟ الحياة اقصر من أن ننفقها بين معرفة الفرق بين أبناء الخيال هؤلاء. لقد تكلمت عن التعدُدية هنا فقط حتى لا اتهم باغفالها, و لن استطرد أكثر من ذلك. و لِلأختصار سأسمي كُل ألإله سواء كانت متعددة أو موحدة بـــ "الله" أو "ألإله" أو "الرب". و سأراعي بأن ألإله ألأبراهيمي بأبسط أشكاله هو فحل شرس لهذا سأستعمل ضمير المُذكر المناسب لذلك. بعض عُلماء الدين التقدميين يدعوون بعدم وجود جنس محدد لِلإله. و بعض النساء اللاهوتيات يلبسون الله لِباس ألأنثى لتصحيح بعض حقوقهم المهضومة عِبرَ التأريخ. و لكن بالنتيجة, ماهو الفرق بين ذكر غير موجود و أنثى غير موجودة؟ و في تقاطع الطُرق ألإفتراضي بين التدين و حقوق المرأة يبدو وجود ألله موضوعا ثانوياً و أقل أهمية من تحديد جنسه.

ادرك بأنهُ من الممكن لبعض نُقاد الدين أن يتعرضوا للهجوم لفشلهم في إعطاء الحق و ألاعتبار للتنوع الخصب للتقاليد أو وجهات النظر العالمية المسماة تدين. هُناكَ العديد من الاعمال العلمية المتعلقة بعلم الاجناس البشرية, من جيمس فرازير "الغصن الذهبي" و حتى باسكال بوير "شرح الدين"

1. فاطمة هو اسم مدينة تقع في محافظة سانتارين في وسط البرتغال. (المترجم)
2. مصطلح يطلق بالغالب على ملاحي السفن والتجار والمحاربين الذين نشأوا في المناطق الإسكندنافية. (المترجم)
3. ثور أحد كبير آلهة الشمال و الذي كان يسبب الصواعق. (المترجم)

وسكوت آتران "نثق بالله", توثق بشكل ساحر ظواهر عن الغيبيات والطقوس الغريبة. إقرأ كُتباً كهذهِ و ستُدرِك كم هي عظيمة بساطة الأنسان.

لن أتبع هذهِ الطريقة في هذا الكتاب. سوف أنتَقص كُل اشكال الخوارق, واكثر الطرق عملية لذلك تكون بالتركيز على الاشكال الاكثر ألفة لِقُرائي – الشكل الاكثر تهديدا لمجتمعاتنا. معظم قرائي سيكونون ممن تربوا على أحد الديانات التوحيدية الاكثر أنتِشاراً(اربعة لو تضمنت المورمونيين). و كلها تعود بالاصل لأسطورة النبي أبراهيم الخليل. و سيكون من المُفيد أن لا تغيب تقاليد عائلته عن ذهنِ القارئ خِلال قراءة بقية هذا الكتاب.

أرى الوقت مُناسِباً ألآن لأحباط محاولة حتمية للرد على الكتاب, و التي ستأتي بلاشك كملاحظة مرجعية: "هذا ألإله الذي لا يؤمن به دوكنز هو إله لا أؤمن به أيضاً. أنا لا أؤمن بِعجوز ذو لحية بيضاء يسكن في السماء". هذا العجوز ليس أكثر من تشتيت لعقل المُستمِع و لِحيته مضجرة وليست بيضاء طويلة فقط. سخافة تعليق كهذا تهدف للايماء للمستمع بأن القائل يؤمن بإله اقل سخافة من ذاك. أنا اعلم انك لاتؤمن بعجوز يعتلي الغيوم, فلنترك ذلك التخيل و لا نُضيع الوقت. أنا لا أُهاجم نوع معين من الآلِهة. أنا أهاجم الله, كُل ألآلِهة, أي نوع من الالهة, كُل ماهو خارق وماورائي أينما وحيثما وجد أو سيوجد.

ديانات التوحيد

مالم أذكر شئ آخر فأن الدين المسيحي هو المقصود ليس لشئ إلا لِكونهِ مألوفا لدي أكثر من غيرهِ والفروق لاتهم بقدر التشابهات بين الديانات الثلاثة. و لنْ أناقش الديانات الاخرى كالبوذية أو الكونفوشيه. الحق يقال بأن هذهِ المذاهب يجب أن تُناقش كفلسفات وأنظِمة أخلاقية للحياة و ليس كأديان.

في البداية أُريد أن أقوم بتطوير تعريفي لنظرية الوجود الالهي التي بدأت فيها هذا الفصل, و أزيل أي سوء فهم عن تعريف ألإله الابراهيمي. انه ليس الذي خَلَقَ الكون فقط, بل انه إله شخصي موجود ضمنه أو خارجه (مهما عنى ذلك), ويمتلك تلك الصفات ألأنسانية الغليظة التي اشرت اليها أعلاه.

ألإله الذي دعا له فولتير وتوماس باين لايمتلك صفات شخصية على الاطلاق مقارنة مع المريض النفسي المذكور في العهد القديم, ربُ الالوهيين في القِرن الثامن عشر المسمى بعصر النهضة هو أعظم ما يمكن أن يكون: جديرٌ بخليقتهِ الكونية, مُتعالٍ عن الأمور الأنسانية, مُترفع عن افكارِنا وآمالنا, لا يهتم بذنوبنا المشوشة أو توبتنا لهُ بأي شكل من الأشكال. إله الربوبيين فيزيائي لإقصى حدود الفيزياء, هو الفرضية و البرهان للرياضيين, المصمم المؤله, و أفضل مَنْ يضع القوانين الهندسية وثوابت الكون, يضبطها بدقة لامتناهية ومعرفة مسبقة بدقائق الامور, وبعد أن أشعل فتيل ما نُسميه اليوم الانفجار الكبير, ترك كُل شي وذهب للتقاعد و لم يسمع أحد عنه شيئا بعد ذلك.

في تلك الأزمِنة التي أنتشرَ فيها الأيمان, تم حساب الربوبيين صفاً لِصف مع المُلحِدين بدون أي تمييز. سوزان جاكوبي في كتابها "**المفكرين الاحرار: تأريخ العِلمانية ألأمرَيكية**", ذكرت قائمة من الشتائم التي أطلِقت على المسكين توم باين:. "يهوذا, حيوان زاحف, خنزير, كلب مسعور, قملة, وحش كبير, عنيف, كذاب وبالطبع كافر أيضاً". باين مات فقيراً ومهملاً من كُل أصدقائهِ السياسيين (بأستثناء جفرسون) الذين أحرجوه بشدة من تصريحاتهِ المعادية للمسيحية. أما اليوم فقد تغيرت المقاييس بشكل كبير و أصبح معنى الربوبية معاكسا لِلإلحاد و يُصنَف في طابور المؤمنين. انهم – رغم كُل شيء– يؤمنون بخالق خارق للكون.

العِلمانية و الاباء المؤسسين و الدين في أمريكا

إن إظهار المؤسسين ألاباء بمظهر ديني مُهم لليمين ألأمرَيكي اليوم والذي يريد نشرنُسختِه من التأريخ ألأمرَيكي. و على عكس وجهة نظرهم, فعلى العكس مما يدعي هؤلاء فإن أمريكا لم تؤسس كدولة دينية مسيحية منصوص عليه في مرحلة مبكرة في معاهدة طرابلس, عام 1796 من قبل جورج واشنطن و موقع عليه من جون آدامز1797:

و لأن الولايات المتحدة ألأمرَيكية لم تُتأسس على أي أُسِس مَسيحية, ولأنها لا يحمل أي عداء للشرائع الاسلامية أو الدين أو الاستقرار للمسلمين, و كما هو مخطوط فأن الدولة لم تدخل في أي عداوات مع القوميات المُحمدية, و بنص القانون و بالاتفاق مع الطرف ألآخر فإنهُ لن يُسمح بِخلق مشاكل لإسباب تتعلق بذرائع دينية و إفساد التوافق بين البلدين.

أن كلِمات ألافتتاح في هذهِ المقولة كافية لِخلق ضجيج مُزعِج في واشنطن في هذهِ الايام. و لكن إد بوكنر لديهِ أدِلة مُقنِعة بأن ذلك لم يتسبب بأي معارضة وقتها من أي من السياسيين أو الشعب. [1]

هُناكَ تناقض ملحُوظ و قد أُشير إليهِ العديد من المرات و هو إن الولايات المتحدة التي نشأت كدولة عِلمانية, هي ألآنْ الدولة ألأكثر تديناً في العالم المسيحي, بينما إنجلترا, مع كنيستها المؤسسة والمرؤوسة من الملكة حسب الدِستور, هي ألاقل تديُناً. السؤآل الذي أواجِههُ بأستمرار و لا أملك أجابة له, هو كيف أصبح الحالُ هكذا. من الممكن أن التأريخ المُروع للعُنف بين الطوائف هو السبب, و الغلبة تتأرجح بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين الذين قاموا بحملات ابادة للفئة الاخرى. والرأي ألآخر هو أن أمريكا دولة مهاجرين. أحد الزملاء اشار بأن المُهاجرين يستعملون الكنيسة كبديل في أرض الغربة للعائلة و الأقارب الذين فارقوهم في أوروبا. تلك الفكرة تستحق التمحيص. ليس هُناكَ شك على أي حال بأن العديد من ألأمرَيكيين يرون في الكنيسة جزأ من هويتهم, و في ذلك ما يدل على أن الموضوع مُتعلق بالعائِلة.

---

1. راجع : HTTP://WWW.STEPHENJAYGOULD.ORG/CTRL/BUCKNER_TRIPOLI.HTML

الفكرة الاخرى لشرح التناقض هذا تأتي من أن القانون ألأمرَيكي نشأ على أسس عِلمانية. و بِسَبب عِلمانية أمريكا القانونية أصبح الدين مؤسسة أكثر عملية. الكنائس تتنافس على الجمهور – ناهيك عن الاعشار[1] هنا – و المنافسة حامية في الدعاية وتقنيات التسويق. ما يسري على مساحيق الغسيل يسري على الله أيضاً, و النتيجة تقترب من الهوس الديني بين الفئات ألأقل ثقافة في المجتمع. و بالعكس من هذا في إنجلترا ,حيث الكنيسة الملكية شئ رسمي, أصبَحَ التديُن أقرب للتسلية و بِالكاد يعتبر تديُناً على الاطلاقِ. و قد عبر غيل فرايزر, كاهن انجيلي ومعيد مشرف في أكسفورد للفلسفة, عن هذا التقليد الانكليزي بشكل لطيف في صحيفةِ الغارديان. العنوان الثانوي للمقال "**المؤسسة الكنسية في إنجلترا أستبعدت الله عن الدين, وهناك مخاطرة اكبر في ضياع ألأنشطة ألأيمانية ألأخرى**":

> في الماضي كان الكاهنُ الانكليزي شخصية درامية. متذوق للشاي, لطيف, غريبُ الأطوار بحذاء لامع و طباع سمحة. تمثيل الدين بهذه الشخصية لم يكن مُزعِجاً لغير المُتدينين. لم يتدخل في موضوع العرقية أو يضغط على أحد ليدله على الخلاص, ولم يكن هُناكَ حَملات صليبية أو قنابل على الرصيف بإسم أي قوة عليا.[2]

يستطرد فرايزر قائلا "**كاهِنُ البلدة اللطيف قد أُعطِي في الحقيقةِ لُقاحاً من شعور ألأنكليز المُعادي للمسيحية**". و يُنهي موضوعهُ بالرثاء للاتجاه الذي تسير فيه الكنيسة الانكليزية ويطلب من القائمين عليها اخذ الدين بجدية وعبارته الاخيرة: "**القلق يأتي من الإحتمال القائِم بأننا رُبما نُطلِق جِنّي التعصُب الديني الانكليزي من القنينة التي لايزال نائما فيها منذ قرون**".

جِنّي التعصُب الديني مُنتشِر في أمريكا اليوم, و كان هذا ليرعِبَ الآباء المؤسسين. سواء القينا اللوم لهذا التناقض على القانون العِلماني المُبتكر ام لا, فأن الاباء المؤسسين لأمريكا كانوا من العلمانيين الذين يؤمنون بفصل الدين عن السياسة بشكل تام. و ذلكِ كافٍ تماما لِوضعهم بطرف من يعترض بشدة على الذين يتفاخرون بوضع الوصايا العشر في أبنية الدوائر الحكومية.

---

1. نظام تبرع للكنيسة مشابه للزكاة (المترجم).
2. Giles Fraser, 'Resurgent religion has done away with the country vicar', Guardian, 13 April 2006.

و من المُثير للدهشة بأن البعض من ألآباء المؤسسين قد ذهبوا حقاً لأبعد من أن يكونوا ربوبيين, أعني لاأدرييّن أو حتى مُلحِدين؟ التصريح التالي من جفرسون يجعله في مصافِ مع من نسميهم اليوم باللاأدريين:

> الكلام في اللاماديات هو كلام عن لاشئ. القول بأن الروح الأنسانية, الملائكة, و الله غير ماديين هو القول بأنهم لا شئ, بمعنى انه ليس هُناكَ روح و لا ملائكة أو إله. لا أستطيع التفكير بغير ذلك...بدون الغوص في متاهات لا يُسبَرُ غَورُها أو في هاوية التخيل. أنا سعيد ومكتفٍ بما أشغلُ نفسي بهِ بدون اللاأشياء التي ربما تكون موجودة و لكن ليس لدي الدليل على وجودها.

كريستوفر هيتشنز. في كتابه توماس جفرسون: مؤلِف أمريكا, يؤكد بأن جفرسون كان مُلحِدا, رغم أن ذلك كان صعبا جدا في وقته:

> ينبغي أن نكون حريصين في حكمنا عما إذا كان جفرسون مُلحِدا ام لا. وذلك لانه كان مُرغماً على التعقلِ في امورٍ إجبارية لحياتهِ السياسية. و لكنه كتب لإبن أختهِ, بيتر كار, عام 1787 بأنه على الأنسان عدم الخوف من التساؤل عن أي شئ مهما كانت العواقب. "**لو وصلت لِلأيمان بأنه ليسَ هُناكَ إله, فستجد في هذهِ المحاولة على الاقلِ المُتعة و اللذه العقلية و سيدفعك ذلِك لحُبّ الآخرين و الحصول على قسط من الراحة النفسية**".

برأيي أن الرسالة التالية من جفرسون لابن اخته فعلا مؤثرة:

> أنفض عَنكَ كُل المخاوفِ من الاجحافِ المتذللِ الذي تزحف تحتهُ الأرواح الضعيفة. ضع الحِكمةَ في مكانِها و أستمع لحكمها في كُل الحقائق, و أسعى للحصول عليها في كُل شئ. وكل رأي. و حتى في اسئلة محرجة كما في حالة وجود الالهي, لأنهُ لو كان موجوداً, فإنه سَيُقدِر الولاء للعقل أكثر من الخوف الاعمى.

هاكم بعض مُلاحظات جفرسون مثل "**المسيحية هي أكثر الأنظمة التي عرفها الأنسان تحولا و تقلبا**" تتوافق مع الربوبيةِ و الإلحادِ أيضاً. و الشئ ذاته ينطبق على ملاحظات جيمس ماديسون المناهضة لِلكهنوت: "**تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية إمتدت حتى الان لِخمسة عشرَ قِرناً. ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة, فخر و كسل رجال الدين, تجاهل وذل العلمانيين المُضاعف بسبب الغيبيات و تعرضهم للإضطِهاد و الملاحقة**". و ينطبق الشئ نفسه على بنجامين فرانكلين "**المنارات أكثر فائدة من الكنائس**" و جون آدامز "**لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم افضل ما يُمكن أن يكون**". آدامز له بعض المقولات اللامِعة و الأكثر تهكما على المسيحية: "**المسيحية كما فهمتها كانت ولاتزال روحانية. فما هو السبب أن الملايين من الخُرافات و القِصص و الأساطير قد مزجت بالروحانية اليهودية و المسيحية لتجعلهما أكثر الاديان التي وجدت دموية؟**". و في رسالة أخرى, وهذه المرة لجفرسون, "**أقشَعِرُ للتفكير بالاسلوب الاكثر بشاعة حتى ألآن في أستخدام الحزن الذي أحتفظ بهِ التأريخ – الصليب – فكر فقط بالكوارث التي سببها هذا**".

سواء كان جفرسون و زُملاؤه مؤمنين, الوهبيين, لاأدريين أو مُلحِدين, فهم بالتأكيد علمانيين لحد كبير ومؤمنين بأن تدين رئيس الجمهورية أو عدمه أمرٌ يخصه وحده. كُل الاباء المؤسسين, على اختلاف معتقداتهم مهما كانت سيصقعون لقراءة الاجابة التي ادلى بها الرئيس بوش الأب لروبرت شرمان على سؤاله عما إذا كان يعتبر إن المُواطنين المُلحِدين ألأمريكان على نفس المستوى من الوطنية والمواطنة: "**لا, لا أعتقد بأن المُلحِدين وطنيين أو حتى مواطنين مثل البقية. نحنُ أمةٍ واحدة تحت راية الله.**"[1] على فرض أن شيرمان كان دقيقا (مع ألأسف لم يستعمل آلة تسجيل, و لم تنشر المقابلة في أي صحيفة أُخرى وقتها). لنجرب استبدال كِلمة "مُلحِد" بــ"يهودي" أو "مسلم" أو "اسود". هذا يعطينا حجم التمييز العُنصري الذي يتعرض له المُلحِدون في أمريكا في ايامنا هذه. ناتالي آنغير في "إعترافات مُلحِد وحيد" تصف بِحُزنٍ يُحرِكُ العواطف في نيويورك تايمز مشاعرالعزلة كمُلحِدة في أمريكا هذهِ الايام[2]. و لكن العزلة هذهِ هي وهم زرعه الجهل بالحقائق في الاذاهان. المُلحِدون في أمريكا أكثر عدداً مما يتصور الناس. كما ذكرت في مُقدِمة

1. ROBERT I. SHERMAN, IN FREE INQUIRY 8: 4, FALL 1988, 16.
2. N. ANGIER, 'CONFESSIONS OF A LONELY ATHEIST', NEW YORK TIMES MAGAZINE, 14 JAN. 2001: HTTP://WWW.GEOCITIES.COM/MINDSTUFF/ANGIER.HTML.

الكِتاب المُلحِدين يفوقون المُتدينين اليهود عدداً. و لكن اللوبي اليهودي مشهور بقوتهِ في واشنطن. هذا ما يمكن أن يحصل عليه المُلحِدون أيضاً لو نظموا انفسهم بشكل صحيح.

يروي دافيد مايلز, في كتابه عالم المُلحِدين, قصة تبدو كوميدية غير واقعية عن تعصب الشرطة الأشبه بالخيال. أحد دعاة المسيحية المتعصبين للشفاء بالأيمان بدأ حملة "اعاجيب صليبية" وهذه الحملة تزور مدينة مايلز مرة كُل عام. و مِن الأمور التي تدعو لها هذهِ الحملة أن يترك مرضى السكري حُقن الأنسولين, ويترك مرضى السرطان الجرع الكيميائية و يستبدلوها بالصلاةِ. و بكل روية, أراد مايلز أن ينظم مظاهرة سِلمية لتحذير الناس. و لكنهُ أخطأ بذهابهِ للشرطة واخبارهم بنيته و طلب الحماية مما قد يتعرضون له من أتباع و مؤيدي ذاك الداعية للشفاء بالأيمان. الشرطي الاول الذي تكلم معه سألهُ: "**هل مظاهرتكَ ستكون مؤيدة أو مضادة؟.**" اجاب مايلز "**مضادة**", الشرطي أجابهُ بأنهُ شخصيا من أحد المؤيدين وينوي البصق في وجه مايلز لو مر بجانب مظاهرتهُ.

مايلز قررَ أن يُجرب حظهُ مع شُرطيٍ آخر. و ذاك أجابهُ بأنه لو أن أحد اتباع الداعية مارس العُنف ضد مايلز فإنه سيوقف مايلز لأنهُ "**يتدخل في إرادة الله**". ذهب مايلز لبيتهِ و أتصل بمركز الشرطة بأمل أن يجِد تعاطُفاً على صعيد الرُتبِ العُليا. و بالنتيجة وصل للكلام مع عقيد و الذي قال له: "**لتذهب للجحيم يا هذا. لايوجد شرطي يريد حماية مُلحِد ملعون. أمل حقاً بأن يدميك أحدهم**". و هكذا بدت الظروف غير مؤاتية بالمرة في مركز الشرطة ذاك, ألفقر بدا واضحاً باللطف الأنساني و الواجب كذلك. مايلز تكلم مع سبع أو ثمان رجال شرطة يومها. لم يحصل على أي عون بل واكثرهم هدده بالعُنف.

كثيرة هي الاحداث من هذا النوع ضِدَ المُلحِدين. و لدى مارغريت داوني مؤسِسة جمعية "شبكة دعم ضحايا العنصرية" في فيلادلفيا كتاب بالتعاون مع جمعية المجتمع الحر, توثق فيهِ سِجِلات مُصنفة لاحداث كهذه.[1] ولديها قوائم مختلفة تحت أسماء مِثل" المُجتمع, المدارس, أماكن العمل, الإعلام, العائِلة

1. HTTP://WWW.FSGP.ORG/ADSN.HTML.

والحكومة“, وتحوي أمثِلة عن مضايقات مُختلفة, فُقدان وظائِف, تجنُب من أفراد العائِلة و تصل في بعض الاحيان حدِ ألقتل. أن مدونات داوني عن الكراهية وسوء الفهم التي يواجهها المُلحِدون في أمريكا تجعلنا نؤمن بشكل واضح بأنه لا أمل لِمُلحِد صريح بِالفوز في أي أنتَخابات لاي منصب رسمي في الولايات المتحدة.

هنالِك 435 عُضواً في مجلسِ النواب و 100 في مجلس الشيوخ. و بفرض أن الغالبية منهم من الفئة المثقفة من الشعب, فإنه من المُحتم إحصائياً إن نسبة كبيرة منهم مُلحِدين. من الواضِح إنهم كذبوا, أو على الأقل أخفوا مشاعرهُم حتى يتِمَ إنتَخابِهم. و مَنْ يلومهم على ذلك إذا اخذنا بعين الاعتبار الناخبين الذين يجب إقناعهم؟ ومن المعروف للجميع بأن أي محاولة للترشيح للرئاسة هي إنتَحارٌ سياسي للمُرشح المُلحِد.

أن تلك الوقائع عن الجو السياسي في الولايات المتحدة, وما تدل عليه, لهي مما كان بالتأكيد سيرعب جفرسون و واشنطن و ماديسون و آدامز و كُل زملائهم من مُلحِدين و ربوبيين ولاأدريين و مؤمنين أو مسيحيين, و سيكونون مِمَن يرتدون على الحكم الديني للقرن الـــ21 في واشنطن. و لجعلهم ذلك ينسحبون لرأي الآباء المؤسسين للعِلمانية في الهند بعد الاستعمار و خصوصاً المُتدين غاندي الذي قال "**أنا هندوسي و أنا مسلم و أنا يهودي و أنا مسيحيٌ و بوذي**", والمُلحِد نهرو الذي قال:

> النظر لِما يسمى بالدين, و أعني أي ضاهرة تدين منظمة, ليس فقط في الهند, بل في كُل مكان, تملأني بالرُعب و أنا أعترِض عليها كثيرا واتمنى أن تختفي من الوجود. غالِباً ما تكون عبارة عن أيمان أعمى و ردود أفعال بدون معنى و عقيدة و تعصب و غيبيات لتحقيق مصالح شخصية.

ان تعريف نهرو للهند العِلمانية كما حَلَمَ بِها غاندي (لو تحقق ذلك عِوضاً عن تقسيم البلد بأنهار من دماء بإسم الدين) هو تقريباً مارردده جفرسون بذاته:

> لنتكلم عن عِلمانية الهند.. البعض يظنُ بأن ذلِكَ مُعارض للدين. وهذا خطأ واضح. ما تعنيه حقيقة تِلك العِلمانية هي بأن الدولة

تقدر العقيدة الدينية للجميع بالتساوي وتمنحهم فرصاً متساوية في كُل شئ. و لدى الهند تأريخ عريق منْ التعايش الديني... في بلد كالهند ,حيث يوجد العديد من العقائد الدينية, لا يُمكن أن تبنى الوطنية على أي اساس غير العِلمانية.

ان رب الربوبيين, و الذي غالباً ما يتم ربطهُ بِالآباء المؤسسين هو بلا شك أفضل مِن المتوحش المذكور في الانجيل. و لكنه للاسف أيضاً بالكاد موجود, أو وِجد يوماً ما. و على أي حال فإن نظرية الله بأي شكل من اشكالها ليست ضرورية[1]. دعونا ألآن نلتفت لللاأدرية والفكرة الخاطئة عن أن وجود أو عدم وجود ألإله هو سؤال عبثي, لأن العِلمْ لم و لن يتمكن من الوصولِ الى جوابٍ له.

فقرالنظرية اللاأدرية

إعطاء رأيهُ. وعندما ضَغَطَ عليه المتحدث ليسأله عن "شعورهِ الداخلي" كانت اجابته الخالدة: "و لكنني أحاول أن لا افكر من خلال شعوري الداخلي, والواقع انه من المناسب أن نؤجل الحكم حتى تتوفر الادلة"[1]. السؤآل عن الحياة خارج الكرة الارضية سوآلٌ مفتوح على الطرفين وهناك آراء جيدة في صالح الجهتين. و لكن الادلة الثابتة غير متوفرة لتؤكد أحد الاحتماالين دون الآخر. اللاأدرية في بعض الامور العِلمية هي الموقف الصحيح كما في أسباب أنقراض عدد كبير من الانواع الحية في نهاية عصر البرمي[2], ذاك الانقراض الاكبر للحياة في تأريخ الحفريات الارضية. من المُحتمل إنهُ كان بسبب نيزك مِثل الذي سبب انقراض الديناصورات و الذي لدينا عنه ادلة أكثر تجعلنا نميل للاعتقاد بأنه كان السبب. و لكن منْ الممكن أن يكون لأي سبب آخر, أو مجموعة من الاسباب. و الأأدرية موقف صحيح في مسألة كهذهِ. و لكن ماذا عن سؤال الله؟ هل بالمستطاع أن نكون لاأدريين هنا؟ الكثيرون قالوا نعم بدون شك وبلهجة توحي بأنهم على حافة الغضب و على غير استعداد للمناقشة في ذلك.

سأبدا بمناقشة نوعين من اللاأدرية. لاأدرية مؤقتة عملياً, وهي الجلوس على السياج بإنتظار أدلة و هي موقف صحيح من المسائل التي لها جواب محدد, بشكل أو بأخر, و لكن بما أننا لم نحصل بعد على الادلة التي تثبت (او لم نفهمها بعد. أو لم نقرأها بعد. الخ). اللاأدرية المؤقتة عملياً موقف معقول من مسائل كإنقراض الاحياء نهاية العصر البرمي. حيث هُناكَ حقيقة ونأمل بمعرفتها يوما من الايام, و لكننا لا نعرفها الان بالتحديد.

و لكن هُناكَ النوع ألآخر من الجلوس على السياج و هو لاأدرية مبدأئية دائمة. أسلوب اللاأدرية المبدأئية الدائمة مُناسب لأسئلة ليس لها اجابات محددة أبداً, مهما حاولنا. السؤآل موجود على بعد اخر, أو في مستوى آخر, و خارج المنطقة التي ممكن ان تصل لها الادلة. مثال ذلك المسألة الفلسفية المسماة بالكستنائية, السؤآل فيما لو كنت ترى اللون الاحمر أحمراً كما اراه. ربما أن ما تسميهِ احمراً هو ما أُسميه أنا أخضر أو شئ آخر مُختلف تماماً عن أي شئ استطيع تخيله. الفلاسفة يستشهدون بهذا السؤآل كأحد الاسئلة

1987. 1. Carl Sagan, 'The burden of skepticism', Skeptical Inquirer 12, Fall

2. العصر البرمي: الفترة قبل 280- 230 مليون سنة حيث انقرضت فيه معظم الأحياء التي كانت تعيش من قبله. (المترجم)

المستحيلة الاجابة, مهما كانت الادلة قوية و متوفرة. و بعض العُلماء والمثقفين يعتقدون -بشكل مبالغ فيه برأيي- بأن مسألة وجود الله مِن عدمهِ هي من فئة لاأدرية مبدأئية دائمة و بناءٍ على ذلك كما سوف نرى, يحصلون على النتيجة الغير منطقية بأن نظرية وجود الله أو عدم وجودهِ, حسب رأيهم, لها نفس الاحتمالية لِلصِحة. الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماما: اللاأدرية في حالة الوجود الالهي هي من نوع لاأدرية مؤقتة عملياً. أما الله موجود أو غير موجود. السؤآل علمي بحت, ويوما ما سنعرف الاجابة, و حتى ذلك الوقت نستطيع الكلام و بشكل قوي عن الاحتمالات.

في تأريخ الافكار, لدينا الكثير من الاسئلة التي أعتقد بِأن إجاباتها تقع خارج مقدرة العلم. في عام 1835 كَتَبَ عالِم الفلك الفرنسي المشهور اوغوست كونت عن النجوم:"لن نستطيع ابدا و بأستعمال أي طريقة أن ندرس المواد الكيميائية التي تؤلف النجوم أو تركيبها الذري" و لكن و حتى قبل أن ينشر كونت كلامه كان فراونهوفر قد بدأ بتحليل كيماويات الشمس بأستعمال المنظار الطيفي. و الان فأن مستعملي المناظير الطيفية فندوا لاأدرية كونت بدِراستِهُم الدقيقة للنجوم البعيدة و مُركباتها الكيميائية. ما حصل للاأدرية كونت الفلكية هنا يفتح أعيننا ,على الاقل, على انه يجب علينا التروي قبل التصريح المُبكر باللاأدرية. رُغمَ ذلك لا يتوانى العديد من الفلاسفة والعُلماء عن التصريح عن لاأدريتهم عندما يتعلق الموضوع بالله. و على رأسهم مخترع المصطلح بذاته ت. هاكسلي[1].

شَرِح هاكسلي لموقفهِ من هذهِ الكلمة كان كرد على هجوم شخصي عليه. عندما صب مدير الكلية الملكية في لندن, الدكتور الموقر وايس ازدراءه عليه بسبب "لاأدريته الجبانة":

> ربما إنهُ يُفضِل وصف نفسه باللاأدري, و لكن الكلمة الحقيقية أقدم من ذلك, كلِمة كافر, ربما لانها تحمل معنى غير سار. و يصح أن تكون كذلك. إنه لشئ غير مسر لاي شخص أن يقول على الملأ بأنه لايؤمن بالمسيح.

1. HTTP://WWW. INFIDELS. ORG/LIBRARY/HISTORICAL/THOMAS_HUXLEY/HUXLEY_WACE/PART_02.HTML.

هاكسلي ليس ممن يترك هجوما كهذا يمضي بدون أي رد فعل, و إجابتهُ عام 1889 كانت شديدة القسوة كما هو المتوقع (على الرغم من انه لم يبتعد عن حسن السلوك كما هو الحال في رفيق داروين, المشحوذ الاسنان بالسخرية الحضارية للعصر الفيكتوري). و بالنتيجة وبعد أن نال قصاصةُ العادل من د. وايس كما اراد عاد هاكسلي لشرح كلمة "اللاأدرية" وكيف خطرت له حيث قال. هنالِك آخرون...

> مِمَن إستطاعوا انجاز بعض"الأدرية" بنجاح, وحلو بها مشكلة الوجود. بينما أنا متأكد بأنني لم استطع ذلك, بل مقتنع تماما بأنها مشكلة غير قابلة للحل. وبما أن الفلاسفة هيوم وكانط بصفي, لم يكن لدي الصلف لابداء أي رأي.. و لذلك فكرت و أبتكرت الكلمة المناسبه لهذا الموقف "اللاأدرية".

و في قِسم آخر من خِطابهِ, أستطرد هاكسلي ليبين بأن اللاأدرية ليست مذهبا بأي معنى, لو كان سلبيا حتى.

> اللاأدرية بالواقع, ليست مذهباً, و لكنها طريقة, خلاصة للطريقة الصارمة المطبقة على أي مبدأ.. المبدأ يمكن التعبير عنه بالتأكيد بالشكل التالي الايجابي: عندما يتعلق ألأمرَ بالعلم فعليك أن تتبع الادلة مهما بعدت المسافات التي تأخذك اليها, وبدون الأهتمام بأي إعتبارات. و بشكل آخر سلبي: عندما يتعلق ألأمرَ بالعلم فلا تتظاهر بأن النتائج صحيحة إذا لم تكن مُجربة أو بالامكان تجربتها للتأكد. هذا ما أعنيه بالأدرية, وبناء عليه فمن الحق الأنسان أن ينظر للكون وجها لوجه ويتساءل بغض النظر عما يخبئه المستقبل.

هذه كلمات نبيلة لأي مُشتغل بالعلم, ولايَستطيع أحد أن ينتقد هاكسلي ببساطة هكذا. و لكن على ما يبدو إنهُ, بتركيزه على فكرة استحالة برهان وجود أو عدم وجود الله, قد أهمل قوانين الاحتمالية. أن أستِحالة البُرهان على وجود أو عدم وجود شئ ما لايجعل وجوده من عدمهِ على نفس الدرجة الاحتمالية. و لا أعتقد أن هاكسلي يعترض على هذا, و أشكُ بأن ما يبدو كذلك من

تصريحاتهِ كانَ كأعتِراف بنقطة معينة فقط للتأكيد على نقطة أخرى. كلنا فعلنا ذلك بوقت أو بأخر.

وبعكس هاكسلي, سأقترح بأن وجود الله هو نظرية علمية كغيرها. بالرغم من انه من الصعب تجربتها عمليا, لكنها تدخل ضمن اللاأدرية المؤقته كما هو الحال في الخِلافات حول أسباب أنقراض الاحياء نهاية العصر البرمي و الطباشيري[1]. وجود الله وعدم وجوده هو حقيقة علمية عن الكون, وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ على الاقل أن لم يكن عمليا. لو كان موجوداً و كشفَ عن نفسهِ لوضعَ حُكماً نِهائياً للجدل هذا وبشكل لا يقبل الشك. و لكن و حتى لو كان من غير المُمكن البُرهان على وجوده من عدمه بشكل قاطع, فإن الادلة المتوفرة قد تعطينا إحتمالات بعيدة عن الــ 50بالمائة.

لذلك دعنا الآن نأخذ طيف الاحتمالات بشكل جدي, ونضع الرأي الأنساني عن وجود الله معه, سيكون لدينا نقطتان متناقضتان بالتأكيد. وآراء الطيف قد تكون طويلة و مختلفة طبعاً, و لكننا نستطيع التركيز على سبع نقاط مركزية فيه.

1. مؤمن تماما 100% و واثق من أحتمال وجود الله. كما في كلمات س. ج. يونغ الذي قال. "أنا لا أؤمن.. بل أعرف"
2. أحتمال عالى و لكن اقل من 100%, مؤمن واقعي. "لااستطيع المعرفة بشكل لا يقبل الشك, و لكن أؤمن بالله وأعيش حياتي على هذا الافتراض"
3. أكثر من 50% و لكن ليس أكثر بكثير. عمليا لاأدريين و لكن يميلون للأيمان "لست متأكدا بأي شكل و لكنني اميل للأيمان بالله"
4. 50بالمائة على التمام. لاأدريين بشكل تام. "وجود الله من عدمهِ له نفس الاحتمالية".
5. أقل من 50% بقليل. عمليا لاأدريين يميلون للإلحاد. "لست مُتأكداً من وجود الله واميل للشك في وجوده"

1. الفترة الممتدة بين 135 إلى 23 مليون سنة مضت. وفيه انقرضت الديناصورات بعد أن عاشت فوق الأرض 100 مليون سنة. (المترجم).

6. أحتمال ضعيف جداً. و لكن أكثر من الصفر. مُلحِد واقعي. "لستُ متأكداً من عَدم وجود الله و لكن اعتقادي بأن الاحتمال ضَعيف جداً, واعيش حياتي بفرض انه غير موجود"
7. مُلحِد تماماً. "أعلم بأنه ليس هُناكَ إله" بنفس نسبة يونغ "المعرفية" حيث انه يعرف بوجوده.

سيكون مفاجئا أن اصادف الكثير من الناس في المرتبة 7 وولكن وجود هذه المرتبة هو للترتيب فقط و لتحقيق قدر مِن التوازن مع المرتبة 1 و التي هي منتشرة تماما. تقع في طبيعة الأيمان أن يكون الأنسان, كما في حالة يونغ, فخوراً للأيمان بأمور بدون اسباب كافية لذلك (يونغ يؤمن أيضاً بأن بعض الكتب في مكتبته انفجرت فجأة واصدرت دويا عاليا). المُلحِدين ليسَ لديهم أيمان و بالتالي فالاسباب ليست بدوافع كافية لهم لأتهام أي شئ بعدم الوجود. و لِهذا فالنقطة السابعة أكثر فراغا من قرينتها النقطة الاولى, و التي لها الكثير من الاتباع. شخصياً أعتبر نفسي في الخانة السادسة, واميل للسابعة. وبالتالي لاأدريتي بالنسبة لله على نفس المستوى تماما عندما يتعلق ألأمرَ بالجنيات التي في تسكن في الحديقة.

تتماشي الاحتمالات المذكورة مع اللاأدرية المؤقتة علمياً. وهناك اغراء سطحي لوضع اللاأدرية المبدأية الدائمة في وسط الاحتمالات, مع احتمال 50% لوجود الله, و لكن ذلك لايصح. اللاأدرية المبدأية الدائمة تجزم بعدم استطاعتنا قول أي شئ لدعم أي طرف. و على المدعين بأن سؤال وجود الله ليس له اجابة أن يرفضوا أن يوضعوا في أي مكان على سلم الاحتمالات. كوني لا أعرف أن اللون الاحمر عندك هو اللون الاخضر عندي لا يعني بأن الاحتمال هو 50بالمائة. فالسوآل هنا ليس له أي معنى يمنحه شرف سلم الاحتمالات. و فهذا خطأ شائع جداً, و سنرى أمثالهُ لاحِقاً, الا و هو القفز من المُسلمة القائلة بأن وجود الله سؤال عبثي بدون اجابة حقيقية الى أن أحتمال وجود الله من عدم وجوده متساويان.

والطريقة الاخرى لشرح هذا الخطأ. هو طريقة عبء البرهان, و قد شرحها بيرتراند راسل بشكل لطيف في مثالهِ عن إبريق الشاي السماوي.

الكثيرين من الأرثوذوكسيين يتكلمون و كأن على المُشككين أي ينفوا العقائد الشائعة بدلا من أن يُبرهِنها العقائديون. و هذا خطأ بالطبع. لو إنني قُلت بأن هُناكَ إبريق شاي صيني بين الارض والمريخ يدور حول الشمس بمدار اهليلجي, فلن يستطيع أحد أن يبرهن إنني مخطئ. سآخذ بعين الاعتبار طبعاً بأن أوضح بحرص أن ابريق الشاي هذا هو من الصِغر بحيث لا يُمكِن رؤيته حتى بإستعمال اقوى التلسكوبات. و لكن لو قلت, بما أن زعمي لا يُمكن نقضه, فأنني لا أقبل أن يشكُ أحد في صدقهِ. سيكون كلامي جزافا. و لكن لو كان وجود هذا الابريق موثقاً في الكتب القديمة, و يدرس بقدسية كُل يوم احد. و مغروس في رؤوس الاطفال في المدارس, فإن مُجرد التردد في قبول وجوده من شخص ما سيضعه مع فئة غريبي الاطوار و يستحق أهتمام طبيب نفسي في العصر الحديث أو القاضي في ازمنة خلت.

لن نضيع الوقت بترهات كهذه, لأنهُ على حد علمي, لا أحد يعبد أباريق الشاي[1]. و لكن لو تم أجبار أحدُنا فلن نتردد في اعلان أيماننا الشديد بعدم وجود ابريق على مدار ما. و بهذا سيكون علينا أن نكون لاأدريين أبريقيين. لأننا لا نستطيع برهان عدم وجود أبريق شاي سماوي. و عمليا فإننا تحولنا من (لاأدريين ابريقيين) الى لاابريقيين.

أحد الاصدقاء الذين تربوا على اليهودية ولايزال يمارس طقوسها بسبب الولاء للتراث, يصف نفسه "لاأدريي تجاه بابانؤيل". أنه لا ينظر الى أن أحتمال وجود الله في رأيه أكبر من "بابانؤيل". لا يُمكن أن تنفي قطعيا وجود أي منهما وعدم احتمال وجودهما متساو. ولذلك فهو مؤمن بالله بنفس كمية أيمانه ببابانؤيل. و هو لاأدري بالنسبه للاثنين بنفس النسبة ايضا.

ابريق الشاي الخاص براسل ينطبق على عدد لامنتهي من الأشياء المعقولة و غير مُمكِنة البرهان. يقول المُحامي ألأمرَيكي الشهير كليرانس دارو, "**لا**

---

1. يبدو أنني أستعجلت في كتابتي بان لا احد يعبد أباريق الشاي, في الخامس من حزيران 2005 قرأت في صحيفة INDEPENDET ON SUNDAY **التالي. (الدوائر الماليزية أعلنت عن أن طائفة دينية قامت ببناء أبريق شاي كبير مقدس و فيه خالفت مواصفات البناء المفترضة للمدينة), راجع الخبر ايضاً على بي.بي.سي نيوز.** HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/2/HI/ASIA-PACIFIC/4692039.STM.

اومن بالله كما لا أؤمن بالاوزه الام[1]" الصحفي آندرو موللر يرى بأن ألإلتحاق بأي دين ليس أقل غرابة من أن تعتقد بأن الارض معينية الشكل و محمولة عِبر الكون على كماشات إثنين مِن جراد البحر أحدهم إسمهُ بازميرالدا و الآخر كيث[2]. والاخر المفضل عند الفلاسفة هو وحيد القرن الخفي و الصامت و الغير ملموس, و الذي يحاول الاطفال كُل سنة في مخيم كامب كويس نفي وجوده[3]. و إلهٌ آخر بدأ ينتشر الآن على الإنترنت – و غير قابل لِلأنكار تماما كيهوه و الاخرين – الا وهو وحش السباغيتي الطائر, العديد يشهدون بأنه لمسهم بأطرافه المعكرونية[4]. و مِما يسرني إن أنجيل وحش السباغيتي الطائر قد نُشِرَ مؤخراً على شكل كِتاب[5], و أُقدر لهُم ذلك. لم اقرأهُ بنفسي بعد, و لكن من الذي يحتاج لقراءة كتاب مُقدسْ عِندما تكون متأكداً من صدقه؟ و على فكرة, مِما لابد أن يحصل هو الانشقاق الكبير و الذي نتج عنه الكنيسة الاصلاحية المُعدلة لوحش السباغيتي الطائر[6].

الغرض من المُبالغة بهذه الأمثِلة هو التأكيد على انه لا يُمكن نقضِها, و رُغمَ ذلك فلا أحد يفكر بأن إحتمال وجودها مساوٍ لاحتمال عدم وجودها. الفكرة التي أراد راسل توضيحها هي أن مسؤولية البرهان تقع على المؤمن, و ليس غير المؤمن. وفكرتي أنا متعلقة بها ألا وهي أن الاحتمال وجود أبريق الشاي أو (وحش السباغيتي و ازميرالدا وكيث و وحيد القرن الخفي و... الخ) اقل بكثير من احتمالات عدم وجودها.

أن عدم أمكانية نفي وجود إبريق الشاي المداري و بابانؤيل لن يسبب لأي شخصٍ عاقل أي شعور بان الموضوع يستحق الاهتمام أساساً. و لا أحد منا يحسُ بالحاجة لأثبات عدم وجود الملايين من الأشياء التي يأتي بها خيال خصب أو يحلم بها أي عقل. لقد وجدت إستراتيجية مُدهِشة للإجابة على

---

1. شخصية كارتونية (المترجم)

2. ANDREW MUELLER, 'AN ARGUMENT WITH SIR IQBAL', INDEPENDENT ON SUNDAY, 2 APRIL 2006, SUNDAY REVIEW SECTION, 12-16.

3. مخيم كامب كويست هو معكسر صيفي للاطفال فريد من نوعهِ في الولايات المتحدة الامريكية مقارنة بباقي المعسكرات التي تديرها مجموعات دينية مختلفة فأن كامب كويست الذي أسسه أيدوين و هيلين كاجين في مدينة كينتوكي يقوم بأدارته مجموعة ذات توجهات إنسانية تدفع الاطفال للتفكير بصورة مستقلة و نقدية بالاضافة الى كل النشاطات الاخرى التي يقومون بتنظيمها. شاهد (WWW.CAMP-QUEST.ORG).

4. NEW YORK TIMES, 29 AUG. 2005. SEE ALSO HENDERSON (2006).

5 HENDERSON (2006).

6. الكاتب هنا يحاول أن يقارن بصورة ذكية بين الكنيسة المسيحية و الانشقاقات التي حدثت فيها وبين كنيسة و حش السباغيتي الطائر. (المترجم)

التساؤل عن إلحادي, بأن أنوه بأن الذي يسألني مُلحِد أيضاً فيما يتعلق بزيوس و ابوللو و آمون و رع و ميثراس و بعل و ثور و أودن, العجل الذهبي و وحش السباغيتي الطائر. و كُل ما فعلتهُ أنا هو إضافة إله آخر للمجموعة.

الكل يشعر بأن لديه الحق للتعبير عن الشك الشديد حد التكذيب أحياناً – بغض النظر عن اننا (في هذهِ الايام) لسنا بحاجة للقلق بخصوص وحيد القرن و بابانوئيل و إله الاغريق والمصريين القدماء والرومان والفايكينغ. أما في حالة ألإله الابراهيمي فعلينا أن نزعج انفسنا بشأنه, لأن هُناكَ العديدين مِمَن نتقاسم معهم الحياة على سطح هذا الكوكب مِمَن يعتقدون بوجوده فعلاً. و مثال راسل عن أبريق الشاي الذي يعرض لنا بأن الأيمان بوجود مطلق يشبه الأيمان بالابريق السماوي, لا يغيير عبء البرهان مَنطقياً, برغم أن ألأمرَ يبدو كذلك في لعبة سياسية عملية. أن عدم القدرة على برهان عدم وجود الله مقبول وبديهي, ولكن هل هل من الممكن أثبات عدم وجود شئ ما. والمهم هنا هو ليس إذا كان من الممكن نفي وجود الله (ذلك غير ممكن) و لكن أن كان وجودهُ محتملاً. و هذا موضوع اخر. بعض الأشياء التي لا أحد يُمكن البرهان على عدم وجودها و لكن نحكم على احتمالات وجودها بأقل من أشياء اخرى لا يُمكن اثبات أو نفي وجودها ايضا. و ليس هُناكَ أي سبب لاعتبار الله منيع عن الاعتبار والوضع ضمن طيف الاحتمالات. وبالتأكيد ليس هُناكَ أي سبب لاعتبار احتمال وجوده من عدمهِ 50بالمائة فقط لاننا لانستطيع البرهان على وجوده من عدمه كما سنرى لاحقا.

هل يستطيع العِلمْ أن ينفي وجود الله؟

كما تكلف هاكسلي العناء ليؤيد اللاأدريين النزيهين كلامياً, فالشئ نفسه يفعله الربوبيين في منتصف سلم الاحتمالات السبعة و لكن من الجهة المعاكسة, و لِسببٍ مكافئ. عالم الدين آليستير ماكغراس ركز على ذلك في كتابه إله دوكنز: **جينات, ميميات**[1] **و أصل الحياة**. و بالتأكيد, و بعد مُلخص عادل

1.الميمة (MEME) مصطلح تم سكه عام 1976 من قبل المؤلف نفسه و يشير هذا المصطلح إلى "وحدة المعلومات الثقافية" التي يمكن نقلها من عقل لآخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات من فرد لآخر. (المترجم)

مثير للاعجاب عن أعمالي العِلمية, يبدو وكأنما بقيّ لديه نقطة واحدة لينقضها: استحالة نِكران إننا لا نستطيع تفنيدَ وجود الله. وصفحة بعد أُخرى في كتابه هذا أجد نفسي أخربش على الهوامش "ابريق شاي". ومرة اخرى يستعين بهاكسلي في الموضوع, حيث يقول ماكغراس "**ضقت ذرعا بالمؤمنين و المُلحِدين معاً و هم يقيمون الححج العقائدية القائمة على ادلة تجريبية ناقصة, هاكسلي اعترف بأنه لا يُمكن الاجابة عن السؤآل المتعلق بالله بإستعمال الطرق العلمية**".

ويستطرد ماكغراس بالاقتباس من ستيفان جاي غولد في محاولة مشابهه: "**أقولها لكل الزملاء ولِلمرة المليون (من جليسي الكليات و حتى مقدمي الاطروحات العلمية): العِلمْ ببساطة لا يستطيع (بإستعمال الطرق الشرعية) الحُكم في قضية إذا ما كان الله قائما على الطبيعة. و لا نؤكده ولاننفيه, بل و ببساطة نقول بأنه ليس لدينا كعلمأ القدرة للتعليق على هذا الموضوع**".
وبالرغم من كُل هذهِ الثقة الرهيبة والنبرة ألحادّة فيما يزعم, فهل هُناكَ أي سبب لتصديق هذا؟ لماذا لا يحق لنا التعليق على الله كعُلماء؟ و لِماذا لا يكون إبريق الشاي و وحش السباغيتي الطائر منيعين من الشكِ بنفس الدرجة؟ و كما سأناقِش الآن, فإن كوناً مع خالق مشرف عليه سيكون حتماً نوعاً مغايراً للكون بدون خالق. لِماذا الحكم بأن هذا ليس سؤالا علميا؟
غولد يستمرُ في فَنّ العناء من اجل فكرة في كتابه الأقل شعبية, **صخور الازمنة**. و فيه طرح مصطلح جديد يعرف بــ "**الاختِصاصات الغير متداخلة**[1]" و أختِصارها أ.غ.م.

الشبكة العلمية, أو القضايا الخاصة بالعلم تغطي العالم التجريبي: مما يتكون الكون(حقيقة) و كيف يعمل بهذا الشكل (نظرية). القضايا الدينية تمتد لتعنى بما يتعلق بالمعنى المطلق والقيم الأخلاقية. و ليسَ هُناكَ من تداخل في تلك القضايا, و لا يُمكن أن يتأثروا ببعض (كمِثال, قضية الفن وقضية معنى الجمال). و لنستشهد بالمقولة القديمة. العِلمْ يدرس عمر الصخور, و الدين يدرس صخور الزمن, العِلمْ يدرس السماء والدين يرينا كيفية الصعودِ اليها.

1. NOMA, Non–overlapping magisteria (المترجم)

يبدو ذلك رائعا – حتى الوقت الذي تبدأ فيه بالتفكير في هذهِ المقولة لبرهة. ما هي تلك الاسئلة الابدية التي يعتبر الدين فيها ضيف الشرف القابل للاجابة بينما على العِلمْ أن ينسل بعيدا ويحتفظ بإحترامه لنفسه؟

مارتي ريس, الفلكي المميز من كامبردج و الذي ذكرته مُسبقاً, يبدأ كتابه **بيئتنا الكونية** بطرح سؤالين و أعطى "أ.غ.م" اجابة ودية. "**السؤآل البارز والغامض عن سبب الوجود بشكل عام. وعما ينفخ الحياة في المعادلة الكونية ويجعلها حقيقة؟ سؤال كهذا لايقع في نطاق العلم, بل هو في مجال الفلاسفة وعُلماء الدين**". و لكن أنا افضل القول بأنه لو كان خارج نطاق العِلمْ فهو بالتأكيد خارج نطاق الدين (وأشِكُ بِأن الفلاسِفة سيشكرون ريس على وضعهم صفاً لِصف مع رجال الدين). و شي ما يدفعني لأن أعجَب من السبب الحقيقي الذي يعطي الحقَ لِرجال الدين بأن يكون لديهم نطاق أساساً؟ ولاأزال اذكُر مُلاحظات عميد كلية اكسفورد السابق. عِندما طلب أحد طلاب العلوم الدينية الشباب بمنحهِ عملاً بأختصاصهِ كباحث في علم الدين المسيحي مما دفع العميد للقول "**عندي شك عظيم عن امكانية اعتبار أختصاصِك أختصاصٌ على الاطلاق**".

ماهي مجالات الخبرة التي يقدمها عُلماء الدين في الدراسات الكونية العميقة و التي لا يستطيعُ العُلماء الاجابة عنها؟ في كِتابٍ آخر أقتبستُ كلمات لفلكي من أكسفورد عندما سألته سؤالا عميقا في موضوع الفلك: "آه, لقد خرجنا ألآن من نِطاق العِلم. و هنا علي أن اسلم السؤآل لصديقي رجل الدين". لم تكن لدي سرعة البديهة اللازمة حينها لِلأجابة التي كتبتها لاحقاً: "و لكن لماذا رجل الدين؟ و ليس الجنائني أو الطباخ؟" لماذا يحترم العِلمْ بشكلٍ عظيم طموح رجالات الدين عندما يتعلق الموضوع بأسئلة ليسوا مهيأئين بالتأكيد للاجابة عنها أكثر من العُلماء انفسهم؟

الكليشه المتكررة بملل (و على عكس الكليشيهات الأخرى, ليست حتى صحيحة) التي تقول بأن العِلمْ يبحث في أسئلة من نوع كيف, بينما الدين فهو المجال الوحيد المهيأ للاجابة عن لماذا. و ماهو تعريف (السؤآل لماذا) بحق السماء؟ لا يمكن اعتبار كُل عبارة تبدأ بكلمة "لماذا" سؤالا شرعياً. لماذا وحيد

القرن غير مرئي؟ بعض الاسئلة ببساطة لاتستحق اجوبة. ماهو لون التجريدية؟ ماهي رائحة الأمل؟ أن تكون الجملة صحيحة أعرابياً لا يجعلها ذات معنى, أو أنه يجب أخذها بجدية. و لا يعني ذلك ابدا, و حتى في حالة السؤآل الصحيح, الذي لايستطيع العِلمْ الاجابة عليه, أن الدين سيكون قادراً على ذلك.

رُبما أن هُناكَ أسئلة عميقة وصادقة و ذات معنى تقع خارج نطاق العِلمْ الى ألابد. ربما أن نظرية الكم تدق على بوابة اللاإدراك. و لكن ماالذي يجعل أي منا يفكر بأنه لو عجز العِلمْ عن اعطاء إجابة لسؤال ما, فإن الدين سيُجيب عليه؟ أشكُ بان فلكيا كامبردج و أكسفورد يعتقدان بأن رجال الدين لديهم الخبرة التي تؤهلهم لِلأجابة على اسئلة علمية عميقة. و أعتقد أنهُ كِلاهما, مرة اخرى, يتكلفان ليكونا مهذبين: رجال الدين ليس لديهم أي شيء ذو قيمة في أية مواضيع أخرى, لِذلك دَعنا نشغلهم ببعض الاسئلة التي لم و ربما لن يستطيع أحد الإجابةِ عنها. و على عكس اصدقائي الفلكيين, اعتقد بأنه ليس علينا أشغالِهم بأي شكل من الاشكال. في الحقيقة لا أرى حتى الان سبباً جيداً لِإعتبار علوم الدين علوماً على الاطلاق (لايتضمن ذلك تأريخ الديني, وآدابه اللغوية.. الخ).

و لكن بالمقابل نتفق جميعا على الاقل بان اهلية العِلمْ لِنصحنا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية فيهِ مُشكِلة أيضاً. و لكن هل يريد غولد حقا أن يعطي الحق للدين للفصل بين الجيد و السيء؟ إن عَدم إستطاعة الدين تقديم أي شئ آخر للأنسانية لا يُعطيهِ الحق بأن يملي علينا كيف نتصرف, و أي دين سنصغي له في هذه الحالة؟ الدين الذي يُصادِف أن تربيت عليه؟ و أي قسم من الانجيل علينا إتباعه, لأنهم لا يجتمعون على كُلِ شئ وبعض الآراء مقرف بكل المقاييس. كم عدد اللغويين الذين قرأوا مايكفي من الانجيل ليعرفوا بأن الموت هو عقوبة ممارسة الجنس, عقوبة جمع الحطب يوم السبت, وعقوبة عقوق الاهل؟ لو أستثنينا سفر التثنية وسفر اللاويين (كما يفعل المحدثين), فعلى أي اساس نقرر القيم الدينية التي نتقبلها, أم لعل علينا الاختيار القيم التي تناسبنا من بين ديانات العالم؟ و عندها علينا أن نسأل ثانية, ماهي المعايير التي نستعملها؟ و لو كان لدينا معيار مستقل لِلاختيار بين أخلاقيات الديانات,

لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزل عن الدين؟ وسأعود لهذا السؤآل في الفصل السابع.

ببساطة لا أستطيع تصديق أن غولد قد عنى الكثير مما كتبه في **صخور الازمنة**. و كما قلتُ سابقاً. كُلنا مُذنبين إذ تكلفنا العناء لِنكون لطفاء مع خصم لا يستحق و لكن ذو نفوذ, و أنا أعتقد أن هذا ما فعله غولد. من المعقول انه عنى صراحة و بقوة بأن العِلمْ ليس لديه أي شئ يقوله فيما يتعلق بوجود الله: "لا نستطيع تأكيده أو نفيه, بل ببساطة ليس لنا أي تعليق على ذلك كعُلماء". ذلك يبدو نوعاً من اللاأدرية الدائمة وغير القابلة للنقض. هذا يعني أن العِلمْ ليسَ قادراً حتى أن يضع حُكماً إحتمالياً عن هذا السؤآل. و هذه مغالطة شائعة بشكلٍ كبير. الكثيرين يرددونها كالدعاء و القليلين في اعتقادي فكروا بأبعادها – وهؤلاء يجسدون ما رمزت له "بفقر اللاأدرية". و على فكرة, لم يكن غولد لاأدرياً بل كان يميل بقوة لفئة مُلحِد واقعي. على أي اساس أتخذ هذا القرار إذا لم يكن هُناكَ ما يقال عن وجود الله؟

نظرية ألإله تتضمن أن الواقع الذي نعيش فيه لهُ فاعلٌ خارِق هو الذي صمم الكون, و العديد من فروع هذهِ النظرية تدعي أن المصمم يقوم بالصيانةِ على الدوام و أحيانا يتدخل بِمُعجزات, و المعجزات هي خرق للقوانين الغير قابلة للتغيير. ريتشارد سوينبورن, أحد قادة عُلماء الدين الانكليز, يُفاجِئُنا بصراحتهِ في هذا الشأن في كتابه **هل هُناكَ اله؟**:

> ما يزعمهُ المؤمن عن الله بان لديهِ القدرة على الخلق, الحفظ للأبد لأي شيء كبير أو صغير. و أنه يستطيع جعل الأشياء تتحرك أو تفعل أي شيء اخر.. يستطيع تحريك الكواكب كما أكتشفها كبلر, أو جعل البارود ينفجر عندما يقترب عود ثقاب منه, و يستطيع جعل الكواكب تتحرك بأي طريقة اخرى, وجعلَ المواد ,المتفجرة عادة, لا تتفجر تحت نفس الظروف. الله ليس محدوداً بقوانين الطبيعة, فهو الذي وضعها و يستطيع أن يغيرها متى شاء.

ما أسهلُ هذا, اليس كذلك! بأمكان ذلك أن يكون أي شي ما عدا "أختِصاصات غير متداخلة" وبعيد كُل البعد عنها. و ماذا يريدون القول ايضاً, على هؤلاء العُلماء المنشغلون بمدارس فكرية تتعلق بـــ"أختِصاصات اخرى" أن يعترفوا

بأن كوناً مع خالق خارق سيكون مُختلِفاً عن كون بدون خالق. و الفرق بين النظريتين لا يُمكن أن يكون أكثر مبدئيةٍ وعُمقاً, بالرغم من انه ليس من السهل تجربة ذلك عملياً. ذلك يقوض تماما القول المأثور و المغري بأن على العِلمْ السكوت تماما عندما يتعلق ألأمرَ بمسآئل دينية بحتة. وجود أوغياب الخالق الخارق هو سؤال علمي بشكل صريح, على الرُغم من عدم قدرتنا – حتى الان – الاجابة عليه. و كذلك ألأمرَ بالنسبة كُل واحدة من الأعاجيب التي يَعتمد عليها الدين ليخلق إنطِباعاً في نفوس العديد من المؤمنين, أما تكون صحيحة او كاذبة.

هل كان للمسيح عيسى أبٌ أنساني, و هل كانت أمهُ عذراء يوم ولدته؟ سواء كان أو لم يكن لدينا دليل نقرر به, فلا يزال هُناكَ سؤال علمي صارم و أجابة مبدأية مؤكدة: نعم أو لا. هل أقامّ المَسيحُ اليعازر من الموت؟ و هل قام هو نفسه ثانية ثلاثة ايام بعد صلبه؟ هُناكَ اجابة لكل سؤال من هذا النوع, سواء كان أو لم يكن لدينا دليل عملي, وهو جواب علمي محض. كما أن الطرق الواجب استعمالها لحل المسألة, في حال العِثور على أدلة مُساعِدة عملية, يجب أن تكون طرقاً علمية صرفة. و لِجعل المسألة أكثر درامية, لِنفترض بأننا و لِسببٍ ما عثرنا على دليل يقول بأن الحمض النووي للمسيح لايوجد فيه أثر لأب بشري. فهل ننتظر من رجالِ الدينِ أن يهزوا اكتافهم بمقولات على وزن... "**وما يهم ذلك؟ الادلة العلمية ليس فيها ما يخص علوم الدين. هذا اختصاص اخر! مايهمنا هو السؤآل الابدي عن المسائل الأخلاقية. لاحمض نووي أو أي اكتشاف علمي آخر سيكون له أي تأثير على أختِصاصِنا بأي شكل من الاشكال**".؟؟

الفِكرة بحد ذاتها سخيفة بل و نستطيع ان نكون موقنين كلياً بأنه لو ظهرت أي ادلة علمية, فيما لو ظهرت, لتشبث بها هؤلاء و لوصلت الضجة للسماوات. أن شيوع مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" يعود لعدم وجود ادلة تدعم وجود الله. و في اللحظة التي يظهر فيها أي أقتِراح لدليل ما في صالح الأيمان الديني فلن يتوانى رجال الدين عن رمي مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" من النافذة. لو تركنا رجال الدين المُحدثين (حتى هؤلاء يقومون بسرد الاعاجيب على البسطاء لجمع الاتباع) على حدة فإن تلك الاعاجيب

المزعومة هي السبب الرئيسي الذي يجعل من يصدقها مؤمنا, و الاعاجيب بالتعريف هي شئ يناقض المبادئ العلمية.

كنيسة الروم الكاثوليك تستخدم حيناً مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" و حيناً أخرى تناشد بتصديق المُعجزات كمُعتقد أساسي في مجال القدسية. ملك بلجيكا الراحل بودوان الأول مرشحاً ليكون قديساً, لانهُ عارض مسألة الاجهاض. و تحقيقات جدية تجري الان للكشف عن أي معجزة شفائية يمكن نسبها للدعاء و الصلوات التي ترفع اليه منذ موته. لا أمزح هنا, فهذه وقائع, و ذلك مثل جاري على قصص القديسين. وأنا أتخيل بأن ذلك مما يُسبب الأحراج للحلقة الأكثر تقدمية من أعضاء الكنيسة. لماذا تبقى أي حلقة كنسية تستحق لقب"الحداثة" تابعة للكنيسة هو بذاته من الاسرار العميقة التي يسر بها عُلماء الدين.

أذا واجهنا غولد بقصص المعجزات, هل سيفترض بأن رده سيكون كما يلي. الفكرة وراء مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" هو انها صفقة مزدوجة بين العِلمْ و الدين. و في اللحظة التي يطأ فيها الدين على ساحة العِلمْ و يبدأ بالتدخل في العالم الحقيقي بمعجزاتهِ, فإنه سيتوقف عن أن يكون دينا بالمعنى الذي يدافع عنه غولد, وتسقط اتفاقية الصداقة الموقعة بين الدين والعلم. لنلاحظ, على أي حال, بأن الدين الخالي من المعجزات الذي يدافع عنه غولد ليس مقبولا من معظم المؤمنين على المقاعد الكنسية الطويلة أو على سجادات الصلاة. لأن ذلك سيُسبب لهم خيبة أمل عظيمة. وأقتبس هنا تعليق آليس على خطاب أُختها قبل أن تسقط في ارض العجائب[1], "**ما فائدة الإله الذي لا يجترح المعجزات و لا يستجيبُ الصلوات؟**" لنتذكر التعريف الذكي للفعل "صلى" و الذي قدمه امبروس بيرس: "هو المطالبة بإبطال القوانين الكونية لاجل ملتمس واحد غير مستحق لذلك بإعترافه هو شخصيا". هُناكَ متسابقون يؤمنون بأن الله ساعدهم على الفوز على الخصم, الخصم الذي لا يبدو بالمقابل إقل استحقاقا للتفضيل من قبل الله. هُناكَ سائقين يؤمنون بأن الله قد حجز لهم أماكن لركن سياراتهم و بالمقابل حرم احدا آخر منها. أن اسلوب

1. آليس شخصية قصصية في قصة للأطفال تحت عنوان "آليس في بلاد العجائب" كتبها الكاتب و عالم الرياضيات الانجليزى تشارلز لوتويدج دودسن. (المترجم)

الأيمان منتشر بشكل يدعوا للاحراج, و لا يبدو من الممكن أن يتأثر بشئ عقلاني (ظاهريا) كمبدأ "أختصاصات غير متداخلة".

برغم ذلك, لنتبع غولد ونلغي الكثير من الأشياء ونضع الحد الادنى للدين: لامعجزات, و لا أتصالات بيننا و بين الله بالاتجاهين, و لا لعب بالقوانين الفيزيائية, و لا ندعس على ساحات العلم. أكثر ما هنالك الأيمان بظروف مبدئية بأنه في وقت ما تطورت النجوم والكواكب والعناصر الكيميائية, وظهرت الحياة. هل هذا الفصل كاف؟ هل بإمكان مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" الأستمرار بجانب دين متواضع معتدل كهذا؟

ربما تظن بأن ألأمرَ كذلك. و لكن سأقول بأن حتى ألإله "اللامُتدخل" كهذا, بالرغم من أنهُ أقل دموية و حماقة من ألإله الابراهيمي, فإنه أيضاً لا يعدو عن كونه أفتِراض علمي. سأعود للنقطة الاساسية: الكون الذي يفترض اننا نعيش فيه بمفردنا أو مع مخلوقات ذكية أخرى تتطور ببطئ هو كون مُختلف تماماً عن كون صممه ويوجهه طاقة ذكية مِن نوع ما ذكائها التصميمي كان سبباً في وجودهِ. و سأقبل بأن التفريق بين هذين الكونين لن يكون مسألة بسيطة. على الرغم من ذلك. فهُناك شي اساسي خاص تماما لنظرية الكون المُصصم, و يوجد ما يقابله في الخصوصية في النظرية المغايرة والمعروفة: التطور التدريجي بمعنى عام, نظريتين متناقضتين بأقصى ما يمُكن تخيله. نظرية التطور تعطي تفسيراً لوجود كيانات أحتمال وجودها صغير جداً لدرجة يمكن اهمالها تماما في أي نظرية اخرى. و نتيجة المحاججة تلك ستكون, كما سأبين في الفصل الرابع, ضربة قاضية لنظرية الاله ككل.

تجربة الدعاء الكبرى

أحد. اليس من المنطقي أن تكون العائِلة المالكة بصحة جيدة بشكل ملحوظ بالمقارنة معنا, نحن الذين لا يصلي لنا الا أقربُ اقاربنا؟ غالتون نظر للموضوع ولم يجد أن فروق احصائية تدعم النظرية. رُبما أنه كان هجائيا بما فعل, كما صلى أحد المرات على قطع صغيرة متفرقة من الارض ليرى أن كانت مغروساتها ستكبر أكثر من القطع الاخرى (لم ينجح في ذلك بالطبع).

و في وقت قريب, قام الفيزيائي راسل ستانارد (احد اهم ثلاث عُلماء مُتدينين في إنجلترا, كما سنرى) بإستخدام مركزه العلمي لدعم مبادرة ممولة من – بالطبع – من مؤسسة تمبلتون, للتأكد بالتجربة من الدعوى القائلة بأن الدعاء للمرضى يؤدي لتحسين صحتهم.[1]

كي تكون تجربة كهذه دقيقة يجب أن تتحلى بمبدأ "العمى المزدوج". و قد تحقق ذلك بصرامة. اختير المرضى بطريقة عشوائية تماما لثلاثة فئات, الفئة الاولى فئة التجربة (يتلقون دعوات), الثانية فئة المقارنة (لايتلقون دعوات), لا المرضى و لا اطبائهم أو ممرضيهم و حتى القائمين على التجربة مسموح لهم بمعرفة من المرضى المدعو لهم ومن هم الذين ينتمون لمجموعة الاختبار. و على الداعين معرفة اسماء الذين يدعون لهم – وإلا فكيف يمكنهم التأكد من انهم لا يدعون لأناس اخرين بالخطأ؟ ولذلك اعاطاهم القائمون على التجربة الاسم الاول للمريض و أول حرف من أسم العائِلة. ويجب أن يكون ذلك كافيا ليضع الله يدهُ على السرير الصحيح في المستشفى.

ان فكرة اقامة تجربة كهذه بحد ذاتها من السخافة بمكان, لتفتح الباب امام الكثير من الاستهزاء. و هذا ما حصل فعلاً, أستطيع أن أتخيل صوت أحد المرضى:

> ماذا تقصد يارب؟ لا تستطيعُ شفائي لانني ضمن مجموعة الاختبار؟ .. حسنا. يبدو أن دعوات عمتي ليست كافية. و لكن يارب, السيد ايفانز في الغرفة المجاورة ..ماذا تقول... تلقى دعوات من الفِ شخص في اليوم؟ و لكن السيد ايفانز لايعرف

1. H. Benson et al., 'Study of the therapeutic effects of intercessory prayer (STEP) in cardiac bypass patients', American Heart Journal 151: 4, 2006, 934–42.

ألف شخص.. آه... نادوه بجون .أ. و لكن يارب, كيف علمت انهم لايقصدون جون ايلسورثي؟ آها... أستعملت عِلمكَ اللامحدود لِتعرف أي جون يقصدون.. و لكن يارب...

بكل جراه وبدون أي التفات لأي سخرية صرف فريق البحث2,4 مليون جنيه استرليني من اموال مؤسسة تمبلتون تحت رئاسة الدكتور هربرت بينسون, طبيب قلبية من مركز مايند/بودي الطبي بالقرب من مدينة بوست. و قد كتب عنه في أحد النشرات الصحفية أنهُ "**البراهين على فعالية الدعاء في الاماكن الطبية تزداد**". أؤكد ثانية أن التجربة كانت في أيادٍ أمينة ولم تمسها أي شكوك. و الدكتور بينسون و فريقهُ راقبوا 1802 مريضا في ست مستشفيات مختلفة, وجميعهم خضعوا لنفس العملية الجراحية للشريان التاجي. و المرضى قُسِموا لثلاثة مجموعات. المجموعة الاولى تلقت الدعوات ولم يعرف اعضائها بذلك. المجموعة الثانية (المقارنة) لم تتلقى دعوات ولم يعرف أعضائها بذلك. و المجموعة الثالِثة تلقت دعوات وعرفوا بذلك. المقارنة كانت بين المجموعة الاولى والثانية لمعرفة فعالية الدعاء. أما المجموعة الثالثة فكانت لمعرفة التأثير النفسي الناتج عن معرفة المريض بأن احدا ما يدعو له.

الأدعية رُفِعت في تجمعات في ثلاث كنائس, واحدة في مينيسوتا, و واحدة في ماساشوستس, و الثالثة في ميسوري, كلها بعيدة عن المستشفيات الثلاثة. و اعطي الداعون كما ذكرنا الاسم الاول و أول حرف من اسم العائِلة. من الجيد أن تكون للتجربة قياسيات مُحكمة أكثر ما يمكن. وكل الداعين عليهم أن يقولوا الجملة التالية "لأجل عملية جراحية ناجحة وشفاء سريع و بدون مُضاعفات"

النتيجة كما نُشِرت في المجلة ألأمرَيكية للقلب في نيسان 2006 كانت قاطعة. لم يكن هُناكَ فرق بين من تلقوا الدعوات وبين من لم يتلقوها. ياللمفاجأة. والفرق كان بين الذين عرفوا بانهم يتلقون الدعاء و من لم يعرفوا "واضحاً", و لكن بالاتجاه المعاكس. الذين عرفوا بأن الناس تدعوا لهم حصلت لهم مضاعفات أكثر بكثير من الذين لم يعرفوا. هل عاقب الله النتائج ليرينا عدم موافقته على مؤسسة المعتوهين تلك؟ الأكثر احتمالاً هو أن هؤلاء

الذين عرفوا بأنهم يتلقون لدعوات قد عانوا من اجهاد نفسي كنتيجة :" القلق على القابلية الجسدية" كما وصفها المجربون. الدكتور تشارلز بيثيا, أحد البحاثة قال "**ربما أن معرفتهم جعلتهم يتساءلون, هل أنا مريض لهذه الدرجة حتى استدعى ألأمرَ الدعاء لي؟**" و في هذا المجتمع المغرم بدعاوي القضاء في ايامنا. هل نبالغ لو آملنا بأن يجتمع عدد من المرضى و يرفعوا دعوى قضائية ضد مؤسسة تمبلتون لان ابلاغهم بانهم تلقوا صلوات قد سبب حدوث مضاعفات صحية لهم.

ليس من المفاجئ أن هذهِ الدراسات تلقت معارضة عُلماء الدين, ربما لان تلك النتائج تستطيع أن تسبب بعض التسخيف للدين. عالم الدين ريتشار سوينبورن من أكسفورد كتب ,بعد فشل الدراسات, مُعترضاً, على اساس أن الله يستجيب للدعوات فقط في حالة كونها موجهة اليه لأسباب صالحة[1]. الدعاء لشخص بدلا عن اخر, لسبب أن النرد وقع عليه في دراسة (عمياء مزدوجة), لا يشكل سبباً كافياً. و الله سيرى من خلاله. وسوينبورن لديه الحق في ما يقول أيضاً. و لكن في مقطع آخر من المقاله يصبح سوينبورن أكثر من هزلي. و ليس للمرة الاولى, يحاول أن يظهر المعاناة كعدل في كون يديره الله:

> معاناتي تعطيني الفرصة لأظهر شجاعةٍ وصبراً. و تعطيك الفرصة لتظهر تعاطفاً و تقدم مساعدة لتخفيف معاناتي. و تعطي المجتمع فرصة للاختيار و لا تأخذ القرار فيما إذا كانو يريدون استثمار الكثير من المال لايجاد ما يشفى هذا النوع أو ذاك من المعاناة.... و على الرغم من أن الله القدير يحزن على معاناتنا و لكن همه الاول هو أي يظهر كُل منا صبرا, تعاطفا وكرما و بذلك, تتجسد شخصيته المقدسة. بعض الناس بحاجة ماسة ليمرضوا بشدة وذلك لتأمين الفرصة للاخرين ليتخذوا قراراً مهما. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تشجع الناس ليتخذوا قرارات جدية عن الشخص الذي يريدون أن يؤولوا اليه. و للبعض ألآخر, فالمرض شئ لاقيمة له".

---

1 . RICHARD SWINBURNE, IN SCIENCE AND THEOLOGY NEWS, 7 APRIL 2006, HTTP://WWW.STNEWS.ORG/COMMENTARY-2772.HTM.

هذا الفكر المشوه, كمثال حي للعقلية المُتدينة, تذكرني بأحدى حلقات التلفزيون التي كنت فيها مع سوينبورن, و كان هُناكَ أيضاً بروفيسورنا الاكسفوردي بيتر اتكينز. سوينبورن حاول في لحظة ما أن يبرر الهولوكوست على اساس انها اعطت فرصة رائعة ليظهروا شجاعة ونبل. بيتر اتكينز نزلَ فيه وقتها, "**لتتعفن في الجحيم**"[1] .

و في مكان آخر نرى مرة اخرى قطعة من الفكر الديني من مقال سوينبورن. حيث يقترح بانهُ لو اراد الله أن يرينا وجوده لوجدَ طريقاً افضل من التحيز في احصائيات تجربة شفائية لمرضى القلب. لو أنهُ أراد حقاً أن يُقنعنا بوجوده "**لملأ الدنيا بالمعجزات الخارقة**". و عندها يسقط هذه الجوهرة الفكرية من يده ويقول: "**هناك العديد من الادلة لوجود الله, و ربُما وجود أدلة أكثر من اللازم ليسَ جيداً من اجلنا**" ! إقرا هذا ثانية وجود ادلة أكثر من اللازم ليسَ جيداً من أجلِنا. ريتشارد سوينبورن متقاعد حديثا وحاصل على ارفع مستوى للاستاذية لعلم الدين في إنجلترا, وعضو في الاكاديمية البريطانية. لو كان عالم دين هو ما تطلب فلن تحصل على ارقى من ذلك. و لكن ربما أن هذا ليس طلبك.

سوينبورن لم يكن رجل الدين الوحيد الذي شكك في الدراسة بعد فشلِها. و قد اعطي للموقر ريموند ج. لورنس مساحة جيدة من نيويورك تايمز لشرح لماذا على رجال الدين المُلتزمين أن يتنفسوا الصعداء بإرتياح لانه لم يتم ايجاد قرائن على أن الدعاء له أي تأثير يذكر. هل كان سيعزف نغما آخر لو أن دراسة بنسون نجحت في استعراض فعالية الدعاء؟ ربما لا, و لكن تأكد بان اخرين كُثر من رجالات الدين سيفعلون. أن مقالة لورنس تبرز بصورة رئيسة بالايحاء التالي: "**منذ فترة قريبة, أخبرني أحد الزملاء بأن إمرأة مؤمنة و مثقفة أتهمت الطبيب الذي يعالج زوجها باخطاء مهنية في المعالجة. وذلك في ايام إحتِضار زوجها الاخيرة, وملخصها انه فشل في الدعاء له**"

1. تم حذف هذا المشهد في الحلقة التي تم عرضها.

الاخرين من اتباع مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" أكدوا بأن دراسة تأثير الدعاء بهذا الشكل هو تبذير للمال لإن التأثير الخارق بالتعريف يقع في نطاق لا يصله العلم. و لكن تمويل منظمة تمبلتون للتجربة يجعلها معترفة صراحة بأن تأثير وساطة الدعاء المزعوم ,على الاقل بالمبدأ, هو في نطاق العلم. تجربة (عمياء مزدوجة) بالامكان تحقيقها و قد اجريت فعلا. وكان من الممكن أن تكون نتائجها إيجابية. ولو حصل ذلك, هل بإمكانك تخيل رجل دين واحد يتجاهل نتائجها على اساس إن العِلمْ ليس له أي تأثير على الامور الدينية؟ بالتأكيد لا.

لانحتاج للقول هنا, بأن النتائج السلبية لن تؤثر على المؤمنين. يقول بوب بارث, المدير الروحي لجمعية الصلوات في ميسوري و التي قدمت قسماً من الدعاء للتجربة: "**رُبما يقول الأنسان المؤمن بأن دراسة كهذه مهمة, و لكننا صلينا لمدة طويلة و رأينا تأثير الدعاء, و نعرف انه فعال, و الدراسات عن الدعاء والصلوات لاتزال في بداية الطريق**". طبعاً: نعرف من إيمانِنا بأن الصلوات لها تأثير, و إذا فشلت الاثباتات فسوف نبقى على موقِفِنا حتى نحصل على النتائج التي نريدها.

مدرسة التطوريين السياسية

نحن, المُحبين للعلم, علينا أن ندرك بان عدو عدونا صديقنا. التطوريون يصرفون الكثير من الوقت بإهانة من يُمكن أن يكونوا حلفائنا. و هذا أكثر وضوحاً في حالة التطوريين العلمانيين. المُلحِدين يصرفون وقتاً أكبر بإهانة المسيحيين المتعاطفين بدلاً من مواجهة حُلفاء نظرية الخلق. عندما كتب يوحنا بولس الثاني رسالة يدعم فيها الداروينية, كان جواب ريتشارد دوكينز ببساطة بأن البابا منافق, و لا يُمكن أن يكون متماشيا اصلا مع العِلمْ و أن داوكنز يفضل متطرفا صادقاً عليه.

ومن وجهة نظر تكتيكية, أستطيع رؤية العلاقة السطحية للمقارنة التي أتى بها روس عن مناهضة هتلر: "**وينستون تشرشل و فرانكلين روزفلت لم يعجبا بستالين و لا الشيوعية. و لكنهما أدركا أنهُ من ألأفضل العمل مع السوفييت ضد هتلر. والتطورين, ولنفس السبب, عليهم أن يعملوا جميعا ضد الخلقيين**". و لكنني في النهاية أخذتُ برأي زميلي عالم الجينات جيري كوين من شيكاغو عندما كتب بأن روس...

> فشِل في أستيعاب طبيعة الخلاف الحقيقية. إنها ليست تطوريين ضد خلوقيين. و بالنسبة لعُلماء مثل دوكينز و ويلسون (عالم البيولوجيا الشهير من هارفارد) فأن الحرب الحقيقية هي بين العقلانية و الغيبية. العِلمْ يأتي من العقلانية, بينما الدين هو أكثر اشكال الغيبيات شيوعا. و الخلوقية ليست الا أحد أعراض ما يرون فيه العدو الاكبر: الدين. الدين يمكن أن يستمر بدون نظرية الخلق, و لكن نظرية التي لا يُمكن أن تعيش بدون الدين.[1]

أشترك بشئ واحد مع الخلوقيين, إنهم مثلي, على عكس "التطويريين السياسيين", لا يعترفون بـــ مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" وفصل الاختصاصات. و لكن بدون أي احترام للحدود, يحلو للخلوقيين دق المسامير القمعية الوسخة في مروج العلم. و يقاتلون بوساخة, ايضا. محامو الخلوقيين في القضايا المرفوعة في القرى النائية في أمريكا, يبحثون عن تطوريين

1 . JERRY COYNE'S REPLY TO RUSE APPEARED IN THE AUGUST 2006 ISSUE OF PLAYBOY.

مُلحِدين علنا. و أعلم بأن اسمي استخدم بهذه الطريقة. ذلِك تكيتيك محكم لأن هيئات المحلفين المنتقاة بشكل عشوائي ستتضمن على الارجح بعض الأعضاء الذين تربوا على فِكرة أن المُلحِدين شياطين متخفين, تماماً مثل الشواذ جنسياً ضد الاطفال أو "الارهابيين" (ما يوازي ساحرات القرون الوسطى و شيوعيين ماكارثي في التأريخ ألأمرَيكي). و لو وضعني مُحامٍ لِخلوقيين على مَنصةِ الشهادة سيكسبُ هيئة المحلفين فوراً لصالحهِ بمجرد سؤالي: "**هل كانت مَعلوماتكَ عن التطور أحد الاسباب التي دفعتك للإلحاد؟**" إجابتي ستكون نعم بالتأكيد, و هكذا و بكلمة واحدة أكون قد جعلت هيئة المحلفين ضدي. و بالعكس فالإجابة الصحيحة قضائيا ستأتي من الطرف العلماني: "أن اعتقادي الديني, أو عدمه, هو شأنٌ شخصي, و ليس بأيه حال يهمُ المحكمة و لا علاقة لهُ بالعلم الذي امارسه." أنا شخصيا لاستطيع قول ذلك بصدق, والاسباب ستأتي في الفصل الرابع.

كتبت صحفية الغارديان مادلين بونتينغ كتبي مقالا بعنوان "لماذا يشكر لوبي الخلوقيين الله على ريتشارد دوكينز"[1]. لا إشارة في المقال على أنها استشارت أحداً بإستثناء ميشيل روس, و من المُمكِن أن يكون هو كاتب المقال بالوكالة. دان دينيت أجاب بإقتباس مُلائِم من العم ريموس:

> أجد من المُذهل أن أنكليزيان – مادلين بونتينغ ومايكل روس – قد وقعا ضحية للنسخة ذاتها لأشهر خدعة نصب امريكية. عندما يقع الارنب فريسة للثعلب فأنه يتذرع بالتالي: "أرجوك.. أرجوك, إفعل ما تشاءُ بي أيها الثعلب و لكن لا ترميني في منطقة الورد الجبلي تلك!" وعندما يفعل الثعلب ذلك يصبح الارنب في أمان. عندما يكتب الداعية ألأمرَيكي وليام ديمسكي لريتشارد دوكينز سائلاً أن يُكمل العمل الجيد فيما يتعلق بالتصميم الذكي, فإن روس و بونتينغ يقعان فريسة لذلك "آه .. ايها الثعلب.. أن زعمك بأن دراسة التطور سوف تنفي وجود الخالق – هل سيؤدي تدريس مادة الأحياء في المدارس الى مسآئلة المدرس, لأنهُ ينتَهك مبدأ فصل الدين عن الدولة!". بالطبع و عليك أيضاً أن تكون حذراً

1 . MADELEINE BUNTING, GUARDIAN, 27 MARCH 2006.

بخصوص علم الوظائف الحياتية لانها تؤكد بأن الولادة العذرية شئ مستحيل....[1]

هذا كلهُ, ناقشهُ بالتفصيل عالم الاحياء ب. ز. مايرز و بالمُستطاع الاعتماد بشكل موثق على حدة بصيرته في مفكرته على الانترنت. لااقول هنا بأن جميع زملائي في لوبي الاسترضاء هم من المنافقين.[2]

أنا لا أدعي بأن زملائي في اللوبي التطويري هذا غير ملتزمين. ربما أنهم يؤمنون فعلاً بأن العلم لا يستطيع ان ينفي وجود الله و لا أستطيع التوقف عن التساؤل هنا كم من الوقت صرفوا بالتفكير وكيف يتصرفون حيال النزاع الداخلي في عقولهم. لا داعي للتعمق في هذا الشأن ألآن, و لكن علينا أن لا ننسى المناخ السياسي عند محاولة فهم آراء العلماء الطبيعيين في أمور الدين: أنها حرب ثقافات سريالية تمزق أمريكا الان. حلول سياسية للمشاكل الدينية سنراها مرة اخرى في فصل لاحق. والآن سأعود لِلاأدرية و أمكانية التقليل من جهلنا و كذلك التقليل من عدم تأكدنا من وجود أو عدم وجود الله.

ألاقزام الخُضر

صرف المال في محاولة اخبارنا عن حياة خارج الارض, بإستعمال تلسكوبات راديوية لمسح السماء بأمل التقاط اشارة من كائنات ذكية فضائية.

اقدر عاليا رفض ساغان التفكير بشعوره الداخلي عن حياة أخرى في الفضاء. و لكننا نستطيع (و ساغان قد فعل ذلِك ايضاً) أن نُعطي تقييماً عقلانياً عن ما يلزم معرفته لنصبح قأدرين على تقدير الاحتمال. ربما تكون البداية ليست أكثر من قائمة النقاط المجهولة لدينا, كما في معادلة درايك الشهيرة[1], و التي قال عنها بول دافيس, عبارة عن حصيلة للاحتمالات. و التي تقول بأن الرقم التقديري لعدد الحضارات في الكون هو عبارة عن حاصل ضرب سبعة عوامل ببعضها. العوامل السبعة تتضمن عدد النجوم, عدد الكواكب المشابهة للارض لكل نجم, و أحتمالات ذلك, اضافة لعوامل اخرى لست بصدد الحديث عنها الآن لكن ما أُريد توضيحه هنا هو أن كُل هذهِ العوامل مجهولة, أو معروفة تقديريا مع هامش خطأ هائل. و عند ضرب العوامل المجهولة ببعضها نحصل على على عدد معين هو عدد الحضارات المحتمل مع هامش خطأ أعظم بكثير من أن يتجاهله الأنسان و بالتالي اللاأدرية ربما تكون الموقف الوحيد العقلاني هنا.

بعض عوامل درايك أصبحوا اقل مجهولية الآن عن عام 1961 عندما كتب المعادلة. وقتها كان نِظامنا الشمسي هو الوحيد المعروف لكواكب تدور حولَ نجم, و مشابهتهُ مع نظام الاقمار للمشتري والمريخ. و تخمين عدد انظمة الكواكب في الكون كان مبنيا على نماذج نظرية, مدعومة بـــ"مبدأ المتوسطات" و المقصود هنا هو الاحساس (اتت الكلمة من تجارب تأريخية فردية عن كوبرنيكوس وهابل واخرين) بأنه ليس هُناكَ أي شئ خاص أو غير عادي يميز الكوكب الذي تصادفَ أن نكون عليه. و لكن هذا المبدأ مع الاسف باطل بوجود المبدأ "الانثروبي[2]" (انظر الفصل الرابع) والقائل بأنه: لو كان نظامنا الشمسي هو الوحيد في الكون, فأنه بدورهِ المكان الوحيد الذي أستطعنا التواجد فيه, ككائنات مفكرة تطرح هذا السوآل. و الواقع أن وجودنا نفسه يعود لينفي امكانية اننا نعيش في مكان "متوسطي".

---

1. د. فرانك درايك عالم فضاء وفيزيائي أمريكي قام بحساب النسبة المحتملة لعدد الحضارات المتطورة الموجودة في مجرة درب التبانة من خلال معادلة شهيرة عرفت بأسمه. راجع HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/DRAKE_EQUATION. **(المترجم)**

2. يعرف ايضاً بالمبدأ الانساني و الذي يفترض ان الكون جاء كما هو عليه كي يسمح يتطور كائنات حية مثلنا تستطيع دراسته كما هو عليه. (المترجم)

التقديرات الحديثة لوجود أنظمة شمسية لم يعد مبنياً على مبدأ المتوسطات, بل على ادلة مباشرة. المرصاد الطيفي, الذي قضى على أيجابية كونت يلعب دوره مرة أخرى. مراصدنا ليست بالقوة اللازمة لترى الكواكب التي تدور حول النجوم بشكل مباشر. و لكن موقع النجم يتقلقل بجاذبية الكواكب المحيطة به وهي تلف حوله, والتلسكوب الطيفي يلتقط تأثير دوبلر[1] في طيف النجم, هذا إذا كان الكوكب المحيطي كبير. بإستعمال هذهِ الطريقة وصل عدد الكواكب لـــ170 في وقت كتابة هذا الكتاب, ويدورون حول 147 نجم, و لكن الرقم سيزيد حتما وقت قرائتك للكتاب[2]. و حتى الآن فهم كواكب عملاقة بحجم المشتري, لان المشتري هو أقل حجم يمكننا معه أكتشاف الانحراف المداري للنجم في التلسكوبات الطيفية الحالية.

هذا أدي لتطور نوعي على الاقل في حساباتنا عما قدمه درايك في معادلته. و هذه خطوة لِلامام بشأن لاأدريتنا حول القيمة النهائية التي تقدمها المعادلة. سنبقى لاأدريين حيال موضوع وجود حياة في الفضاء و لكن أقل لاأدرية مما كنا سابقاً فقط لاننا اقل جهلاً. العِلمْ يقتطع أجزاء من اللاأدرية, بشكل إضطَر معه هاكسلي أن يعاني عندما تكلم عن حالة اللاأدرية في وجود الله. أنا أُريد أن أُجادل, رغم لباقة امتناع هاكسلي وغولد و آخرون, بأن السؤآل عن وجود الله ليسَ بالمبدأ و الى الابد خارجاً عن نِطاقِ العِلم. كما هو الحال في الطبيعة و النجوم, بعكس رأي كونت, و كما هو الحال في احتمال الحياة في كواكب تدور حولها, يستطيع العِلمْ على الاقل أن يقذف بعض احتمالات في مساحة اللاأدرية تلك.

تعريفي لفرضية ألإله تتضمن كلمة "ما فوق الطبيعي" و"خارق". لتوضيح الفرق, تخيل بأن مرصاداً يبحث عن الحياة خارج الارض التقط اشارة من الفضاء, و التي ترينا بدون شك بأننا لسنا وحيدين. و بالمناسبة ليس من البديهي ابداً ماهو نوع الاشارة التي ستقنعنا بأنها أتت من مصدر ذكي. وألأفضل هو أن نقلب السؤآل كما يلي. ماذا يجب علينا فعله لنتمكن من الأعلان عن وجودنا لسامعي أشارتنا من سكان الكواكب الاخرى؟ النبضات

---

1. **هو تغير ظاهري للتردد أو الطول الموجي للأمواج عندما ترصد من قبل مراقب متحرك بالنسبة للمصدر الموجي. (المترجم)**
2. **وصل العدد الى 228 كوكب مكتشف حتى وقت ترجمة هذه القطعة الى العربية. راجع** HTTP://EXOPLANETS.ORG **(المترجم)**

الايقاعية ليست مفيدة. الفلكية جاكلين بيل بورنيل التي اكتشفت النوابض[1] عام 1967 تعجبت من دقة التردد 1.33 ثانية, وظنت بأننا وجدنا الرجال ما أسمته مازحة بالاقزام الخضر الصغار. و لكنها أكتشف أشارة نبضية اخرى في منطقة اخرى من السماء و بتردد مُختلف, مما ادى لترك فرضية الاقزام الخضر. الأشارات الترددية يمكن توليدها من عدة ظواهر لا عِلاقة لها بالذكاء, من تنقيط الماء لنشر الاغصان, من الفواصل الزمنية لدوائر التغذية العكسية في التحكم الذاتي, حتى الاجسام الكونية الدائره. أكثر من الف اشارة نبضية تم رصدها في مجرتنا, و التفسير المقبول هو انها لنجوم نيترونية تشع طاقة تدور و تمسح الفضاء تماماً كضوء المنارة. من المدهش أن نُفكر بنجم سرعة دورته حول نفسه بالثواني (تخيل أن يومنا طوله 1.33 ثانية بدلا من 24 ساعة), و كل ما نعرفه حتى الان عن النجوم النيترونية يدعو للدهشة. و النقطة هنا هي أن النبضات الايقاعية تفهم على انها أنتَاج حادث فيزيائي ولاتدل على ذكاء.

إذن, لاشي ايقاعي بإمكانه أن يُعلن عن وجودنا للكون الذي ينتظر أكتشافنا. الاعداد الزوجية يتم التنويه اليها غالِباً, وذلك لِصعوبة وجود نظام فيزيائي قادر على تولديها. و سواء بالارقام الزوجية أو بأي طريقة أخرى, تخيل بأننا وجدنا دليلاً على ذكاء خارج الارض, و رُبما يتبع ذلك تبادل ضخم للخبرات و المعرفة, وبنفس مستوى قصة فريد هويك الخيالية "**أ كما في أندروميدا**" أو قصة كارس ساغان "أتصال". كيف يجب علينا أن نتصرف حينها؟ رد الفعل القريب من العبادة لهُ العُذرَ هُنا, لأن أي حضارة قادرة على أرسال أشارات على هذهِ المسافات الشاسعة ستكون أفضل بكثير من حضارتنا. و حتى لو كانت تلك الحضارة ليست متطورة كحضارتنا في وقت الارسال, فكبر المسافة بيننا يدعونا للتفكير بأنهم أمامنا بألاف السنين عند وصول اشارتهم الينا (الا في حالة انهم تسببوا في دمار حضارتهم, وهذا ليس بالاحتِمال البعيد).

سواء عثرنا عليهم ام لا, فالاحتمال كبير جداً لِوجود حضارة متطورة وخارقة بالنسبة للأنسان, لدرجة أن يبدون كآلهة بطريقة تفوق كُل ما يستطيع عُلماء

1. النجم النابض هو نجم نيوترونيّ يدور حول نفسه بسرعة عالية تصل إلى دورة كلّ 0.3 إلى 3 ثواني مصدرا موجات راديو و إشعاعات. (المترجم).

الدين تصوره. و أنجازاتهم التقنية ستبدو خارقة للطبيعة بالنسبة لنا كما تبدو انجازاتنا الحالية خارقة بالنسبة لمزارع من العصور الوسطى أتينا بهِ بطريقة ما للقرن الواحد والعشرين. تخيل ردة فعلهِ تجاه الحاسبات المحمولة, الهواتف النقالة, القنبلة الهيدروجينية أو طائرات الجامبو. و كما عبر عنها آرثر كلارك, في قانونه الثالث: "ليس بالامكان التفريق بين التقنية المتطورة بشكل كاف والسحر" و المعجزات المعمولة بتكنولوجيتنا لن تكون بالنسبة للأنسان القديم أقل قيمة من شق موسى للبحر, أو مشي المسيح على الماء. و الغرباء القادمين من الفضاء سيعطونا إشارات تجعلنا نراهم كآلِهة, تماما كما ظهر المبشرون بمظهر ألآلِهة وعوملِوا على أساسهِ (واستغلوا الشرف الغير مستحق على قدر ما أستطاعوا) عندما ظهروا في مناطق لاتزال في ثقافة العصر الحجري ,حاملين مسدسات و تلسكوبات و ثقاب و أجهزة تتنبأ بالخسوف بدقة تصل للثانية.

بأي معنى اذن, نقرر مدى التقدم الحضاري لنقرر بأن الكائنات الفضائية ليست آلِهة؟ لاي مدى يُمكن أن يكونوا من فئة "متفوقين على الأنسان" و ليس من فئة "ما فوق الطبيعة"؟. من المُهم جداً أن نعرف ماذا يعني ذلك, وهذا يتعلق بصميم هذا الكتاب. الفرق الحاسم بين ألإله و المخلوق الفائق الغير أرضي لا يكمن في مواصفاتِهُما وانما في مصدرهمُا. الكيانات المعقدة بشكل كافٍ لتكون ذكية هي نتيجة عملية تطور. و لايهم درجة التعقيد و التكامل التي يملكونها عندما نجدهم, و لكنهم لم يكونوا كذلك منذ البدء. لقد أقترح كِتاب الخيال العلمي لدانييل غالوي في "العالم المزيف", (ولا أملك طريقة لنفي ذلك) بأننا نعيش في نظام محاكاة كومبيوترية, مصممة من قبل حضارة خارقة عليا. و لكن خالقي المحاكا' تلك عليهم أيضاً أن يأتوا من مكان ما. و قوانين الأحتمال تمنع فكرة كونهم اتوا فجأة بدون اشكال بدائية ابسط منهم. و ربما يدينون بوجودهم لنوع (ربما غير مألوف) من التطور الداروينى: نوع من تراكم من الاسفل للاعلى بواسطة "رافعة" و ليس "خطاف سماوي", وهذه تعابير استعرتها من دانييل دينيت. الخطافات السماوية – وكل ألآلِهة ضمنياً – هي قوى سحرية. لا يشرحون شيئاً و يتطلبون شرحاً أكثر بكثير مما يزودوننا به. الرافعات هي آلات قابلة للفهم وتوفر لنا الشرح. و الأنتخاب الطبيعي هو بطل الرافعات في كُل الازمان. و قد رفع الحياة من بدائية بسيطة الى درجة عالية التعقيد. جمالٌ يظهر و كأنه مصمم ليُبهرَ الأبصار.

سيكون ذلك الموضوع مسيطراً على الفصل الرابع, "**لماذا نحن متأكدين تقريباً انه لا يوجد إله**". و لكن قبل الأنتقال للسبب الرئيسي لأنكار وجود الله بجدية يجب عليّ أولاً أن أضع جانباً الحُجج الايجابية للأيمان و التي تراكمت عبر التأريخ.

الفصل الثالث

أدلة وجود الله صنفت تأريخياً من قِبل عُلماء الدين, و شارك فيها آخرون, منْ ضمنهم الكثير من العُلماء الذي اسائوا مفهوم الحكمة الأنسانية.

أدلة توماس الاكويني 1

عن الصفات الأنسانية كأجابة الدعاء و غفران الذنوب و قِراءة الافكار. و بالمناسبة فأن بعض عُلماء المنطق لاحظوا عدم امكانية أجتماع موضوع العِلمْ الكلي و القدرة الكلية. حيث لو كان الله كلي المعرفة فهو يعرف بالتاكيد و مسبقا كيف سيتدخل بقدرته الكلية ليُغير مَجرى التأريخ. هذا يعني بأنه لا يستطيع تغيير رأيه بهذا الموضوع فهو بالتالي ليس كلي القدرة لان هُناكَ شيئا لا يستطيع عمله. كارين أونز صَورت ذلك التناقض الذكي في مقطع شعري لا يقل دهاء عنه.

هل يقدر الله.. هذا العليم
بكل ما تخفيه الصدور
و قادر على كل شئ
أن يُغير ما في عقلهِ يدور؟

لنعد للتراجع الزمني اللانهائي و العبث الناتج من أدخال إله لِحل الموضوع لأنه منْ الارخص أستحضار شئ ما ,كنظرية "الانفجار العظيم", أو أي مبدأ فيزيائي غير مُكتشف بعد. أن تسمية هذهِ الامثلة بالاله هو في أفضل الاحوال عبثي و في أسوئِها مضلل بشكل خبيث. أغلب أشكال التراجع الزمني تصل لمرحلة من النهاية الطبيعية. سابقاً كان العُلماء يتساءلون عما إذا كان من الممكن تقطيع الذهب مثلا لأصغر قطعة مُمكنة. لماذا من غير الممكن تقطيع تلك القطعة الاخيرة والاستمرار بالتقطيع لأجزاء ذهبية أصغر؟ التراجع في هذهِ الحالة محسوم النهاية عندما نصل للذرة. تلك هي اصغر القطع الذهبية وتتكون بالضبط من 79 بروتونا و أكثر من ذلك بقليل من النيوترونات, و بحضور حشد من الالكترونات. عندما "تجزء" ذرة الذهب لحد ابعد من الذرة فإنه لا يعود كي يكون ذهباً. والذره هنا تعطينا النهاية لنوع التراجعات المشابه لأمثلة الاكويني. وكما سنرى لاحقا فأن هذه الطريقة هي وسيلة بسيطة لشرح الموضوع. و الان دعونا نمضى في نقاش لائحة الاكويني.

رابعاً: **دليل التدرُج:** يُمكن ملاحظة أختلاف الأشياء في العالم حولنا. وهناك درجات مختلفة للأشياء, مثل الطيبة أو الكمال. و لكننا نقدر درجتها فقط بمقارنتها بالحد الاعلى الممكن. بإمكان الأنسان أن يكون جيداً وسيئاً, و بذلك فإن الحد الاعظم من الجودة لا يُمكن أن يكمُن فينا. و لذلك

يجب أن يكون هُناكَ حدٌ أعظم نقارن بهِ درجات الكمال, وهذا الحد الاعظم نسميه الله.

ما هذا الدليل؟ من المُمكن أن نقول أن الناس مُختلفين في روائحهم و أمكانيتنا بالمقارنة تكون ممكنة فقط بمرجعية للحد الاعلى المُمكن للروائح النتنه. ولذلك يجب أن يوجد شئ ما و رائحتهُ لاتضاهى بالنتانة, و ندعوه الله. و بإستطاعتك استبدال مواصفات المقارنة بما تشاء و أستنتاج نتائج مشابهة بالضحالة.

خامساً: **الحجة الغائية, أو حجة التصميم:** ألأشياء في العالم و بخاصة الأشياء الحية تبدو وكأنها مُصَممة. و لا نعرف بوجود أشياء تبدو مُصَمَمَة إلا إذا كانت كذلك. ولذلك يجب أن يكون هُناكَ مُصممِ وهو ما ندعوه بالاله. الاكويني أستعمل سهما يتحرك بإتجاه الهدف كمثال تشبيهي, والصاروخ الحديث المضاد للطائرات والموجه بالحرارة يخدم فكرتهُ هذهِ اكثر.

حُجة التصميم هي الوحيدة التي لاتزال تُستخدم في أيامِنا هذه و للعديدين لاتزال تبدو كالضربة القاضية في حلقات النقاش. داروين الشاب تأثر بها كثيراً عندما كان طالباً في جامعة كامبردج عندما قرأ كتاب ويليام بايلي "**علم الطبيعة الديني**". ولسوء حظ بايلي, فإن داروين الناضج أستبعدها بشكل كامل. ربما أنه ليس هُناكَ في التأريخ أي تدمير لطريقة تفكير شائعة ببراهين ذكية كالذي فعلهُ داروين بحجة التصميم. ذلك كان أبعد من كُل التوقعات. وبفضل داروين, لم يعد صَحيحا بأن كُل الأشياء التي تبدو لنا و كأنها مُصممة لا يُمكن أن تكون غير ذلك إن لم تكن فعلاً كذلك. التطور بالأنتخاب الطبيعي ينتج ما يمكن أن يبدو كأروع تصميم, بأعلى درجات التعقيد والاناقة. و من تلك التصاميم المزيفة التي نسمع بها دائماً هي الاجهزة العصبية و التي في ابسط اشكالها تظهر و كأنها تسلُك سلوكاً ما, و حتى في حشرة صغيرة فإنه يوجد نظام متطور جداً للتتبع الحراري يشبه ذلك الموجود في الصواريخ أكثر مما يشبة السهم أو الهدف. و سأعود لذلك في الفصل الرابع.

الحجة الوجودية دلائل أخرى سالفة لها

لقد تركت غروري الطفولي يختار الكلمة "حمقى" بتبصر. آنشليم بذاته كتب عن الاية الاولى من مزامير داوود" الاية 14 "الاحمق قال في قلبه, ليس هُناكَ اله" و كان له السبق في استعمال كلمة "احمق" لمُلحِدِهِ الفرضي. ومعه نتابع:

> وبذلك, يقتنع حتى الاحمق بوجود شيء ما, في عالم الخيال على اقل تقدير, و من غير الممكن وجود شئ أعظمَ مِنه. لأنه عندما يسمع الشخص به, فإنه يفهم ماذا يعني. و ما هو متخيل فهو موجود في الخيال. و بالتأكيد, فإن الشئ, الذي لا يُمكن أن يوجد شئ أعظم منه, لا يمكن أن يوجد في الخيال وحده. لأنه, و بفرض انه موجود في الخيال فقط فإنه من الممكن أن يوجد في الحقيقة و هذا شئ أعظم.

مجرد الفكرة بأن استنتاجاً كبيراً كهذا يأتي من خدعة رخيصة كهذهِ يسبب اهانة لجمالية الفكر الانساني, و لِهذا عَليّ أن أكون حريصاً وأمتنع عن تبادل كلمات مثل "احمق". أذكر هنا المقولة المهمة لبيرتراند راسل (الذي ما كان أحمقاً ابداً) ,"من الأسهل أن نشعُر بأن الحجة المقدمة خاطئة, عن أن نعرف بدقة مَكمنِ الخطأ فيها" راسل بذاته, في شبابه, كان مُقتنِعاً بالفكرة لفترة قصيرة كما روى:

> اذكرُ بالضبط اللحظة, عام 1894, كنت اسير في شارع الترينيتي ,عندما رأيت(او تخيلت أني رأيت) صحة الحجة الوجودية. كنت في طريقي لشراء عُلبة تبغ, و في طريق عودتي, وجدتُ نفسي أقذفها فجأة في الهواء وصحتُ عندما التقطتها:"**هذا عظيم, أن الحجة الوجودية صحيحة**".

اعجب, لماذا لم يقل مثلا: "عظيم, الحُجة الوجودية تبدو معقولة. و لكن ليست جيدة بشكل كاف. الا يحتاج لحقيقة كبرى عن الكون أن تكون أكثر من مجرد نتيجة للعب لغوي بالمُفردات؟ من ألأفضل أن أبدأ العمل لمحاولة فك هذا التناقض الشبيه بتناقض زينون الاغريقي". لقد عجز الاغريق القدماء في

محاولة رؤية برهان زينون بأن آخيل لن يكون قابلا ابدا للحاق بالسلحفاة.[1] و لكن كان لديهم أحساسٌ كافٍ بالموضوع لينفوا عدم امكانية آخيل باللحاق بالسلحفاة. و لذلك أسموها بالمفارقة و أنتظروا الاجيال اللاحقة من الرياضيين لشرحها (و حصل ذلك لاحقا بالطبع, بإستعمال نظريه السلاسل اللانهائية). و راسل في حالتنا هذهِ مؤهل كأي شخص آخر لِفهم عدم وجوب قذف علبة الدخان في الهواء و الأحتِفال بفشل آخيل في اللحاق بالسلحفاة. لماذا لم يتبع راسل منهج الحذر في مناقشة آنشليم؟ أشكُ بأنهُ كان مبالِغاً في أعتدالِهِ بالاعتقاد الإلحادي, و مُتحمس أكثر من اللزوم لتخيل أي مَنطِق يبدو مقبولاً للبرهان. أو رُبما تكون الأجابة الكامنة فيما كتبه راسل نفسه عام 1946 بعد فترة طويلة من فرقعته للحجة الوجودية.

> السؤآل الحقيقي هو: هل هُناكَ أي شئ نستطيع التفكير فيه, والذي, مجرد التفكير فيه يرينا انهُ موجود بالحقيقة خارج أفكارنا؟ كُل الفلاسفة يرغبون بالاجابة بنعم, لأن عمل الفيلسوف كله يعتمد على معرفة أشياء عن العالم بمجرد التفكير عوضاً عن المُلاحظة. ولو كانت الاجابة نعم فهذا يعني بأنه يمكن أن يوجد صلة وصل بين الافكار الخالصة و الأشياء, و أذا كانت الأجابة بلا فهذا يعني أنهُ لا توجد مثل هذه الصلة.

و على العكس فشعوري أنا سيكون و بشكل عفوي عبارة شكٍ عميق في أي برهان يصل لنتيجة عظيمة بهذهِ الاهمية كتلك بدون أستخدام أي معلومة من العالم الحقيقي. و ربما موقفي هذا يبررهُ إنني عالم طبيعي و لستُ فيلسوفاً. الفلاسفة عبر القُرون أخذوا الحجة الوجودية بشكل جدي بدون شك, و على الطرفين, معها و ضدها. الفيلسوف المُلحِد ج. ل. ماككي له حوار خاص و واضح بهذا الخصوص في كتاب "أعاجيب الأيمان ". وكي أكون مجاملاً فأنا أعتقد بانه من الجيد تعريف الفيلسوف بأنه الشخص الذي لا يأخد الاحاسيس العامة كجواب لنظرياتهِ.

---

1. مفارقة زينون يمكن تلخيصها بالتالي, آخيل يستطيع الركض عشرة مرات أسرع من السلحفاة. لهذا يعطي آخيل السلحفاة مسافة مائة متر قبلهُ قبل بدء المسابقة, آخيل يركض المائة متر الاولى ولكن السلحفاة تمكنت من قطع العشرة أمتار الاولى قبله, آخيل يركض العشرة أمتار الاخرى ولكن السلحفاة تمكنت الان من ركض متر واحد قبلهُ. آخيل يركض هذا المتر ولكن السلحفاة تمكنت الان من سبقه بعشر هذا المتر, الى المالانهاية. حيث آخيل لا يتمكن أبداً مِن اللحاق بالسلحفاة.

يعزى التفنيد الجازم للحجة الوجودية للفيلسوف دافي هيوم 1711-76 وأيمانويل كانت 1724-1804. كانط عثر على الخدعة الفلسفية التي أخفاها آنشليم في فرضيته القلقة عن أن الوجود هو أكثر "كمالاً" من اللاوجود. و وصف الفيلسوف ألأمرَيكي نورمان مالكوم الموضوع بالشكل التالي: "المذهب القائل بأن الوجود يعني الكمال هو مبدأ شاذ. من الحق القول بأن منزلي المستقبلي سيكون أفضل إذا كان معزولاً حرارياً عن أن يكون غير معزول, و لكن ما معنى أن نقول بأن وجود البيت سيكون أفضل من عدمِ وجوده؟[1]. الفيلسوف ألأسُترالي دوغلاس غاسكينغ, أستخدم نفس البرهان "بسخرية" للبُرهان على إن الله غير موجود (أحد معاصري آنشليم وأسمه غونيلو اقترح حلاً مُماثلاً حصل فيما بعد على إسم المُفارقة).

1. أن خَلقَ الكون هو أعظم أنجاز مُمكِن تخيلهُ.
2. قيمة أي شئ هي حاصل ضرب قيمتين:
   أ. القيمة الجوهرية.
   ب. أمكانيات صانعهُ.
3. كلما كان عجز "عوق" الصانعِ أكبر, كلما كان انجازه مثيراً للعجب اكثر.
4. أعظم الاعاقات و أكبرها بالنسبة لخالقٍ ما هي عدم وجوده.
5. لذلك لو أفترضنا أن الكون هو انجاز لِخالق موجود فبإمكاننا أن نتخيل وجوداً أعظم, و الذي يستطيع خَلقَ كُل شي بدون أن يكون موجوداً حتى.
6. فالإله الموجود إذن لن يكون أعظم مايمكن تخيلهُ لأن ألإله الغير موجود اعظم و أكثر إثارة لِلدهشة.

النتيجة

7. الله غير موجود.

لسنا بحاجة للقول هنا بأن غاسكينغ لم يُبرهِن فعلياً على عدم وجود الله. و على نفس المنوال, لم يُبرهِن آنشليم على وجوده. والفرق الوحيد هو أن غاسكينغ كان هزلياً في طرحهِ للوصول الى غاية. لانه كما لاحظ, وجود

---

1. HTTP://WWW.IEP.UTM.EDU/O/ONT-ARG.HTM
HTTP://WWW.UQ.EDU.AU/~PDWGREY/PUBS/GASKING.HTML

ألإله مِن عدمهِ هو سؤال كبيرٌ جداً على أن يُجاوب عليه بـــ"لعبة لغوية". و لا أظنُ شخصياً بأن الاستعمال القلق لمصطلح الكمال هو ألأسوأ في هذهِ النظرية. في أحدى المرات "و قد نسيت تفاصيل الحدث" أزعجتُ تجمعاً من رجال الدين و الفلاسفة بأستخدام الحجة الوجودية لِبُرهان أن الخنازير تستطيع الطيران. و جودوا نفسهم مجبرين على ألجوء للمنطق لِبُرهان بأنني على خطأ. الحجة الوجودية, ككل الحُجج البديهية المقدمة لبرهان وجود الله, تذكرني بالعجوز في قصة الدوس هاكسلي "**نقطة بعكس نقطة**" و الذي أكتشف بُرهاناً رياضياً عن وجود الله:

> هل سمعت بالمعادلة , س على صفر مساو للانهاية, حيث س هي أي عدد موجب؟ حسناً, لنبسط المعادلة بضرب الطرفين بالصفر. و نجعل س مساوية لعدد لانهائي من الاصفار. هذا يعني أن العدد الموجب هو عبارة عن حاصل ضرب الصفر بالانهاية. الا يفسر ذلك خَلق الكون من لاشئ بواسطة قدرة لانهائية؟ الا يفسره؟

وهنالك أيضاً النقاش العقيم من القرن الثامن عشر حول وجود الله, الذي قامت بترتيبهُ كاترين العظمى, بين الرياضي السويسري الشهير اويلر, و الموسوعي العظيم لعصر التنوير الفرنسي ديدروت. أويلر المُتدين غلب منافسهُ المُلحِد ديدروتت و بكل ثقة برمي التحدي التالي: "**سيدي, أن (أ + ب^{ن})\ن= س, ولذلك فالله موجود. فما هو جوابك!**" ديدروت أجيرَ على الإنسحاب مُذعِناً و أحد الروايات تقول بأنه رجع لِفرنسا على اثرها.

النقطة المركزية في هذه الجدلية هو أن ديدروتت لم يكن رياضياً و لهذا كان عليه التراجع بدون ان يقدر ان يعطي جواباً. ولكن ب. هــ. براون أشار في مجلة "الرياضيات الامريكية" عام 1942 بأن ديدروت كان رياضي جيد ولم يجب عليه الانسحاب بهذه السهولة و السقوط في فخ ما يمكن تسميته بحجة التعمية في العِلمْ (في حالتنا هذه الرياضيات). دافيد مايلز في "عالم المُلحدين", كتب عن مقابلة إذاعية له من قبل أحد المُتكلِمين بأسم الدين و الذي أستعمل قانون حفظ الطاقة كمُحاولة تعمية علمية: "بما أننا جميعاً من طاقة و مادة, الا يؤدي بنا ذلك المبدأ العِلمي للأيمان بأن هُناكَ حياة ابدية؟" إجابة مايلز كانت لبقة و صبورة أكثر مما لو كنت أنا المجيب على تعليق المحرر الاذاعي

الذي كان سؤاله بصيغة اخرى كالتالي: "عندما نموت, لن تضيع أي ذرة من اجسامنا (ولا حتى الطاقة) وبالتالي فنحن خالدون".

حتى انا, وبخبرتي الطويلة, لم اصادف أفكار بالتمني سخيفة كتِلك. و لكن وجدت العديد من "الأدلة" وجمعتها من:
http://www.godlessgeeks.com/LINKS/GodProof.htm
وهي لائحة ساخرة من أكثر من ثلاثمئة برهان عن وجود الله. و هنا أقدم لكم نصف دزينة مميزة و لنبدأ برقم 36.

36. دليل مبنى على الدمار الغير مُكتمل: تحطمت طائرة وقتل 143 من ركابها وطاقمها. و طِفلٌ صغير نجا بحروق من الدرجة الثالثة. ولذلك الله موجود.
37. دليل العوالم المُحتملة: لو أن الامور كانت مختلفة عما هي عليه, فستكون مختلفة عما هي عليه. و سيكون هذا سيئا. ولذلك الله موجود.
38. دليل مبني على الرغبة فقط: أنا اؤمن بالله! أنا اؤمن بالله! أؤمن. أؤمن. أؤمن بالله! ولذلك الله موجود.
39. دليل مبني على اللاأيمان: معظم سكان الكرة الارضية هم غير المؤمنين بالمسيحية. وهذا تماماً ما يريدهُ الشيطان. ولذلك فأن الله موجود.
40. دليل مبني على تجارب ما بعد الموت: فلان شخص مات مُلحِدا, والان ادرك خطأه. ولذلك الله موجود.
41. دليل مبني على الابتزاز العاطفي: الله يحُبّك. كيف يمكن أن تكون جاحداً لهذه الدرجة و لا تؤمن بهِ؟ و لذلك الله موجود.

دليل مبني على الجمال

نوعا شائعا من الحجج. لقد توقفت عن عد المرات التي تلقيت فيها أو بالاحرى واجهت تحديات كهذا السوآل: "كيف يمكنك تفسير وجود شكسبير اذن؟" (أو شوبرت أو مايكل انجلو...الخ). الحجة مألوفة, و لا أُريد أن أوثقها أكثر من ذلك. و لكن المنطق المختبئ ورائها لم يتوضح بعد, و كُلما فكرتُ فيها أكثر, كلما شعرت بفراغِها. لا شك بأن رباعيات بيتهوفن الاخيرة رفيعة المستوى. و كذلك أعمال شكسبير. أنها الروائع سواء كان الله موجوداً أو لم يكن. هذا لا يُبرهن على وجود الله, بل يبرهن على وجود بيتهوفن وشكسبير. يعزى لاحد قادة الاوركسترا الكبار القول: "إذا كنت تستطيع سماع موزرات, لماذا تحتاج الله؟"

مرة من المرات كُنت ضيفَ الأسبوع في بث اذاعي بإسم "**أسطوانات الجزيرة المهجورة**". وفيه عليك أختيار ثماني أسطوانات لتأخذها معك في حال انقطاعك في عن العالمِ في جزيرة مهجورة. من ضمن ما اخترت كانت اغنية "ادخل الى قلبي" من "آلآم متي" لباخ [1]. لم يفهم المذيع كيف أخترتُ موسيقاً دينية بدون أن اكون مُتديناً. ربما انهُ بالامكان التساؤل أيضاً كيف يمكنك أن نستمتع بقرآءة رواية "مُرتفعات و هائلة" وانت على تمام المعرفة بأن **كاثي** و **هيتشكليف** شخصيات لم توجد ابدا؟

و لكني اردت توضيح نقطة أخرى, ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في كُل ما يعطى الدين فيه كمرجعية ,مثل, كاتدرائية سيستين[2] أو لوحة أعلان حمل المسيح لرافائيل. حتى الفنانين العظام يحتاجون لِكسب رزقهم. و سيأخذون عمولتهم مقابل خدماتهم. ليس عندي أي سبب لأ شك بأن رافائيل و مايكل انجلو كانا مسيحيين, ذلك كان الخيار الوحيد في زمانهم, و لكن ذلك واقع عرضي. و غنى الكنيسة الفاحش وقتها جعلها الراعي المهيمن على الفن. ولو كان الزمن غير الزمن و كُلف مايكل انجلو بالرسم على سقف متحف علمي ضخم, فسيكون أنتَاجه رائعاً بنفس درجة الكاتدرائية؟ كم هو محزن بإننا لن نسمع ابداً سيمفونية عصر الديناصور لبيتهوفن أو أوبرا الكون المتوسع لموزارت وكم هو محزن حرماننا من اوراتوريو التطور لهايدن و لكن ذلك لايمنعنا من الاستمتاع بمقطوعتهُ "الخليقة". و لتوضيح الحجة من

---

1. **أسم الاسطوانة** St. Matthew Passion **و أسم القطعة التي أختارها الكاتب هي** Mache dich, mein Herze, rein. **(المترجم)**

2. Sistine Chapel.

طرف آخر ماذا كان سيحصل لو أن شكسبير كان مُجبرا لِلعمل لصالح الكنيسة, كما أقترحت زوجتي؟ لكنا بالتأكيد فقدنا هاملت و الملك لير و ماكبث. و ماذا كان العالم سيربح بالمقابل؟ اعمال من نسج الاحلام؟ استمر بالحلم اذن.

لو وجدت حجة منطقية تربط الفن العظيم بالوجود الالهي, فأن أنصار الفكرة لا يحددون تلك الصلة. و ببساطة يعتبرون أن ذلك دليلا يفسر نفسهُ بنفسهِ, و ألأمرَ ليس كذلك بالتأكيد. ربما أنها شكل من أشكال "الخلق الذكي" مرة أخرى على الشكل التالي: مخ شوبرت الموسيقي هو أعجوبة و وجودها أحتمالهُ ضعيف بشكل كبير, ربما أضعف من احتمال وجود الفقريات. أو ربما هو الغيرة من هذهِ العبقرية, لا..لا هذه فكرة غير جيدة. أذن كيف يمكن لِشخص آخر غيري أن يخلق تلك (الموسيقى\الشعر\الفن) الرائعة بينما أنا لا أستطيع؟ لابد أن الله هو الذي فعل ذلك.

الدليل القائم على التجربة الشخصية

الكثيرون يؤمنون بالله لأنهم يؤمنون بأنهم رأوا رؤيا عنهُ أو عن أحد الملائكة أو العذراء بردائِها الازرق.أو أن أحدهم تكلم معهم من داخل رؤوسهم. وتلك الحجة هي الاكثر اقناعا للذين يزعمون بأن ذلك قد حصل لهم. و لكنها الاقلُ اقناعاً لِكُل الآخرين, و خصوصاً من لديه بعض المعرفة عن علم النفس.

أنتَ تقول بأن لكَ تجربُة مع الله بشكل مباشر؟ حسناً, البعض أعتقد انه رأى فيلاً وردياً, و لكن ذلك ربُما لا يترك لديك إنطِباعاً عميقاً, بيتر سوتكليف, القاتل من يوركشاير, سمِعَ المسيح يقولُ لهُ بأن يقتل النساء, و أدى ذلك بهِ للسجن مدى الحياة. جورج بوش يقول بأن الله قال له بأن يحتل العراق (ذلك ألإله الرحيم لم يوحي له بأنه ليس هُناكَ اسلحة دمار شامل). و العديدين في المصحات يعتقدون بأنهم نابليون أو شارلي شابلن, أو أن العالم كله يتأمر ضدهم, أو بأنهم يستطيعون بث افكارهم في رؤوس الاخرين. نتكلم عنهم كطرائف و لا نأخذ ايحاءاتهم الداخلية بشكل جدي. و السبب الاكبر هو أن ذلك ينطبق على فئة قليلة فقط من الناس. اما الايحاءات الدينية فإن زبائنها أكثر. ولم يكن سام هاريس مبالغا في سخريته عندما كتب في "**نهاية الأيمان**":

> لدينا اسماء عديدة للذين يؤمنون بأمور ليس لها أي مبرر عقلي. عندما يكون أيمان كهذا شائعاً فإننا ندعوهم "مُتدينين", و إلا فندعوهم "مجنون" أو "ذهاني" أو "ضحية للوهم" ... وكلما زاد عدد الناس الذي يؤمنون بنفس الاشياء التي يؤمن بها الشخص كلما شعر الشخص بالامان. و لكن, من جهة اخرى, فإنه يبقى مجرد حادث تأريخي أن يكون من الطبيعي في مجتمع ما بأن خالق الكون يستطيع سماع افكارك, كذلك هي أشارة بخلل عقلي لو تصور الشخص بأن الله يخاطبه من خلال قطرات المطر مثلاً على زجاج النافذة. لا أريد ان أقول بان المُتدينين مجانين, لكن معتقداتهم هي الجنون بعينه.

سأعود لموضوع الهلوسة في الفصل العاشر.

أن عقل الأنسان يمتلك "برنامج مُحاكاه"[1] من الطراز الاول. و أعيُننا لا تعطي الدماغ صورة صحيحة مثل فيلم دقيق عما يحصل بمرور الوقت في محيطنا. الدماغ يقوم ببناء نموذجه بشكل متجدد بإستمرار: هذا الواقع هو عبارة عن نبضات كهربائية تمر في العصب البصري, و بذلك تبنى صورة متغيرة. الخداع البصري هو تذكير واضح على ذلك [2]. و قد نشأ صنف من الوهم البصري, ومن امثلته مكعب نيكر[3], و الذي يسبب الاحساس بأن المعلومات الحسية التي يستقبلها الدماغ تتطابق مع نموذجين متباينين من الحقيقة. و العقل الانساني ليس لديه قاعدة ليختار بينهما, فإنه يبدل النموذج بين فترة واخرى, و هكذا يتشكل لدينا احساس بالتأرجح بين نموذجين. والصور التي ننظر اليها تبدو وكانها تتقلب لتصبح صورة اخرى.

برنامج المحاكاة في أدمِغتنا ماهر بشكل خاص في أعادة بناء الوجوه و الأصوات. عندي على طرف النافذة قناعاً بلاستيكاً لآينشتاين. و عِندما يُنظر اليهِ من الامام فإنه يبدو كوجه مُمتلئ, و ليس هذا مفاجئا, المفاجئ هو انه عند النظر اليه من الخلف – الطرف المجوف – فإنه يبدو أيضاً كوجه ممتلئ, و يبدو هذا غريباً جداً. و عندما يتحرك الناظر حولهُ, يبدو الوجه وكأنه يتبعهُ – و ليس بالمعنى الضعيف الغير مُقنِع و الذي يقال عن أن عيون الموناليزا تبدو وكأنها تتبعك – فإن القناع المجوف يبدو حقيقياً جداً بأنه يتبعك. والذين يرونها لاول مرة يشهقون من الدهشة. والاكثر غرابة, عندما يوضع القناع على طاولة تدور ببطء فإنهُ يبدو بأنه يدور في الاتجاه الصيحيح عندما تنظر للطرف الممتلئ, و لكن بالاتجاه المعاكس عندما تنظر للطرف المجوف. والنتيجة تبدو عندما تنظر الى الانتقال من أحد الاطراف الى الاخر, فأن الطرف القادم يبدو وكانه "يأكل" الطرف الذاهب. انه وهم مبهر, و رؤيته تستحق بعض العناء. و بعض الاحيان تستطيع الاقتراب بشكل مُفاجئ للطرف المجوف بدون أن ترى انه "حقيقة" مجوف. و عندما ترى ذلك, مرة اخرى, يحصل التأرجح في الصورة.

---

1. قام الكاتب هنا بأستعارة مصطلح من عالم الكومبيوتر و الذي يقصد به برامج المحاكاة التي تحاول محاكاة الواقع (المترجم)
2. موضوع الوهم يتم مناقشته بالتفصيل من قبل ريتشارد غريغوري في مجموعة من الكتب منها "غريغوري" الذي صدر 1997.
3. و هو شكل هندسي لمكعب مُمكن رؤيته من وجهات نظر مختلفة. راجع HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/NECKER_CUBE **(المترجم)**

ما سبب حصول هذا؟ ليس هنالك أية خدعة في بناء القِناع. و أي قناع مجوف سيؤدي نفس الغرض. والخدعة تكمن في عقل المُشاهد. برنامج المحاكاة الداخلي يستقبل معلومات تنبئ عن وجود الوجه, لا شئ أكثر من عينان, انف و فم في امكانها المحددة تقريباً. و بتمام الاستقبال لتلك الرموز السطحية, يقوم الدماغ بالباقي. يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل ويبني النموذج الممتلئ للوجه, بالرغم من أن حقيقة ما يقدم للعينين هو قناع مجوف. وتخيل الدوران في الجهة الخطأ يحصل بسبب (هناك بعض الصعوبة هنا, و لكن لو فكرت بعمق ستستطيع التأكد من الفكرة) أن الدوران بالجهة المعاكسة هو الوحيد الذي يجعل هُناكَ معنى للمعلومات البصرية بدوران القناع بشكل محسوس ليكون ممتلئا[1]. ذلك شبيه بالوهم الذي ينتج عن دوران صحن الرادرا الذي نراه في المطارات. خلال الوقت اللازم ليستطيع الدماغ قلب الصورة للوضع الصحيح لصحن الرادار, سيكون هُناكَ نموذج خاطئ يدور بالاتجاه المعاكس بشكل معوج.

اقول ذلك فقط لأبين القوة الهائلة للمحاكاة العقلية. انها مجهزة بشكل جيد لِبناء "مشاهد" و "رؤى" تبدو واقعية لأعلى الدرجات. و أعادة بناء شبح أو ملاك أو مريم العذراء في العقل هي بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لبرنامج بهذا الرُقي. و نفس الشئ يحدث سمعيا. فعند سماع صوت ما, فإنه لا ينتقل بشكل كامل مثل سماعات الآيبود عن طريق ألأعصاب السمعية للدماغ. تماماً كما في النظر, يبني الدماغ نموذجاً للصوت عن طريق المعلومات السمعية المستمرة بالتدفق للاعصاب السمعية. و لذلك نسمع نغمة البوق كمعزوفة متواصلة واحدة, و ليس كتركيب من ترددات هارمونية تعطيها طابع الزمجرة النحاسي. بينما رنين الناي يبدو "خشبيا" اذا أستمر بعزف نفس النغمة, و نسمع أنغام المزمار و كأنها "قصبية" بسبب اختلاف التوازن الهارموني بين النغمات. و لو جربنا التلاعب بالانغام و أدخلنا نغمات مختلفة واحِدة بعد الاخرى, فسيسمع الدماغ الترددات المختلفة لفترة قصيرة بشكل منفصل, حتى يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل, و عندها ستسمع النغمة واحدة لبوق أو ناي أو ما شابهُ. و الاحرف الصوتية و اللاصوتية تبنى في الدماغ بنفس الطريقة, و هكذا, و على مُستوى آخر, تبنى الانغام و الكلمات من مجموعة أصوات أعلى.

1. محاولتي لشرح هذه الظاهرة تجدها في كتابي صفحة **268** الى **269** داوكينز **1998**.

عندما كنتُ صغيراً سمعت مرةٍ ما شبحاً: صوت ذكري يُغمغم, و كانه يتلو صلوات. و كدتُ أستطيع تقريباً أن أتبين الكلِمات, و التي كان لها طابع جاد جداً. و كنت وقتها قد سمعتُ الكثير من القصص عن الرهبان في البيوت القديمة, و أصابني الذُعر. و لكني نهضتُ من السرير و زحفت نحو مصدر الصوت. و كُلما أقتربت كلما أرتفع الصوت, و فجأة فهمتُ الصوت الذي يرنُ في رأسي. كُنتُ قريباً بشكل كافٍ لأعرف واقعهُ. كانت الريح تعصف من خلال ثُقب المُفتاح لتخلِقَ صوتاً إستخدمهُ برنامج المحاكاة في عقلي ليبني نموذجاً لصوت رجل يتلو الصلوات بجدية. و لو كنت طفلاً قابلا للتأثر بشكل أكبر مما كنت عليه آنذاك, لكان من الممكن لي أن "أسمع" ليسَ فقط خطاباً غير مفهوم بل كلمات معينة و ربما جُمل أيضاً. و أتساءل الآن ماهي الكلمات التي كنت سأسمعها لو كنت قابلا للتأثر و قد نشأت في بيئة دينية؟

في مُناسبة أخرى, كنت في نفس العمر تقريباً, رأيت وجهاً عِملاقاً و شريراً بشكلٍ لا يوصف, يحدق من النافذة في بيت عادي في قرية على البحر. أقتربتُ بهلع لأتبين الأمر: شيئٌ مُبهم يعطي إنطِباعاً بعيدا لوجه ناتج عن نقشة على قماش الستارة. الوجه بحد ذاته و تعابيرهُ الشريرة تم أعادة تركيبها طبعاً في رأسي الطفولي الخائف. و في أحداث الحادي عشر من ايلول رأى بعض الاتقياء وجه الشيطان في الدخان المُنبعِث من البرجين: خرافة مدعومة بصورة نشرت على الشبكة و تداولها الناس بشكل كبير.

عقلُ الأنسان رائعٌ جداً في أعادة بناء النماذج. وعندما ننام ندعو ذلك أحلاماً, و في اليقظة ندعوها بالتخيلات أو,في حالة كونها شديدة الواقعية ندعوها هلوسات. و كما سنرى في الفصل العاشر, الاطفال الذين لديهم "أصدقاء وهميين[1]" يرون اصدقائهم بوضوح في بعض الاحيان ,كما لو انهم حقيقيين تماما. ولو كنا على درجة من السذاجة, فلن نُميز بين احلام اليقظة أو الهلوسة وسندعي بأننا رأينا أو سمعنا شبحاً, أو ملاكا, أو الها, أو – و بشكل خاص في حالة الشابات الكاثوليكيات – مريم العذراء. رؤيا كهذه ليست سبباً كافيا للتصديق بأن الاشباح, ألآلِهة أو العذراء, موجودين حقيقة.

1. الاصدقاء الوهميين هي حالة نفسيه يعاني منها بعض الاطفال في مراحل مبكرة من الطفولة بسبب مشاعر الوحدة (المترجم).

من ناحية اخرى ففي حالة الرؤيا الجماعية, كما حصل في البرتغال في ايام حج لمنطقة فاطمة البرتغالية عام 1917 حيث شهد سبعون الفا من الحجاج الشمس "تترك السماء وتهوي بأتجاه الحجاج[1]", فإنه من الصعب تجاهل ظاهرة كتِلك. و ليس من السهل تفسير تقاسم 70000 شخص لنفس الهلوسة. و لكن من الاصعب القبول بحقيقة حدوثها بدون أن يراها أحد خارج منطقة فاطمة, و ليس فقط الرؤية بل أيضاً الشعور بالدمار الهائل للمجموعة الشمسية, ومن ضمنها قوى تسارع كافية لقذف الجميع للفضاء. لا نستطيع هنا مقاومة التفكير بتجربة دافيد هيوم البليغة عن الاعاجيب: "ليس هُناكَ من شهادة تكفي لتصديق أعجوبة, الا إذا كان تكذيبها أعجب من الواقع الذي بنيت عليه".

ربما يبدو من غير المحتمل أن يكون سبعون الف شخصاً ضيحة لنفس الوهم في نفس الوقت, أو انهم تآمروا على نفس الكذبة الجماعية. أو أن التأريخ اخطأ في تسجيل واقعة ان سبعين الفاً زعموا رؤية الشمس ترقص. أو أنهم رأو سرابا (كان قد تم أقناعهم بالتحديق في الشمس, شئ لا يعقل انه كان مفيداً للنظر). و لكن أي الاحتمالات تبدو أكثر أحتمالية الوقوع اكثر من غيرها: أن تكون الارض قد سحب من مسارها جانباً, والنظام الشمسي قد إنهارَ, بدون أن يشعر أحد خارج منطقة فاطمة بالموضوع. البرتغال ليست معزولة عن بقية العالم الى هذه الدرجة.

هذا كُل ما يمكن أن يقال حول موضوع التجارب الشخصية للاله أو لظواهر دينية اخرى. ولو تعرضت لتجربة من هذا النوع فلربما تجد نفسك مؤمنا بواقعيتها بشكل قوي. و لكن لاتتوقع انهُ على الاخرين منا أن يصدقوا ذلك. وخصوصاً إذا كان لدينا بعض المعرفة عن الدماغ وقدرته الجبارة على العمل.

الحُجج من الكتب المقدسة

لايزال البعض مؤمنا بالله نتيجة لاقتناعه بالادلة الواردة في الكتب المقدسة. احدى الحجج الشائعة, و المنسوبة للعديدين ومنهم س. اس. لويس (و الذي كنت اتوقع منه افضل من هذا), تقول بأنه, طالما زعم المسيح بأنه ابن الله, فإنه اما على حق أو مجنون أو كاذب: "مجنون, سئ أو جيد" أو بشكل اخر, "مهووس, كذاب أو اله". الادلة التأريخية و التي تنبئ بأن المسيح زعم شئ كهذا قليلة جداً. و لكن حتى لو كانت الادلة جيدة, فإن ذلك العرض منقوص بشكل سخيف. أحتمال رابع, و الذي يبدو أوضح من أن نحتاج الاشارة اليه, وهو أن المسيح كان مخطئاً. العديدون يفعلون ذلك. و على كُل حال, وكما قلت, ليست هُناكَ أدلة تأريخية جيدة بأن المسيح زعم بأنه قدوس بالمرة.

أن يكون شئ ما مكتوباً في كتاب مقدس يبدو كافياً لألناس تعودت على عدم طرح الاسئلة التالية :"من الذي كتبهُ, ومتى؟" "كيف عرف عن الموضوع الذي كتبه؟" "هل اعتقدوا في وقتهم, بأننا في وقتنا, سنفهم ما قالوه ولماذا؟" "هل كانوا مراقبين غير متحييزين, ام كان لهم هدف جعلهم يتلاعبون بكتاباتهم؟" و بدأ من القرن التاسع عشر, يشكك دارسو الديانات في أن الاناجيل يمكن الاعتماد عليها لمعرفة ما حصل تأريخياً في العالم بشكل حقيقي. كلها كتبت بعد وقت طويل من وفاة المسيح, و حتى بعد رسائل القديس بولس, و التي لم تشر تقريباً لاي من الوقائع عن حياة المسيح. و منذ ذلك الحين وهي تنسخ و تنسخ, من خلال "أجيال مِن لعبة الهمس[1]" (انظر الفصل الخامس) ومن قِبل كُتاب غير معصومين عن الخطأ و لديهم جدول اعمالهم الديني الخاص بهم.

أحد أمثِلة تلوين القصص لأغراض دينية هو القصة الدافئة الاسطورية عن ولادة المسيح في بيت لحم. ملحقة بمذبحة هيرودوس للابرياء. عندما كتب الانجيل بعد وفاة المسيح لم يكن أحد يعرف أين ولِد. و لكن نبوءة من العهد القديم (ميخا 2 : 5) جعلت اليهود يتوقعون أن المُخلص المنتظر سيولد في بيت لحم. و في ضوء تلك النبوءه, فإن انجيل يوحنا يدون بشكل لاريب فيه بأن أتباعه فوجؤوا بأنه لم يولد في بيت لحم: "الاخرون قالوا, انه المسيح.

1. لعبة الهمس لعبة تتألف على الغالب من خمسة أشخاص يقوم الاول بأيجاد جملة و يمررها للثاني همساً و الثاني يمررها للثالث و هكذا حتى تعود الى الاول, و حينها يضحك الجميع على مدى التحوير الذي طرأ على هذه الجملة. (المترجم).

والبعض قال, هل يأتي المسيح من الجليل؟ ليس هذا ما ذكر في الكتاب المقدس, بأن المسيح من نسل داوود, سيكون من بيت لحم, مكان داوود؟".

متى ولوقا حلا المشكلة بشكل آخر, و ذلك بالقرار بأن المسيح يجب أن يكون قد ولِد في بيت لحم رغم كُل شئ. و لكنهم أتو بهِ اليها بطرق مختلفة. متى جعلَ مريم و يوسف يذهبان لبيت لحم من الناصرة بعد وقت طويل من ميلاد المسيح, و في طريق عودتهم من مصر حيث هربا من الملك هيرودوس و المذبحة. لوقا, على العكس, يعترف بأن مريم و يوسف عاشا في الناصرة قبل ميلاد المسيح. كيف سينقلون لبيت لحم في اللحظة الحرجة, لتحقيق النبوءة؟ لوقا قال بأنه, عندما كان سيرينيوس حاكم سوريا, امر القيصر اوغسطس بإحصاء عدد السكان لامور تتعلق بالضرائب, وكان على الجميع أن يذهبوا الى "مدنهم الاصلية". و يوسف كان من بيت و نسل داوود, ولهذا كان عليه أن يذهب لـــ"مدينة داوود, و التي تدعى بيت لحم". و بدا أن ذلك حل لابأس به للمشكلة. ما عدا أن ذلك تأريخياً لا معنى له على الاطلاق, كما نوه أ. ن. ويلسون في "المسيح و روبن لان فوكس" في النسخة الغير مرخصة (و العديد من الاخرين ايضا). داوود ,لو كان موجوداً, لتوجب أن يكون سابقاً بألف عام لمريم و يوسف. و ما سبب طلب القيصر بأن يذهب يوسف لبلد عاش فيها اسلافه البعيدين جداً منذ الف عام؟ هذا أشبه بأن اضع اشبي–دولا– زوخ في خانة المدينة على طلب الضرائب الخاص بي, هذا أن استعطت أن اقتفي اثر اسلافي في عهد السينور داكين, و الذي اتي مع ويليام الفاتح واستقر هناك.

والاكثر من ذلك. فقد ضيع لوقا التواريخ بالتنويه لاحداث تأريخية مما يستطيع عُلماء التأريخ التدقيق فيه. بالتأكيد كان هُناكَ احصاء تحت امرة الحاكم سيرينيوس – أحصاء محلي و ليس بأمر القيصر اوغسطس لكل ألإمبراطورية – و لكن ذلك حصل مُتأخِرا في العام السادس الميلادي و بعد موت هيرودوس بكثير. لان فوكس أستنتج بان قصة "لوقا مستحيلة تأريخياً و غير مترابطة معنوياً", و لكنه تعاطف مع لوقا في محنته ورغبته في تحقيق نبوءه ميخا.

في عدد كانون الاول 2004 من *Free Enquiry*, جمع توم فلين, محرر تلك الصحيفة الرائعة, مجموعة من المقالات التي دونت التناقض والفراغات في قصة الميلاد المحُبّوبة. فلين نفسة وضع لائحة بتناقضات عديدة بين متى و لوقا, وهم الانجيليان الوحيدان الذان تطرقا لقصة الميلاد. روبرت غيلوي بين لنا كيف أن كُل المواصفات المذكورة في اسطورة المسيح, متضمنة نجمة الشرق, ولادة العذراء, تبجيل الطفل من الملوك, الاعاجيب, الاعدام والقيامة و الصعود كلها مُستعارة – على الاطلاق – من أديان كانت موجودة في منطقة البحر المتوسط والشرق الاوسط سابقا. فلين اقترح بأن رغبة متى بتحقيق نبوءة المخلص (من نسل داوود, مولود في بيت لحم) كانت للجمهور اليهودي و بذلك تتضارب مع نسخة لوقا و رغبته بنشر المسيحية عند الوثنيين, و لذلك كان التركيز على النقطة الحساسة في اللغة للدين الهيليني الوثني (ولادة العذارء و تبجيل من الملوك و الخ).التضارب صارخ و واضح, و لكنه متجاهل بشكل مستمر من المؤمنين.

المسيحيون المحدثون لا يحتاجون أحد لأقناعهم بأن "الأشياء المذكورة في الانجيل ليست كذلك بالضرورة". و لكن هُناكَ العديد من المسيحيين البسطاء و الذين يعتقدون بأن ذلك حصل فعلاً تماماً كما هو مكتوب و يأخذون الانجيل بجدية و حرفية كسجل تأريخي دقيق و دليل يدعم صحة معتقداتهم الدينية. ألا يقرأ هؤلاء الكتب التي يعتقدون بأنها الحقيقة الحرفية؟ لماذا لا يلاحظون هذهِ التناقضات الساطعة؟ الا يحق للمدقق الحرفي بأن يقلق لواقع أن متى أقتفى أسلاف المسيح حتى داوود من خلال 28 جيلا بينما لوقا احتاج لــ 41 جيلاً؟ و ألأسوأ هو عدم وجود اسماء مشتركة في اللائحتين تقريباً! و على أي حال, لو كان المسيح مولودا لِعذراء, فما علاقة اسلاف يوسف هنا و لا يُمكن أستعمالهم لتحقيق النبوءة من العهد القديم بأن المخلص يجب أن يكون من نسل داوود.

في كتاب تحت عنوان ثانوي "الحكاية التي وراء تحريف العهد الجديد واسبابه" [1], لدارس الانجيل ألأمرَيكي بارت ايهرمان يكشف فيه التخبط الشديد في نصوص العهد الجديد[2]. و في مقدمة الكتاب يشرح البروفيسور

1 . العنوان الرئيسي للكتاب هو (كلمات من هذه؟).
2 . العهد الجديد هو الاسم الثاني للأنجيل المسيحي يقابله العهد القديم للتوراة. (المترجم).

ايهرمان بإسهاب عاطفي مخطط رحلته التعليمية من مؤمن متعصب بالانجيل, لمُفكر متشكك, رحلة فرضت بدايتها ادراكهِ لاِحتمالات الخطأ الكبيرة في الكتب المقدسة. وبشكل ملحوظ, عبر تنقله التدريجي في الجامعات ألأمرَيكية, من الحضيض في "كلية مودي الانجيلية", حتى كلية ويتون(الاعلى مرتبة ولكنها لاتزال مدرسة لبيلي غراهام) و حتى برينستون العالمية في القمة. و في كُل خطوة كان يتلقى التحذيرات عن امكانية التسبب بالمشاكل لنفسهِ بتعصبهُ المسيحي في وجه التطور الخطر. و برهنت صحة ذلك, وقراءهُ – نحن – هم الذين استفادوا. و اليكم روائع أخرى في نقد الانجيل. كِتاب روبن لان فوكس "**النسخة الغير مرخصة**", و قد ذكرته مسبقا, و جاكلين بيرلينربلا في "**الانجيل العلماني: لماذا على غير المؤمنين أن يأخذوا الدين بجدية**".

الاناجيل الاربعة التي دخلت في الانجيل الرسمي, أختيرت بشكل أو بأخر عشوآئياً مِن بين ما لا يقل عن اثني عشر أخرى منها أنجيل توما و بطرس و نيكوديموس و فيليب و برثولماوس و ومريم المجدلية. و هي الاناجيل التي عناها توماس جفرسون في رسالته لابن اخته:

> هناك ما نسيت أن انوه عنه, عند الكلام عن العهد الجديد, فإنه عليك أن تقرأ كُل القصص عن المسيح, كلاً من ما يدعوه القساوسة بالاناجيل المزيفة و ما أقروه لنا كأناجيل حقة. و السبب هو أن هؤلاء الذين كتبوا تلك الاناجيل المزيفة يدعون بأنهم كتبوا هذه الاناجيل بألهام من الله, تماماً مثل الباقيين. لهذا يجب عليك ان تحكم بنفسك بين ما هو مذكور و أعطاء رايك الشخصي لا ما يمليه عليك القساوسة.

الاناجيل التي لم تنتشر حذفت من قبل هؤلاء رجال الدين, ربما لانها تحتوي قصصاً أكثر أحراجا من مثيلاتها في الاربعة الذين صاروا رسميين. أنجيل توما على سبيل المثال, توجد فيه بعض الطرائف عن يسوع الطفل الذي يسئ استعمال قواه السحرية بنفس طريقة جنيات الخرافات الشريرات, وبشكل عفريتي يحول اصدقاءه لعنزات, أو يتحول الطين لِعصافير, أو يساعد ابوه

في نجارته بإطالة قطعة خشب بشكل سحري.[1] وسيقال بأن لا أحد يصدق قصصاً عن اعاجيب كالتي في انجيل توما على اية حال. و لكن هل هُناكَ أي سبب لتصديق الاناجيل الشرعية الاربعة الاخرى. كلها لها صفة الاساطير, ومريبة في الواقع كما هي قصة الملك ارثر و فُرسان المائدة المستديرة.

معظم ماهو مشترك في الاناجيل الاربعة قادم من مصدر واحد. قد يكون أنجيل مرقس أو من عمل أقدم ضائع ,و مرقس هو أقدم ما نعرفه عن ناسخيه. لا أحد يعرف من هم الدعاة الاربعة. و لكنهُ من المؤكد تقريباً إنهم لم يقابلوا المسيح شخصياً. و مُعظم ما كتبوه لا يُمكن أن يوصف بأي شكل بأنه تأريخ أمين و لكن ببساطة إعادة قولبة للعهد القديم, لان كُتابَ الانجيل كانوا مؤمنين بإقتناع عظيم بأن المسيح يجب أن يحقق نبوءة العهد القديم. و من الممكن أن نفكر, ولو أن ذلك ليس شائعاً بعد, بجدية الطرح التأريخي بأنه لم يكُن هُناكَ مسيح على الاطلاق, كما فعل العديدون و من بينهم البروفيسور ج. ا. والاس من جامعة لندن في كتبه و التي من بينها "**هل وجد المسيح**؟"

و رغم احتمال وجود المسيح, فإن دارسي الانجيل المُحترمين لا يعتبرون العهد الجديد (و بالطبع القديم ايضاً) كمصدر موثوق به للقرآءات التأريخية, وسأتوقف الان عن اعتبار الانجيل كدليل على أي شئ الهي. كما أشار جفرسون لخلفه جون آدامز, "سيأتي يوم يعتبر فيه الجيل المبهم المؤمن بالمسيح, وابوه السماوي الخارق, ورحم العذراء, كالجيل الذي امن بمينرفا التي ولدت في رأس جوبيتر.

و قد احدث دان براون بكتابه شيفرة دافنشي و الفيلم الذي عُرض الكثير من اللغط في اواسط الكنيسة. و بأن المسيحيين عليهم أن يقاطعوا الفيلم ودور السينما التي تعرضه. انه بالتأكيد مفبرك من البداية للنهاية: بدعة, خيال

---

1. يتسآئل الكاتب ا. ن. ويلسون فيما اذا كان يوسف يمتهن النجارة اساساً؟ الكلمة الاغريقية "TEKTON" تعني صراحة النجار ولكن عند ترجمتها من الارمية "تجار" فقد تعني كل من المهنة أو الرجل الحكيم. هذا الخطأ في الترجمة أحد العديد من الاخطاء التي تثير الكثير من التخبط في الانجيل. من أحد أهم هذه المفارقات هي ترجمة كلمة "أمة" من العبرية في سفر أشعياء, و التي تعني أمرأة صغيرة و عند ترجمتها للاغريقية تصبح عذراء "PARTHENOS" خطأ نقل كهذا سهل الحدوث ولكن مضاعفاته قد تكون كارثية عندما نعرف ان هذا الخطأ اصبح احد اسس الفكر المسيحي و الذي يدعي بأن المسيح ولد من عذراء. أبن وراق يدعي ايضاً بأن كلمة حور العين "العذراوات" هي ايضاً خطأ في الترجمة وقع ضحيته العديد من الانتحاريين الذين تم تلقينهم بأنهم سيقابلون اثنين و سبعين عذراء في الجنة. السوآل هنا هو لو كانت هذه الاخطاء معروفة فما هو عدد الضحايا الذي كنا سننقذهم من خطر الانتحاريين هؤلاء؟.

مُختلق. و من هذا الباب فإنه ليس مختلفا عن الانجيل. والفرق الوحيد هو أن الاناجيل هي خيال قديم و شيفرة دافنشي خيال من العصر الحديث.

الحجة من العُلماء الكبار المتدينين

للشك". والعديد من العُلماء استمروا بالأيمان حتى بعد داروين. ليس لدينا أي سبب لنُشكك في ولاء مايكل فاراداي للمسيحية حتى بعد معرفته الحتمية بداروين و أعمالهِ. و كان من جماعة سانديمان الدينية. و التي آمنت (استعمل الفعل الماضي لان تلك الجماعة انقرضت عمليا) بحرفية الانجيل. ومن الطقوس كان غسل أقدام الداخلين الجُدد والاستخارة لمعرفة ارادة الله. و اصبح فاراداي شيخاً في 1860, عاماً واحِداً بعد نشر اصل الانواع, و مات كساندوماني عام 1876. نظير العالم التجريبي فاراداي, عالم النظريات كلارك ماكسويل, كان مسيحيا مخلصاً ايضاً. وكذلك كان عمود الفيزياء البريطانية في القرن التاسع عشر وليام تومسون, و لورد كيلفين, الذي جرب أثبات أن نظرية التطور باطلة بسبب عدم كفاية الوقت لحصول عملية التطور. خطأ العالم الثرموديناميكي كان في افتراض أن الشمس كانت نوعا من النار, تحرق نوعا من الوقود الذي ينفذ خلال عشرات الملايين من السنين, و ليس الاف الملايين. ولا احد في زمان كالفين توقع وجود الطاقة النووية. لحسن الحظ, عام 1903 و في اجتماع الجمعية البريطانية, برأ جورج داروين, الابن الثاني لتشارلز, أباه بعد اكتشاف كوري للراديوم, وفند بذلك تقديرات لورد كالفين الذي كان لايزال على قيد الحياة لفترة حياة الشمس.

خلال القرن العشرين أصبح البحث عن عُلماء يصرحون بالتدين عملية أصعب, و لكنهم ليسوا نأدري الوجود بأي حال. و تقديري أن معظم العُلماء المُتدينين الحاليين هم بالمعنى الآينشتايني و الذي ناقشتهُ في الفصل الاول حول استعمال الكلمة بشكل خاطئ. و لكن يوجد أيضاً العديد من العُلماء المُتدينين بالمعنى التقليدي. من ضمن العُلماء البريطانيين المحدثين, ثلاثة اسماء مألوفة تشترك بما يشبه مؤسسة محاماة لديكنز: بيكوك, ستانارد وبولكنغتون. ثلاثتهم حصلوا على جائزة تمبلتون أو كانوا في مجلس الادارة لجمعيتها. و بعد مناقشات لطيفة شخصية وعمومية بيننا, فأن ما يظل محيرا بالنسبة لي, ليس أيمانهم بوجود نوع من رجل القانون الكوني, بل أيمانهم أيضاً بتفاصيل المسيحية: القيامة, غفران الذنوب والخ..

هنالك قرائن امريكية لهؤلاء ومثال على ذلك فرانسيس كولينز, المدير الاداري لمشروع وضع الخارطة الجينية للانسان الرسمي.[1] و لكن مايشد الانتباه هو قلة عددهم في بريطانيا و كونهم موضوع محير لأقرانهم في الوسط الاكاديمي. في عام 1996, و في حديقة كلية كلار القديمة في كامبردج, أجريتُ مُقابلة مع صديقي جيم واتسون, العبقري المؤسس لمشروع وضع الخارطة الجينية الأنسانية, و ذلك لبرنامج وثائقي اعددته لمحطة بي بي سي عن غريغور ماندل العبقري الذي اوجد علم الوراثة بذاته. ماندل بالتأكيد كان مُتديناً, كان راهبا آغوسطياً, و لكن ذلك كان في القرن التاسع عشر, عندما كانت الرهبنة هي أسهل الطرق لمتابعة الشغف بالعلم بالنسبة لماندل. و بالنسبة له كان ذلك موازيا في أيامنا للحصول على منحة للبحث العلمي. سألت واتسون عما إذا كان يعرف بأي عالم مُتدين في ايامنا فأجاب: "عمليا لا احد. أصادف بعضهم بالمناسبات, و أشعر بالحرج (يضحك) لانني, كما تعلم, لا أستطيع التصديق بأن ايا كان يتقبل بأننا نعرف الحقيقة من خلال الوحي".

فرانسيس كريك, المؤسس الشريك لواتسون للمشروع الثوري عن الجزيئات الموروثة, أستقال من كلية تشرشل في كامبردج, لان الكلية قررت بناء مصلى (اوصى به أحد المُتبرعين). في مقابلتي مع واتسون, قصدت أن اقول له بأن البعض, على عكس واتسون و كلارك, لايرون تناقضا بين العِلمْ و الدين, لانهم يزعمون بأن العِلمْ يبحث في كيفية العمل للأشياء و الدين يبحث في الغاية من ذلك. وعندها قال واتسون:"لا أعتقد اننا موجودون لغاية ما. نحن حصيلة طبيعية للتطور" هناك من يقول " اه, لابد أن حياتك تعيسة جداً لعدم اعتقادك بوجود معنى", "و لكنني اتوقع وجبة غداء جيدة على أي حال". وغداؤنا كان جيدا فعلاً.

الجهود التي يبذلها الدعاة في البحث عن عُلماء معاصرين مميزين وصادقين في أيمانهم ينبئ باليأس, يعطي الاحساس بالصدى الناتج عن قشط قاع البرميل. موقع الانترنت الوحيد الذي نشر لائحة عن "العُلماء المسيحيين الحاصلين على جائزة نوبل" فيه ست اسماء, و ذلك من اصل المئات من العُلماء الحاصلين على الجائزة. و من هؤلاء الستة, كان هُناكَ اربعة ليسوا

---

1. لن نخلط هنا بين المشروع الغير رسمي لوضع الخارطة الجينية للانسان و التي يرأسها الرائع (الغير مؤمن) العلمي كاريغ فينتر.

من الحاصلين على الجائزة على الاطلاق, و على الاقل واحداً منهُم ليس مؤمنا وانما يذهب للكنيسة لِسبب اجتماعي صرف. و في دارسة مُنظمة من قبل بنيامين بيثالاهمي "وجد بأن نسبة عدم التدين بين الحاصلين على جائزة نوبل للعلوم و الاداب او المرشحين لها كبيرة بشكل ملحوظ جدا مقارنة مع غيرهم في المناطق التي ينتمون اليها".[1]

في دراسة اخرى من الصحيفة العلمية الرائدة ***Nature*** قام بها لارسون و ويتمان في 1998 نرى بأن من بين العُلماء ألأمرَيكيين المتفوقين بنظر أقرانهم لدرجة انهم أنتَخبوا ليكون أعضاء في الاكاديمية الوطنية للعلوم (ما يوازي العضوية في الهيئة الملكية في بريطانيا) يوجد حوالي 7% فقط مِمَن يؤمنون بالله الشخصي. تلك الغالبية الساحقة من المُلحِدين هي تقريباً عكس نسبتها في الشعب ألأمرَيكي بشكل عام, حيث نسبة المؤمنين بشكل أو بأخر بقوة كونية خارقة ما تقارب الــ90%. والنسبة بين العُلماء الاقل سمواً والذين لم ينتخبوا للاكاديمية في الوسط بين النسبتين السابقتين. والمؤمنين يشكلون أقلية ليست درامية بنسبة حوالي 40%. وهذا تماما ما اتوقعه من أن نسبة التدين بين العُلماء اقل منها بالنسبة للعامة, و العُلماء الاكثر تميزاً هم الاقل تديناً على الاطلاق. من الملاحظ التعارض الصارخ بين تدين عامة الشعب ألأمرَيكي وإلحاد النخبة المثقفة. من المدهش لدرجة ما بأن موقع الانترنت الرائد لمؤيدي نظرية الخلق نشر دراسة لارسون و ويتنام, و لكن ليس كدليل على احتمال وجود خطأ في موضوع التدين, و لكن كسلاح لمعركتهم الداخلية ضد المُتدينين المنافسين الذين يزعمون بأن نظرية التطور تتماشى مع الدين. و تحت عنوان "الاكاديمية الوطنية للعلوم كافرة جداً"[2], و قد علقوا على النتيجة النهائية من لارسن و ويتمان في رسالة لمحرر *Nature*:

> ورائينا بعد التمحيص, بأن الاكاديمية نشرت كتيباً تشجع فيه على تدريس التطور في المدارس العامة, هو إستمرار للاستفزاز بين الجالية العلمية و بعض المحافظين المسيحيين في أمريكا. "سواء كان الله موجوداً ام لا, فهذا ليس من شأن العلم" و عميد الاكاديمية

1 . Beit-Hallahmi and Argyle (1997).

2. راجع http://www.leaderu.com/ftissues/ft9610/reeves.html **تعطي صورة واضحة للموضة الدينية في أمريكا.**

بروس البرت قال: "هُناكَ العديدين من الاعضاء المميزين في الاكاديمية من المُتدينين جداً, و يؤمنون بنظرية التطور, والعديد منهم عُلماء بيولوجيين". و لكن احصائياتنا لها نتائج مخالفة لذلك.

يشعر المرء, بأن البرت قد اعتنق مبدأ "أختصاصات غير متداخلة" و بأن العلم يجب أن يقف جانباً من أجل الدين, لسبب كنت قد ناقشته في "مدرسة التطوريين السياسية" (الفصل الثاني). و لكن هذا التعليق يبدو أن له اهداف اخرى.

ما يوازي الاكاديمية ألأمرَيكية الوطنية للعلوم في بريطانيا (و أستراليا, كندا, نيوزيلندا الخ) هو الجمعية الملكية. و في نفس الوقت الذي يذهب فيه هذا الكتاب للطبع يقوم زملائي ر. اليزابيت كورنويل و مايكل ستيرات بكتابة نتائج مقارنة مشابهة و لكن أكثر عمقا عن آراء أعضاء الجمعية الملكية في الدين. و ستنشر النتائج بالتفصيل لاحقاً, وهم تكرموا بالسماح لي بأن اعلق على النتائج المبدئية هنا. لقد استعملوا تقنية تسمى سلم الآراء, سلم من سبع نقاط مشابه لسلم ليكيرت. جميع الاعضاء الـــ 1074 للجمعية و الذين لديهم بريد الكتروني دعوو للمشاركة فيه, وحوالي 23% استجابوا للطلب (نسبة لابأس بها لهذا النوع من الدراسات). وتم عُرِضَ عليهم اسئلة مختلفة مثل :"انا أؤمن بالاله الشخصي, الذي يهتم بما يفعله الفرد و يسمع ويستجيب للدعاء و يقلق على موضوع الخطيئة و التجاوزات, و يحكم على اساس ذلك". و هناك سبعة خيارات من معارض بشدة لموافق بشدة. من الصعب مقارنة هذهِ الدراسة مع دراسة ويتمان و لارسن لانهم عرضوا ثلاث خيارات على سلم دراستهم و ليس سبع. و لكن الاتجاه في الحالتين واحد. و بأكثرية هائلة في الجمعية الملكية كما في حال الاكاديمية في أمريكا كانت من المُلحِدين. 3.3% فقط وافقوا بشدة على وجود ألإله الشخصي (الدرجة 7 من السلم) بينما 78.8% عارضوا بشدة (الدرجة 1 من السلم). لو اعتبرنا أن المؤمنين هم من أختار 6 أو 7 و المُلحِدين هم من اختار 1 أو 2 فإن لدينا 213 مُلحِدا مقابل 12 من المؤمنين. كما في حال لارسون و ويتمان. و كما هو الحال في الاكاديمية و كما لاحظ بيات هالامن وارجيل من جهة

وستيرات وكورنويل من جهة اخرى فإن المُلحِدين البيولوجيين أعلى قليلا من الفيزيائيين. وللتفاصيل الرجاء مراجعة النتائج عندما تنشر.[1]

و بعيداً عن الاقلية من العُلماء في الاكاديمية الوطنية و الجمعية الملكية, هل هُناكَ أي دلائل بأن المُلحِدين ينتمون الى الفئة ألأفضل ثقافة و الارقى تعليماً في المجتمعات بشكل عام؟ لقد نشرت عدة دراسات أحصائية عن العلاقات بين التدين و المستوى الثقافي, أو التدين و درجة الذكاء. مايكل شيرمر في "**كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العلم**", يصف أحصائية عن عينة عشوائية في أمريكا أجراها مع زميلهُ فرانك سولواي. و من ضِمنِ النتائج الكثيرة و المثيرة في المسح الاحصائي كان التناسب العكسي الواضح بين التدين و مستوى التعليم (الأفراد الاعلى في مستوى التعليم هم الاقل تديناً). كما أن التدين يتناسب عكسياً مع الاهتمام بالعلم و (بشكل قوي) التحرر السياسي. لا شي غير متوقع هنا تماما, ولا حتى العلاقة الطردية بين تدين الابناء و تدين الاباء. أختصاصيي عِلم الاجتماع في إنجلترا وجدوا بأن واحِداً من اصل أثني عشر فقط ينفصل دينياً عن معتقدات والديه.

وكما قد تتوقع, فإن الباحثين يستعملون طرقا مختلفة لِقياس الظواهر. و بالتالي فإنه من الصعب المقارنة بين الدراسات. و تحليل معلومات النتائج هو التقنية التي يستعملها المحقق في هذهِ الحالة و ذلك بفحص كُل نتائج الابحاث في موضوع ما و وضع عدد الابحاث التي استنتجت شيئا ما مقابل الابحاث التي استنتجت شيئا آخر. و في حالة التدين ومستوى الذكاء فإن النتيجة الوحيدة عن تحليل نتائج عدة ابحاث و التي لي علم بها نشرت في مينزا ماغازين في 2002 و أجراها باول بيل (مينزا هي جمعية الأفراد ذوي مستوى الذكاء العالي, و ليس من المفاجئ أن تحوي مجلتهم مواضيعاً عن الشئ الوحيد الذي يجمعهم معاً). و النتائج عند بيل كانت كالتالي: "**من 43 دراسة اجريت منذ عام 1927 عن العلاقة بين الاعتقاد الديني و مستوى التعليم, جميعها ما عدا اربعة منها وجدت التناسب عكسيا. بمعنى بأنه كلما علت درجة الذكاء أو المستوى التعليمي للفرد, كلما قل أحتمال أن يكون هذا الشخص مُتدينا أو يحمل شعور بـــ "الأيمان" بشكل مِن الاشكال**".

---

1 . R. ELISABETH CORNWELL AND MICHAEL STIRRAT, MANUSCRIPT IN PREPARATION, 2006.

تحليل معلومات النتائج لعدة تجارب بشكل عام يعطي نتائج أكثر عمومية و اقل دقة من أي دراسة على حدة شاركت بهذه النتائج. من الجيد عمل دراسات في تلك المجالات, و أيضا عن الاقلية في جمعيات مشابهة للاكاديمية الوطنية. و الحائزين على جوائز أعلامية و ميداليات مثل نوبل و كرافورد و كيوتو .. الخ. آمل أن أكون قادراً على ضم بعض النتائج في إصدار لهذا الكتاب في المستقبل. ربما تساهم النتائج العقلانية لابحاث كهذه في جعل رجال الدين يترددون قبل الاشارة لشخصيات محترمة كأمثِلة في التدين, على الاقل فيما يختص بالعُلماء.

رهان باسكال

"بالأيمان بدلا عنك". و النموذج الفاخر يوصف بأنه "يستطيع الأيمان بأشياء لا يستطيع اهل سولت لايك سيتي الأيمان بها"[1].

و ما السبب الحقيقي وراء أننا نقبل فكرة بأن الشي الوحيد الذي يجب أن نفعله لإرضاء الله هو الأيمان به؟ لماذا هذهِ الخصوصية للأيمان؟ الا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم أو التواضع أو الصدق؟ ماذا لو كان الله عالِماً يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة حسنة عليا؟ في الحقيقة, الا يجدر بأن يكون منْ صَممَ هذا الكون عالِماً؟ عندما سؤل بيرتراند راسل عن موقفه بعد الموت و الوقوف بين يدي الله الذي سيسأل راسل عن سبب عدم أيمانه به. كانت اجابة راسل "عدم كفاية الادلة, يارب, عدم كفاية الادلة" (كنت على وشك أن أصفها بالخالدة). ألن يحترم الله راسل على شكهِ الشجاع هذا (ناهيك عن شجاعة موقفهِ السلبي خلال الحرب العالمية الاولى الذي أدى به للسجن) أكثر من باسكال و رهانهِ الجبان؟ و بما أننا لا نعرف موقف الله, فإننا برأي باسكال لسنا بحاجة للمعرفة من اجل رهان رابح. لِنتذكر إنه رهان و باسكال نفسه لم يدعي أن رهانه لا يحوي أكثر من احتمالات طويلة. فهل تراهن على أن الله يفضل أيمانا مُزورا و غير أمين (أو حتى أيمانا صادقا) على شك صادق؟ و مرة أخرى لِنفترض أن ألإله الذي تقابله بعد الموت كان **بعل**[2], و لِنفترض أن بعل غيور تماما كما قيل عن يهوه. أليس من الأفضل لِباسكال أن يُراهن على عدم وجود إله مِن المراهنة على ألإله الخطأ؟ و بالتأكيد فإن العدد المطلق للآلِهة والإلهات و الذي يمكن الرهان عليه يُفسد منطق باسكال بأكمله؟ ربما كان باسكال يمزح عندما طرح موضوع الرهان, تماما كما امزح أنا الان في نقضهِ. و لكنني قابلتُ العديدين, و منهم منْ أقترح بجدية موضوع رهان باسكال كحُجة على أهمية الأيمان بالله, و هذا ما جعلني أعرضها هنا بإختصار.

و في بالنهاية فهل من المُمكن أن نحاجج بمُضادات رهان باسكال؟ لِنفترض بأننا آمنا بأن هُناكَ أحتمالاً صغيراً لوجود الله. و على الرغم من ذلك, يمكِننا القول بأنك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راهنت على عدم وجودهِ, فيما لو

---

1. سالت ليك سيتي هي مدينة في ولاية يوتا في الولايات المتحدة الأمريكية ينتشر فيها المذهب المورموني الذي يعتقد بقدوم المسيح الى أمريكا و أنهم يملكون أنجيلهم الخاص بهم.(المترجم)

2. بعل هو كبير الآلهة الكنعانية و الفينيقية يعتقد أنه هو نفسهُ يهوه أو الله لليهود الذين أقتبسوا عبادته عندما وصلوا لفلسطين (المترجم).

راهنت على وجوده و الذي يعني ضياع وقتاً ثميناً في عبادتهِ و تقدم الاضاحي له و القتال في سبيله و الموت لأجله... الخ. لن اتابع نقاش الموضوع هنا, و لكني أطالب القارئ الكريم وضع هذا في ذهنه عندما نناقش العواقب الاليمة التي تترتب على ألأيمان و مراعاة التعاليم الدينية.

حجة بأستخدام مبرهنة بايز [1]

معيناً يحدد مستوى الشبهة ضد الضابط ماستارد. الأب غرين عنده الدافع الاكثر معقولية للجريمة. هذا يزيد من حاصل أحتمال شُبهتهُ. لكن الشعر الاشقر على سترة الضحية لايُمكن أن يكون لاحد غير السيدة سكارلت... و هكذا. بشكل ما تتضارب الاحكام الذاتية للأمكانيات في عقل المُحقق و تسحبهُ في كُل أتجاه. نظرية بايز كانت من المُفترض أن تساعده في الحصول على إستنتاج. هي عبارة عن عملية رياضية تجمع العديد من التخمينات و تستخلص منها حكماً نهائياً و الذي بدوره يتضمن تخمين للأحتمالات. بالتأكيد فإن جودة التخمين النهائي تعتمد على الارقام المقدمة بالاصل في البداية. هذه في العادة أحكام ذاتية مع كل الشكوك الناتجة عنها. المبدأ (قمامة داخلة, قمامة خارجة)[1] قابل للتطبيق هنا – في حالة أونوين فأن كلمة "قابل للتطبيق" أعتبرها مُعتدلة بشكل كبير.

آونوين يبدو كمستشار في وحدة دراسة المخاطر و يحاول الاستدلال على شئ بأستخدام مبرهنة بايز و بشكل مُنافس لطرق الأحصاء الاخرى, يشرح لنا نظرية بايز ليس بمثال عن جريمة قتل و لكن بشرح الفكرة العظمى بين الافكار, وجود الله. حيث يبدأ بفرضية أن وجود الله من عدمه أمر غير أكيد بالمرة و لِهذا أعطى لها أحتمالية 50 % لكلتا الحالتين. بعد ذلك يضع لائحة من ست وقائع مُتعقلة بالموضوع و يضع ثقلا رقميا لكل واقعة و يدخل كُل ما سبق كعوامل في نظرية بايز و يرى ما هو الرقم الناتج. المشكلة أن الثقل الرقمي لايقاس بل هو من حكم ستيفن أونوين الشخصي و قد حولها لارقام للحساب فقط. الوقائع الستة هي:

1. لدينا شعور بماهية الخير.
2. البشر يفعلون الشر (هتلر, ستالين, صدام حسين).
3. الطبيعة تحدث فيها امور شريرة (زلازل, تسونامي, عواصف).
4. معجزات صغيرة محتملة الحدوث (أضعت مفاتيحي ثم وجدتهم).
5. معجزات كبيرة محتملة الحدوث (المسيح ربما قام من بين الاموات).
6. البعض حصلت معهم تجارب شخصية ذات طابع روحي.

1. مبدأ شائع الاستخدام في مجال برمجة الحاسبات و يدل على ان النتائج ليست بحال افضل من المعطيات. (المترجم)

و لِمجرد اعطاء القيمة مفترضة (التي لا تساوي شيئا بنظري), فإننا في النتيجة و بعد هذا السباق الشيق الذي يجري فيه الله و يسبق توقعات المراهنين جميعاً. ثم يصبح آخر المتسابقين, ثم يصعد بقيمته للـــ 50 بالمائة و ننتهي بالسرور من الاحتمل الذي حصل اونوين عليه وهو 67% في صالح وجود الله. و بعد ذلك يقرر اونوين بأن 67% ليس كافية و بخطوة غريبة يرفع الاحتمال لـــ 95% و ذلك بحقنه أسعافية من "الأيمان". ربما يبدو ذلك كمزحة و لكن هذهِ هي حقيقة ما أكمل أونوين به الحسابات لبرهانهِ. أتمنى أن اشرح كيف برر ذلك و لكن لا شئ يمكن أن يقال هنا. وقد واجهت هذا النوع من السخافة في مناسبة أخرى عندما تحديت مُتدينين وبنفس الوقت عُلماء لامعين أن يبرروا أيمانهم, بعد أن اعترفوا بعدم وجود أدلة: "أعترف انه لاتوجد أدلة. هُناكَ سبب لتسمية ذلك بالأيمان" (العبارة تدوي بالاتهام المشاكس, ولم يكن فيها أي تلميح لأعتذار أو دفاع عن الرأي).

من المفاجئ أن لائحة أونوين لا تحتوي على حجة التصميم, أو أي حجة من "أثباتات" الأكويني الخمس. ولا أياً من حجج الوجودية. لا اثر لأي من ذلك: و لا تُساهم أي منها بدعم تخميناته الرقمية لأمكانية وجود الله. بل أنهُ يُناقِشَهُم و يهملهم كأي أحصائي جيد بإعتبارهم بلا فائدة. وانا اعتقد أن ذلك نقطة في صالحهِ, بالرغم من أنهُ أهمل حُجة التصميم لِسبب مغاير عني. و لكن الحجج التي يتقدم بها من خلال الباب الخاص بالمدخل لبايز تبدو لي ضعيفة بنفس المستوى. و اعني بذلك بأنني سأعطي وزنا لِلأمكانيات مُختلفاً تماماً عن الوزن الذي اعطاهُ هو, و لكن منْ يهتم لِلاحكام الشخصية على أيةِ حال؟ وهو يفكر بأنه يمكننا الاعتماد على حدسنا لتحديد الصحيح و الغير صحيح بشكل قوي في مسألة وجود الله, بينما أنا أعتقد بأنه ليس من الواجب أن ينحرف لهذا السبب, في أي من الاتجاهين, مِن موقعهِ الاصلي. الفصل السادس و السابع سيشرحان لنا بأنه لا يُمكن الزعم بأن أمتلاكنا للحدس بالخطأ و الصواب له أي علاقة بقدرتنا على تحديد وجود إله خارق للطبيعة. و كما نستطيع تقدير رباعيات بيتهوفن, فأن احساسنا بالخطأ والصواب (لا يعني ذلك بالضرورة حافزاً لأتباعها) هو كما هو بإله أو بدونه.

من ناحية أخرى فإن أونوين يفكر بأن وجود الشر, خصوصا الكوارث كالزلازل والتسونامي هي أمور لا تدعم أحتمال وجود الله. وهنا, يعاكس

اونوين رأيي و لكنه يتماشى مع الكثيرين من عُلماء الدين الغير مرتاحين. "الثيوديسي" (**اثباتات التدبير القدسي في وجه الشر الموجود**) هو مما يقلق عُلماء الدين. و ذائعة الصيت "**جمعية أكسفورد الى الفلسفة**" تعُطي تعريفا لمشكلة الشر "المعارضة الاقوى للأيمان التقليدي بالله". و لكنها فقط حجة ضد وجود إله طيب. الطيبة ليست جُزءاً من التعريف لفرضية الاله, بل هي مجرد اضافة مرغوبة.

في الحقيقة, الناس الذين لديهم نزعة دينية لديهم أيضاً عدم تمييز مُزمن بين الحقيقة وما يرغبونه بأن يكون الحقيقة. و لكن, بالنسبة للمحدثين والمؤمنين بنوع ما من القوى الخارقة, فمِن السهل عليهم التغلب على مشكلة الشر. مُسَلمَة بسيطة عن إله شرير, كالذي في كُل صفحات العهد القديم. أو, لو لم يعجبك ذلك, اخترع إله شرير مغاير, سمهِ الشيطان, و أعتبر أن الشر كله نتيجة معركتهُ مع ألإله الخير في العالم. أو (حل أكثر تطوراً) سلم بإله عنده امور أهم من أن يحصر أهتمامه بالأنسان. أو إله ليس لامبالياً بمعاناة الأنسان و لكنه يعتبرها ثمناً للخيار الحر يجب أن ندفعهُ, كون خاضع للقوانين. و يوجد الكثيرين من عُلماء الدين ممن يسترشدون بأفكار كهذه.

لهذا السبب, لو أعدت عمل تمرين أونوين, فلن تحرفني مشكلة الشر أو الأخلاق في أي اتجاه عن خط الصفر (50% في حالة اونوين). و لكنني لن أحاجج هنا لانني على كُل حال لا أستطيع أن أتأثر بآراء شخصية, سواء كانت آرائي أو آراء أونوين.

هناك دليل أقوى بكثير, لا يعتمد على الاحكام الشخصية, وهي حُجة اللاإحتماليه. و التي تنقلنا بشكل درامي بعيدا عن نقطة ال 50% اللاأدرية, بتطرف نحو الأيمان بالله و ذلك بنظر الكثيرين من المؤمنين, و بتطرف نحو الإلحاد في نظري. و قد لمحتُ لِذلك عِدة مرات. كُل الحجة تدور حول السؤآل التالي "من خلق الله؟". حيث لا يُمكن أستعمال نظرية ألإله المُصممِ لتفسير الخلق المُعقد هذا, لأن أي إله قادر على تصميم أي شي يجب أن يكون على مستوى أعلى من التعقيد و يتطلب بدورهِ تفسيراً. فكرة ألإله تتطلب تراجعاً زمنياً لامفر منه و لا يُمكننا تفسيره. و هذه الحجة, كما

سأشرح في الفصل المقبل, ترينا بأن قلة أحتمال وجود الله كبيرة جدا, على الرغم من أنهُ تِقنياً غير قابل للنقض.

الفصل الرابع

طائرة البوينغ 7 4 7 الكبرى

لتفسير مصدر المعلومات للأشياء الحية, وذلك بالمعنى التقني لمحتوى المعلومات كقياس لاللاإحتماليه أو "القيمة المفاجئة". أو تستخدم شعارات الاقتصاديين المُبتذلة مثل "ليس هُناكَ ما يسمى غداء مجانيا", و يتم أتهام الداروينيون بمحاولة الحصول على شئ من لاشئ. و في الواقع, كما سأبين في هذا الفصل, فإن الانتخاب الطبيعي لداروين هو الحل الوحيد المعروف للأحجية المستحيلة الحل بأي طريقة اخرى عن موضوع من اين اتت المعلومات. و الحل يوضح بان دعاة فرضية الله هم الذين يحاولون الحصول على شئ من لاشئ. و الله يحاول الحصول على غداء مجاني بأن يكون هو نفسه ذلك الغداء. و مهما كان الموضوع الذي تحاول تفسير حدوثه بربطة بالمُصمم قليل احتمال الحدوث احصائياً, فإن المُصمم نفسه يجب أن يكون قليل الاحتمال على الاقل بنفس النسبة. الله هو البوينغ 747 الكبرى.

حجة اللاإحتماليه تنص بأن الأشياء المعقدة لاتأتي بالصدفة. و الغالبية يفسرون بأن "تأتي بالصدفة" بمعنى "تأتي بدون غاية لتصميمها". و لِذلك فليس من المفاجئ أن يتصورا بأن اللاإحتماليه هو دليل على التصميم. الانتخاب الطبيعي الدارويني يظهر لنا خطأ ذلك عند اعتبار اللاإحتماليات فيما يتعلق بالبيولوجيا. و على الرغم من أن الداروينية لاتتعلق بشكل مباشر بعالم الأشياء الجامدة, كعلم الكون مثلا, فإنها ترفع مستوى الوعي عندنا خارج نطاق مجالاتها المحصورة بالبيولوجيا.

الفهم العميق للداروينية يعلمنا الحذر عندما نفترض بأن التصميم هو البديل للصدفة, و يعلمنا أن نبحث عن سلسلة تدرجات بطيئة جداً بأتجاه التعقيد. و قبل داروين, كان الفلاسفة مثل هيوم يفهمون أن عدم أحتمال الحياة لا يعني بالضرورة أن تكون مصممة و لكنهم لم يستطيعوا تخيل البديل. و بعد داروين, علينا جميعا أن نشعر, من كل أعماقنا, بالشك في نظرية التصميم ذاتها. وهم التصميم هو الفخ الذي وقعنا فيه من قبل, و يفترض أن داروين اعطانا المناعة ضده برفع مستوى وعينا. فماذا يحصل لو كان قد نجح في ذلك مع الجميع.

الانتخاب الطبيعي و الوعي

في إحدى مركبات الفضاء في الخيال العلمي, عانى رواد الفضاء من الغربة: "تخيل أن الربيع قد بدأ هُناكَ على الارض!" ليس من السهل التعرف على الخطأ في هذهِ الجملة, أن شوفينية نصف الكرة الشمالي المغروسة بعمق في عقولنا نحن الذين نعيش هنا, و حتى بعض الذين لا يعيشون هنا. "اللاوعي" هو الكلمة الادق. و هنا بالذات تأتي أهمية عملية رفع الوعي. في أستراليا و نيوزيلندا تستطيع أن تشتري خرائط للعالم و القطب الجنوبي فيها مرسوم للأعلى, أن هذه الخرائط ليست للمزاح فقط. أنها من هذا النوع الرافع للوعي فيما لو ثبتناها على جدران الصفوف في نصف الكرة الشمالي. سيتذكر الطلاب يوما بعد يوم بأن "الشمال" هو قطبية أفتراضية لاعلاقة لها ب "الاعلى". الخريطة ستثيرهم وترفع من وعيهم و سيذهبون للمنزل ويخبرون أهاليهم, و بالمناسبة, أعطاء الطلاب شيئا يستطيعون معه أن يفاجئوا أهاليهم هو أحد اعظم المنح التي يقدمها مدرس.

احد الدعاة للمساواة بين الجنسين لفت أنتَباهي للسلطان القادم من رفع الوعي. كلمة "هيايات" طبعاً كلمة بدون معنى, لان جزء الكلمة "هو" في كلمة "هوايات" لا ترمز بشكل من الاشكال الى ضمير رجالي. و الاشتقاق سخيف, تماماً كما في عام 1999 عندما أستعمل ضابط في واشنطن كلمة "Niggardly – بمعنى بخيل" و أتهم بأستعمال الفاظ عنصرية [1]. و لكن حتى الاشتقاقات البسيطة مثل "هيايات" أو "Niggardly" تنجح في رفع مستوى وعينا. في أحدى الامسيات توقفنا عن المزاح وصقلنا سكاكين الفلسفة, وعندها بدأنا نرى كلمة هيايات بصورة تختلف عن كلمة هوايات. الضمائر المتعلقة بالجنس تقع في الخط الاول في حالات رفع الوعي تلك. يجب عليه أو عليها أن تسأل نفسهِ او نفسها عما إذا كان حدسه أو حدسها عن القالب اللغوي يتطلب منه أو منها الكتابة بهذا الشكل. ولو غضضنا النظر عن كل هذه المشاكل اللغوية لعرفنا أحساس نصف الجنس البشري. الانسان, لغوياً كلمة مذكرة نعني بها جميع البشر. جمل مثل "حقوق الإنسان" و "الانسان خلق حراً" و "رجل واحد صوت واحد" اللغة تبدو وكأنها تستبعد المرأة. في شبابي لم يخطر لي بأنه من الممكن أن تشعر النساء بالاهانة من عبارات مثل "مستقبل الانسان". و خلال العقود الاخيرة تم رفع وعينا. و

1. جزء الكلمة NIGGA تأتي بمعنى عبد أسود. (المترجم).

حتى هؤلاء الذين لايزالون يستعملون كلمة "إنسان" بدلا من "إنسان و إنسانة" يفعلون ذلك بشئ من الاعتذار الواعي الذاتي أو لرغبة في المشاكسة, و يقفون موقفا مساندا للغة التقليدية ليثيروا حفيظة المؤمنين بالمساواة. كُل من ينتمي لروح العصر قد تم رفع وعيه, حتى هؤلاء الذين اختاروا الثبات على موقفهم السلبي و زيادة حدة الخِلاف.

المؤمِنون بالمُساواة بين الجنسين أثبتوا لنا أهمية رفع الوعي, و انا هنا سأستعير تقنياتهم لأستعملها في الانتخاب الطبيعي. الانتخاب الطبيعي ليس فقط لتفسير الحياة بشكل كامل, و لكنه يرفع درجة وعينا أيضاً لتلك القدرة التي يتمتع بها العِلمْ في شرح أمكانية ظهور أنظمة معقدة من أشكال بدائية دون هدف مقصود. و الفهم الكامل للانتخاب الطبيعي يشجعنا أن نطبقه بجرأه في فروع اخرى. هنا نصبح أكثر شكاً في مصداقية البراهين المخادعة و التي كانت في يوم ما ,قبل دارون, معضلة كبيرة أمام علماء الطبيعة. من هذا الذي, قبل داروين, كان بإستطاعته أن يحزر بأن شيئا ما يبدو مصمماً لغاية معينة كجناح حشرة اليعسوب أو عين النسر يمكن أن يكون حصيلة سلسة من التغيرات اللاعشوائية بل لأسباب طبيعية بحتة؟

قصة دوغلاس آدمز الطريفة و المحركة للعواطف لتحوله للإلحاد رجعي, أصر على كلمة رجعي لئلا يخطأ أحد ويعتبره لاأدريا, شهادة لقدرة الداروينية على رفع مستوى الوعي. أمل العفو من القارئ عما سيبدو وكانه مديح للنفس فيما يلي. أن تحول دوغلاس بسبب كتبي السابقة – و التي لم تكتب بهدف تحويل أحد – هو السبب في أهداء هذا الكتاب لذكراه – الذي يهدف للتحويل! سئل دوغلاس في مقابلة نشرت مؤخرا في " The salmon of Doubt", من قبل صحفي عن كيفية تحوله للإلحاد. و بدأ الاجابة بشرح كيفية تحوله للاأدرية, ثم استطرد قائلا:

> لقد فكرت و فكرت و فكرت. و لكنني لم امتلك ما يكفي للاستمرار, و بالتالي لم أصِل لأي قرار. كنت متشككاً في فكرة الله الى حدٍ كبير, و لكني لم أعرف الكثير عن أي شي يمكنني من تخيل نموذج أو شرح لماهية الحياة و الكون و أي شئ آخر. و لكنني لم أيأس, و تابعت القراءة والتفكير. وعندما وصلت

الثلاثينات من عمري أطلعت على طبيعة التطور و بالتحديد كتب ريتشارد دوكنيز "**المورث الاناني**" و من بعده "**صانع الساعات الاعمى**". وفجأة ,أعتقد انه خلال قراءتي الثانية لِكتاب المورث الاناني, كُل شي أصبح في مكانهِ. و المبدأ كان مدهشاً و عظيماً في بساطتهِ, و الذي أعطى سبب طبيعي لكل هذا التعقيد الحياتي المدهش. و الرهبة التي اعترتني جعلت النشوة التي يتحدث الناس عنها بخصوص التجارب الدينية تبدوا, بصراحة, سخيفة مقارنة بها, و انا افضل الرهبة الناتجة عن العلم, على الرهبة الناتجة عن الجهل في أي وقت[1].

مبدأ البساطة الذي تحدث عنه, بالطبع, ليس لي علاقة به. أنها نظرية داروين في التطور و الانتخاب الطبيعي, الرافع الاكبر للوعي علمياً. يا دوغلاس, أني أفتقدك. أنتَ اذكى و أطرف و أكثر أنفِتاحاً و أسرع بديهة و أرفع مُرتد بسبب كتبي و ربما أنكَ الوحيد. أملي أن هذا الكتاب سيُضحُكك, و لكن بالتأكيد اقل مما تستطيع اضحاكي.

دانييل دينيت هذا الفيلسوف المتمرس بالعلم يشير الى أن التطور يُعارض أحد أقدم الافكار التي نملكها: "**فكرة الحاجة لأشياء مقعدة ذكية لعمل أشياء أقل تعقيداً. أدعو هذا بنظرية الخلق المُنَزلة. لم نرى أبداً رُمحا يَصنَعُ صانِعَ رماح. لم نرى أبداً نِعل فرس يَصنعُ حداداً. و لا وعاء فُخارياً يصنع صانعهُ**". أكتشاف داروين لعملية فعالة تناقض الحدس بشكل كامل يجعل مُساهمته في الافكار الأنسانية ثورية بشكل كبير ومشحونة بطاقة هائلة لرفع مستوى الوعي.

من المفاجئ جداً مَعرفة ضرورة رفع مستوى الوعي, و حتى في عقول العُلماء اللامعين في حقول أخرى غير الطبيعيات. فريد هويل كان فيزيائياً وفلكياً لامعاً, و لكنه أخطأ في فهم فكرة البوينغ 747 كذلك اخطأ في مجال الطبيعيات حيث حاول أهمال أحد انواع المتحجرات "آركيوبتركس[2]"

---

1. آدم **2002**, ص **99**. مقالتي "LAMENT FOR DOUGLAS" مكتوبة في اليوم الاول بعد وفاة آدم دوغلاس تم أعادة أصدارها في عمود في "THE SALMON OF DOUBT" و كذلك في "DEVIL'S CHAPLAIN" و التي تحتوي كذلك خطبتي في ذكراه في كنيسة القديس مارتن.

2. أحد أنواع الطيور الاولى المنقرضة قبل حوالي **150** مليون سنة, و هو من أول المتحجرات المكتشفة التي تحمل صفات الزواحف و الطيور لهذا يعتبر حلقة وصل بينهما. (المترجم)

واعتبرها خدعة, امور كهذه تنبئنا عن حاجته للاطلاع على شئ ما ليرفع من وعيه بما يتعلق بنظرية الانتخاب الطبيعي. اعتقد أنه ,على مستوى التفكير, قد فهم الانتخاب الطبيعي. و لكن يبدو بأنك تحتاج لان تنقع وتغطس وتسبح في هذه النظرية قبل أن تستطيع أن تقدر فعلاً قوتها الحقيقية.

أن معارفنا ترفع من وعينا بطرق مُختلفة. و علم الفلكي فريد هويل يضعنا في اماكننا, عملياً ومجازياً, ويقلل من كبريائنا ليصبح قابلاً للاحتواء على منصة ضيقة نلعب عليها ادوار حياتنا. على تلك الشظية من الحطام الناتج عن الانفجار الكوني. علم الاحياء يذكرنا بوجودنا القصير سواء كأفراد أو كجنس. و ترفع من وعي جون راسكين و تثيره لدرجة البكاء المؤلم عام 1951: "لو تركني علماء الطبيعة وحيدا, لكُنت بخير تماماً, و لكن تلك المطارق المخيفة! اسمع نقراتها في نهاية كُل جملة من الكتاب المقدس." نظرية التطور تفعل نفس الشئ من ناحية احساسنا بالوقت, ليس ذلك مفاجئا, لانها تعمل على مقياس الزمن الجغرافي. و لكن تطور داروين, وخصوصا الانتخاب الطبيعي تفعل شيئا آخر ايضا. انها تمزق الوهم عن التصميم في فرع الأحياء, و علمتنا أن نصبح مشككين في كُل ما يتعلق بفرضيات تبدو وكانها تتعلق بالتصميم فيما نرى في علم الفيزياء و الفلك ايضا. أعتقد أن الفيزيائي ليونارد سوسكيند فكرَ في ذلك عندما كتب, "أنا لست عالم بالتأريخ و لكنني سأغامر بإعطاء رائي: لقد بدا علم الفلك الحديث في الحقيقة مع داروين و وآلاس. و بخلاف كُل من سبقهم فإنهم قدمو شرحاً لوجودنا نقض كل أشكال الغيبيات الاخرى.. لقد وضع داروين و وآلاس معاييراً ليس فقط لعلم الاحياء و لكن في علم الفلك ايضا"[1]. فيزيائيون آخرون ممن هم لا يحتاجوا بشكل من الاشكال رفعاً لوعيهم و منهم فيكتور ستينغر و كِتابهِ الذي أنصح بهِ "هل وجد العِلمْ الله؟" (الجواب لا), و بيتر آتكينز و كِتابهِ "أعادة النظر" في نظرية الخلق هو أحد الكتب المفضلة عندي لأسلوبه العلمي الشاعري المحترف.

أستغرب بإستمرار من المُتدينين الذين, بعيداً عن رفع وعيهم بالطريقة التي اقترحتها, يبتهجون لِفكرة الانتخاب الطبيعي كطريقة "الله في تكامل الخلق". لقد لاحظوا بأن التطور بالانتخاب الطبيعي سيكون سهلاً لِلحُصول على عالم

1. في لقاء على الـــ"DER SPIEGEL" في السادس عشر من كانون الاول **2005**.

ملئ بالحياة. و الله في هذه الحالة لن يحتاج أن يعمل أي شئ! بيتر آتكينز, في الكتاب الذي ذكرته, يأخذ ذلك الخط الفكري بعقلانية وصولاً الى نتيجة اللاالهية الكونية عندما يسلم بفرضية إله كسول يحاول أن يفلت بأقل ما يمكن من الجهد ليجعل الكون ملئ بالحياة. و إله آتكينز اكسل حتى من إله القرن الثامن عشر: ألإله المُرفه, لا أرتباطات, عاطل عن العمل, زائد عن الحاجة, عديم الفائدة. و خطوة فخطوة ينجح آتكينز في التقليل من كمية العمل لِلإله الكسول هذا حتى ينتهي بعمل لاشئ على الاطلاق, و بذلك يمكنه تفادي هذا الازعاج بأن لا يكلف نفسهُ عناء وجوده اساساً. لايزال حياً في ذاكرتي مشهد الأنين التعليمي لوودي آلن :" لو كان هُناكَ إله فلا اعتقد انه شرير. و أسوأ ما يمكن أن تقول عنه أنه نتاجهِ ليس بالجودة المطلوبة."

التعقيد الغير قابل للنقض

نصدق ما ترى عيوننا. كيف تستطيع خلايا مجهرية تقوم بأنتاج ملايين من الشظايا الشبه زجاجية لِتُشكل هذا النسيج المعقد و الجميل؟ لانعرف." و الكاتب هنا يُسرع و يضيف تعليقةُ ذات المغزى:"و لكننا نعرف شيئا واحِداً: لا يمكن أن تكون الصدفة" بالتأكيد لا, ليست الصدفة وراء هذا. هذا شئ نتفق عليه جميعنا. و اللاإحتمالية الاحصائية لظاهرة كهيكل سلة فينوس تقع في قلب المعضلة التي يتوجب على أي نظرية للحياة حلها. و كُلما كبرت اللاإحتماليه أحصائياً كُلما قل أحتمال أن تكون الصُدفة حلاً. و هذا ما تعنيه كلمة اللاإحتماليه. و لكن الحلان المرشحان للمعضلة ليسا التصميم و الصدفة, كما هو شائع, بل التصميم و الأنتخاب الطبيعي. الصُدفة ليست حلاً, نظراً لكبر قيمة اللاإحتماليه التي نراها في الكائنات الحية, و ليس هُناكَ من عالم أحياء يمتلك كامل قواه العقلية يقترحها. و التصميم ليس حلاً حقيقياً ايضاً, كما سنرى لاحقاً, و لكن الآن سأُكمل أستعراض المشكلة التي يجب على أي نظرية للحياة حلها: المشكلة عن كيفية تفادي الصدفة.

نقلب الصفحة في كتاب برج المراقبة, فنجد النبتة الرائعة المسماة غليون الهولندي (***Aristolochia trilobata***) التي تبدو و كأن كُل اجزائها مصممة بدقة لصيد الحشرات وتغطيتهم بغبار الطلع و أرسالهم لنبتة غليون الهولندي أخرى. الاناقة المعقدة للزهرة تدفع بكاتب برج المراقبة للتساؤل: "هل حدث ذلك كله صدفةٍ؟ أم أنها بسبب التصميم الذكي؟" و مرة أخرى. لا بالطبع لم تحدث صدفةٍ. ومرة اخرى التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للصدفة. الانتخاب الطبيعي ليس فقط حلاً أقتصادياً معقولاً و أنيقاً فقط, بل أنه الحل الفعال الوحيد الذي تم طرحه حتى الان كبديل لِلصُدفة المُقترحة مُنذ الازل. التصميم الذكي يعاني من نفس مشاكل فرضية الصدفة. ببساطة هو ليس حلاً مقعولاً لمشكلة اللاإحتماليه العالية. فكُلما علا مُستوى اللاإحتماليه, كلما اصبحت نظرية التصميم أقل أحتمالية, بل أنه سيقوم بمضاعفة المشكلة من الاساس. و مرة اخرى المشكلة التي يثيرها المُصمم نفسه (او نفسها) هي أكبر و كيف وجدَ أساساً. أي شي قابل لتصميم شئ غير مُحتمل كغليون الهولندي(او الكون) سيكون أقل أحتمالا من الغليون الهولندي. و بعيداً عن هذا التردد الزمني للوراء فأن الله نفسه يزيد الطين بله في هذه الحالة.

تصفح صفحة أخرى في برج المراقبة لترى وصفاً لِشجرة الخشب الاحمر العملاقة (***Sequoiadendron giganteum***)[1], شجرة لها تأثير خاص علي لأن أحداها توجد في حديقتي, مجرد طفل رضيع بعمر قرن تقريباً, و أطول شجرة في المدينة. "رجل ضئيل, يقف بجانب الشجرة, ينظر للاعلى في صمت و دهشة للعظمة الهائلة. هل هُناكَ أي معنى للأيمان بأن شكل هذا العملاق الجليل و نشوئه من البذرة الصغيرة ليس مصمماً؟" و مرة أخرى, لو كُنت تظنُ بأن الصُدفة هي البديل الوحيد للتصميم, فالاجابة لا, ليس هُناكَ معنى. و مرة أخرى فكاتبي الكتاب حذفوا أي اشارة للبديل الحقيقي, الانتخاب الطبيعي, ربما لانهم لم يفهموه أو لانهم لايريدون أن يفهموه.

ان العملية التي تأخذ بها النباتات الطاقة, مهما كانت صغيرة كحشيشة العلق أو عملاقة كشجرة الخشب الاحمر, تسمى بالتمثيل الضوئي[2]. أما ما جاء في برج المراقبة فكان :"هُناكَ حوالي سبعين تفاعل كيميائي منفصل في عملية التمثيل الضوئي, أحد علماء الاحياء قال (**تلك اعجوبة حقيقية**). النباتات الخضراء تسمى بــ(معمل الطبيعة), جميلة و هادئة و لا تلوث و تنتج الاوكسجين, تنقي المياه و تغذي الكائنات الاخرى. هل حدث ذلك بالصدفة؟ هل هذا معقول؟" لا, لا يُمكن تصديق ذلك, و لكن تكرار المثال بعد ألآخر لن يفيدنا بشئ. "منطق" الخلوقيين لا يتغير. بعض الظواهر في الطبيعة منطقياً عديمة الاحتمال بشكل كبير, معقدة جداً, جميلة جداً, و مُدهِشة جداً لِتكون محض بالصدفة. و البديل الوحيد الذي يتمكن الكاتب من تخيليه هو التصميم الذكي. و لهذا يستوجب وجود مصمم قام بتصميم كل شئ. و إجابة العِلمْ على هذا المنطق الخاطئ لا تتغير أيضاً. التصميم ليس البديل الوحيد للصدفة. الانتخاب الطبيعي هو البديل ألأفضل. بالتأكيد, التصميم ليس بديلاً بالاساس لانه يؤدي لأثارة مشكلة أكبر من المشكلة التي يحاول حلها: منْ خلق الخالق؟ الصدفة و التصميم حلان فاشلان لِتلك اللاإحتماليه المنطقية, لأن إحدهما هو المشكلة والاخر مجرد إرتدادٌ لها. الانتخاب الطبيعي هو الحل الحقيقي. الحل الوحيد الفعال الذي نعرفهُ حتى اليوم. و ليس فقط حلاً واقعياً, بل انه حل مُذهِل في اناقتهِ و قدرتهِ.

---

1. **شجر الخشب الأحمر أو شجر كاليفورنيا الأحمر, من عائلة الصنوبريات هي أكبر الاشجار في العالم من حيث الحجم الاجمالي, تعتبر أضخم الكائنات الحية في العالم وأطول الأشجار عمرًا الذي قد يصل لآلاف السنين. (المترجم).**

2. **التمثيل الضوئي :عملية كيميائية معقدة تحدث في كل من الطحالب و النباتات العليا; حيث يتم فيها تحويل الطاقة الضوئية الشمسية من طاقة كهرومغناطيسية على شكل فوتونات أشعة الشمس إلى طاقة كيميائية تخزن في روابط سكر الجلوكوز (المترجم).**

ما هو السبب الذي يجعل الأنتخاب الطبيعي ينجح كحل لِمُشكِلة اللاإحتماليه حينما تفشل كِلا فرضيتا الخلق و الصدفة عند خط البداية؟ الجواب هو بأن الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية, مما يجزء مسألة اللاإحتمالية لأجزاء صغيرة. و كل منها صغير بحيث أن لاإحتماليته منطقية بشكل ما, و لكن ليست من المستحيلات الحدوث. و عند تراكم العديد من التركمات, فإن الناتج النهائي سيكون لااحتمالياً بشكل كبير جداً جداً بالطبع, لااحتمالي بشكل لا يقبل مجالا للشك أن يكون قد حدث عن طريق الصُدفة. و الناتج النهائي الذي يُشكل الكائن الذي يحاجج به الخلوقيين بشكل مُرهق بأشكاله المختلفة. الخلوقي يخطئ الهدف. لانه (لايجب هنا أن تنزعج السيدات من استبعادهن هنا في الضمير المذكر المُستعمل) يصر على أنهُ يُعامل أحتمالية التكوين المعقد كخطوة واحدة, حدث واحد. انه لايفهم قدرة التراكم.

في كتابي "**الصعود إلى جبل اللااحتمال**"[1]. وضحت هذه النقطة بمثال. تخيل جبلا أحد طرفيه مُنحدر بشكل حاد, من المُستحيل تسلقهُ, و الطرف ألآخر مُنحدِر بشكل مُتدرج لطيف حتى القمة. في القمة يجلس نظام مُعقد كالعين مثلاً أو البكتريا ذات المحرك المروحي. الفِكرة السخيفة بأن تعقيداً كهذا يتجمع بشكل آني يرمز بالانتقال من وادي الجبل لقمته بقفزة واحدة. التطور, على العكس من ذلك, يذهب حول الجبل من الناحية الأخرى و يصعد المُنحدر البطئ زحفاً: بسيط! اليس كذلك؟ مبدأ الصعود البطئ مقارنة بالقفزة الواحدة مبدأ بسيط جداً, لِدرجة تدفعنا للتعجب عن السبب وراء كل هذا الوقت حتى اتى أحدٌ ما كداروين على المسرح و أكتشفهُ. عندما فعل ذلك كانت قد مضت حوالي ثلاثة قرون على نشر نيوتن. ل. "**العالم العجائبي**", رغم أن إنجازهُ بدا وقتها, أصعب من ذاك الذي لداروين.

استعارة اخرى مفضلة عن تطرف اللاإحتمالية في حالة قفل خزنة بنك. نظرياً, يُمكن لِسارق أن يكون محظوظاً بالحصول على تسلسل الارقام الثمانية بالصدفة و حدها. عمليا, التسلسل يُصمم بلاإحتمالية عالية لِدرجة تجعل ذلك أشبه بالمُستحيل بنفس درجة فكرة فريد هويل عن البوينغ 747. و لكن تخيل قفلاً مُصمماً بشكل سئ و أنه يعطي أشارات أستطرادية تعلو

1 . CLIMBING MOUNT IMPROBABLE, ROCHARD DAWKINS 1996.

كُلما قرب الرقم من الرقم الصحيح. أفترض أن اقتراب القرص من الرقم الصحيح, فإن باب الخزنة يُفتح قليلاً, و حفنة من النقود تسقط منها. فاللص في هذهِ الحالة سيحصل على الجائزة الكبرى في وقت قصير جدا.

الخلوقيين يُحاولون أستعمال حجة اللاإحتمالية لِصالحهم بالافتراض بأن السؤآل البيولوجي الموازي هو موضوع الجائزة الكبرى أو لاشئ. و الاسم ألآخر المستعمل لــ"الجائزة الكبرى أو لاشئ" هو "التعقيد الغير قابل للأختزال". العين ترى أو لاترى. الجناح يطير أو لا يطير. و لا يفترض أن يكون هُناكَ أي حلول وسط ذات فائدة. و هذا ببساطة خطأ. و التوسطيات كثيرة جداً عملياً – وهذا بالضبط ما نتوقعه نظريا. و مجموعة ارقام الخزنة في الحياة يوازي الاشارات الاستطرادية التي تعلو و تنخفض بالقرب أو البعد عن الرقم الصحيح. الحياة الحقيقية تبحث عن المنحدر اللطيف خلف الجبل اللاإحتمالي, في حين أن الخلوقيين عميان عن كُل ذلك و يركزون على المنحدر الحاد القاسي في المقدمة.

داروين خصص فصلا خاصا في كتاب اصل الانواع "**الصعوبات الخاصة بنظرية النشوء بالتعديل**", و مِن العدل أن نقول بأن هذا الفصل المُختصر يتوقع و يرتب كُل المزاعم الصعبة التي أقتُرحت منذ ذلك الحين و حتى يومنا هذا. و الصعوبات الهائلة كانت في "الاعضاء البالغة الكمال والتعقيد" و التي توصف احياناً خطأ بـــ"التعقيد الغير قابل للأختزال". أختار داروين العين كونها خاصة جداً في هذا التحدي: "**الأفترِاض بأن العين بكل مواصفِاتها التي لا تقبل التقليد, كالتركيز على مسافات مختلفة أو السماح لكميات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة, و تصحيح الشكل الكروي والانحراف اللوني, قد تشكلت بالانتخاب الطبيعي, يبدو, و أنا أعترف بهذا, أعلى درجات السخف.**" الخلوقيين يقتبسون هذهِ الجملة ببهجة كبيرة مرة تلو الاخرى. و لسنا بحاجة للقول بأنهم لا يذكرون ما يأتي بعد ذلك. أعتراف داروين المقيت ليس الا اداة بلاغية. يشد بها خصمهِ لناحيتهِ حتى تكون الضربة أقسى,عندما يحين وقتها. والضربة, بالتأكيد, هي شرح داروين السهل عن كيفية تطور العين بشكل تدريجي. ربما أن داروين لم يستعمل عبارة "التعقيد الغير قابل للأختزال", أو "التدرج السلس نحو قمة جبل الإاحتمالية", و لكنه بالتأكيد فهم كلا المبدأين.

"ما هي فائدة نصف عين؟" أو "ما فائدة نصف جناح؟" حجتان جاهزتنا من نوع "التعقيد الغير قابل للأختزال". الجهاز الوظيفي يكون مُتعذر الاختزال في حالة توقفه تماماً عن العمل بمُجرد أنقاص أي جزء منه. هذا كان من المسلمات في حالى العين و الجناح. و لكن عندما نُفكر لِبرهة في هذهِ الافتراضات, نرى الخطأ مباشرة. أن مريضة ماء العين المُعتم التي رفعت عدسة عينها جراحياً لا تستطيع رؤية صورة واضحة بدون نظارات, و لكنها ترى ما يكفي لِتفادي الاصطدام بشجرة أو الوقوع من حافة جبل عالية. و نصف جناح ليسَ فعالاً كجناح كامل, و لكنه أفضل من لاجناح على الاطلاق. يستطيع نصف الجناح أن يُنقذ حياتك بتخفيف الصدمة الناتجة عن الوقوع من على شجرة بعلو ما. و 51% من الجناح يساعدك في حالة شجرة أعلى بقليل. و مهما كانت نسبة الجناح الذي نملكه, سيكون هُناكَ علو مرافق يستطيع جزء الجناح إنقاذ حياتك فيما لا يستطيع جزء أصغر فعل ذلك. و التجربة الفكرية عن الاشجار المُختلفة الارتفاع, والسقوط من أعلاها, هي فقط أحد الطرق لنرى, نظرياً, بأنه من المتوجب وجود تدرج سلس للمنافع على طول الخط بدأ من 1% من الجناح و أنتهاءٍ بجناح كامل. الغابات مليئة بأمثِلة عن حيوانات تتزلق أو تهبط "مظليا" لِتُنير الفكرة عن كُل خطوة صعوداً على جبل من اللاإحتمالية.

بالقياس مع الاشجار المختلفة الارتفاع, من السهل تخيل ظروف تستطيع فيها نصف عين أن تنقذ حيوان في حين أن 49% من العين لن تكون قادرة على ذلك. تدرج سلس بناء على معطيات الاضاءة المتوفرة, و المسافات التي تستطيع بها لمح الفريسة – أو المفترس. و كما الجناح و سطوح الطيران, فمتوسطات معقولة كهذه ليست فقط سهلة التخيل بل انها منتشرة بوفرة في مملكة الحيوانات. الدودة المسطحة لديها عين, و بكل المقاييس تعتبر أقل من نصف العين البشرية. الاخطبوط المعروف بأسم الناوتيلوس او قارب اللآلئ (و ربما أبناء عمومتها المنقرضين الذين كانوا مسيطرين على البحار) لهُ عين متوسطة بين عين الدودة و الأنسان. و بخلاف عين الدودة المُسطحة, التي تميز الضوء عن الظل فقط و لا ترى أي صورة, فإن عين الناوتيلوس المشابهة لـــ"الة تصوير ذات ثقب" تستتطيع عمل صورة حقيقية, و لكنها مشوشة و مُعتِمة مُقارنة لِصور أعيننا. من غير المُمكن وضع سُلم دقيق

لِتدرج تحسن الرؤيا, هذا يعتبر غشاً, و لكن لا يوجد عاقل يستطيع أن ينفي بشكل بأن تلك الاعين للاافقاريات, و غيرها كثير, هي افضل من عدم وجود عين أساساً, و بأن كُل الاعين مصفوفة على المنحدر السلس للجبل اللااحتمالي, و أعيننا قريبة من القمة – ليست الاعلى و لكن عالية حتماً. و في صعود الجبل اللااحتمالي, خصصت فصلاً خاصاً للعين والجناح, و بينت كم كان من السهل أن يتطوروا ببطء (و ربما ليس بذلك البطء) تدريجياً. و سأترك هذا الموضوع هنا.

وبذلك نرى بأن العين والجناح بالتاكيد ليسا من نوع "التعقيد الغير قابل للأختزال", و لكن الاكثر إثارة من هذا المثال هو في الدرس الذي نستنتجه بشكل عام. الا وهو الواقع بأن الخطأ المميت, الذي وقع فيه الكثيرين فيما يتعلق بهذه الامور البديهية, يجب أن ينبهنا لأمثِلة اخرى أقل بديهية, مثل البحث الخلوي و الكيمياء الحيوية المفضلة عند الخلوقيين الذين يختفون خلف قناع سياسي مناسب يعرف بـــ "نظرية التصميم الذكي".

لدينا هنا درس تحذيري, يقول لنا: لا تعلن بأن أي شئ هو تعقيد مُتعذر الاختزال, لان هُناكَ أحتمالاً كبيراً لئلا تكون قد محصت أكتشافك بحذر, أو فكرت بشكل كاف عنه. و من جهة اخرى, لا يجب علينا, نحن الذين في جانب العلم, أن نكون إعتقاديين بثقة. ربما إن هُناكَ شئ ما في الطبيعة لا يُمكنه, بسبب تعقيدهُ المتعذر الاختزال, أخذ مكان على المنحدر السلس لِجبل اللااحتمالية. الخلوقيين محقين في انه لو ظهر التعقيد الغير قابل للأختزال بصدق و بشكل صريح, فإن ذلك مما يمكنه أن يهدم نظرية داروين. داروين بنفسهِ قال: "لو كان بالامكان الاستعراض بأن أي نظام مُعقد موجود ليست له الامكانية أن يكون ناتجاً عن تطور تدريجي ناتج عن تراكم العديد من التغييرات البسيطة, فإن نظريتي تنهار بدون شك. و لكنني لم أجد حالة كهذه." داروين لم يجد تلك الحالة, و لا أحد من بعده حتى الآن أستطاع, برغم كُل الجهود النشيطة والمستميتة. الكثير من الحالات أقترح و عُرض. ولاشئ منها صمد امام التحليل.

على أي حال, وبالرغم من أن التعقيد الغير قابل للأختزال من الممكن أن يُسبب إنهيار نظرية داروين لو وجد, فأنها ستؤدي لأنهيار نظرية الخلق

أيضاً؟ و بالتأكيد فقد تحطمت نظرية التصميم الذكي, و مرة اخرى أكرر السبب, الا وهو, مهما كانت معرفتنا قليلة عن ماهية الله, فإننا نستطيق ان نتأكد بأنه على درجة عالية من التعقيد و بالتالي متعذر الاختزال ايضاً.

لعبة الحلقة المفقودة

البحث عن أمثِلة للتعقيد المتعذر الاختزال ليس بالاساس طريقة علمية للمتابعة: مجرد حالة خاصة للمحاججة تعتمد على الجهل. و مشابهه لِمنطق مُزور يسمى أستراتيجية "اله الفراغات" المنبوذه من قِبل عالم الدين ديتريش باهنهوفر. الخلوقيون يبحثون بشغف عن فراغات في معارف و مفاهيم العصر. و بمجرد ظهور ما يبدو كحلقة مفقودة, فانه يفترض بأن الله, يجب أن يملأها بطبيعة الحال. ما يُقلق رجال الدين المفكرين مثل باهنهوفر هو أن هذهِ الفراغات بدأت تصغر مع تقدم العلم, والله في هذهِ الحالة مهدد بعدم وجود أي شئ يفعلهُ أو أي مكان يختبئ فيه. ما يُقلق العُلماء هو شئ آخر. أنه من الضروري في أي مؤسسة علمية أن تعترف بالجهل, بل و تسعد به كتحدي لفتوحات مُستقبلية. كما كتب صديقي مات ريدلي, "**معظم العُلماء ضجروا من الأشياء التي أكتشفوها. أن ما يجهلونه هو ما يدفعهم للاستمرار**". المتدينين يفرحون بالاسرار و يرغبون ببقائها الغازاً. أما غبطة العُلماء بسرية الأشياء لهُ سبب مختلف تماماً: يعطيهم الفرصة للعمل عليها, و سأكرر ذلك في الفصل الثامن, و أحد ألآثار السيئة للدين هو تعليمنا بأن التسليم بالأشياء التي لا نفهمها هو صفة حميدة.

الاعتراف بالجهل المؤقت أمر حيوي جدا للعلم الجيد. ولذلك فإنه من المؤسف القول,على الاقل, بأن أستراتيجية الخلوقيين الاساسية سلبية تتمثل بالبحث عن الفراغات العلمية و الزعم بأن الله يملأها "بالتصميم الذكي". ما سأذكره الآن لا يعدو كونهُ أفتراضاً و لكنه معبرٌ تماماً. الخلوقي يقول: "ان مرفق الضفدع معقد بشكل لا يقبل الاختزال. واي جزء من المرفق سيكون عديم الفائدة بدون أن تتجمع الاجزاء الباقية معه. وأراهن إنك لن تستطيع التفكير بطريقة يستطيع بها مرفق ضفدعة ابن عرس أن يتطور تدريجيا ببطء؟" و عندما يفشل العالم بإعطاء جواب مباشر و مفهوم, فإن الخلوقي

يخرج بالاستنتاج التالي: "حسناً, و بهذا تفوز النظرية البديلة ,التصميم الذكي."
لاحظ التحيز في المنطق: فشل النظرية (أ) جزئياً, يجعل نظرية (ب) صحيحة. لا نحتاج القول هنا بأن المنطق نفسه لا يُطبق في الحالة المعاكسة. و يتم القفز للنظرية البديلة بدون حتى النظر لمعرفة فيما إذا كانت ستفشل في بعض اجزائها كالنظرية التي تزعم أخذ مكانها. التصميم الذكي يبدو و كأنه يحمل مناعة سحرية ضد المتطلبات الصارمة التي تتطلبها نظرية التطور.

و لكن النقطة التي أُريد توضيحها هنا هي أساليب الخلوقيين تقوض مشاعر رجل العلم – الضرورية بالتاكيد – بالابتهاج بالحيرة (المؤقتة). و لأسباب سياسية بحتة, يتردد عُلماء اليوم قبل القول: "همم, نقطة مثيرة فعلاً. أعجب كيف تمكن أسلاف ضفدع أبن عرس من تطوير مفاصل مرافقهم. أنا لست أختصاصياً بضفادع أبن عرس, علي أن أذهب لِمكتبة الجامعة و القي نظرة. من الممكن أن يكون هذا موضوعا لمشروع تخرج مثير لطالب تخرج". في اللحظة التي يقول أحد العُلماء شيئا كهذا – و قبل أن يبدأ الطالب مشروعهُ للتخرج بكثير – سنرى الأستنتاج عنواناً عريضا على كتيبات الخلوقيين : "ضفدع ابن عرس لا يُمكن الا أن يكون مصمم من قبل الله".

هنالك بالتالي وللاسف علاقة بين الطريقة العلمية المطلوبة للبحث في المجالات المجهولة بهدف توجيه الابحاث نحوها من جهة, وبين دعاة التصميم الذكي المحتاجين للمجالات المجهولة لِزعم الاستنتاج التقصيري. و لِهذا السبب بالذات ليس هنالك أي أدلة تطلبها نظرية التصميم الذكي, و تزدهر فقط في فراغات المعرفة العلمية, لا يلائم ذلك حاجة العِلمْ للتعرف و الاعتراف بنفس هذا الفراغ كمدخل للبحث العلمي فيها. و في ذلك يجد العِلمْ نفسه متفقا مع عُلماء دين متطورين مثل باهنهوفر, متحداً معه ضد العدو المشترك من السذج, و علم الدين الشعبي و الفراغات المملوءة بالتصميم الذكي.

عشق الخلوقيين لــ"الفراغات" في عالم المتحجرات صورة جلية لكُل مذهب "الفراغات الديني". في أحد الفصول بدأت فيما يسمى بالانفجار الكامبري بالجملة التالية, "يبدو للفكر بأن المتحجرات قد وضعت هُناكَ بدون مرورها بتطور عبر التأريخ". مرة أخرى, تلك البلاغة في مقدمة المقال قصدتُ بها

شحذ شهية القارئ للتفسير الكامل الذي يتلوها. المُحزن في الامر كان أدراكي المُتأخِر, و كم كان يجب أن يكون متوقعاً, أن التفسير المتأني الذي قدمتهً سيُقتطع بأكمله و سيتم أقتباس المُقدمة ببهجة لِتسُتعمل خارج نطاق الموضوع. الخلوقيين مُغرمون بالفراغات في سجل المُتحجرآت, كما هم مغرمون بالفراغات الاخرى بشكل عام.

الكثير من مراحل التطور الانتقالية مدون بأناقة أعتماداً على سلسة مستمرة التغيير من الشواهد المتحجرة للمراحل المتوسطة. وتلك السلسلة عند بعض المتحجرات غير مستمرة, و هذه هي "الفراغات" المشهورة. كما اشار لذلك مايكل شيرمر في قوله بأنه لو تم اكتشاف متحجرة تملأ تلك الحلقة المفقودة بشكل لايقبل الشك, فأن الخلوقيين سيعلنون بأن عدد الحلقات المفقودة قد تضاعف! و عندما لايوجد سجل أو متحجرة توثق التتطور التدريجي, فإن الافتراض المبدئي هو عدم وجود تطور أساساً, و هذا يعني أن هُناكَ تدخل الهي.

من غير المنطقي تماما المطالبة بتوثيق كامل لكل خطوة في أي حدث متغير, سواء في التطور أو أي علم اخر. لأنه في هذه الحالة يمكنك المُطالبة ايضاً, وقبل ادانة شخص ما بجريمة قتل, بتسجيل فلمي كامل لِكُل خطوة قبل حصول الجريمة, وبدون أي أنقطاع. نسبة ضئيلة جداً من الجثث تتحجر, و نُعتبر محظوظين لوجود هذا العدد من المتحجرات بين ايدينا. و بالامكان بسهولة أن لا يكون هُناكَ أي متحجرات بالمرة, ورغم ذلك فأن لدينا العديد من الادلة عن التطور من مصادر اخرى, كالمورثات الجزيئية و التوزع الجغرافي, شديدة القوة بشكل كبير. مع ذلك فإن نظرية التطور تتنبأ بأنه لو ظهرت مُتحجرة وحيدة في العصر الجيولوجي الخاطئ, فإن النظرية تنهار برُمتِها. و عندما سُأل أحد اتباع بوبر عن ما يلزم لتقويض نظرية التطور كانت اجابة ج. ب. س. هالدان: "متحجرة لأرنب تعود للعصر يسبق عصر الكامبري". لم توجد حتى الان متحجرة كتلك مما يُعترف به, على الرغم من كُل اساطير الخلوقيين الغير موثوق بها عن جماجم بشرية في طبقات الفحم الحجري و آثار اقدام بشرية جنبا الى جنب لآثار الديناصورات.

الحلقة المفقودة بالاساس موجودة في عقل الخلوقيين, و تملأ بواسطة الاله. و كذلك جميع المنحدرات الظاهرة على الجبل اللااحتمالي الضخم, حيث لايكون المنحدر المتدرج واضحاً أو بحالة اخرى غير ظاهر للعيان. و حيث المعلومات منقوصة, أو غير مفهومة, تعزى فورا للاله. الاتجاه السريع الدرامي للزعم بـــ"التعقيد متعذر الاختزال" تصرح عن ضيق في الخيال. بعض الاعضاء الحيوية, و إن لم تكن عين فستكون مُحرك البكتريا المروحية أو أي ممر حيكيميائي, يصنف بدون أي مراجعة كتعقيد متعذر الاختزال. بدون حتى محاولة أظهار التعقيد المتعذر الاختزال فيها. و بالرغم من الدروس المستقاة من موضوع العين و الجناح و الكثير من الأشياء الاخرى, فإن كُل مرشح جديد لهذا الوسام المريب و الذي يفترض بأن النظام و بكشل ذاتي كتعقيد متعذر الاختزال, و هذا التصريح يتم تسجيله كمرسوم صادر. و لكن فكر قليلا بالموضوع. بما أن التعقيد الغير قابل للأختزال أستعمل كحجة للتصميم, فيجب أن نطبق نفس الاجراءات على التصميم بذاته. و لكن أن تصرح ببساطة أن ضفدع ابن عرس (الخنفس القنبلة, الخ) يبرهن على التصميم, بدون أي دليل أو تبرير. فلا صلة لذلك بالعلم بأي شكل.

المنطق في هذا الحالة لا يبدو أكثر اقناعا مما يلي: "أنا [ضع اسمك هنا] شخصياً غير قادر على التفكير بأي طريقة عن كيفية بناء [ضع ضاهرة ما هنا] خطوة فخطوة. و لِذلك فإنها تعقيد متعذر الاختزال. و هذا يعني أنها مصممة". تخيل ما سبق وسترى مباشرة ضعف الموضوع في حال استطاعة عالم ما ايجاد مرحلة متوسطة, أو على الاقل تخيل امكانية وجود حالة متوسطة. و حتى لو لم يأت أي عالم بأي تفسير, فالمنطق السئ المنادي بـــ"التصميم" ليس أفضل بأي شكل. و السبب الذي يختبئ خلف "التصميم الذكي" ليس الا كسلاً و أنهزامية – سبب تقليدي لـــ"اله الفراغات". و قد لقبته سابقاً بالحجة المبنية على الضعف الشخصي.

تخيل انك ترى خدعة سحرية عظيمة. الساحران العظيمان **تيللر** و **بن** لديهما خدعة يبدون فيها وكأنهما يطلقان النار على بعضِهما بالمسدسات, و كل منهما يبدو و كأنه التقط الرصاصة بأسنانهِ. كأجراءات وقائية مُتقنة تُتخذ بأن تخدش الرصاصات بعلامات قبل أن توضع في المُسدسات, و كل العملية مشهودة من قبل المشاهدين من الذين لديهم خبرة بألأسلِحة النارية على

المسرح, و يبدو أن كُل الامكانيات لوجود خدعة قد تم أقصاؤها. و رصاصة تيللر المؤشرة ينتهي بها ألأمرَ في فم بن, و رصاصة بن المؤشرة في فم تيللر. أنا [ريتشار دوكنز] غير قابل بشكل تام للتفكير بأي خدعة يمكن أستعمالها في هذا المشهد. و حجة الضعف الشخصي تصرخ من مركز دماغي ما قبل العلمي, و ترغمني تقريباً على القول, "لابد أنها اعجوبة. ليس هُناكَ أي تفسير علمي. لابد أن يكون الموضوع خارق للطبيعة". و لكن هُناكَ صوت خافت ناتج عن الثقافة العلمية ينادي برسالة مختلفة. تيللر و بن ساحران على مستوى عالمي. و هنالك تفسير كامل وجيد. و لكنني بسيط أو غير دقيق الملاحظة, أو لا أملك الخيال لادراكه. هذا هو الجواب الجيد فيما يتعلق بالحركات السحرية, و هذا جواب جيد فيما يتعلق بالظواهر الحياتية التي تبدو كتعقيد متعذر الاختزال أيضاً. هؤلاء الذين يقفزون مباشرة من ظاهرة طبيعية محيرة للدعوة السريعة لما هو خارق للطبيعة, ليسوا بأفضل من الحمقى الذين يرون مُشعوذاً يلوي مِلعقة و يقفزون مباشرة للاستنتاج بأن ذلك "خارق للطبيعة".

في كِتابهِ **سبع أفكار تلميحية لاصل الحياة**[1], يطرح الكاتب كايرنسميث نقطة اضافية. بإستعمال التشبيه بالطوق المقوس[2]. طوق مبني من حجارة مأخوذة من مقلع حجري و لا يُمكن أن يكون الطوق بناء هندسياً مستقراً لو كان بنائاً عادياً. و لكنه تعقيد متعذر الاختزال: و سينهار برفع أي حجرة منه. كيف بني اذن؟ أحدى الطرق تكون بصف كومة من الاحجار تحت القبة ومن ثم رفعها واحِداً بعد الاخر. و بشكل عام, هُناكَ العديد من التركيبات البنائية المتعذرة الاختزال بمعنى انها لا يُمكن أن تبقى بعد أنقاص أي جزء منها, بنيت بمساعدة السقالة التي رفعت لاحقا و لم تعد مرئية. وعندما يكتمل البناء, يمكن رفع السقالة بأمان ويبقى البناء ثابتاً. و كذلك ألأمرَ في التطور, ربما يكون العضو الذي تنظر اليه الآن قد كان مُرفقا بسقالة من نوع ما عند أجداده, و التي رفعت ولم تعد مرئية.

"التعقيد المتعذر الاختزال" ليست بالفكرة الجديدة, و لكن التعبير بحد ذاتهِ أخترعهُ الخلوقي مايكل بيهي[3] عام 1996. شرف الكلمة يعزى له (أذا ما

---

1 . SEVEN CLUES TO THE ORIGIN OF LIFE. BY A. G. CAIRNS-SMITH

2. **الطوق بناء هندسي شبيه بالقبة من أمثلته قبب المآذن و طوق كسرى مثلاً.**

3. BEHE 1996

كان شرفاً) و كذلك نقل الخلوقية لحقبة جديدة, الحيكيميائية وعلم الخلية, و التي على ما يبدو بدت مكاناً افضل للبحث عن حلقات مفقودة أكثر من العين و الجناح. أفضل ما جاء به هو مثال جيد (لازال سيئاً) كان عن البكتريا ذات المحرك المروحي.

المحرك المروحي في هذه البكتريا هو أعجوبة طبيعية. و هو المثال الوحيد, خارج نطاق التكنولوجيا البشرية, للمحور الدوار الحر. و لو وجد مثلهِ في حيوانات كبيرة ستكون مثالاً رائعاً عن التعقيد الغير قابل للأختزال, و رُبما أن هذا هو سبب عدم و جودها. كيف يمكن لِلأعصاب و الاوعية الدموية أن تعبر محور الدوران؟[1] المروحية هي عبارة عن خيط دوار, وبواسطته تشق البكتريا طريقها من خلال الماء. و أقول تشق من خلال و لا اقول تسبح لأنه على مستوى حجم البكتريا في الوجود, فإن ما يبدو سائلاً كالماء بالنسبة لنا, فبالنسبة لها يبدو كالدبس أو الهلام, أو حتى كالرمل, وتبدو البكتريا و كأنها تشق طريقها أكثر مما تبدو و كأنها تسبح. و على عكس ما يسمى بالمروحية في كائنات اكبر كأحادية الخلية المعروفة بأسم ألأوالي, فإن البكتريا المروحية لا تلوح بها كسوط, أو تجدف بها كالمجداف. و لكنها تملك محوراً حقيقيا يدور بشكل متواصل عبر وصلة, و مدفوعاً بمحرك جزيئي صغير مثير للدهشة. و على المستوى الجزيئي, يستعمل المحرك نفس المبدأ بالاساس كالعضلة, و لكن بدوران حر عوضا عن الانكماش المتقطع. و قد وصِفَ بسرور كمحرك خارجي (على الرغم من ان تواجد ذلك في نظام بيولوجي يعتبر غير طبيعي بالنسبة لقوانين الهندسية – فإنه غير كفء بشكل ملفت للنظر).

وبدون أي تبرير, أو شرح, يعلن بيهي ببساطة بأن المحرك المروحي للبكتريا هو تعقيد متعذر الاختزال. و بما انه لم يقدم أي حجة في صالح أدعائه, فبإمكاننا أن نبدأ بالاشتباه في مخيلتة التي تترنح. و يزعم بعد ذلك بأن المراجع العلمية المختصة قد تجاهلت هذهِ المسألة. نفاق فاشل تم الكشف عليه بوضوح محرج (بالنسبة لبيهي) في صالة المحكمة للحاكم جون أي جونز في بنسلفانيا 2005, عندما كان بيهي يشهد كخبير لمصلحة مجموعة

---

1. في مثال أدبي يصف كاتب كتب الاطفال فيليب بولمان في كتابه "HIS DARKS MATERIALS" جنس حي الذي يعيش على احد الاشجار التي ينتج بذور دائرية ذات ثقب في المركز. هذا الحيوان يستخدم هذه البذور للتنقل عليها و كأنها عجلات. ولان البذور ليست جزئاً من جسمه فأنها لا تحتوي على شرايين او أعصاب.

من الخلوقيين الذين حاولوا فرض "التصميم الذكي" ليكون ضمن البرنامج الدراسي في مدرسة عامة – حركة في "منتهي الوقاحة", الاقتباس هنا من الحاكم جونز (المقولة و الرجل بالتأكيد مقدر لهما الشهرة الراسخة). ذلك لم يكن الاحراج الوحيد الذي عاناه بيهي في الجلسة, كما سنرى.

عندما يتم أثبات التعقيد الغير قابل للأختزال فيجب أثبات عدم فائدة أي قسم من هذا النظام بمفرده. و بأن كُل الاقسام يجب أن تكون في مكانها قبل أن يُصبح أي قسم منه مفيداً (تشبيه بيهي المفضل هو مصيدة الفئران). في الواقع أن علم الخلية الجزيئي لم يجد أي صعوبة في برهان أن الاجزاء تعمل خارج النظام الكلي, و ذلك بالنسبة للبكتريا المروحية كما للأمثِلة الاخرى التي قدمها بيهي بالزعم بأنها تعقيد متعذر الاختزال. النقطة و ضحها كينيث ميللر من جامعة براون بشكل جيد, و الذي هو في رأيي اكبر عدو مقنع للتصميم الذكي, و ليس لسبب آخر غير كونه مسيحيا مؤمناً. و أنا اوصي بكتاب براون البحث عن إله داروين كثيراً للمُتدينين المخدوعين من قبل بيهي.

في حالة البكتريا ذات المحرك المروحي, يلفت ميللر أنتبَاهنا لآلية من صنف النظام الافرازي الثلاثي[1]. النظام لايستعمل في حركة الدوران. و لكنه أحد الانظمة العديدة المستخدمة من قبل البكتريا الطفيلية لضخ المواد السامة من خلال جُدران خلاياها لِتسميم الجسم المُضيف. و بمقياسنا البشري, بأمكاننا تخيل الموضوع و كأنه صب أو تدفق لِسائل من خلال ثقوب, و لكن, مرة أخرى, بمقاييس البكتريا يبدو ذلك مختلفاً. هذه المادة المفرزة هي عبارة عن جزيئات بروتينية ثلاثية الابعاد محددة البناء على شكل معرف بالنظام الافرازي الثلاثي, لها شكل أشبه بتمثال متحجر من سائل متدفق. و كل جزيئ مدفوع من خلال آلية مشكلة بإتقان, و كأنه آلة توزع العاباً أو زجاجات تخرج من خرم فيها أكثر من كونها آلية بثقب "يسيل" منه سائل ما. و الثقب الموزع هو عبارة عن عدد صغير من جزيئات البروتين, و بحجم و تعقيد مشابه للجزيئ المدفوع للخارج. و المثير, أن هذهِ الآليات البكتيرية ذات الثقب متشابهة في عدد من البكتريا لاتمت لبعضها بصلة قرابة وثيقة. و يبدو أن المورث الذي جعلهم يملكون هذهِ الآلية ربما كان "منسوخ و ملصوق" من

1 . HTTP://WWW.MILLERANDLEVINE.COM/KM/EVOL/DESIGN2/ARTICLE.HTML

بكتريا أخرى: و هذه عملية تبرع فيها البكتريا بشكل ملحوظ, و هذا موضوع ساحر آخر بحد ذاته.

الجزيئات التي تشكل النظام الافرازي الثلاثي مشابهة جداً لتلك التي تشكل المحرك المروحي. و بالنسبة للتطوري فإنه من الواضح أن تلك المكونات أستولت عليها و ظيفة جديدة, و ليست مُنفصلة تماماً, عندما تطورت بكتريا المحرك المروحي. المعطيات هي أن النظام الثلاثي يجر جزيئات من خلاله, فإنه ليس من المفاجئ أن تستعمل نُسخة اولية من المبدأ نفسه من قبل البكتريا المروحية, و التي تجر جزيئات المحور حول نفسها. من الواضح, أن المكونات الحاسمة للمحرك المروحي كانت موجودة و شغالة قبل أن يتطور المُحرك المروحي. و أستعمال نظام موجود هو طريقة بديهية يمكن من خلالها لما يبدو لتعقيد مُتعذر الاختزال أن يصعد الجبل اللااحتمالي.

الكثير من البحث يجب أن يتم, بالطبع, و أنا مُتأكد بأن ذلك سيحصل. عمل كهذا لن يتم لو كان العُلماء مُكتفين وسعداء بالتبرير الذي تدعمه نظرية "التصميم الذكي" و تلك عبارة أتخيلها مُرسلة من شخصية خيالية لـــ"منظر في التصميم الذكي": في حالة عدم فهمُك لكيفية عمل شي ما, لا تهتم, أستسلم و قل بأن الله فعلها. لا تعرف ماهية عمل النبضات العصبية؟ حسنا! لا تفهم كيفية عمل الذاكرة في المخ؟ ممتاز! هل التمثيل الضوئي عملية مثير للحيرة بتعقيدها؟ رائع! أرجوك لا تتعب نفسك بالعمل على أي من هذهِ الاسئلة, فقط تقبل الامر الواقع, و نادي بالله. عزيزي العالم, لا تعمل على كشف أي من هذهِ الاسرار. بل اجلبهم لنا لنستخدمهم. لا تُبذر الجهل الثمين بالبحث العلمي بهذه الطريقة. نحن بحاجة لتلك الفراغات كملجأ اخير لله". لقد قالها سانت آوغستين بصراحة: "هُناكَ شكل آخر من الاغراء. مشحون بالخطر. الا وهو داء الفضول. ذاك الذي يدفعنا لِتجربة و أكتشاف أسرار الطبيعة, تلك الاسرار التي خارج حدود فهمنا, و التي لا تفيدنا بشئ و لا يجب على الأنسان أن يتمنى تعلمها" (اقتباس من فريمان 2002).

الزعم المفضل ألآخر لدى بيهي عن التعقيد الغير قابل للأختزال هو نظام المناعة. و لِنرى ما يروي القاضي جونز عنها:

خلال المحاكمة تم سؤآل البروفيسور بيهي عن موضوع زعمهِ عام 1996 بأن العِلمْ لن يستطيع أبداً ايجاد تفسير لِجهاز المناعة. و قد تقدم ثمان و خمسون من اقرانه بأبحاث مدروسة و منشورة, و تسع كُتب, و العديد من الفصول من كُتب في النظم المناعية و تطورها, و رغم ذلك أصر ببساطة بأن ذلك ليس أدلة كافية على التطور, و أن هذا ليس جيداً "بشكل كاف".

بيهي, بنتيجة التحقيق من قبل اريك روتشيلد, رئيس المستشارين, أعترف بأنه لم يقرأ معظم المنشورات الثمانية و الخمسين. ليس ذلك بمفاجئ بأي شكل. لأن المناعيات عمل شاق. و لكن الاقل قابلية للعفو هو رفضه للدراسات بإعتبارها "غير ذات قيمة". انها بالتأكيد غير ذات قيمة في حال أن الهدف هو الدعاية بين البسطاء من الناس والسياسيين, بدلا من أكتشاف حقائق مهمة عن حقيقة العالم. بعد الاستماع لبيهي, لخص روتشيلد بشكل بليغ احساس كُل شخص أمين في قاعة المحكمة:

ما يستحق الامتنان, أن هُناكَ عُلماء يبحثون عن أجوبة لأصل الجهاز المناعي... أنه دفاعنا ضد الضُعف و الأوبئة المُميتة. منْ كتب تلك الكتب و المقالات من العُلماء يكدحون في مختبراتهم, بدون حملات دعائية أو خطابات مدفوعة الثمن. جهودهم تُساعدنا على محاربة و شفاء حالات طبية جدية. على العكس من ذلك فإن البروفيسور بيهي و كل حركة التصميم الذكي لا يفعلون أي شئ لدفع العِلمْ أو المعرفة الطبية للامام و يقولون للاجيال المستقبلية من العُلماء, لاتزعجوا انفسكم.

و كما قال عالم الجينات ألأمرَيكي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي: "لو أراد تأريخ العِلمْ أن يقول لنا شيئاً واحِداً, فسيقول بأننا لم نكن لنكتشف أي شئ لو وضعنا لافتة "الله" على المواضيع التي نجهلها. أو كما كتب أحدهم في مذكراته على الانترنت كتعليق على مقال عن التصميم الذكي كتبته بالمشاركة مع كوين في صحيفة الغارديان.

لماذا يعتبر الله تفسيراً لشئ ما؟ هو ليس تفسيراً – بل هو بالأحرى عجزٌ في التفسير و لامبالاة. هو عبارة عن "لا أعرف" متنكرة بالروحانيات والطقوس. و عندما يعطي الناس لألله هذا الدور في شئ ما, فهذا يعني عادة بأنهم لا يملكون أي دراية بهذا الشئ, و لذلك فأنهم يعطون التفسير لأسطورة سماوية لا يُمكن أن نعرفها أو نصل اليها يوماً ما. و لو سألت من أين أتت تلك الشخصية, فالاحتمالات هي أن تحصل على اجابة ضبابية, نصف فلسفية عن وجودهِ الازلي, أو وجودهِ خارج الطبيعة. و التي بالطبع, لاتفسر شيئا على الاطلاق.[1]

الداروينية ترفع درجة وعينا بطرق أخرى. تطور الأعضاء, ألأناقة و المهارة التي ترافقهم غالِباً, تُرينا بعض الأخطاء فيهم – تماما كما نتوقعها لو كانت نتيجة تطور تأريخي, و تماما بعكس ما نتخيله لو كانت مُصممة. و قد ناقشت أمثِلة في كتب اخرى: عصب لارينغيل, أحد الأمثِلة, يفضح اصلهُ التطوري بتبذيره الكبير في الطريق المتعرج الذي يسلكه للوصول للهدف. الكثير من ألأمرَاض التي تُصيب الأنسان, من الم أسفل الظهر و الفتوق, هبوط الارحام و سهولة التأثر بالتهاب الجيوب, هي نتيجة أننا نسير على قدمين بشكل عمودي لجسم تطور عبر ملايين السنين ليسير على أربع. كذلك يرتفع وعينا لِلاحساس بالتبذير و الوحشية للانتخاب الطبيعي. الحيوانات المفترسة تبدو وكأنها "مصممة" بشكل رائع لصيد الفريسة, كما تبدو الفرائس "مصممة" بشكل متساوي الروعة لتفادي الوقوع كفريسة. في صالح من يقف هذا الاله؟ [2]

المبدأ الانثروبي: النسخة الكوكبية

تؤمن فراغاً أكبر من أي تحول في طريق التطور لاحقاً. بمعنى ما فهو فعلاً فراغ كبير. وهذا المعنى خاص جداً, لكنه لايعطي راحة للمُتدينين. أصل الحياة يجب أن يكون قد حدث مرة واحدة فقط. و بذلك نسمح لانفسنا بأن نعتبره حدثاً على قدر كبير من اللااحتمالية, بدرجة أكبر كثيراً مما يُدركهُ العديدين, كما سأستعرض لاحقاً. و خط التطورات اللاحقة مجرد اعادات, بشكل أو بأخر, عبر ملايين من الانواع الحية و بشكل مستقل, و بشكل مستمر و معاد عبر العصور الجيولوجية. و لذلك, و لشرح تطور الانظمة الحياتية المعقدة, لا نستطيع اللجوء لنفس النوع من الاحصائيات العقلانية التي نستطيع اللجوء لها في تفسير أصل الحياة. تلك الاحداث التي شكلت مسيرة التطور مقارنة مع الاحداث التي ساهمت في تأسيس الحياة (و ربما القليل من الحالات الخاصة), لا يُمكن أن تكون غير قابلة للحدوث و لاأحتمالية.

التمييز هنا ربما يبدو مُحيراً, و علي أن أشرحهُ أكثر, بإستعمال المبدا الانثروبي المسمى من قبل عالم الرياضيات البريطاني براندون كارتر في 1974 و وسع مفهومه الفيزيائيين جون بارو و فرانك تيبلر في كتابهم حول الموضوع[1]. الحجة الانثروبية عادة تطبق على الكون, و سنأتي لذلك لاحقا. و لكني سأقدم الفكرة على مقياس كوكبي مُصغر. نحن الموجودون هنا على كوكب الارض. و لِذلك فالارض يجب أن تكون كوكبا مُؤهلا لأيجادنا و أحتوائنا, مهما كان الموضوع غير عادي, بل و فريد من نوعه, لكوكب من هذا النوع. و كمثال, فإن نوع الحياة التي نحياها ليست مُمكنة بدون ماء سائل. بالتأكيد, علماء الفضاء الباحثون عن ادلة لِحياة خارج كوكب الارض يبحثون في السماء, عملياً, على إشارات تدل على وجود الماء. و حول نجم عادي كشمسنا, هُناكَ ما يعرف بنِطاق القفل الذهبي – ليس حاراً أو بارداً, مناسب فقط – لكوكب مع ماء سائل. و هناك مدارات ضيقة تقع بين ما هو بعيد جداً عن النجم, حيث يتجمد الماء, و قريب جداً, حيث يغلي.

من المفترض ايضاً, أن مَداراً ملائماً للحياة عليه أن يكون دائريا تقريباً. لان المدار الاهليلجي الحاد, كالذي أكتُشف حديثا للكوكب العاشر المعروف شكليا

1. **كارتر صرح فيما بعد بأن "مبدأ العرف المتداول" قد يبدو اسم افضل بهذا المبدأ المهم من الأسم الحالي المتسخدم مسبقاً بكثرة "المبدأ الانثروبي" ب. كارتر (** THE ANTHROPIC PRINCIPLE AND ITS IMPLICATIONS FOR EVOLUTION, PHILOSOPHICAL TRANSACTION OF THE ROYAL SOCIETY OF LODON, A, 310, 1983, 347-63) **شاهد كذلك بروان و تيبلر ,1988, يطرحون نقاشاً بشكل كتاب بخصوص موضوع المبدأ الانثروبي.**

بإسم زينة, سيسمح للكوكب بالمرور لفترة وجيزة في نطاق القفل الذهبي كُل بضعة عقود أو قرون (أرضية). زينة نفسه لايمر بالقفل الذهبي بالمرة, حتى في اقرب نِقاط مَدارهِ حول الشمس, و التي يصلها مرة كُل 560 عاماً أرضياً. الحرارة على المذنب الهالي بين 47 درجة في أقرب نقطة و ناقص 270 درجة في أبعد نقطة. مدار الارض اهليجي ,ككل الكواكب الاخرى (الأقرب للشمس في كانون الثاني و أبعدها في تموز), و لكن الدائره ليست ألا حالة خاصة من الاهليج, و مدار الارض قريب جداً من أن يكون دائرياً بحيث إنها لا تخرج عن نطاق منطقة القفل الذهبي. و وضع الارض مؤآتي لِتطور الحياة في مجالات أخرى أيضاً مِما يجعلها مُنفردة. أن جاذبية المشترى الكبيرة تجعله أشبه بمضلة واقية لصد كُل الأجرام التي قد تهدد الارض بأصطِدامات مميتة. و القمر الارضي الكبير نسبياً يؤمن أستقرارا للارض في مُحور دورانها. و يساعد في رعاية الحياة بطرق أخرى أيضاً. و شمسنا غير عادية بكونها غير مزدوجة, و ليست محبوسة في مدار مشترك مع نجم آخر. من المُمكن للنجوم المزدوجة أن يكون لها كواكب, و لكن مدارات الكواكب ستكون من الفوضى بحيث انها ستشكل عائقا لتطور الحياة عليها.

تم تقديم تفسيران حول خصوصية كوكبنا لأحتضان الحياة, نظرية التصميم تقول بأن الله خَلقَ العالم, و وضع الأرض في نطاق القفل الذهبي, و وضع كُل التفاصيل لصالِحنا. النظرة الانثروبية مُختلفة تماماً, و تعطي أحساساً شبيها بالداروينية. غالبية الكواكب في الكون لا تقع في نطاقات الاقفال الذهبية لِنجومها, و ليست مؤهلة للحياة. و لا يوجد حياة على أي منها. و لكن على اية حال هنالك أقلية صغيرة من الكواكب بشروط مناسبة للحياة, و نحن بالضرورة على أحد تلك الاقلية من الكواكب.

من الغريب, أن المُتدينين يميلون للمبدأ الانثروبي. و لسبب ليسَ معقولاً على الاطلاق, و هو إنهم يفكرون بأن ذلك يخدم قضيتهم. و العكس تماما هو الصحيح لأنها ,كالانتخاب الطبيعي, نظرية بديلة لفرضية التصميم. و تقدم تفسيراً عقلانياً, بعيداً عن تفسير التصميم لاننا نجد أنفسنا في وضع مؤآتي لوجودنا. و أظن أن الحيرة تظهر في العقل الديني لان التنويه بالنظرية الانثروبية هو الوحيد الذي يحصل عن طريق محتوى السؤآل الذي تحاول

الاجابة عليه, يعني كوننا نعيش في مكان يحتضن الحياة. ما يفشل العقل الديني في فهمه هو أن هُناكَ مرشحان لحل المسألة. أحدهما الله و الاخر هو المبدأ الانثروبي, و في الحقيقة انهما حلان متبادلان.

الماء السائل شرط ضروري للحياة كما نعرفها, و لكن ليس كافياً لوحدهِ بالمرة. الحياة عليها أن تتأصل في الماء, و أصل الحياة رُبما كان لا أحتمالي بشكل كبير. التطور الداروينى يُكمل الموضوع بسرور بمجرد نشؤ الحياة. و لكن كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة كان حدثا كيميائيا, أو سلسلة من الاحداث, حيث حدثت الشروط الحيوية لبداية التطور. العنصر الأهم كان الوراثة, DNA أو (الأكثر أحتمالاً) شئ شبيه بها من حيث موضوع النسخ و لكن أقل ضبطاً, رُبما جزيئات RNA القريب لها. و بمEجرد أن يصبح هذا العنصر – نوع من الجزيئات القابلة للتوارث – موجوداً, يبدأ التطور الدارويني, و تبدأ الحياة المُعقدة بالظهور كنتيجة نهائية. و لكن الظهور التلقائي للجزئ القابل للتوارث بالصدفة يبدو للعديدين غير محتمل. و ربما إنه لااحتمالي بشكل كبير, و سأبقى عند هذهِ النقطة, لكونها نقطة مركزية في هذا القسم من الكتاب.

اصل الحياة يزدهر, كموضوع بحث تخميني. و الخبرات المطلوبة كيميائية و ليست من أختصاصي. و أنا أقف كالمتفرج الفضولي, و لن أتفاجأ لو أنه, في خلال بضعة سنين قادمة, بان الكيميائيين نجحوا في توليد أصلٌ للحياة في المختبر. على الرغم من أن ذلكَ لم يحصل حتى الان, و لايزال من الممكن المُحافظة على الرأي القائل بأن احتمال حصولها كان و لايزال ضئيلا بشكل هائل – برغم أنها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة!

وكما فعلنا مع مدار القفل الذهبي, نستطيع أن نقول بأنه مهما كان الاحتمال لأصل الحياة ضعيفاً, و لكننا نعلم أنها حصلت مرة على كوكب الأرض لأننا هنا. و كما في درجات الحرارة, هنالك فرضيتان لشرح ما حصل – فرضية التصميم والفرضية العلمية "الانثروبية". التصميم يقول بوجود إله تعمد عمل تلك الاعجوبة, ضرب الحساء الميت بنار مقدسة و أطلق ال DNA, أو ما شابهها, في بداية مستقبلها المِهني. و مرة أخرى, كما في القفل الذهبي, فإن البديل الانثروبي للتصميم هو فرضية أحصائية. والعُلماء يلجأون للارقام

الكبيرة. و عدد الكواكب في مجرتنا بين مليار و ثلاثين مليار كوكب, و يوجد حوالي 100 مليار مجرة في الكون. لنرفع عدداً من الاصفار جانباً لِمُجرد التعقل العادي, فنحصل على مليار مليار كرقم مُتحفظ لِعدد الكواكب في كوننا. والان, لنفرض أن ظهور الحياة التلقائي أو ما يشابه ال DNA, هو ظاهرة بلاأحتمالية مدهشة. لدرجة انها تظهر مرة في كُل مليار كوكب. سَيضحك بعض أصحاب المِنح للأبحاث الكيميائية لو قال لهم الكيميائي طالب المنحة بأن احتمال نجاح البحث واحد بالمائة. و لكننا هنا نتكلم عن احتمال واحد في المليار. ومع ذلك .. و رغم ضألة الاحتمالات ,فأن هُناكَ احتمال أن توجد الحياة على مليار كوكب – و منهم بالطبع كوكب الارض.[1]

هذه النتيجة مفاجئة جداً و سأكررها هنا. لو كان أحتمال ظهور الحياة التلقائي على كوكب ما واحد في المليار, و على الرغم من اللاأحتمالية الكبيرة, فسيكون هُناكَ حياة على أحد هذا المليار من الكواكب. فرصة إيجاد أحد تلك الكواكب المليار يُذكر بالمثل ابرة في كومة قش. و لكن ليس علينا أن نجهد أنفسنا في البحث عنها حيث أن (عودة للمبدأ الانثروبي) أي كائن يستطيع البحث هو موجود بالضرورة على احدى تلك الابر العديدة حتى قبل أن تبدأ بالبحث.

أي تصريح بالأحتمالية يوضع على درجة من اللأدرية. و أن لم نعرف أي شئ عن كوكب ما, فرُبما نُسلم بأن أحتمالات نشوء الحياة عليه, لِنقل, واحد في المليار. و لكن لو أستطعنا وضع بعض الفرضيات على احتمالاتنا, فالأشياء تتغير. كوكب ما يمكن أن يكون لهُ خواص ما, ربما بعض لمحات حيوية مهملة في صخورهِ, و التي تسحب الاحتمال في صالح نشوء الحياة عليها. بعض الكواكب, بكلمات اخرى أكثر "شبهة بالارض" من كواكب اخرى. و الارض نفسها هي طبعا شبه أرضية بشكل خاص! و هذا يشجع أصدقائنا الكيميائيين الذين يحاولون خَلقَ الظاهرة مرة أخرى في المختبر, لأنهُ من المُمكن أن تزيد أحتمالات النجاح. و لكن كما أظهرت حِساباتي السابقة بأنه حتى لو كان النموذج الكيميائي بإحتمال نجاح واحد في المليار فأنه لايزال يتنبأ بوجود الحياة على مليار كوكب في الكون. و جمال المبدأ الانثروبي بأنه يقول لنا, بعكس الحدس, بأن النموذج الكيميائي يحتاج فقط

---

1. **لقد شرحت هذا المثال بالتفصيل في كتاب (صانع الساعات الاعمى) دوكنز 1988.**

للتنبؤ بأن الحياة ستنشأ على كوكب واحد من مليار مليار كوكب ليعطينا تفسيراً جيداً و مقبولاً بشكل كامل لِوجود الحياة. أنا لا أعتقد أن أصل الحياة بهذه الدرجة من اللااحتمالية في الواقع. و أعتقد بأنه من الحق صرف المال على تجارب لِتكرار هذهِ الظاهرة في المختبر, و نفس الشي بالنسبة للبحث عن الحياة خارج كوكب الارض, لانني أعتقد بأن هُناكَ حياة ذكية في مكان آخر في الكون.

حتى في حالة قبول أكثر التقديرات تشاؤما عن نشوء الحياة بشكل ما, فإنها كحُجة أحصائية ستُحطم أي أقتراح بأنه علينا ان نستخدم نظرية التصميم لملئ الفراغ. و من بين كُل الفراغات في قصة التطور, فإن فراغ أصل الحياة يبدو عصياً على الفهم لدماغ بتقديرات متمرسة على تقييم أحتمالات و مجازفات على موازين يومية: كالموازين التي بواسطتها تقرر هيئة المنح اعطاء المنحة المالية للبحث المقدم من الكيميائي. و لكن حتى فراغ كهذا فإنه يملئ بسهولة من قبل عالم احصائيات قدير, و تقدم نفس الاحصائيات سبباً لأخراج الخالق المقدس من ارض البوينغ 747 الكبرى التي نوهنا لها سابقا.

و لكن الآن, لِنعود للنقطة المُثيرة التي أنطلق منها هذا الموضوع. لِنفرض بأن أحداً ما حاول تفسير ظاهرة التأقلم الحياتي بأستخدام نفس المبدأ الذي أستخدمناه في تفسير أصل الحياة من خلال الاشارة لِلأعداد الهائلة من الكواكب المتوفرة. الواقع بأن كُل نوع من الاحياء, و كل عضو درسناه في أي جسم حي, هو جيد فيما يفعل. أجنحة الطيور و النحل و الخفافيش رائعة للطيران. العيون جيدة للرؤيا. الاوراق جيدة في التمثيل الضوئي. نعيش على كوكبنا مُحاطين برما عشرة ملايين أجناس حية, و كل منها على حدة يُعطينا حاجة لوهم قوي بوجود تصميم ورائه. كُل نوع حي مناسب جداً لنوع حياتهِ الخاص. هل بإمكاننا أن نتملص بإستعمال حُجة "العدد الهائل للكواكب" لشرح كُل أوهام التصميم تلك؟ لا. لانستطيع. و أكرر مرة أخرى: لا. لا تفكر بذلك. هذا مهم جداً, لان ذلك يكمن في قلب اشد اشكال سوء الفهم للداروينية.

ليس من المهم كم عدد الكواكب التي نلعب بها, الحظ السعيد لا يُمكن أن يكون كافياً لِشرح التنوع المتشعب للأنظمة الحياتية المعقدة على سطح الارض بنفس الطريقة التي استعملناها لشرح وجود الحياة أساساً. تطور

الحياة مختلف تماماً عن حالة نشوئها لأنهُ, و سأكرر هُنا, أصل الحياة كان (و من الممكن أن يكون) ظاهرة فريدة من نوعها حدثت مرة واحدة فقط. أما تكيف الاحياء للبيئات المختلفة التي تعيش فيها, من الناحية الاخرى, ذو ملايين التشعبات, و لايزال مستمراً.

مِن الواضح بأننا هُنا على الارض نتعامل خط سير عام لتحسين الاحياء حياتياً, عملية تحدث في كُل انحاء الكوكب, كُل القارات و الجُزر, و في كُل وقت. و نستطيع التوقع بإطمئنان بأنهُ, لو أننا أنتَظرنا عشرة ملايين سنة أخرى, فإن مجموعة جديدة تماما من الاحياء ستكون متأقلمة تماماً لضروفها في الحياة كما هو الحال مع احياء العصر. و هذه ظاهرة متكررة و متوقعة و ليست ضربة حظ أحصائية معروفة النتائج. و الفضل يرجع لداروين أدركناها نعرف الآن كيف حصلت: بالانتخاب الطبيعي.

المبدأ الانثروبي عاجز عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية. و نحن بحاجة حقيقية لتفسير داروين القوي لتفسير تنوع الحياة على الارض, و بصورة خاصة الوهم المغري لنظرية التصميم. و بعكس ذلك فإن اصل الحياة ,يقع خارج حدود هذا التفسير, لأن الانتخاب الطبيعي لا يُمكن أن يبدأ بدونه. و هنا يأتي المبدأ الانثروبي من تلقاء نفسه. بإمكاننا مُعالجة فكرة أصل الحياة بإفتراض عدد هائل من الفرص الكوكبية. و بمجرد أن نحصل على ضربة الحظ, و المبدأ الانثروبي يضمن لنا حصولها بشكل أكيد, يبدأ الانتخاب الطبيعي في العمل: و الانتخاب الطبيعي بالتأكيد ليس موضوع حظ ابداً.

و على الرغم من ذلك, ربما كان أصل الحياة ليس الفراغ الوحيد في نظرية التطور و الذي نجتازه بمُجرد الحظ, المبرر الانثروبي. فعلى سبيل المثال, زميلي مارك ريدلي في كتابهِ "**شياطين ماندل**" (و الذي تغير عنوانه بشكل مُحير و مجاني من قبل الناشر ألأمرَيكي الى "الجمعية الجينية") يقترح بأن اصل الخلية الحقيقية النواة (من نوع خلايانا, مع نواة و أشياء أخرى معقدة مثل المقتدرات, و التي لاوجود لها في البكتريا) شديد الاهمية, صعب و لاأحتمالي أحصائيا بشكل اكبر من اصل الحياة نفسها. و أصل الوعي يُمكن أن يكون فراغاً آخر من نفس الدرجة اللاأحتمالية. يُمكن تفسير الظواهر التي

حصلت لمرة واحدة بالمبدأ الانثروبي, كما يلي. هناك المليارات من الكواكب التي تطورت فيها الحياة على مستوى بكتيري, و فقط جزء بسيط منها أستطاع العُبور لِمرحلة الخلية الحقيقية النوآة. و مِن هؤلاء بدورهم, فإن جزءاً أصغر عبرَ تلك المرحلة للحياة الواعية. لو أن كِلتا الحالتين تعتبران ظواهر تحصل لمرة واحدة, فإننا بصدد عملية منشرة ومتخلخلة في كُل شئ, كما هو الحال في عملية التأقلم الحيوي الدائم و المُستمر. المبدأ الانثروبي يصرح بالتالي, أن كوكبنا يجب أن يكون من النوادر حتى يستطيع اجتياز كُل تلك العقبات الثلاثة, لاننا أحياء, و أجسامنا حقيقية النواة و نمتلك درجة من الوعي.

الانتخاب الطبيعي يعمل لأنه تراكمي ذو إتجاه واحد للحصول على نوعية افضل. و هو بحاجة لبعض الحظ ليبدأ بالعمل, المبدأ الانثروبي لـــ"مليارات الكواكب" يضمن لنا ذلك الحظ. و رُبما أن هُناكَ بعض الفراغات الأخرى في نظرية التطور مما يحتاج للحظ, مع تحليلات أنثروبية. و على كُل حال مهما أردنا قوله, فإن نظرية التصميم لا يُمكنها تفسير الحياة. لان التصميم في النهاية ليس عملية تراكمية و بالتالي تطرح سؤالا أكبر من ذلك الذي تحاول الاجابة عليه, انها تعيدنا للسؤال الاصلي عن البوينغ 747 الكبرى.

نعيش على كوكب ملائم لنوع الحياة التي نحياها. و قد رأينا سببين لذلك. أحدها هو أن الحياة تطورت و أزدهرت بسبب الشروط التي وفرها لنا كوكبنا. و ذلك بالانتخاب الطبيعي. و السبب الثاني هو الانثروبي. هُناكَ المليارات من الكواكب في الكون, و مهما كانت نسبة الكواكب المساعدة على التطور صغيرة, فإن كوكبنا يجب أن يكون احدها. و علينا الان أن نُعيد المبدأ الانثروبي لِمرحلة أكثر بدائية, من عِلم الاحياء الى علم الفلك.

المبدأ الانثروبي: النسخة الفلكية

سماء الليل, النجوم من الشروط الضرورية لنشوء العناصر الكيميائية, و بدون كيمياء لا توجد حياة. و حسب الفيزيائيين, فإنه لو أختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه ولو بشكل ضئيل جداً, فإن الكون سيتطور بشكل تصبح معه الحياة مستحيلة. و التعابير تختلف بإختلاف الفيزيائيين, و لكن النتيجة كانت دائما واحدة. مارتن ريس, في كتابه ستة ثوابت فقط, يعرض لائحة بست ثوابت أساسية, و التي يُعتقد بثبات قيمتها في كُل الكون. و كل من هذهِ الثوابت له قيمة دقيقة بمعيار معين بمعنى انه, لو تغير بشكل ضئيل, فإن الكون سيكون غير ما نعرفه الان بشكل شامل ومن المحتمل إنهُ لن يكونَ ملائماً للحياة [1].

احد القيم الستة أعلاه كمثال هو قيمة العامل المسمى "القوة" الشديدة. تلك القوة التي تربط أجزاء الجُزيئات: القوة الواجب التغلب عليها عندما نريد "فلق" الذرة. و قيمتها تسمى ط, وهي القِسم المُتحول لِطاقة من أنصهار ذرة هيدروجين مُتحولة الى هيليوم. و القيمة في كوننا هي عبارة عن 0.007, و على مايبدو أن القيمة يجب أن تكون قريبة جدا من ذلك في حال أردنا أن نحصل على أي تفاعلات كيميائية (و التي هي أحد شروط للحياة). الكيمياء كما نعرفها اليوم هي عبارة عن تركيب و أعادة تركيب لِذرات العناصر الطبيعية البالغ عددها حوالي تسعين و التي نجدها في الجدول الدوري. الهيدروجين هو الابسط و الأكثر أنتَشارا لهذه العناصر. كُل العناصر الاخرى في الكون مصدرها من الهيدروجين بواسطة الانصهار النووي. الانصهار النووي عبارة عن عملية معقدة تحصل في تحت ضغط حراري عالي جداً و تحصل داخل النجوم (و في القنبلة الهيدروجينية). و بالنسبة لِلنجوم المتوسطة الحجم, كما هو الحال في شمسِنا, فإن ذلك يولد عناصر خفيفة كالهيليوم وهو العنصر التالي في الجدول الدوري من ناحية الخِفة بعد الهيدروجين. لهذا نحتاج لِنُجوم أكبر و أكثر حرارة لنستطيع توليد مُعظم العناصر الثقيلة, و في سلسلة ألأنصهار النووي و الذي درسه و شرحه فريد هويل و أثنان من زملائه (أنجاز أكثر من رائع لكن و لسبب غامض, لم يحصل به على جائزة نوبل,التي حصل عليها شركاؤه الاخرون). وهذه

---

1. أقول هنا من المحتمل لاننا من جهة لا نعرف الى أي مدى تختلف الانواع المختلفة للحياة, و من جهة أخرى فأن أحتمال الخطأ كبيراً أذا قمنا بالتركيز على المضاعفات الناتجة من تغير ثابت فيزيائي واحد. هل من المحتمل وجود تركيبة أخرى من هذه الثوابت الستة و التي قد تكون ملائمة للحياة بشكل مختلف عن هذه التراكيب التي نستخرجها من خلال النظر الى متغير واحد فقط كل مرة؟ مع ذلك فلنستمر رغم أننا حتى اليوم نعاني من مشكلة كبيرة و هي معرفة المقصود بالمعيار المعين لكل قيمة ثابتة.

النجوم الكبيرة ربما تنفجر فيما يسمى سوبر نوفا, قاذفة بمحتوياتها, المُتضمنة عناصر الجدول الدوري, على شكل غيوم غبارية. و هذه بدورها تتكثف و تُنشئ كواكب ونجوم جديدة, مِنها شمسُنا و أرضنا. و هذا هو السبب في غِنى الارض بالعناصر الاثقل من الهيدروجين المُنتشر في كُل مكان, تلك العناصر التي بدونها تستحيل الحياة.

فيما يتعلق بموضوعنا هنا هو أن قيمة "القوة" تحدد بشكل دقيق و حرج كم امكانية تشكل المواد على الجدول الدوري. و لو كانت صغيرة, مثلا 0.006 بدلا من 0.007, فإن الكون لن يتكون من أي شئ آخر غير الهيدروجين, و لن ينتج أي عنصر كيميائي مهم. و لو كانت أكبر, 0.008 مثلاً, فإن كُل الهيدروجين سينصهر مع بعضه لتشكيل عناصر ثقيلة. و الكيمياء بدون هيدروجين لا تستطيع تشكيل حياة بالطريقة التي نعرُفها. لسبب واحد الا وهو انه لن يكون هُناكَ ماء. و القيمة الذهبية 0.007 هي القيمة الوحيدة التي تؤدي لِوجود العناصر بتنوعها للحصول على كيمياء مثيرة و ملائمة للحياة.

لن اتطرق لكل ثوابت ريس الستة. النتيجة لكل منها تبقى نفسها. كل ثابت له قيمة تقع ضمن (النطاق الذهبي) و الحياة لن تكون ممكنه خارجهُ. كيف يمكننا الرد على ذلك؟ مرة اخرى, لدينا رد المؤمنين من طرف, و المبدأ الأنثروبي في الطرف الاخر. المؤمن يقول بأن الله, عندما صمم الكون, فإنه و ضع هذه القيم لهذه الثوابت الاساسية بحيث أن كلاً منها يقع داخل نطاقهُ الذهبي لأنتاج الحياة. و كأن الله عنده ستة أزرار يديرها لضبط المقدار الخاص بكل ثبات ليقع في نطاقهِ الذهبي. و كالعادة, فإن جواب المؤمن ليس مقنعاً. لأنه يترك موضوع وجود الله بدون شرح. اللاأحتمالية فيألإله القادر على حساب القيم الذهبية للارقام الستة يجب أن يكون على أقل تقدير مساوياً للاأحتمالية ضبط الارقام الستة نفسها, و هذا فعلاً قليل الاحتمال, و هذه المسلمة هي الاساس في نقاشنا. و بذلك فإن جواب المؤمنين يفشل تماما في دفعنا بإتجاه حل المسألة. و لا اجد أي بديل من أهماله, و في نفس الوقت انظر لأعداد الناس الذين لايرون حجم تلك المعضلة و يبدون مُكتفين بفكرة الاله ذو الازرار الستة.

ربما أن أحد أسباب ذلك العمى المدهش هو عدم وجود درجة معينة من الوعي لأولئك الناس, كالذي حصل عليه علماء الاحياء, بنظرية الانتخاب الطبيعي و قدرتها في ترويض اللاأحتمالية. ج. آندرسون تومسون, و من وجهة نظرهِ كطبيب نفسي تطوري, لفت نظري لسبب آخر, الميول النفسي الذي نملكه و الذي يؤدي بنا لشخصنة الأشياء الساكنة كأنها أشياء واعية. و كما يقول تومسون, نميل عادة للأعتقاد بأن الظل في الليل قد يكون لصاً أكثر من أعتقادنا بأن اللص هو عبارة عن ظل. فالواقع المتوهم هو مضيعة للوقت فقط. بينما التوهم في الواقع يمكن أن يكون قاتلاً. في رسالة لي, شرح تومسون, بأنهُ أهم التحديات التي كانت تواجه أسلافنا في الماضي كانت من الاخرين من بني جنسهم. "نتيجة لهذا فأن الحدس يختار أولاً الحذر, قد يكون دافع أنساني وراء هذا, لهذا فأنهُ من الصعب رؤية أي شئ على صعيد غير أنساني." وسأعود لموضوع اليمول لـــ"الشخصنة" في الفصل الخامس.

علماء الاحياء ذوي الوعي العالي لقدرة نظرية الانتخاب الطبيعي في تفسير أرتقاء الأشياء اللاأحتمالية, لن يرضوا باي نظرية تتفادى مشلكة اللاأحتمالية برُمتِها. و جواب المُؤمنين للأحجية اللاأحتمالية هو تفاد لها بشكل هائل. أنها ليست أكثر من أعادة لطرح المُشكلة, بل أنها تشويه لها بشكل كبير. لنلتفت الآن للحل الانثروبي البديل. الجواب الانثروبي بشكل عام, هو أنه بأستطاعتنا النقاش حول نوع الكون القادر على أنتَاجنا. لأن وجودنا يفترض أن الثوابت الاساسية للفيزياء موجودة سلفاً ضمن حدود قيمها الذهبية. هناك مجموعة مختلفة من الفيزيائيين يتبنون أشكال مختلفة من هذا الجواب الانثروبي حول معظلة الوجود.

بعض الفيزيائيي المتزمتين يقولون بأن الأزرار الستة لم تكن لها الحرية في أي من الاوقات لتتغير. و عندما نصل للنظرية الجامعة التي طالمنا أملنا بمعرفتها, سنجد أن الثوابت الستة تعتمد كلياً على بعضها, أو على شئ آخر ليس معروفاً بعد, و بطرق لا نستطيع بعد تخيلها في أيامنا هذهِ. ربما تكون الثوابت الستة عديمة الحرية في التغير تماما كما في محيط الدائرة بالنسبة لمساحتها. و سنعرف حينها بأن هُناكَ طريقة واحدة لوجود الكون. كون لا يحتاج أساساً لأله ليضبط ازرارهِ الستة. ليس هُناكَ أزرار أساساً.

فيزيائيون آخرون (مارتن ريس كمثال) يجدون ذلك غير كافي, و أعتقد أنني أوافقهم. من المعقول بالطبع أن يكون هُناكَ طريقة واحدة لوجد الكون. و لكن لماذا بالذات هذه الطريقة التي تناسب بشكل مذهل لتطور الحياة فيها؟ لماذا بالذات على الكون أن يكون بالشكل الذي يبدو فيه و كأنه, "من المؤكد قد عرف بقدومنا"؟ كما أشار الفيزيائي النظري فريمان دايسون. و الفيلسوف جون ليسلي يستعمل التشبيه عن رجل محكوم بالاعدام رمياً بالرصاص. من المُمكن أن يخطئ جميع أعضاء فريق الاعدام العشرة الهدف. يجد الناجي نفسه في وضع يفكر فيه بحظه السعيدة و يقول, "يال الروعة, من الواضح أنهم جميعهم أخطأوني, و إلا فلن اكون واقفاً هنا و أفكر في هذا". و لكن من الممكن أن يتسآل فعلاً لماذا أخطأوا جميعهم, و تدور في رأسه الشكوك عن كونهم قد ربما مرتشون او كانوا سكارى.

نجيب على الفرضية تلك بمقترح يدعمنا فيه مارتن ريس نفسه, بان هُناكَ العديد من الاكوان, متواجدة تماماً كفقاعات الرغوة, في العالم المتعدد الاكوان (أو الكون العظيم, كما يحب ليونارد سوسكيند تسميته)[1]. القوانين في أحد الاكوان كالذي في نطاق ملاحظتنا, هي قوانين محلية. و العالم المتعدد الاكوان لديه الكثير من القوانين المحلية المتبادلة. و المبدأ الانثروبي يأتي هنا ليشرح بأنه من الواجب أن نكون في أحد تلك الاكوان (على الغالب انها أقلية) ذات القوانين المحلية الموآتيه في النهاية لتطورنا و تأملنا في المسألة ذاتها.

نسخة فاتنه من نظرية الوجود المتعدد الاكوان تأتي من تأملنا بالمصير النهائي لكوننا. بالاعتماد على ثوابت مارتن ريس الستة, ربما سيتمدد كوننا للانهاية, أو يستقر في مرحلة توازن معينة, أو سيتحول التمدد الى تقلص و ينتهي بما يسمى "الانكسار العظيم". و بعض نماذج الانكسار العظيم تُرجع الكون لحالة التمدد, و هكذا بدون نهاية وبتردد قدره, لنقل, 20 مليار عام. النموذج الاساس لِكونِنا يقول بأن الزمن بدأ مع الانفجار العظيم, كذلك المكان, منذ حوالي 13 مليار سنة. و سلسلة الانكسار العظيم تفرض ما يلي: زمننا و مكاننا بدءا مع الانفجار العظيم, و لكن ذلك الانفجار هو الاخير من

---

1. سوسكيند **2006** يقوم بطرح دفاع رائع عن المبدأ الانثروبي في الكون العظيم, حيث يقول بأن أغلب الفيزيائيون يكرهون الفكرة, لا أفهم لماذا. أنا أعتقد بأن الفكرة مثيرة فعلاً , ربما لان الداروينية قد قامت برفع درجة وعيي.

عِدة أنفجارات, و نشأ كُل منها من أنكسار عظيم قد أهلك الكون الذي سبقهُ في السلسة. ليس بمقدور أحد أن يفهم تفاصيل شئ كالانفجار العظيم, و بالتالي فإنه من المعقول بأن القوانين و الثوابت يمكن أن تكون لها قيم مختلفة في كُل دورة لــ(أنفجار و تمدد, تقلص و أنكِسار) و ذلك بصورة لا نهائية كالة اكورديون كونية, و هنا لدينا سلسلة اكوان متتابعة, و ليس اكواناً متوازية. و مرة أخرى, فأن المبدأ الأنثروبي يؤدي واجبهُ في شرح الأسباب. من كُل هذهِ الاكوان هُناكَ عدد ضئيل بثوابت مضبوطة للشروط الملائمة للحياة. و بالطبع, الكون الحالي هو أحد تلك الاكوان, لأننا فيه. هذا النوع من الاكوان المتعاقبة يبدو الآن أقل أحتمالية حيث أدلة جديدة بدأت بالظهور تأخذنا بعيداً عن نموذج الانكسار. ويبدو بأن كوننا مقدر له التمدد الى الابد.

فيزيائي نظري آخر, لي سمولين, جهد في تطوير نظرية ذات طابع دارويني عن العالم المتعدد الاكوان, تضمن كلا النوعين, المتعاقب و المتوازي. فكرته التي شرحها في كتابهِ "**حياة الكون**" تدور حول أكوان آباء يلدون أكوان بنات, و نِشوءهم ليس كنتيجة لأنكسار عظيم و لكن بواسطة ثقوب السوداء محلية. الاكوان البنات لديهم ثوابت مختلفة قليلا عن اباءهم. و التوارث هو العنصر الاساسي في الأنتخاب الطبيعي, و بقية نظرية سمولين نتيجة طبيعية. الاكوان التي لها ما يلزم "للبقاء" و "التكاثر" تُصبح لها الهيمنة في العالم المُتعدد الاكوان. و "ما يلزم هنا" يتضمن الديمومة لزمن كاف لــ"التكاثر". لأن فِعل التكاثر يحصل في الثقوب السوداء, و الاكوان الناجحة يجب أن يكون لديها ما يلزم لِتشكيل ثقوب سوداء. و هذه القابلية تحمل معها الميراث لِقابليات أخرى. مثلاً ميلَ العناصر للتكثف على شكل غيوم كونية و من ثم نجوم هو شرط لِعمل الثقوب السوداء. النجوم أيضاً, كما رأينا, هي بوادر لتطور الكيمياء المفيدة و مِن ثمَ الحياة. و لذلك, يقترح سمولين, بأن هُناكَ إنتَخاب طبيعي دارويني للاكوان ضِمن العالم المُتعدد الاكوان, و بشكل مباشر يُفضل الاكوان التي تطور ثقوب سوداء خصبة و بشكل غير مباشر يفضل أنتَاج الحياة. ليس كُل الفيزيائيين متحمسين لفكرة سمولين. على الرغم من أن الفيزيائي الحاصل على نوبل ماري جيلمان قال: "سمولين؟ ذاك الشاب ذو الافكار المجنونة؟ ربما لا يكون مخطئا"[1]. ربما سيتساءل عالم أحياء جريء في وقت ما فيما إذا كان فيزيائيون اخرون بحاجة لعلمية رفع وعي دارويني.

1 . HTTP://WWW.EDGE.ORG/3RD_CULTURE/BIOS/SMOLIN.HTML

من المغري التفكير (و العديدون وقعوا في هذا) بأن العالم المُتعدد الاكوان نوع من الترف المُسرف التي لا يجب السماح بها. ولو سمحنا بتعدد الاكوان المُسرف, تقول الحجة, فدعونا نسمح بالوجود الالهي ايضاً. اليست الفرضيتان بنفس الدرجة من التبذير والردائة؟ الذين يفكرون بهذا الشكل لم يمروا بمرحلة رفع الوعي بالانتخاب الطبيعي. الفرق الأساسي بين فرضية الاكوان المُتعددة الجريئة و فرضية الله الجريئة هي الاحصائيات اللاأحتمالية. و برغم التبذير في تعدد الاكوان, الا أنها بسيطة أما الله, أو أي وجود واعي يأخذ قراراً بحسابات, عليه أن يكون من الضخامة في اللااحتمال على الاقل بنفس الدرجة للكيان الذي نحاول شرحهُ. العالم المُتعدد الاكوان يبدو نظرية في غاية التبذير من ناحية عدد الاكوان. و لكن أذا كان كُل من تلك الاكوان بسيطاً في قوانينه الأساسية أذن نحن هنا لا نفترض أشياء بدرجة عالية من اللاأحتمال. و لكن العكس يُقال في أي نوع من انواع الوجود الذكي.

بعض الفيزيائيين معروفين بالتدين (راسل ستانارد و القس جون بولكنغتون مثالان من بريطانيا ذكرتهما قبلا). و كما هو متوقع فأنهم يتعلقون بلاأحتمالية الثوابت و وقوعها في مجالها الواسع أو الضيق لنطاقها الذهبي, و يقترحون بأنه يجب أن يكون هُناكَ ذكاء كوني و الذي قصد تحديد تلك الثوابت. و أنا قد نفيت كُل ذلك كون هذهِ الاقتراحات تؤدي لِمُشكلة أكبر من التي تحلها. و ما هي محاولات المُتدينين للرد على ذلك؟ كيف يمكن لهم المحاججة بأن أي إله قادر على تصميم كون, بشكل دقيق وببصيرة كاملة بشكل يؤدي لتطورنا فيه, عليه أن يكون على درجة من التعقيد و اللاأحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لِشرح أكبر من الذي يفترض إنهُ يقدمه؟

عالم الدين ريتشارد سوينبورن, كما تعلمنا أن نتوقع, يظن بأن لديه أجابة للمسألة, و يشرح ذلك في كتابهِ "**هل هُناكَ اله؟**". يبدأ بالقول بأن رأيه صحيح بالاستعراض بشكل مقنع بأنه لماذا علينا أن نفضل أبسط الفرضيات التي توافق الوقائع. العِلمْ يشرح الأشياء بعلاقاتها المعقدة لأشياء أبسط منها, و بالنهاية نصل للعلاقات بين الاجسام الاساسية للذرة. أنا أفكر (و أعتقد أنت أيضاً) بأن الفكرة جميلة في بساطتها بأن كُل الأشياء مصنوعة من الاجسام الجزيئية و التي, بالرغم من تعددها, اتيه من عدد محدود صغير من انواع

الجسيمات. و لو شككنا بذلك فإننا نفعل لان الفكرة تبدو بسيطة بشكل كبير. و لكن بالنسبة لسوينبورن فذلك ليس بسيطاً البته, بل على العكس.

بما أن عدد أي نوع من الجسيمات, و لنقل الالكترون مثلاً, كبيراً جداً, فإن سوينبورن يفكر بأنه ليس من الصدفة أن ذلك العدد الهائل يملك نفس المواصفات. بإمكانه هضم فكرة الكترون منفرد لوحده. و لكن مِليارات المليارات من الالكترونات. كلها بنفس المواصفات, ذلك هو ما يثير شكوكه. و بالنسبة لهُ, فأنه سيكون من الابسط و الطبيعي و أقل تطلبا للتفسير, لو كانت الالكترونات مُختلفة عن بعضها. أسوأ من ذلك هو أن الالكترون لا يُحافظ على مواصفاتهِ سوى لِبرهة ضئيلة من الوقت, كُل منهم يجب أن يتغير دائماً و بشكل عشوائي من لحظة لأخرى. ذلك هو رأي سوينبورن عن الامور البسيطة الطبيعية. كُل ماهو أكثر تشابه (أو ما نُسميه أنتَ و أنا أكثر بساطة) يقتضي تفسيراً خاصاً. " كون الألكترونات و جزيئات النحاس و كل مادة تملك نفس المواصفات في القرن العشرين كالتي كانت لها في القرن التاسع عشر هو السبب بأن الأشياء هي كما عليه حاليا".

و هُنا يأتي دور الله, يأتي الله للأنقاذ و ذلك بالمُحافظة بشكل مقصود على مواصفات المليارات من الالكترونات و جزيئات النحاس, و أبطال ميولها العشوائية للتفاعل. و لذلك فإنك عندما ترى الكتروناً فإنك كما لو رأيتهم جميعاً: و لذلك فإن جزيئات النحاس تتصرف كجُزيئات النحاس, و لهذا يبقى كُل الكترون و كل جزئ نحاس كما هو من ميكروثانية لأخرى و لقرن بعد آخر. لان الله بأستمرار يضع أصبعهُ على كُل الكترون منهم, يكبح جماحهُ و يضعهُ الطابور مع زملائهِ ليكونوا جميعا متماثلين.

و لكن كيف يُمكِن لسوينبورن أن يقول بأن فرضية الله يضع بنفس الوقت الطليونات من أصابعهِ على الطليونات من الألكترونات الهاربة هي فرضية بسيطة؟ انها بالطبع عكس البساطة تماماً. و لكن سوينبورن يمرر خُدعتهُ بتواضع بكل وقاحة فكرية. ثم يُصرح, و بدون أي تبرير, بأن الله يتكون من مادة واحدة فقط. يال الاقتصادية في شرح الاسباب, مقارنة بكل الطليونات من الالكترونات المختلفة التي بشكل ما أصبحت متشابهة!

الموحد يؤمن بأن كل العُناصر الموجود, موجود و تستمر في البقاء بفضل عنصر واحد فقط, الله. و يؤمن بأن كُل صفة لاي عنصر هي بسبب أو بأرادة الله. تلك علامة لبساطة الشرح للتسليم بتعدد الاسباب. و بذلك فلا يُمكن أن يوجد شرح أبسط من الذي يُسلم بالسبب الاوحد. الأيمان بالله أبسط من الأيمان بعدة آلهة. و ألأيمان يشرح كل الاسباب من خلال سببهِ الوحيد, شخص وحيد مع قدرة لانهائية (الله يستطيع فعل أي شئ منطقي) و عِلمٌ لانهائي (الله يعرف كُل مايمكن أن يعرف منطقيا) و حرية لانهائية.

يتكرم سوينبورن بالاعتراف بأن الله لايستطيع تحقيق الأشياء المستحيلة منطقيا, و هنا يشعر الأنسان بالامتنان لهذا الأمتناع. و بقولنا, فأنه ليست هُناكَ أي حدود لقدرة الله على الأشياء. هل يواجه العِلمْ صعوبة في تفسير (س)؟ لا مشكلة. لا تهتم بـــ (س). قوة الله اللامتناهية مجهزة لتفسير (س) بسهولة (كما هو الحال في أي مسألة أخرى), و الجواب في كل الاحوال بسيط لأنه, و بعد كُل شئ, هُناكَ إلهٌ واحد. ما الذي يمكن أن يكون ابسط من ذلك؟

في الواقع, كُل شئ هو أبسط من ذلك. ألإله القادر على مُراقبة و التحكم في كُل جزيئ من الكون لا يُمكن أن يكون بسيطاً. وجوده يحتاج لشرح ديناصوري ضخم ليوفيهِ حقه. و من وجهة نظر بسيطة فأن ألأسوأ من ذلك, هو أن الزوايا الأخرى من وعي الله مشغولة بأعمال و عواطف و صلوات و دعاءات كُل أنسان, و ربما المخلوقات الفضائية الذكية أيضاً أن وجدت على كواكب أخرى في مجرتنا أو المئة مليار مجرة أخرى. و أيضاً, بناء على رأي سوينبورن, عليه أن يُقرر بشكل مستمر بأن لا يتدخل بالمعجزات لأنقاذنا عند تعرضنا للسرطان. لن يفعل ذلك ابداً, لانه, "لو أستجاب الله لمعظم دعوات الاقارب ليشفى مريض السرطان, فإن السرطان لن يبقى مشكلة للأنسانية ليتوجب حلها" وعندها فماالذي يجب أن نصرف وقتنا به؟

لا يذهب مُعظم عُلماء الدين بعيداً كسوينبورن. و العجيب بأن فرضية بساطة ألإله توجد في العديد الكتابات الدينية الحديثة. **كيث وارد**, الذي كان

بروفيسوراً للعلوم الدينية في أكسفورد, كان صريحا فيما يتعلق بذلك في كتابه عام 1996 "**الله, احتمال وضرورة**":

> المؤمن في الواقع سيدعي بأن الله حل أنيق و أقتصادي و مُفيد لِتفسير وجود الكون. أقتصادي لأنه يعزي الوجود برُمتهِ و كُل ما في الكون لشئ واحد, هو السبب الاساسي الذي أعطى سبباً لوجود كُل شئ, و حتى ذاته. و أنيق لانهُ حل يأتي من فكرة واحدة أساسية, الفكرة عن الكمال التام لشئ ما, و بهِ يُمكن توضيح كُل طبيعة ألإله و وجود الكون. فكرة عن الكائن الاكثر كمالاً في الوجود.

كما كان الحال مع سوينبورن, فإن كيث اخطأ في معنى شرح الأشياء, و لا يبدو انه يفهم معنى أن يكون الشئ بسيطاً. ليس من الواضح فيما إذا كان كيث يفكر بحق بأن الله بسيط, أو أن الفقرة السابقة هي مجرد تمرين بسيط مؤقت "لمجرد الجدل". يقتبس **جون بو لكنغتهورن**, في كتابهِ "**العِلمْ والأيمان المسيحي**", عن كيث وارد نقد لأفكار توماس الاكويني: "أنه لخطأ أساسي أن نفترض أن الله بسيط مَنطقياً, ليس البسيط بمعنى انه لا يقبل التقسيم فقط, و لكن بمعنى أكبر بكثير و الذي يعني بأن ما ينطبق على أي جزء من الله ينطبق على كلهِ. و هذا يعني لا محالة بانهُ غير قابل للتقسيم, و إنه بحد ذاته معقد". و في ذلك فإن كيث وارد محق. بالتأكيد, فإن عالم الاحياء جوليان هكسلي, عام 1912 يقوم بتعريف التعقيد بإستعمال شروط "عدم تجانس الاجزاء" و قصد بذلك شكل مُحدداً من عدم القابلية للتجزئ وظيفياً.[1]

و في جزء آخر, يعطينا وارد أدلة على الصعوبات التي يواجهها العقل الديني في فهم مصدر تعقيد الحياة. و يقتبس من عالم مُتدين آخر, الخبير بالكيمياء الحياتية آرثر بيكوك (العضو الثالث من ثلاثية العُلماء الانكليز المُتدينين), و الذي يشرح بأن وجود حياة يعود "للنزعة للتعقيد المتزايد". وارد يصنف ذلك على أنه "سمة متأصلة في التطور و التي تتجه دائماً لصالح التعقيد". و يمضي ليقترح بأن تحيزاً كهذا "ربما كان سمة متأصلة في التغيير الوراثي, لِضمان نشوء المزيد من الطفرات الوراثية". كيث وارد يشكك في هذا

1. كيث وارد **1999** ص **99**. بولكينغهورن **1994** ص **55**.

التفسير, وله كل الحق في ذلك. التطور نحو التعقيد لا يأتي كنتيجة لِسمة مُتاصلة نحو التعقيد المتزايد, و ليسَ بسبب التحيز في الطفرات الوراثية. بل أنها تأتي من الانتخاب الطبيعي, تلك العملية التي كما نعرفها حتى الآن تُعتبر الوحيدة القادرة على تفسير نشوء الانظمة المعقدة من الأبسط. نظرية الأنتخاب الطبيعي بسيطة و صريحة. و كذلِك الاصل الذي بدأت مِنه. و مِن ناحية أخرى فإن التفسير الذي تقدمه لنا عن التعقيد اللامتناهي: أكثر من أي شئ نطمح في تخيله, و بدون إله يحتاج لتصميمها.

استراحة في كامبردج

عالم الاحياء البريطاني ريتشارد دوكينز, و الذي ساعدت مُشاركتهُ في المؤتمر بإقناعنا بشرعيته, كان المُتكلِم الوحيد الذي حدد الاعتقاد الديني و أعتبره مُتعارضاً مع العلم و لا عقلاني و مؤذي. المُحاضرون الآخرون ثلاثة منهم لاأدريين و يهودي الوهي و 12 مسيحيين (فيلسوف مُسلِم الغى أشتراكهِ في اللحظة الاخيرة) أعطو وجهات نظر متحيزة مع الدين بوضوح و خصوصاً المسيحية.

مقال هورغان متناقض بحد ذاتهِ. و بالرغم من تخوفه فإن هُناكَ مواقف في تجربتهِ قد قدرها بوضوح (و كذلك فعلت أنا كما سنرى لاحقاً) و كتب هورغان:

نقاشاتي مع المؤمنين أوضحت لي لماذا بعض الاذكياء و المُثقفين يعتنقون الديانات. أحد الصحفيين ناقش ظاهرة التكلم بالألسنة[1], و آخر تحدث عن علاقتهِ الحميمة مع المسيح. قناعاتي لم تتغير, و لكن قناعات الاخرين تغيرت. أحد الزملاء أعلن على الاقل بأن أيمانه تزعزع بعد تشريح دوكينز للدين. و عِندما تتوصل مؤسسة مثل تمبلتون لمسعى يبدو كانه خطوة صغيرة بإتجاه ما اراه عالم بدون دين, فهل من الممكن أن يكون الوضع اسوأ مما هو عليه؟

عرض مقال هورغان ثانية من قبل وكيل الاداب جون بروكمان[2] في موقعه على الانترنت (الموصوف غالِباً كورشة العلوم على الشبكة) و أنتزع ذلك ردود فعل متباينة, أحدها من الفيزيائي النظري فريمان دايسون. و قد أجبتُ على دايسون, مُقتبساً من خطاب تقبلهِ لِجائزة تمبلتون. و سواء اراد دايسون ذلك أو لا, فإن تقبله للجائزة هو اشارة جدية للدعم من أحد أهم الفيزيائيين في العالم للدين.

أنا سعيد بأن اكون أحد المسيحيين العديدين الذين لا يهتمون للتلقين عن الثالوث المُقدس أو الاناجيل كحقائق تأريخية.

---

1. **التكلم بالألسنة هي ظاهرة مذكورة في الكتاب المقدس حيث يعتقد أنها هبة ألهية تصيب الاشخاص الذين يحل عليهم الروح القدس حيث يبدأون بالحديث بلهجات و لغات غير مفهومة لمن حولهم. (المترجم)**
2. JOHAN BROCKMAN **تجده على** HTTP//:WWW.EDGE.ORG. **(المترجم).**

أليس ذلك بالضبط ما سيقوله أي عالم مُلحِد, لو اراد أن يبدو مسيحياً؟ و قد عرضتُ أقتباسات عديدة من خطاب تقبلهِ للجائزة, و بعثرتُ خلالها اسئلة تخيلية هنا وهناك في رسالة ارسلتها لمسؤولي تمبلتون :

آه, تريد شيئا أعمق قليلا؟ مارأيك بــ....

لا أضع فروقا تميز الله عن العقل. الله هو العقل عندما يجتاز مقاييس الفهم.

هل قلت ما فيه الكفاية و هل أستطيع العودة لعلمي كفيزيائي؟ لا؟ ليس كافياً؟ حسنا ما رأيك بــ..

حتى في التأريخ الدموي للقرن العشرين, فإني أرى بعض الادلة على نجاح الدين. الشخصان اللذان جسدا الشر في القرن الحالي, هتلر و ستالين أثنان أقروا بألحادهم.[1]

هل استطيع الذهاب الان؟

بإمكان دايسون بسهولة أن يدحض هذهِ السطور من خطابهِ عند قبولهِ للجائزة, و ذلك بشرحه و بوضوح للادلة التي وجدها للأيمان بالله, و ليس بالمعنى الآينشتايني الذي شرحتهُ في الفصل الاول, و الذي يستطيع جميعُنا الانتماء اليه. و لو فهمتُ ما يعنيه الصحفي هورغان, فإنه يقصد بأن أموال تمبلتون تفسد العلم. و أنا واثق بأن دايسون أرفعُ من أن يفسد. و لكن خِطاب قبولهِ للجائزة للأسف يبدو و كأنه مِثال للآخرين. حيث أن جائزة تمبلتون هي أضعاف ما تمَ دفعهِ للصحفيين في كامبردج, و بشكل مُتعمِد جُعلت كي تكون أكبر من جائزة نوبل. حتى أن صديقي الفيلسوف دانييل دينيت مزح معي ذات مرة و قال "ريتشارد, إذا ضاقت بكل الظروف..."

على كل حال, حضرتُ يومين من المؤتمر في كامبردج. أعطيت محاضرة و شاركت في النقاشات لِمُحاضرات أخرى. تحديت رجال الدين لأعطائي جواباً عن ألإله الذي يمكنه أن يُصمم الكون, أو أي شئ آخر غير معقد و الذي

1. هذا الاتهام سأتناوله في الفصل السابع.

يترتب عليه أن يكون أكثر لاأحتمالية بكثير من تصميماتهِ. و الجواب الأقوى الذي سمعتهُ هو انني أحاول أقحام نظرية معرفية بقوة في مجال لاهوتي بعيد عنها[1]. رجال الدين عرفوا الله دائماً بالبساطة. فمن أنا كعالم طبيعي لأفرض على رجال الدين بأن إلِههم الآن معقد؟ أن الحجج العلمية التي أعتدتُ أن اطبقها على المجال الذي أعمل به, ليست ملائمة هنا بإعتبار أن رجال الدين يصرون على الدوام بأن الله يقف خارج نطاق العلم.

لم أحصل على أنطباع بأن رجال الدين الذين اتوا بمثل هذا الدفاع المراوغ كانوا مخادعين مع سبق الاصرار. أنا أعتقد انهم كانوا صادقين. و على الرغم من ذلك, لم أستطع مُقاومة تذكر تعليق بيتر ميداور على كتاب الأب تيلهارد دو شاردان "**ظاهرة الأنسان**", التي ربما كانت أكبر نقد سلبي لِكتاب في التأريخ: "مِن المُمكن فهم عدم أمانة الكاتب فقط لأنهُ قد بذل جهداً عظيماً في تضليل نفسهِ قبل أن يُضلل الآخرين[2]". رجال الدين الذين قابلتهم في كامبردج وضعوا أنفسهم على مسافة معرفية آمنة حيث أن جميع الحجج العقلية لا يمكنها الوصول اليهم لان ما يؤمنون به حسب زعمهم يبقى بعيد المنال. و من أنا لأقول بأن الدليل العقلاني هو النوع الوحيد من الأدلة؟ هُناكَ طرق اخرى للمعرفة الى جانب الطرق العلمية, و أحدى هذهِ الطُرق هي التي يجب استعمالها لمعرفة الله.

الطريقة الأهم من تلك الطرق الاخرى أتضح أنها التجربة شخصية عن الله. العديد من المُناقشين في كامبردج زعموا بأن الله تكلمَ معهُم, داخل رؤوسهم, بشكل واضح تماماً كما لو كان شخصاً آخر. لقد شرحت مواضيع الوهم و الهلوسة في الفصل الثالث (الدليل المبني على التجارب الشخصية) و لكني أضفت نقطتان في كامبردج. الاولى, لو إن الله فعلاً تكلم مع أشخاص فإن هذا بحد ذاتهِ يؤكد بأن الموضوع لا يقع خارج نطاق العلم. الله يأتي زاعقاً من عالم يقع في مجال آخر حيث يسكُن عادة و يقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ البشري, أتلكَ ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟ الثاني, الله القادر على أرسال الملايين من الاشارات المُنفردة في نفس الوقت و أستقبال رسائل مِنهُم في نفس الوقت أيضاً لا يُمكن أن يكون بأي

1. يذكرنا هذا الاتهام بفرضية جولد عن (الاختصاصات الغير متداخلة) الذي ناقشناه في الفصل الثاني.
2. مراجعة P. B. MEDAWAR لكتاب (ظاهرة الانسان) تم أعادة طبعها في ميداوار **1982** ص **242**.

شكل من الأشكال بسيطاً مهما كان. قدرة هائلة لأستقبال هذا الكم من الموجات الكبيرة! رُبما أنه لا يملك دماغاً من النيوترونات أو ذاكرة من الرصاص و لكن القوة التي تعزى له تجعله مُمتلكا لأشياء مدبرة مبهرة وليست عشوائية ابداً و أعظم كثيراً من أكبر الحواسيب التي نعرفها.

و يعود أصدقائي رجال الدين مرة أخرى للنقطة القائلة بأن هُناكَ سبب لوجود شئ ما. يجب أن يكون هُناكَ سبب لكل شئ و هذا السبب يمكننا أن نُسميه الله. و جوابي كان, حسناً, و لكن عليه أن يكون بسيطاً, و بالتالي فإن الله ليس أسما مُناسبا (ألا إذا جردنا الكلمة من كُل ما يحملهُ إسم "الله" في عقول المؤمنين). و السبب الاول الذي نبحث عنه يجب أن يكون القاعدة البسيطة لتلك الرافعة الذاتية التي أدت لرفع العالم تدريجياً لوضعهِ المعقد الحالي. أما الزعم بأن المحرك الاول لهُ الذكاء الكافي لحُبّك هذا التصميم الذكي, بغض النظر عن قراءة عقول الملايين معاً و في نفس الوقت, لهو مساو لأن يعطي نفسهُ الاوراق الصحيحة كاملة في لعبة الورق. أنظر حولك في عالم الحياة, غابات الامازون الغنية بتداخل غاباتها المتسلقة و الاوراق العريضة و الجذور و الفراشات الطائرة و حيوانات التابير و جيوش النمل و النمور و ضفدع الاشجار و الببغاءات. ما تنظر اليه مساو ليد كاملة في لعبة الورق (فكر بكل الطرق الاخرى لأستبدال أماكن الاعضاء, ليس من أي طريقة اخرى ناجحة) بإستثناء إننا نعرف كيف حصل ذلك: بإستعمال رافعة الانتخاب الطبيعي بالتدريج. ليس فقط العُلماء منْ يثور على التقبل الاخرس للّلاحتمالية للنشوء التلقائي, بل الحس العام أيضاً. و أقتراح أن المُسبب الاول, المجهول العظيم المسؤول عن الوجود, كان قادراً على تصميم الكون و التكلم مع ملايين الاشخاص معاً, هو تهرب صريح من المسؤولية في التقصي و البحث عن شرح مناسب. أستخفاف مخيف بالعقل هو هذا الخطاف سماوي.

أنا لا اقترح هنا نوع من التضييق على التفكير العلمي. و لكن على الاقل بعض الأمانة في السعي للحقيقة و التي يجب وضعها كقاعدة في شرحِنا للأمور العظيمة اللاحتمالية كغابات الامازون, و شقوق المُرجان أو الكون, و القاعدة هي العمل كرافعة من الاسفل الى الاعلى و ليس بالعكس كخطاف سماوي. و الرافعة ليست الانتخاب الطبيعي بالضرورة. مع الاعتراف, بأن

لا أحد جاء بطريقة أفضل. و لكن من الممكن أن تكون هُناكَ نظريات اخرى تنتظر الاكتشاف. و ربما أن "التضخم" الذي ينادي به الفيزيائيين و الذي حصل في الجزء من الميكروثانية في وجود الكون, ستصبح, حين فهمها بشكل أفضل, الرافعة التي ستقف جنباً الى جنب مع رافعة داروين في علم الاحياء. أو رُبما الرافعة الغامضة التي يبحث عنها الفلكيون ستكون نوعاً شبيهاً للفكرة الدروينية نفسها: نموذج سمولين أو ماشابه أو ربما سيكون تعدد الاكوان مُقترناً بالمبدأ الانثروبي كما في حالة ريس و آخرون. ربما يكون هُناكَ مصصم خارق و لكن في هذا الحالة لن يكون مصمماً أتى من العدم بالتأكيد. و لو كان كوننا مصمما (و ان كُنت لا أصدق هذا حتى الان), و من باب اولى لِمصمم يقرأ أفكارنا و يعرف الغيب و يسامح و يصحح فإن المصمم نفسه يجب أن يكون نتيجة لِتراكم العديد من أعمال الروافع و المصاعد, ربما نسخة داروينية في كون اخر.

خِندق الدفاع الاخير لدى النقاد في كامبردج كان الهجوم. و تم أتهام جميع آرائي بأنها من "القرن التاسع عشر". و تلك حجة سيئة جداً حتى إنني كدتُ ان لا أذكُرها هُنا. و لكن للاسف فإنني أواجه أجابات كهذه في اغلب الاحيان. لا نحتاج للقول هنا بأن نقد فكرة بوصفها "من القرن التاسع عشر" لا يعد شرحا لما هو الخطأ فيها. بعض افكار القرن التاسع عشر كانت جيدة جداً, ناهيك عن فكرة داروين الخطرة. و على كُل حال, فإن الاتهام بدا خطيراً عندما يأتي من شخص ما (عالم أرض مميز من كامبردج, سلك طريق فاوست بشكل يضمن له جائزة تمبلتون) و الذي برر أيمانهُ المسيحي بإستخدام ما أسماه تأريخية العهد القديم. هذا هو تماماً ما حَصَلَ في القرن التاسع عشر بالضبط و خصوصاً في المانيا, عندما دعى عُلماء الدين للتشكيك بالتأريخ بإستخدام طرق البحث التأريخي نفسها. و قد نوه رجال الدين لذلك بدون شك في مؤتمر كامبردج.

على كُل حال, فقد سمعتُ هذا الاتهام القديم من "القرن التاسع عشر". أنها أشبه بقصة الاستهزاء "بالمُلحِد البسيط". و تماماً أشبه بقصة " هههههه هل تعتقد ههههه فعلاً بأننا نؤمن بشيخ كبير ذو لحية بيضاء يسكن السماء ههههه". القصص الثلاثة عبارة عن رموز لأمور أخرى, تماماً كمصطلح "القانون و النظام" الذي كان الرمز الذي يستخدمه السياسيين لآرائهم التعسفية ضد السود

في أمريكا في اواخر الستينات. فما هي الرموز وراء مقولة "أفكاركَ قلباً و قالباً تنتمي للقرن التاسع عشر" عِندما تأتي في سياق الحديث عن الدين؟ إنها تعني "بأنك قاسي و غير لبق, كيف يُمكن لك أن تسألني بدون أي مراعاة لمشاعري و بشكل مباشر سؤالا مثل:(هل تؤمن بالمعجزات؟) أو (هل تؤمن بأن المسيح ولِدَ من عذراء؟) ألا تعلم بأننا في مجتمع مؤدب لا نطرح أسئلة كهذه؟ أسئلة كهذه ظهرت في القرن التاسع عشر". و لكن فكر لماذا من غير اللبق أن تطرح سؤالاً مباشراً للمؤمنين. لأن ذلك مُحرج! و لكن في الواقع فإن الأحراج يأتي من الأجابة ,عندما تكون بــ (نعم).

الصلة بــ"القرن التاسع عشر" أصبحت الآن واضحة. القرن التاسع عشر هو آخر وقت كان يستطيع فيه الشخص المتعلم أن يعترف بأيمانه بالمُعجزات, مثل الحمل العذري بدون أحراج. و عندما يُحرجون فإن الكثيرين من المُثقفين المسيحيين مخلصين لدرجة انهم لا يستطيعون نفي الحمل العذري أو القيامة. و لكن ذلك يُحرجهم لأن المنطق العقلي يعرف بأن ذلك غير معقول, و لذلك فإنهم يُفضلون بأن لا يُسألوا. و بهذا, فعندما يُصر شخص مثلي على السؤآل, يتم أتهامي بأنني أنتمي لـــ "القرن التاسع عشر". و ذلك مضحك حقاً, عندما تفكر به لبرهة.

تركتُ المؤتمر مُتحفِزاً و نشيطاً, و قد أزدادت قناعتي بأن الحجة اللااحتمالية (البوينغ 747 الكبرى) هي حجة قوية جداً ضد الوجود الالهي, و لازلت أنتظر سماع رد مقنع من رجال الدين بالرغم من الدعوات و الفُرص العديدة التي كانت لتسمح لهم بفعل ذلك. دان دينيت وصف ذلك محقاً بــ"تفنيد غير ممكن, و مُدمر في ايامنا هذهِ كما كان الوضع عندما كان فيلو يضرب كلينثس في (**حوارات**) هيوم قبل قرنين من الزمن. خطاف سماوي نجح في أن يؤجل حل المسألة, و هيوم لم يستطع التفكير بأي رافعة, و لذلك أستسلم. بالطبع داروين هو الذي أكتشف هذهِ الرافعة, هيوم كان سيحُبّها جداً.

هذا الفصل يحتوي على المبادئ الاساسية في الكتاب, وبهذا, و عذراً للتكرار, سألخصهم في ست نقاط.

1. أعظم التحديات للذكاء الأنساني, و عبر القرون, كان شرح التعقيد الكبير و اللااحتمالية العظيمة التي تظهر في الكون.

2. الاغراء الطبيعي هو أن نعزي كُل ما يبدو مُصمما الى أن يكون مُصمماً بالفعل. و في حالة المصنوعات الأنسانية الدقيقة كالساعة مثلاً, فإن المُصمم كان بدون شك مُهندساً ذكياً. و من المغري تطبيق نفس المنطق على العين و الجناح و العنكبوت و الأنسان.

1. فرضية المُصمم تُثير فوراً السؤآل الأكبر عن مصدر المُصميم نفسهِ. كُل المسألة بدأت من محاولة شرح لاأحتمالية منطقية. و هذا بوضوح ليس حلاً لأنه يطرح شيئاً لااحتماليتهُ أكبر. و نحن هنا بحاجة "لرافعة" و ليس "لخطاف سماوي", لأن الرافعة لوحدها تستطيع العمل بتدرج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقدة عظيمة اللااحتمالية.

2. الرافعة الأبدع و الأقوى حتى الآن هي التطور الدارويني بالانتخاب الطبيعي. داروين و من خلفهُ شرحوا لنا كيف أن الاحياء بالرغم من لااحتماليتهم الكبيرة و الانطباع الذي يُعطونه عن التصميم الا أنهم تطوروا ببطء و بشكل تدريجي من بدايات بسيطة. و بإمكاننا القول بدون مخاطرة بأن وهم التصميم في الكائنات الحية هو مجرد وهم.

3. حتى الان ليس لدينا رافعة مُماثِلة للفيزياء. و شئ ما كنظرية الأكوان المُتعددة يُمكنها من حيث المبدأ أن تعمل ما عملته الداروينية في علم الاحياء. شرح من هذا النوع بشكل سطحي أقل إرضاء من قرينه الدارويني الطبيعي, لأنه يتطلب كمية أكبر من الحظ. و لكن المبدأ الانثروبي يؤهلنا لِحظ أكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الأنساني أن يتقبله بإرتياح.

4. لايجب أن نفقد الامل في ايجاد رافعة أفضل للفيزياء, شئ ما بقوة الداروينية الطبيعية. و لكن حتى في غياب الرافعة فأن وجود الروافع الضعيفة الحالية, بدعمها من النظرية الانثروبية, فإنها بوضوح أفضل

بكثير من التفسير السماوي الذي يناقض نفسه حول موضوع التصميم الذكي.

و لو تقبل الفرد الحجج المطروحة في هذا الفصل, فإن المسلمة الواقعية للدين و فرضية ألإله لن تصمد. و الاحتمال الاكبر هو أن الله غير موجود. و هذه هي النتيجة النهائية لهذا الكتاب حتى الآن. ما سيأتي سيكون بضع من الاسئلة و الأجابات. و حتى لو قبلنا بعدم وجود الله الا يجب علينا الأعتراف بأن للدين فوائد أخرى؟ ألأ يعطي مواساة في المصاعب؟ ألا يدفع الناس لِفعل الخير؟ و كيف سَنعرف ما هو الخير بدون الدين؟ لماذا المُعاداة للدين على ايه حال؟ الدين موجود في كُل الحضارات في كل العالم؟ صحيح أو خاطئ فأن الدين موجود في كُل مكان, من أين أتى؟ و هذا السؤآل الأخير هو موضوعنا التالي.

الفصل الخامس

الأولوية الداروينية

الزهور و في بعض الاحيان تضيف الخرز و قطع الزجاج و أشياء أخرى قد يعثرون عليها. مثالاً آخر لا يحتوي على الدعاية وهي "التنميل" عادة غريبة عند الطيور, كطائر الزاغة و ذلك بالاستحمام في عش النمل, و بمعنى آخر أدخال النمل في ريشهم. لا أحد يعرف بالضبط الغاية من التنميل, ربما للنظافة و للتخلص من الطفيليات في الريش, هُناكَ العديد من الفرضيات, و لكن بدون أدلة قوية تدعم أياً مِنها. و لكن الحيرة فيما يتعلق بالتفاصيل لن توقف داروينياً, و ليس من المفروض أن تفعل, من الافتراض بكل ثقة, بأن التنميل يجب أن يكون لهُ فائدة ما. في هذا الحالة ربما يوافق هذا التفكير المنطق العام, و لكن الداروينية لها سبب خاص للتفكير بأن الطير إن لم يفعل ذلك, فإن الاحتمالات الاحصائية لفرص نجاحهِ الجيني ستنخفض حتى و إن كُنا لا نعرف بعد سبب هذا الانخفاض و طريقته. النتيجة تأتي من البناء المزدوج للانتخاب الطبيعي الذي يعاقب التبذير في الوقت و الطاقة, و ملاحظة أن الطيور تعطي دائما جزء من وقتها و طاقتها للتنميل. و لو أن هُناكَ عبارة واحدة تبين بشكل عام "مبدأ التكيف" فإنه قد عبر عنه بشكل متطرف و مبالغ به, من قبل عالم المورثات في هارفارد ريتشارد ليونتين: "النقطة التي يوافق عليها كُل التطوريون في رأيي, هي انه من المستحيل أن نؤدي عملاً أفضل من الذي يفعله عضو ما في بيئتهِ الخاصة" و لو أن التنميل ليسَ مفيداً بشكل أيجابي للبقاء و التكاثر, فإن الانتخاب الطبيعي كان سيُفضل الأفراد الذين توقفوا عن فعل ذلك من زمن طويل. ربما يغري ذلك داروينياً لان يقول الشئ ذاته فيما يتعلق بالدين, و لذلك نحتاج لمناقشة الفكرة.

بالنسبة لاي تطوري, تبدو الطقوس الدينية كذيل الطاووس في ساحة مشمسة (التعبير مأخوذ من دانييل دينيت). السلوك الديني بشكل عام هو النظير الأنساني للتنميل أو بناء الكوخ للطيور. تحتاج لوقت و طاقة و غالِباً بذخ تبذيري كما في حالة ريش طيور الجنة. بإمكان الدين أن يُشكل خطراً على حياة الأنسان التقي, كما على حياة الآخرين. الالاف عُذِبوا بسبب ولائهم لدين ما و أضُطهدوا من قبل مُتعَصِبين ممن ينتمون لأعتقاد مغاير. الدين يلتهم المصادر الأنسانية و غالِباً على درجة هائلة. كاتدرائية من العصور الوسطة رُبما أستهلكت مِئة رجل خلال قرن من الزمن لِبنائها و لم تستخدم كمسكن أبداً أو لأي سبب آخر مفيد آخر يمكننا معرفته. هل هذهِ عمارة من قُبيل ذيل الطاووس؟ لو أن الاجابة بنعم فمن هو المقصود بالدعاية هنا؟ الموسيقى

المقدسة و رسوم دينية أحتكرت مواهب العصور الوسطى و عصر النهضة. المُتعبدون قتِلوا في سبيل آلِهتم و قتلوا آخرين من اجله و أدموا ظهورهم بالسياط و أقسموا أن يعيشوا البتولية أو في عزلة أو صمت و كُل ذلك من أجل الدين. لِمَ كُل ذلك؟ ما فائدة الدين؟

"الفائدة" هنا تعني داروينياً بعض زيادة قدرة الفرد على البقاء جينياً. ما هو مفقود في هذهِ النقطة الهامة هو أن الفائدة الدراوينية ليست محصورة بجينات الأفراد. بل أن هُناكَ ثلاثة أهداف أخرى لها. الاول يأتي من نظرية الانتخاب الجمعي, و سأتي لذلك لاحقاً. الثاني يأتي من نظرية كنت قد دافعت عنها في كتابي "**الجين الاناني**": الفرد الذي تراقبهُ ربما يكون خاضعا في تصرفاته لأحتكار متنفذ من جينات كائن آخر, ربما كان طفيلياً. دان دينيت يقول بأن الرشح هو ظاهرة عالمية كما هو التدين تماماً, و لا نستطيع الادعاء أبدا بأن الرشح مُفيد لنا. هُناكَ العديد من الأمثِلة عن حيوانات تتصرف بتلك الطريقة ليستفيد كائن آخر طفيلي بداخلها و ينتقل لمُضيَف جديد. لقد شرحت هذهِ الظاهرة في نظريتي عن "مركزية النمط الظاهري الممتد": "تصرف الحيوان يهدف لتكبير فرص البقاء لجينات المتحكمة بهذا التصرف, سواء كانت تلك الجينات تعود لجسد الحيوان الذي ينفذ التصرف ام لا".

ثالثاً فأن "النظرية المركزية" ربما تستطيع أستبدال "الجينات" و بتعبير أكثر عمومية "أستنساخ". واقع وجود الدين في كُل مكان رُبما يعني بأنه ذات فائدة في شئ ما, ولكن هذا لا يعنني إننا المستفيدين أو حتى مورثاتنا. رُبما كانت الفائدة لأفكار الدين ذاتها, للحد الذي تصرفت فيه تلك الافكار بشكل شبيه للجينات, التي تقوم بالنسخ. و سأتي لذلك لاحقا, تحت عنوان "إدعس بهدوء, لانك تدعس على ميماتي". حتى ذلك, سأركز أكثر على الداروينية التقليدية و التي نفترض بها بأن "الفائدة" تعني فائدة لِبقاء الفرد و تكاثره.

الصيادون و القاطفون كما الحال في القبائل الاوسترالية الاصلية, يعيشون بطريقة أقرب ما تكون لطريقة أسلافنا الاقدمين. الفيلسوف الأسترالي النيوزيلاندي كيم ستيرينلي يشير لِتناقض درامي حاد في حياتهم. من جهة فأن السكان الاصليين لديهم مهارات فائقة للبقاء تحت تلك الشروط التي تتحدى مهاراتهم لأقصى الحدود. و لكن, من جهة أخرى, يكمل ستيرينلي,

ربما نحنُ مخلوقات ذكية و لكن نستخدم ذكائنا بشكل خاطئ. نفس المجاميع البارعة في البيئة حولهم و كيفية البقاء فيها يملأون عقولهم بمعتقدات بدون ادنى شك خاطئة تماماً و كلمة "عديمة الفائدة" وصف خفيف لها. السكان الاصليون لبابوا في غينيا الجديدة مألوفون بالنسبة لستيرينلي. تعايشوا و بقوا تحت ظروف قاهرة حيث الطعام صعب المنال و ذلك بواسطة "تفهم أسطوري للبيئة المحيطة بهم. و لكنهم دمجوا ذلك التفهم بإستحواذ عميق ومدمر عن الحيض الدنس عند النساء و عِلاقتهِ بالسحر. الكثير من الحضارات المحلية يعذبها الخوف من السحر و العنف الذي يصاحب ذلك الخوف". ستيرينلي يتحدانا لتفسير " كيف يمكن أن نكون اذكياء و أغبياء بنفس الوقت".[1]

مع أن التفاصيل تختلف عبر العالم و لكن ليس هُناكَ حضارة معروفة لم يكن فيها نسخة من الطقوس المُستهلكة للوقت و الصحة و مُثيرة للعداوة و التخيلات المخالفة للواقع. ربما أن بعض المثقفين أهملوا الدين و لكن الجميع تربى في حضارة دينية و كان عليهم في وقت ما أن يتخذوا قراراً لِتركهِ. و النكته الايرلندية, "هل أنتَ مُلحِد كاثوليكي ام مُلحِد بروتستانتي؟" تصرخ بمرارة الحقيقة. التصرف الديني يمكن أن يطلق عليه لقب "عالمي" بنفس الشكل الذي نستطيع أن نُسمي به التصرف الجنسي المغاير. كلاهما تعميم يسمح بإستثناءات و هؤلاء الاستثناءات يفمون جيداً القواعد التي تركوها. و الخاصية العالمية تتطلب تفسيراً داروينيا.

مِن الواضح انه ليس هُناكَ أي صعوبات في ايجاد التفسير الدارويني للتصرف الجنسي. الهدف هو أنجاب الذرية, و حتى في حال المثلية أو أستعمال مانعات الحمل التي يبدو انها تكذب ذلك. و لكن ماهو تفسير التصرف الديني؟ لِماذا يصوم الأنسان و يسجد و يركع و يضرب نفسه بالسوط و يومئ برأسه بشكل جنوني امام حائط و يتطوع في الحروب الدينية, أو في حالات اخرى ينغمس في تصرفات مُكلفة قد تستهلك مواردهُ المهمة لحياته و في أسوأ الحالات تنهيها؟

1 . K. STERELNY "THE PERVERSE PRIMATE" 1982 S. 213-223.

الفوائد المباشرة للدين

المعالجة المثلية (الهوميوباتي) الاولى, تحسنت صورتها بشكل غير مقصود لان معالجتها لم تؤدي لاي مفعول على الاطلاق, على العكس من الطب التقليدي الذي يتطلب احياناً أخذ عينات دم, و الذي قد يؤلم طبعاً.

هل الدين هو تلك الحبة الخلبية التي تطيل الحياة بواسطة تخفيف التوتر النفسي؟ رُبما كان كذلك, لكن هذه الفرضية يفترض ان تقف بوجه العديد من الدراسات للمُشككين بها حيث يظهر الدين هو سبب للتوتر النفسي في العديد من الظروف بدل أن يكون المُخفِف لها. أنهُ لمن الصعب التصديق بأن صحة المريض تتحسن عند الشعور بالذنب بشكل شبه متواصل و الذي يعانيه شخص ذو ضعف أنساني عادي و بمستوى ذكاء تحت المتوسط ينتمي لطائفة الروم الكاثوليك. رُبما أنه ليس من الحق أن نختار الكالثوليكية فقط. الكوميدية ألأمرَيكية كاثي لاندمان لاحظت أن "كل الاديان متماثلة فهي بالمبدأ شعور بالذنب مع أيام عُطل مختلفة." و على كُل حال, أجد أن نظرية العلاج الوهمي ليست كافية لتفسير الأنتشار الواسع للديانات عبر العالم. و لا أظن أننا مُتدينون لأن الدين قد خفف التوتر العصبي عن أسلافِنا. تلك النظرية ليست صالحة للتفسير على الرغم أن ذلك ربما قد لعب دوراً مُساهماً. الدين ظاهرة واسعة و يلزمها نظرية واسعة لتفسيرها.

النظريات الاخرى تهمل وجهة النظر الداروينية بشكل كامل. و أتكلم هنا عن اقتراحات مثل "الدين يعطينا أجوبة عن الكون و مكاننا فيه" أو "الدين يعطي العزاء". رُبما هُنالكَ بعض الحقائق النفسية, كما سنرى في الفصل العاشر, و لكنها لاتحتوي في مضمونها شرحاً داروينيا. كما قال ستيفن بينكر عن نظرية المواساة, في كتابه "**كيف يعمل العقل**": "أنها تثير فقط السؤآل كيف يتطور العقل ليجد راحة في تفسير يرى خطأهُ بوضوح. الشخص المُتجمد من البرد لا يجد راحة في التفكير بأنه دافئ, شخص يواجه أسداً وجهاً لوجه لن يسهل أمرهُ الاقتناع بأنه يقف أمام أرنب". و على الاقل تحتاج نظرية المواساة لترجمة باللغة الداروينية, و ذلك أصعب مما يتصور البعض. التفسيرات النفسية للمؤثرات التي يجد بها بعض الناس ديناً ما مريح أو مرهق لهم هي تفسيرات مبدئية و ليست نهائية.

الداروينية تضع تمييزاً بين المبدئية و النهائية. التفسير المبدئي للانفجار في محركات الاحتراق الداخلي مثلاً سببهُ شرارة الاحتراق. التفسير النهائي يهتم بالغرض الذي صمم الانفجار لأجله: لِدفع المكبس من الاسطوانة, و بالتالي تدوير ساعد المحور الرئيسي. السبب المباشر للدين ربما كان نتيجة نشاط في قسم ما من الدماغ. و لن أتطرق للفكرة التي تقول بوجود "مركز الله" في الدماغ لانني لست معنيا بالتفسيرات المبدئية للسؤال. و ليس للتقليل من شأنه أوصي بشدة بكتاب مايكل شيرمر "**كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العِلمْ**" كمختصر مُفيد, و الذي يحتوي على مقترحات من مايكل بيرسنغر و آخرون بأن ظواهر الرؤى الدينية تتعلق بما يسمى صرع الاذن الدنيا.

و لكن شغلي الشاغل في هذا الفصل هو التفسير النهائي الدارويني لهذه الظاهرة. و لو وجد عُلماء الاعصاب "مركز الله" في المخ, فإن عُلماء الداروينية و أنا كمثال يريدون أن يفهموا سبب تفضيل الانتخاب الطبيعي لذلك. لماذا نجح أسلافنا الذين كانت لديهم جينات تسعى لتطوير مركز ألإله في الدماغ في البقاء و أمتلاك أحفاد أكثر من الذين لم يكن لديهم هذا المركز؟ التفسير الدارويني النهائي ليس تفسيراً أفضل, و ليس أساسيا أكثر, و ليس علمياً أكثر من التفسير المبدئي المُختص بالاعصاب. لكنه فقط السؤآل الذي اتكلم عنه الان.

لا تكتفي الداروينية بالتفسير السياسي, مثل "الدين وسيلة أستخدمتها الطبقة الحاكمة لأخضاع الطبقة الدنيا." من المؤكد أن العبيد السود في أمريكا قد تواسوا بالحياة الاخرة, و التي قللت من عدم رضاهم بهذه الحياة و بالتالي أفادت مالكيهم. و السؤآل عما إذا كان الدين قد صمم من قبل رجال دين أو حكام متهكمين لهو سؤال مهم, و يجب أن يجيب عُلماء التأريخ. الدارويني يريد أن يعرف ما سبب ضعف الأنسان أمام الجاذبية الدينية و عليه فهو معرض للأستغلال من قبل الحكام و رجال الدين والملوك.

رُبما يستخدم مستغل ما الرغبة الجنسية لأجل النفوذ السياسي, و لكننا نظل بحاجة للتفسير الدارويني عن كيفية عملها. في حالة الرغبة الجنسية, الجواب سهل: مخنا مجهز ليستمتع بالجنس لان الجنس في الحالة الطبيعية, يصنع الاطفال. أو رُبما يستخدم السياسي الاستغلالي التعذيب لتحقيق أهدافه. و مرة

اخرى, التفسير الداروينى يزودنا بالشرح عن فعالية التعذيب, لماذا نحن مستعدون لفعل أي شي لتفادي الالم المبرح. و مرة أخرى يبدو ذلك واضحاً لدرجة السخافة, و لكن الداروينية تحتاج لتهجئة الأجابة: الانتخاب الطبيعي جعل فهم الالم كرسالة تهديد للحياة, و برمجتنا لتفادي ذلك. و الحالات النادرة من الأفراد الذين لا يأبهون بالالم أو لايشعرون به, عادة يموتون في سن مبكر نتيجة لأصابات من النوع الذي نحاول نحن تفاديه. و سواء كان التفسير المبدئي للدين أستغلالي أو ظهرَ بشكل عفوي, ما هو التفسير النهائي للرغبة في ألآلِهة؟

الأنتخاب الجماعي

في دارستهِ الشهيرة "اناس غاضبون" عن قبائل اليانومامو في أدغال أمريكا الجنوبية.[1]

شانيون ليس من مؤيدي نظرية الأنتخاب الجماعي و لا أنا. هُناكَ أعتراضات هائلة تواجهها. و كأحد الباحثين عن الحقيقة يجب أن أتوخى الحذر في ركوب فرس أفكاري بعيداً عن موضوع هذا الكتاب. بعض علماء الطبيعة يقفون بحيرة بين الانتخاب الجماعي الحقيقي, كما هو الحال في مثالي الأفتراضي عن إله الحرب, و شئ آخر يدعونه الانتخاب الجماعي و الذي ظهر بعد التحري على شكل أنتَخاب الاقارب أو الايثار المتبادل (أنظر الفصل السادس).

الذين يقللون من شأن الانتخاب الجماعي منا يُقرون بأنه مُمكِن الحصول. و السؤآل هو إذا ما كان من الممكن لذلك أن يرقى ليكون له تأثير هام على مستوى التطور. و عِندما يتم التحريض ضد الانتخاب في مستويات دُنيا, كما هو الحال عندما يتقدم الانتخاب الجماعي كتفسير للتضحية بالنفس على المستوى الفردي, فإن الانتخاب في المستويات الدنيا يميل للقوة. و في قبيلتنا المُفترضة, تخيل مُقاتلا أنانيا في جيش يغلب فيه وجود الفدائيين المُتحمسين للموت من أجل القبيلة و المُكافأة السماوية. ففرصتهِ ستكون أفضل قليلا لان ينتهي في طرف الفائزين كنتيجة لكونه تعمد التأخر في المعركة للنجاة بجلده. و أستشهاد رفاقهِ سيفيده أكثر من فائدتهِ لاي منهم في المتوسط, لأنهم سيموتون. و ستكون لديه الفرصة أفضل منهم للانجاب, و جيناته الرافضة للاستشهاد ستنتشر للجيل اللاحق. و بذلك تقل الميول الاستشهادية في الاجيال اللاحقة.

هذا كان نموذجا مُصغراً, لكنه يلقي الضوء على مُشكلة أزلية في موضوع الانتخاب الجماعي. الأنتخاب الجماعي كنظرية هي عرضة دائماً لِفتنة داخلية. و موت الأفراد و الانجاب يحصل بزمن أسرع من أنقراض الجماعة. و بالامكان وضع نموذج رياضي للحصول على الشروط الخاصة و التي تحت تأثيرها يمكن أن يكون الانتخاب الجماعي تطورياً بشكل قوي.

1 . N. A. Chagnon, 'Terminological kinship, genealogical relatedness and village fissioning among the Yanomamo Indians', in Alexander and Tinkle (1981: ch. 28).

هذهِ الشروط الخاصة بشكل عام غير واقعية بطبيعتها, و لكن من المُمكن المُحاججة بأن الدين في الجماعات الأنسانية يتبنى ظروفاً و يطورها و التي في حالات عادية غير واقعية. تلك نظرية مُثيرة, و لكنني لن أتابعها فيما عدا الاعتراف بأن داروين نفسه, برغم أنه عادة مُحام مخلص للانتخاب على مستوى العضو الفردي, قد أقترب لان يكون مُنتخِبا جماعيا في مناقشته عن القبائل الأنسانية:

> عندما تحصل منافسة بين قبيلتين بدائيتين تعيشان في نفس البلد, و لو أحتوت أحداهما على عدد أكبر من الافراد الشجعان و المخلصين بينما تساوت الشروط في الحالات الأخرى. فالذين هم على استعداد لتحذير بعضهم للخطر, و مُساعدة بعضهم و الدفاع المُشترك, فإن تلك القبيلة ستحتل و تربح القبيلة الاخرى بدون شك... الانانية و التعقيد لا يُمكن أن يتماسكا, و بدون تماسك لاشئ يتحقق. القبيلة التي تملك المواصفات المذكورة بدرجة كبيرة ستنتشر و تنتصر على القبائل الاخرى, و لكن طبعا مع الوقت, و بالحكم من كُل التجارب في الماضي, فهي أيضاً سيأتي دورها لتقع ضحية قبيلة أخرى تمتلك تلك المواصفات بدرجة أعلى.

و لأرضاء أي أختصاصي في العلوم الطبيعية ربما يقرأ هذا, علي أن أقول أن فكرة داروين ليس عن الانتخاب الجماعي بشكل صارم, بالشكل الحقيقي و بمعنى أن الجماعة الناجحة تلد جماعات لها و بتردد يمكن أن نعدهُ كوصف سكاني للمجموعة. بل على شكل آخر فإن داروين يرى أعضاء القبيلة الذين يتعاونون هم الذين يكتب لهم الانتشار كأفراد. نموذج داروين يشبه أكثر أنتَشار السنجاب الفضي في بريطانيا على حساب السنجاب الاحمر, أستبدال طبيعي و ليس أنتَخاب جماعي.

الدين كناتج عرضي لشئ آخر

على اية حال, لنضع الآن جانباً الانتخاب الجماعي و لنبحث في وجهة نظري الخاصة عن البقاء الدارويني للدين. أنا أحد الكثيرين الذين يزداد عددهم من الذين يرون الدين كناتج عرضي لشئ آخر. بشكل عام أعتقد بأنهُ يجب علينا نحن الذين نعرف قيمة البقاء الداروينية لشئ ما الحفاظ على هذه الفكرة في الذاكرة. عندما نسأل عن قيمة البقاء لظاهرة ما فرُبما نحن نطرح السؤآل بصورة خاطئة. نحتاج لأعادة كتابة السؤآل بطريقة أكثر وضوحاً. رُبما تكون المادة التي تهمنا (الدين في هذهِ الحالة) ليس لها قيمة مباشرة للبقاء, و لكنها ناتج عرضي لشئ آخر له قيمة. و لتوضيح المسألة بصورة أدق سأضرب مثلاً من حقل اختصاصي في سلوك الحيوان.

حشرة العث[1] تطير بأتجاه لهب الشمعة, و لا يبدو ذلك من قبل الصدفة. بل يبدو و كأنهم يجاهدون كي يكونوا ضحية تلك المحرقة. بإمكاننا أن نُسمي ذلك "سلوك أنتحاري" وتحت هذا الاسم المثير, نتسأل عن كيفية تفضيل الانتخاب الطبيعي لسلوك كهذا. النقطة التي أنوه اليها هي أنه علينا أن نعيد كتابة السؤآل قبل حتى محاولة التفكير بإجابة ذكية. ليس هذا أنتَحاراً. ما يبدو أنتَحارا هو في الواقع نتيجة أعراض جانبية غفلنا عنها أو نتائج عرضية لشئ اخر. و لكن .... ما هو هذا الشئ؟ حسنا اليكم أحد الامكانيات التي يمكنها أن توضح تلك النقطة.

الضوء الاصطناعي ظاهرة حديثة نوعاً ما على المشهد الليلي. و حتى وقت قريب, فإن الاضواء الوحيدة في اليل كانت القمر و النجوم. تقع تلك الاجسام نظرياً على مدى لامتناهي البعد و بالتالي فإن الاشعة الضوئية التي تأتي منها تأتي متوازية. و هذا يجعلنا قابلين لأستعمالهم كبوصلة. و من المعروف عن الحشرات استعمالها للاجسام السماوية كالشمس والقمر للتوجه بشكل صحيح في خط مستقيم, و بإمكانهم أستعمال البوصلة ذاتها, و بالاتجاه المعاكس, للعودة. و الجهاز العصبي للحشرة تأقلم لوضع قاعدة من النوع التالي: "توجه بحيث أن اشعاع الضوء يصل لعينك بزاوية 30 درجة". و بما أن الحشرات لها أعين مُركبة (مع أنبوب ضوئي يشع من مركز العين للخارج كأشواك القنفذ), فإن ذلك يعني ببساطة أن عليك الحفاظ على الضوء يدخل من جزء معين من العين.

1. **العث نوع من أنواع الحشرات الشائعة الانتشار و هي قريبة الشكل من الفراشات. (المترجم)**

و لكن البوصلة الضوئية تعتمد بشكل حرج على الاجسام السماوية المُتناهية البعد. و أذا لم يكن الوضع كذلك, فإن الاشعة لن تكون متوازية و لكنها متباعدة مثل قطر الدولاب. أي جهاز عصبي يطبق قاعدة الـــ 30 درجة (او أي زاوية حادة) بجانب شمعة, سوف يقود العث بشكل لولبي نحو اللهب. أرسمها بنفسك, بإستعمال زاوية حادة مثل 30 درجة و سترى بأن الشكل الناتج سيكون لولبا أنيقا باتجاه الشمعة.

بالرغم من أن قاعدة الأستدلال هذه قد تكون مميته في تلك الظروف الخاصة, فإن القاعدة تبقى بشكل عام جيدة للعث, ذلك لان رؤية شمعة لهو من النوادر مقارنة برؤية القمر. نحن لا نلاحظ المئات من العث الذي بهدوء و فعالية يتوجه بالقمر أو النجوم, أو حتى ضوء المشع من بلدة على مسافة ما. نحنُ نرى فقط عثاً يدور بشكل لولبي حول الشمعة و نسأل أنفسنا السؤآل الخاطئ: لماذا ينتحر العث؟. عوضاً عن ذلك, علينا أن نسأل, لماذا يملكون جهازاً عصبيا يوجههم بواسطة تثبيت زاوية على اشعاع ضوئي معين, أسلوب لا نلاحظهُ الا عندما يخطئ. و عندما تعاد صياغة السؤآل يتبخر الغُموض. لم يكن من الصحيح تسميتها بالانتحار. أنها فقط تهديف خاطئ لبوصلة مُفيدة في الظروف العادية.

و الآن سنطبق درس الناتج العرضي على السلوك الديني في الأنسان. هُناكَ عدد هائل من الناس, يصل لمائة بالمائة في بعض المناطق, من المؤمنين بأمور تعارض العِلمْ بكل وضوح و تنافس أعتقادات دينية متبعة من قبل آخرين. و لا يحفظ الناس هذا الأيمان بشغف و حسب, بل يُخصصون له وقتا و مصاريف غالية. يموتون من اجله أو يَقتلون غيرهم من أجله. نحن نعجب لذلك كما عجبنا من "السلوك الانتحاري" للعث. و نسأل لماذا. و لكن النقطة التي أُريد لفت النظر اليها هي أننا ربما نسأل السؤآل الخاطئ هنا. ربما كان السلوك الديني مُجرد حادث, مجرد ناتج عرضي لنزعة نفسية خفية, و التي في أحوال أخرى قد تكون أو كانت مفيدة. و بوجهة النظرة تلك, فأن النزعة التي أنتَخبت طبيعياً في أسلافنا لم تكن ديناً بحد ذاتهِ بل كان لها منافع أخرى, و بلورت نفسها كدين مصادفةٍ. سنفهم السلوك الديني أولاً عندما نعطيه أسماً ثانياً.

فإذا كان الدين أذن ناتجاً عرضياً لشئ اخر, فما هو هذا الشئ؟ ما نظير عادة العث للملاحة بالبوصلة السماوية؟ ما هي الميزة البدائية المُفيده التي تخطئ الهدف أحياناً و تولد الدين؟ سأسوق أقتراحاً موضحاً, و أود الاشارة الى أن هذا المثال هو من النوعية التي أعنيها فقط, و سأتي لاقتراح مواز نادى به الآخرون. أنا مُتمسك بالمبدأ العام بأن علينا أن نصيغ السؤآل بشكل صحيح, و نعيد كتابته بالكامل عند الضرورة, أكثر من الأجابة عنه بشكل خاص.

فرضيتي الخاصة هي عن الاطفال. نحن, أكثر من كُل الكائنات الاخرى, نحافظ على بقائنا بواسطة تراكم الخبرات من أجيال سابقة, و هذه الخبرات يجب نقلها للاطفال لحمايتهم و تحسين حالهم. نظرياً, ربما يتعلم الاطفال من تجاربهم الشخصية ان لا يقتربوا من حافة جرف, أو يأكلوا توتاً برياً أحمر غير مُجرب, أو يسبحوا في ماء يعج بالتماسيح. و لكن, على الاقل, هُناكَ بعض المُميزات الانتخابية لمخ الطفل الذي يمتلك قواعد غير مجربة: صدق بدون أسئلة كُل ما يقوله الكبارُ لك. أطع أهلك, أطع كبار القبيلة, و خصوصا عندما يتكلمون بصوت ينم عن التهديد أو الجدية. ثِق بهؤلاء الكبار بدون سؤال. هذهِ قاعدة ثمينة بشكل عام بالنسبة للأطفال. و لكن كما في حال العث قد تترتب عليها نتائج مزرية.

لم و لن انسى الموعظة المرعبة التي تلقيتها في مدرستي عندما كنتُ صغيراً. مرعبة جداً كذكرى فقط, ذلك لانهُ كنت طفلا في وقتها و عقلي الطفولي تقبل الوعظ بالروحانية التي أرادها الواعظ. أخبرنا عن فرقة عسكرية تمشي بالقرب من سكة قطار. و في اللحظة الحرجة تشتت أنتَباه الرقيب و فشل في اعطاء ألأمرَ بالتوقف. الجنود كانو مُدربين على طاعة الاوامر بدون أي سؤال و أستمروا بالمسير نحو قطار قادم و الان بالطبع لا أصدق القصة و آمل أن الواعظ لم يكن يصدقها أيضاً. و لكنني صدقتُها عندما كنت في التاسعة لانني سمعتها من بالغ لديه سلطة على. و سواء صدقها هو أم لا, فإنهُ كان يأمل أننا نحن الاطفال سنعجب بهِ و نشكل شخصياتنا على نموذج الجندي المُستعبد و المُطيع للأمر بدون سؤال, و برغم اللامعقولية, و أتكلم عن نفسي هنا, فإننا قد أعجبنا بذلك. و كبالغ راشد أجد أنهُ من المستحيل تقريباً أن أكون قد تساءلت في طفولتي عما إذا كانت لدي

الشجاعة لأداء الواجب بالمسير أمام القطار. و لكن ذلك فعلا هو ما اذكره عن مشاعري و قتها. الموعظة كما يبدو تركت لدي إنطِباعاً عميقاً, حتى انني لاازال اذكرهُ و كتبته لكم الان.

للأمانة هُنا فأنا لا أعتقد أن الواعظ فكر بأنه يؤدي رسالة دينية. بل كان ذلك عسكرية أكثر من تدين و في روحانية تينيسون "**هجوم كتيبة المشاة**", و التي ربما ذكرها واعظنا وقتها:

الالف ميل تبدأ بخطوة..
فخطوة الى الامام
ستمائة جندي ساروا
في وادي الموت كان الصدام
الى الامام.. الى الامام
الى العدو و الحطام
ستمائة جندي دخلوا
وادي الموت كالفرسان [1]

(احد اول واقدم التسجيلات المخربشة لصوت أنسان كانت للورد تينيسون يقرأ تلك القصيدة و الأنطباع عن الخطاب الاجوف الاتي من اعماق نفق مظلم طويل من الماضي لهو مخيف بشكل مناسب هنا) سيكون ألأمرَ جنونيا من وجهة نظر القيادة لو سمحوا لكل جندي أن يناقش قبل أطاعة ألأوامر. و بلدان بجيوش يسمح لجنودهم بالتصرف بما يرونه مناسباً عوضا عن اطاعة الأوامر سيخسرون حروبهم. فمن وجهة نظر البلد فإن الطاعة قاعدة جيدة و حتى أن كانت في بعض الاحيان تؤدي لكوارث فردية. و الجنود يُدربون ليكونوا آليين أو حواسيب بقدر الامكان.

الحواسيب تفعل ما تؤمر بهِ. تطيع كالعبيد أي أوامر تُعطى لها بلغتها الخاصة. و هكذا تؤدي أغراضاً مفيدة كالحسابات و معالجة النصوص. و لكن كناتج عرضي لا مفر منه, فإنهم مُبرمجون أيضاً بشكل آلي لاطاعة الاوامر السيئة. ليس لديهم طريقة يعرفون بها نتيجة تنفيذ ألأمرَ لو كانت

1. ترجمة بتصرف (المترجم)

جيدة أو سيئة. ببساطة يطيعون كما على الجنود أن يكونوا. و في طاعتهم بدون سؤال و التي تجعل الحواسيب مفيدة, تجعلها أيضاً معرضة للاصابة بالفيروسات لا محالة. و الفيروسات الألكترونية هي برامج مُصممة بقصد الاذى تعطي أوامر للحاسوب مثل "أنسخني و أرسلني لكل عنوان تجدهُ في هذا القرص الصلب" و هذا الامر سيطاع ببساطة و بعد ذلك سيطاع أيضاً من الحواسيب الاخرى التي أرسل لها, في أنتَشار واسع. من الصعب و ربما المُستحيل أن تُصمم حاسوباً يفيد بطاعته ويكون منيعا للاصابة.

لو كُنت قد نجحت في شرحي التمهيدي فأنك ربما تعرف الان العلاقة بين مخ الطفل و الدين. الانتخاب الطبيعي بنى مخ الطفل مع ميل لتصديق ما يقوله الاهل و الكبار في السن من أهل العشيرة لهم. و طاعة الثقة تلك مهمة للبقاء: بطريقة مشابهة للتوجه بالقمر بالنسبة لحشرة العث. و لكن الوجه ألآخر للطاعة و الثقة هو السذاجة الخانعة. كناتج عرضي لا مناص منه يسبب الضعف تجاه عدوى الفايروسات الفكرية. و لسبب مُمتاز مرتبط بالبقاء الدارويني يحتاج دماغ الطفل للثقة بالابوين و الاخرين الاكبر سناً والذين قيل لهم من قبل الابوين أن يثقوا بهم. و النتائج الآلية هي أن الطفل ليس لديه أي طريقة يميز بها النصيحة الجيدة من السيئة. ليس بإمكان الطفل معرفة أن "لا تسبح في النهر الذي تنتشر فيه التماسيح" هي نصيحة جيدة بينما "يجب أن تضحي بخروف عندما يكتمل القمر, والا فلن ينزل المطر" هي في أفضل حالاتها مضيعة للوقت و الخراف. التحذيران أتيا من مَصدر مُحترم و بلهجة جدية تستوجب الاحترام و الطاعة. و الشئ نفسه ينطبق على المُقترحات عن الكون و العالم, الأخلاق و الطبيعة الأنسانية. عندما يكبر الطفل و يُصبح لديه أو لديها اطفالهما الخاصين غالِباً ما يتم تمرير هذهِ الخبرات كلها للأطفال, المهم و الغير مُهم أيضاً, و ذلك بإستعمال نفس الاسلوب في اللهجة المعدية.

و بهذا النموذج المذكور علينا أن نتوقع أنه في مناطق جغرافية مختلفة يجب أن توجد أنواع مُختلفة و أعتباطية من المعتقدات, و لا أحد مِنها يملك أي قاعدة واقعية و سيتوارث و يُصدق من قبل المجموعة بنفس الطريقة على أنه جزء من التراث الحكيم كما يصدق المُفيد منها مثل بأن السماد مفيد للمحصول. و علينا أن نتوقع أيضاً أن الغيبيات و الأمور الأخرى الغير واقعية ستتطور محلياً و تتغير عبر الاجيال بشكل عشوائي أو بشكل يتبع

نوعا من الانتخاب الدارويني, حتى نرى ظهور أشكال جديدة من المعتقدات المُستحدثة التي تختلف كلياً عن الاصل. اللُغات تبتعد عن أصلِها المُشترك لو أعطيت وقتاً كافيا في مناطق جغرافية متباعدة (و سأعود لهذه النقطة بعد برهة). و يبدو أن الشئ نفسه صحيح فيما يتعلق بأنواع الأيمان الاعتباطية و المحقونة عبر الاجيال, معتقدات ساعدتها أدمغة الأطفال القابلة للبرمجة بالاستمرار.

الزعماء الدينيون يعرفون جيداً نقاط الضعف في مخ الطفل و أهمية أن يُلقن باكراً. يقول اليسوعيون "أعطني طفلاً اول سبعة أعوام من عمره و سأعطيك الرجل" ليس ذلك بأي شكل أقل دقة (أو رعباً) لكونهِ اصبح شئ عادي. و في ايامنا المعاصرة فأن جيمس دوبسون, مؤسس الحركة سيئة السمعة "**ركز على عائلتك**", ليس بأقل علماً بتلك القاعدة حيث أنه يقول: "هؤلاء الذين يتحكمون بما يدرسهُ الاطفال و ما يمارسونه من معارف و مايرون و يسمعون و كيف يُفكرون و يصدقون هم الذين يحددون مسار المستقبل للامة".[1]

و لكن تذكر أقتراحي عن فائدة السذاجة في عقل الطفل هو مثال فقط عن نوعية الأشياء التي يمكن أن تشابه سلوك حشرة العث في التوجه بالقمر أو النجوم. عالم السلوك روبرت هيند في كتابهِ "**لماذا تستمر الآلِهة**" و عالم الأنسانيات باسكال بوير في كتابهِ "**تفسير الدين**" و سكوت آتران في "**في الله نحن مؤمنون**" ذكروا كلٍ على حدة فِكرة الاديان كناتج عرضي لعوامل نفسية طبيعية. و علي أن اقول هنا أنه بالنسبة لعُلماء الأنسان خاصة أنهم يهتمون بتنوع الاديان في العالم و تناقضاتها كما هو الحال بما هو مشترك بينها. و ما يجدنونه يبدو محيراً لنا و لكن ذلك فقط لانه ليس مألوفا لنا. كُل أنواع الأيمان الديني تبدو غريبة لأنسان لم يتربى داخلها. و بوير أجرى ابحاثا عن أهل الفانغ في الكاميرون, والذين يؤمنون بـــ...

> ... أن هُناكَ ساحرات بأعضاء داخلية أضافية تشبه أعضاء الحيوانات يطيرن بعيداً في الليل لتخريب محصول أناس آخرين أو تسميم دمائهم بالسموم. و قيل أيضاً أن تلك الساحرات يجتمعن على مائدة ضخمة و عليها يقررون من الضحايا و يُخططون الهجوم القادم. الكثيرين من أهل المنطقة سيقولون لك بأن أحد

1. أقتباس من بلاكر **2003, 7**

أصدقاء أصدقائِهم رأي بالفعل أحدى هذهِ الساحرات تطير فوق القرية في الليل. تجلس على ورقة شجرة موز و ترمي بالنبال السحرية على الضحايا الغافلين.

يكمل بوير هنا بنكتة حصلت معه شخصيا:

كنت أذكر هذهِ الأشياء و أشياء أخرى مثيرة في حفلة عشاء في كامبردج عندما التفت الي أحد ضيوفنا وهو من عُلماء الدين الاصلاء في كامبردج وقال: "هذا ما يجعل علم الأنسان مثيراً و صعباً. عليك أن تكون قابلا لشرح كيفية يمكن لأنسان أن يؤمنوا بأشياء بدون معنى كتلك". صُعِقتُ لهذا التصريح. لقد مضى الحديث لأمور أخرى قبل أن اتمكن من ايجاد أجابة وثيقة الصلة بموضوع الغلايات والاباريق.

لنفترض أن عالم الدين هذا من كامبردج يؤمن بالمسيحية بإتجهاهها العام أذن هو يؤمن ببعض ما يلي:

- في زمن أسلافنا ولد شخص ما لأم عذراء و بدون تدخل أي أب بيولوجي في الموضوع.
- نفس الشخص الذي بدون أب نادى شخصاً أسمه اليعازر و الذي كان ميتاً لمدة تكفي لكي تنتشر رائحة كريهة منه و اليعازر عاد فورا للحياة.
- الشخص نفسه هذا الذي لا يملك أباً عاد للحياة بعد أن مات و دفن بثلاثة ايام.
- بعدَ أربعين يوماً ظهر الأنسان الذي بدون أب على قمة تلة ثم ارتفع الى السماء بجسمهِ و أختفى.
- عندما تفكر بشئ ما بينك و بين نفسك و في رأسك فإن هذا الشخص الذي بدون أب و أبوه (و الذي هو نفسه) سوف يسمع افكارك و ربما يفعل شيئا بناء عليهم. أنه قادر على سماع أفكار كُل الناس في الارض بنفس الوقت.

- لو فعلت شيئاً سيئاً أو شيئا جيداً فإن نفس الشخص الذي ليس له أب سيرى كُل شئ, حتى لو لم يرى ذلك أي أحد آخر و ربما ستكافئ أو تعاقب بناء عليه, و هذا ينطبق على ما بعد الممات ايضاً.
- وآلدة الشخص الذي بدون اب لم تمت أبداً بل "صعِدت" بجسمها الى السماء.
- الخبز و النبيذ لو باركهما القسيس (الذي يجب أن يكون له خصيتان) "يصبحان" جسد و دم ذلك الرجل الذي بدون أب.

ماذا سيكون موقف عالم أنساني محايد عندما يصادف نوعا من ذلك الأيمان أثناء عملهِ في كامبردج و ماذا سيقول عن تلك الامور؟

الاعداد النفسي للدين

المثنوي[1] في عقولهم. و الدين بالنسبة له هو نتيجة هذهِ المثنوية الغريزية. نحن البشر و خصوصا الاطفال مثنويون من الطبيعية, حسب قولهِ.

المثنوي يعترف بالفرق الاساسي بين الروح و المادة. الوحدوي[2] على العكس من ذلك, يؤمن بأن الروح هي شكل من أشكال المادة, مثال المادة في الدماغ أو حتى كومبيوتر, و لا وجود لها خارج المادة. المثنوي يؤمن بأن الروح غير متجسدة و تسكن الجسد و ينتج عن ذلك أنهُ بإمكانه ترك الجسد و الوجود في مكان آخر. المثنوي يفسر أن ألأمرَاض العقلية هي "تلبس بالشيطان". تلك الشياطين هي عبارة عن أرواح أخرى تقطن في الجسد بشكل مؤقت لهذا يجب "أخراجها". المُثنويون يُعطون معنىً شخصياً للعناصر الفيزيائية الغير مُتحركة في أقرب فرصة و يرون الارواح الشريرة حتى في الشلالات و الغيوم.

المثنوي لا يرى شيئاً غريباً في رواية ف. آنستي عام 1882 "**العكس بالعكس**", و لكنها تبدو عالم مثير لوحدوي مُتعمق مثلي. السيد بالتيتود و أبنه يجدون بأنهما تبادلا أجسادهما بشكل ما غير معروف. الاب و لغبطة الابن عليه أن يذهب الى المدرسة في جسم الابن بينما الابن في جسد الاب يكاد يقضي على مشاريع والده بقراراتهِ الغير ناضجة. و أستعمل بي. جي. ودهاوس نفس الفكرة تقريباً في "**غاز الضحك**". عندما وقع آيرل هافرشوت و طفل من نجوم السينما تحت المُخدر في عيادة طبيب الأسنان و بعدها أستيقظا في أجساد بعضِهُما. و مرة أخرى, فإن كل هذا يبدو أمراً محتملاً بالنسبة لمثنوي. حيث يسأل المثنوي نفسهُ, لا بد أن هُناكَ شئ ما تابع لآيرل هافرشوت و الذي ليس جزئاً من جسمهِ و إلا فكيف يمكنه أن يستيقظ في جسد الطفل المُمثل؟

و كمُعظم العُلماء فأنا لستُ مثنوياً و لكن لا يمنعني ذلك من الاستمتاع بــ"**العكس بالعكس**" و غاز الضِحك. باول بلوم سيعلل ذلك بقوله بأن الوحدوية التي أنا فيها هي صفة فكرية مكتسبة و لكنني كحيوان متطور فأنني

---

1. **المثنوية** DUALISM **هو مجموعة من النظريات و الرؤى حول العلاقة بين العقل و المادة ، تبدأ هذه النظريات بالقول ان الظاهرة العقلية هي في بعض نواحيها لا–فيزيائية أو لا–جسدية. (المترجم).**
2. **الوحدوية** MONISM **هي النظرة الغيبية و الثيولوجية يأن الكل هو واحد ، أي أنه لا توجد أي أقسام أساسية يل مجموعة موحدة من القوانين تستبطن الطبيعة و تسيرها (المترجم).**

أملك الغريزة المثنوية. فكرة وجود "أنا" تسكن في مكان ما خلف عينيي و مستعدة للأنتقال من شخص لآخر على الاقل في المجال الادبي, فكرة مغروسة بعمق داخل الانسان بشكل عام, مهما كان توجهنا ذكياً نحو الوحدوية. بلوم يدعم زعمه بأدلة تجريبية عن أن الاطفال أكثر قابلية للمثنوية من البالغين, و بالخصوص الاطفال الصغار جداً. و هذا يدل على أن المثنوية صفة طبيعية موجودة من صلب الدماغ و بناء على بلوم فإنها تؤمن تأهيلا طبيعياً لتقبل الافكار الدينية.

يقترح بلوم أيضاً بأننا مؤهلون داخلياً كي نكون خلوقيين. الأنتخاب الطبيعي "ليس محسوساً بالحدس". الأطفال بالأخص أكثر ميلاً لأفتراض لكل شئ غاية, شئ تخبرنا عنه الطبيبة النفسية ديبورا كيلمان في مقالها "**هل الاطفال مؤمنون بالحدس؟**[1]". على سبيل المثال فأن الغيوم هي (لأجل المطر) الصخور المدببة موجودة (كي تستطيع الحيوانات حك جلدها بها). تعيين الغرض الوظيفي لكل شئ يسمى علم الغائية[2]. الاطفال غائيون بالفطرة و العديد لا ينمو من هذه الفكرة مع تقدم العمر.

المثنوية الفطرية و الغائية الفطرية تؤهلنا بوجود الظروف المناسبة للدين. مثنويتنا الفطرية تؤهلنا للأيمان "بروح" تقطن الجسد عوضاً عن كونها جزء من الجسد. و روح بدون جسد كتلك يمكن تخيلها بسهولة تتحرك لِمكان آخر بعد موت الجسد. و يُمكننا تخيل ألإله على أنه روح صافية و ليس كمادة مركبة لها مجموعة مواصفات مُعقدة و لكن وجود بشكل مُستقل عن المادة. أو حتى بوضوح أكثر, الغائية الطفولية تُهيؤنا للتدين. أذا كان كُل شئ له هدف, فلِمن ترجع هذهِ الاهداف؟ الله, طبعاً.

و لكن ماهو الطرف ألآخر المُفيد المُشابه للبوصلة الضوئية للعث؟ لِماذا فضلَ الانتخاب الطبيعي المثنوية و الغائية للعقل في أسلافِنا و أطفالِهم؟ حتى الآن حساباتي عن المثنوية الفطرية أفترضت أن الأنسان يلد مثنوياً غائياً بطبيعته. و لكن ما هي المصلحة الداروينية في ذلك؟ أن قدرتنا على تخمين المعاني لتصرفات الاحياء حولنا في عالمنا تُساعدنا على البقاء و أذا توقعنا

---

1 . DEBORAH KELEMAN, 'ARE CHILDREN "INTUITIVE THEISTS"?', PSYCHOLOGICAL SCIENCE 15: 5, 2004, 295–301.

2. الغائية : (TELEOLOGY) قسم من الميتافيزيقا، يقوم على مبدأ ارتباط العالم بعضه ببعض أرتباط العلّة بالغاية.

أن الانتخاب الطبيعي قد شكل عقولنا لفعل ذلك بشكل فعال و سريع. فهل يمكن أن تخدمنا مثنويتنا و غائيتنا لهذا الهدف؟ ربما نفهم تلك الفرضية بشكل أفضل في ضوء تفسيرات الفيلسوف دانييل دينيت و التي أسماها بـــ"المبدأ الغائي".

دينيت عرض طريقة مفيدة لتصنيف ثلاثي لـــ"المبادئ" التي نتخذها للفهم و بالتالي توقع تصرفات الكيانات الاخرى كالحيوانات و ألآلات أو بعضنا البعض[1]. هُناكَ المبدأ الفيزيائي و المبدأ التصميمي و المبدأ الغائي. المبدأ الفيزيائي يعمل دائماً لأن كُل شئ يتبع القوانين الفيزيائية في نهاية الأمر. و لكن أتخاذ المواقف بناءٍ على المبدأ الفيزيائي يُمكن أن يكون بطيئاً. و الوقت الذي نستغرقه ريثما نفهم كُل ردود الافعال الحركية لأشياء معقدة تتحرك سوية ربما يجعل توقعاتنا تأتي مُتأخِرة. أما بالنسبة لشئ مُصمم كالغسالة فإن المبدأ التصميمي هو مبدأ أقتصادي و طريق مُختصر للفهم و بإمكاننا أن نعرف كيف سيتصرف هذا الشئ بغض النظر عن معرفتنا بالقوانين الفيزيائية التي تسيرهُ و القفز مباشرة للغاية منه. و كما يقول دينيت:

> يمكن لاي أحد تقريباً أن يتوقع متى سيرن جرس المُنبه بمُجرد تحري بسيط من خارجهِ. و لا أحد يدري أو يهتم أن كان الجرس مُربوط بنابض و رقاص أو أنهُ يعمل بالبطارية أو الطاقة الشمسية أو مصنوع من مُسننات نحاسية أو رقائق سيليكونية, إننا نفترض أنهُ مصنوع ليرن في الوقت الذي نُعيرهُ فيه للرنين.

الأشياء الحية ليست مُصممة و لكن الأنتخاب الطبيعي الدارويني أعطاهم صفات المبدأ التصميمي. نحن نختصر الطريق لِفهم آلية عمل القلب إذا أفترضنا أنهُ (مُصمم) لِضخ الدم. لقد قاد كارل فون فيش تحريات عن رؤية النحل للألوان (في وجه النظرية المقبولة بأنهم عميان اللون) لأنه افترض أن الالوان الناصعة للزهور (مُصممة) لِجذبهم. و القوسين يقصد بها أخافة الخلوقيين الكاذبين الذين سوف يزعمون بأن عالم الحيوانات النمساوي العظيم هو أحدهم. و لا نحتاج للقول بأنه كان مُستعداً بشكل تام لترجمة المبدأ التصميمي بتعابير داروينية مناسبة.

DENNETT (1987)..1

المبدأ الغائي هو طريقٌ مُختصر آخر و أفضل من المبدأ التصميمي. تفترض أن الكيان ليس فقط مُصمماً من أجل هدف معين و لكِنهُ, أو إنهُ يحتوي, على نية أو غاية يتود أفعالهِ. فمثلاً عِندما ترى نمراً فمن ألأفضل لك أن لا تتأخر في توقع تصرفاتهِ المُحتملة. يجب عليك أن لا تهتم بفيزيائية الجزيئات التي يتكون منها و لا بتصميم أطرافهِ و أظافرهِ أو أسنانه. تلك القطة تنوي أكلك و ستستعمل أطرافها و أظافِرها و أسنانِها بطريقة مرنة و مُبدعة لإتمام غايتها. أفضل طريقة لتخمين تصرفها القادم هو بنسيان الفيزياء و تراكيبها و التوجه الى الغاية التي تسيرها الآن. و لِنتنبه هنا, فكما يصلح المبدأ التصميمي لأشياء ليست مُصممة و أشياء مصممة, فإن المبدأ الغائي يصلح للأشياء التي ليس لها غاية واعية كما يصلح في حالة الأشياء الواعية.

و يبدو مَنطقياً بشكل تام بالنسبة لي بأن المبدأ الغائي له قيمة للمساعدة على البقاء مما يجعل العقل يأخذ قرارات هامة و سريعة في الضروف الخطرة. و في أوضاع أجتماعية دقيقة. و ليست بالضرورة أن المثنوية قادمة مباشرة من المبدأ الغائي بشكل مباشر. و لن أتعمق هنا في الموضوع و لكني أعتقد أنه من المُمكن وضع نظرية عن الافكار واضحة المثنوية على أنها ناتجة عن المبدأ الغائي, خصوصاً في أوضاع أجتماعية مُعقدة بل و أكثر من ذلك عندما الغاية لها الدور الاكبر في الموضوع.

دينيت يتكلم عن الغاية الثلاثية الدرجات (الرجل يعتقد بأن المرأة تعرف أنهُ يريدها) و الرباعية (المرأة أنتَبهت الى أن الرجل يعتقد بأنها تعرف أنهُ يريدها). و حتى الخماسية (فلانٌ عرفَ بأن المرأة أنتَبهت الى أن الرجل يعتقد بأن المرأة تعرف أنهُ يريدها). الدرجات العليا من الغايات تكون محصورة على الغالب في الكتب الادبية كما في رواية ميشيل فراين "**رجال من صفيح**": حيث يبالغ بأستخدام هذه الدرجات بشدة "عندما قام ريك بملاحظة نانوبولوس عرف ريك بشكل شبه مؤكد بأن آنا أحست بإحتقار عاطفي نحو فيدلينغشايلد وعرفت أيضاً بأن نينا عرفت بما تعرفهُ عن معرفة نانوبولس بالامر..." و لكن الواقع هو أن كوننا مستعدين للضحك على هذه الاستخدامات في الادب عن تصور العقول للعقول الاخرى يقول لنا شيئاً

مُهماً عن الطريقة التي عمل بها الانتخاب الطبيعي لجعل عقولنا تعمل بهذه الطريقة في الواقع.

و على الاقل في درجاتهِ الدنيا فأن المبدأ الغائي كما في المبدأ التصميمي, يوفر لنا الوقت الذي يمكن أن يكون ثميناً جداً للبقاء. و بالنتيجة فإن الانتخاب الطبيعي شكل العقل ليُمكِنه أستعمال المبدأ الغائي كطريق مختصر. نحنُ مُبرمجون تركيبياً لنسب الغايات للكائنات التي يهُمنا تصرفها. و مرة أخرى, بول بلوم أقتبس أثباتات تجريبية بأن الاطفال بشكل خاص يميلون لتبني المبدأ الغائي. عندما يرى الاطفال شيئاً يتبع شيئاً آخر (على شاشة كومبيوتر مثلا) فإنهم يعتبرون أنهم يرون مطاردة بين عناصر لها غاية فيما تفعل, و يبدو ذلك واضحاً من خلال دهشتهم عندما لا يتابع أحد العناصر المتخيلة تلك المطاردة المتخيلة.

المبدأ التصميمي و الغائي آليات عقلية ثمينة و مهمة لِتسريع عملية توقع تصرفات الكيانات الاخرى فيما هو ضروري للبقاء, كما هو الحال في الحيوانات المفترسة أو شريك الحياة المُحتمل. و لكن و كأي آلية دماغية أخرى, بإمكان هذا المبدأ أن يُخطئ اهدافهُ. الاطفال مثلاً و الناس البسطاء ينسبون غاية معينة للظواهر الجوية و للامواج و التيارات و الصخور المُتساقطة. كُلنا مُعرضين لنفس ألأمرَ فيما يتعلق بالآلات و خصوصاً عندما يُخيُبون ظننا. العديدون مِنا يتذكر اليوم الذي تعطلت فيه سيارة باسيل فاولتي خلال مُهمتهُ الهامة لأنقاذ الأمسية من مُصيبة كُبرى. باسيل أعطى سيارتهُ تحذيراً و عدّ حتى الثلاثة و بعد ذلك خرج من السيارة و أخذ غِصن شجرة و حطمها و هي في آخر ايامها. كلنا مررنا في مواقف كتلك و لو حتى للحظات مع كومبيوتر أن لم يكن مع سيارة. و قد أعطى جوستين باريت لهذه الظاهرة المختصر (HADD[1]). حيث تفتعل عقولنا أشياء واعية لا وجود لها اساساً. و هذا ما يجعلنا نفترض وجود شر أو خير في الحوادث الطبيعية بينما الطبيعة تسير مجراها بدون أدنى أهتمام. و أرى نفسي في بعض الاحيان أكظم غيظي تجاه شئ لا يُفترض أن يلام مثل جنزير دراجتي الهوائية. و هناك تقرير مُحزن عن رجل تعثر برباط حذائه المفكوف في متحف فيتزويليامز في كامبردج, وقع على الدرج و كسر ثلاث فازات لا

1 . HYPERAKTIVT AGENT DETECTION DEVICE.

تُقدر بثمن من ايام مملكة كنغ: "وقع بين الفازات و تكسروا لملايين الشظايا. كان لا يزال يجلس مصعوقا عندما قدم الموظفون اليه. كلهم وقفوا في سكون كما في صدمة, و الرجل يشير بإصبعه لِرباط حذائه قائلا: هذا هو, هذا هو المذنب. [1]

تفاسير أخرى عن الدين كناتج عرضي تم طرحها من هايند و شيرمر و بوير و آتران و بلوم و دينيت و كيليمان وغيرهم. هُناكَ عرض فاتن من دينيت يقول بأن اللاعقلانية الدينية هي ناتج عرضي عن آلية غير عقلانية موجودة في الدماغ: وهي رغبتنا المُفيدة جينيا في الوقوع في الحُبّ.

ذكرت المتخصصة في علم الانسان هيلين فيشر في كتابها "**لماذا نحُبّ**", و بشكل جميل عن جنون الحُبّ الرومانسي و كيف يبدو بلا حدود مقارنة مع ما نعتقدهُ مهم جداً. أنظر للموضوع بالشكل التالي. من وجهة نظر الرجل فإنه ليس من الممكن أن تكون أي امرأة في محيطهِ محبوبة بمائة مرة أكثر من المرأة التي تأتي تنافسها, و لكن هذا ما يصفها به في الغالب عندما يكون "واقعاً في الحُبّ". و عوضاً عن الاخلاص لشريك الحياة الاوحد الذي أغلبنا متأثر بهِ فإن نوعا من "التعددية" يبدو أكثر عقلانية هنا. (التعددية هو الاعتقاد أن الأنسان يمكن أن يحُبّ أكثر من شخص واحد من الجنس ألآخر في وقت واحد, تماما كما هو الحال الاعجاب بانواع متعددة من النبيذ و المؤلفين الموسيقيين أو الكتب أو الرياضة). نحن نقبل بسرور قدرتنا على محبة أكثر من طِفل و ولي أمر و أخوة و أساتذة و أصدقاء أو حيوانات اليفة. عندما تفكر بهذا الشكل الا يبدو أن الحُبّ للشريك أستثنائيا بشكل غريب؟ برغم ذلك فإن ذلك ما نتوقعه, و هذا ما نحن عليه و نريد تحقيقه. لابد من سبب لذلك.

هيلين فيشر و آخرون شرحوا بأن الوقوع في الحُبّ يُرافقه وضع خاص للدماغ, يتضمن ذلك تواجد عناصر كيميائية عصبية (في الواقع مخدرات طبيعية) و تلك العناصر خاصة جداً بتلك الحالات. عُلماء النفس التطوريون يوافقون معها على أن تلك الجرعة اللاعقلانية يمكن أن تكون لضمان الاخلاص لشريك الحياة و العائلة في المستقبل و لمدة تكفي لرعاية طفل لفترة معينة معاً. من وجهة نظر داروينية فإنه من المُهم و بدون شك أختيار

1 . GUARDIAN, 31 JAN. 2006.

شريك جيد لعدة أسباب. و لكن عندما يقع الاختيار ,حتى الخاطئ, و يحصل الحمل فإنه من الأهم الالتزام بذلك الاختيار على الحلوة و المرة. على الاقل حتى يتم فطام الطفل.

هل يمكن أن يكون الدين اللامنطقي ناتج عرضي للآليات اللاعقلانية التي بنيت في الدماغ بالانتخاب الطبيعي للوقوع في الحُبّ؟ أن الأيمان الديني بالتأكيد يشبه في بعض ملامِحهِ الوقوع في الحُبّ (والاثنان لديهما نفس الأعراض الناتجة عن تأثير مُخدرات مسببة للادمان). عالم النفس العصبي جون سميثيس ينبهنا من أنه هُناكَ فروق واضحة في مواقع الدماغ التي تتفاعل في كلتا الحالتين على الرغم من ذلك فإن هُناكَ بعض التشابهات:

احد مظاهر الدين هو الحُبّ العنيف المُركز على الشخصية الماوراء الطبيعية مثل الله, بالاضافة لأحترام الايقونات (و ما يتعلق بها) لتلك الشخصية. حياة الأنسان محكومة بشكل كبير بجيناتنا الأنانية و عملية الدعم. و كثير من الدعم الايجابي يأتي من الدين: المشاعر المُطمئنة و الدافئة عن كونك محبوباً و محميا من المخاطر في العالم, و الغاء الخوف من الموت و المساعدة السماوية كجواب على الصلوات في الاوقات الصعبة..الخ. و بنفس الطريقة فإن الحُبّ تجاه شخص ما (من الجنس ألآخر عادة) يؤدي لنفس التركيز العنيف على ألآخر و ما يلحقه من دعم أيجابي. هذهِ المشاعر يمكن أن تقدح من أيقونات الآخر مثل الرسائل و الصور بل و حتى, كما في العصر الفكتوري, خصل من الشعر. حالة الوقوع في الحُبّ ترافقها تغيرات في الجسد عديدة مثل التنهد العميق.[1]

عملت مقارنة بين الوقوع في الحُبّ والدين عام 1993 عندما أشرت الى أن الفرد المُصاب بالتدين تشبه أعراضهُ بشكل مذهل أعراض الآخرين المرافقة للحب. و تلك قوة فعالة جداً في الدماغ و ليس من المُفاجئ أن بعض الفيروسات قد تطورت لِتستغلها (الفيروسات هنا مجازية و تعني الاديان: لان

1. سميثيس 2006.

عنوان مقالي وقتها كان "فيروس الفكر"). و رؤية القديسة تيريزا الافيلية أشهر من أن نحتاج لذكرها هنا. و الاكثر جدية من ذلك و على مستوى اقل من الهمجية الحسية فإن الفيلسوف آنثوني كيني يعرض لنا أعترافاً يهز العواطف عن السرور الصافي الذي ينتظر الذين استطاعوا الأيمان بسر التحول الجوهري[1]. بعد أن وصف ترسيمهُ ككاهن رومي كاثوليكي حيث يقوم مجموعة من القسان بوضع يديهم عليه بطقس حاص, يستعرض لنا ما يذكرهُ و لا يزال حياً في مخيلته:

> من الحماس الذي كنت عليه وقتها حيث كانت الاشهر الاولى لي حيما حق لي قيادة القداس. عادة كنت كسولا في النهوض من الفراش, لكن وقتها بدأتُ أستيقظ مملوءاً بالحيوية و ألاثارة لِمُجرد التفكير بقوة الدور الذي أعطيت الامتياز للقيام به...
>
> أن ألمس جسد المسيح و تلك القربة بين القسيس و المسيح هي التي سحرتني أكثر من أي شئ آخر. أمعن النظر في خبز القربان بعد كلمات التكريس, كعيون عاشق ينظر في عيني حبيبتهُ... تلك الايام الاولى لي كقسيس تبقى في ذاكرتي كأيام الامتلاء و الارتعاش بالسعادة, شي ثمين, و في نفس الوقت أهشٌ جداً مِن أن يدوم, مثل حالة عشق ساخنة تتاثرت بزواج غير متوافق.

ما يشابه البوصلة الضوئية لحشرة العث هو ما يبدو لاعقلانيا و لكن مُفيداً في حالة الوقوع في الحُبّ مع شخص واحد فقط من الجنس الاخر. الخطأ العرضي الناتج, و المساو لطيران العث بإتجاه لهب الشمعة, هو الوقوع في الحُب مع يهوه (أو العذراء أو الرب أو الله) و القيام بتصرفات لاعقلانية مدفوعة بذلك الحُبّ.

في كتابهِ "**المستحيلات الستة قبل الافطار**[2]" يقترح عالم الطبيعة لويس ولبرت ما يمكن رؤيته بشكل عام في فكرة اللاعقلانية البناءة. و النقطة التي ينوه لها هي أن القناعة القوية بشئ لاعقلاني هي حماية للعقل من التقلب الروحي: "لو

---

1. **سر التحول الجوهري هو معتقد مسيحي كاثوليكي يقول بتحول النبيذ و خبز القربان المقدس الى جسد و دم المسيح بالجوهر مع أحتفاظها بصفاتها الأساسية التي كانت تحملها من البداية. (المترجم).**

2. SIX IMPOSSIBLE THINGS BEFORE BREAKFAST, LEWIS WOLPERT.

لم يُمجد الأيمان الذي تسبب في إنقاذ حياة العديدين لتسبب بالضرر للأنسان القديم. حيث سيكون من المُضر كثيراً على سبيل المثال أن يغير الشخص رأيه عند الصيد أو صناعة الادوات". الخلاصة التي يصل اليها ولبرت في حُجتهِ هي, على الاقل تحت ظروف معينة, سيكون من ألأفضل التمسك بأيمان لاعقلاني عوضاً عن التأرجح حتى لو ظهرت أدلة جديدة أو استنتاجات تدعو للتغيير. من السهل أن نرى موضوع "الوقوع في الحُبّ" كحالة خاصة, و من السهل رؤية العلاقة بين حالة "الوقوع في الحب" الخاصة و حالة ولبرت "الاصرار اللاعقلاني" كلميول نفسية مهمة تشرح لنا بعض السمات المهمة للسلوك الديني اللاعقلاني: كناتج عرضي آخر.

و في كِتابهِ "**التطور الاجتماعي**[1]" يتوسع روبرت تريفرس في شرح نظرية التطور في خداع النفس عام 1976. خداع النفس هو:

> أخفاء الحقيقة عن العقل الواعي هي الطريقة ألأفضل لأخفائها عن الآخرين. في جنسنا نتعرف على العينين الحائرتين و الكفين المتعرقين و الصوت المتهدج كعلامات تدل على العصبية المُرافقة لمحاولة الخداع. المُخادع يمكنه أن يُخفي تلك الاشارات من الشخص الذي يُراقبه عندما لايكون واعياً بنفسهِ للخُدعة, و بالتالي يصبح قادراً على الكذب بدون عصبية .؟

العالم الانساني ليونيل تيغر يقول شيئا مُشابهاً في كتابة "**التفاؤل: طبيعة الامل**[2]". و نرى ما ناقشناه لتونا عن العلاقة بين اللاعقلانية المُفيدة في مقطع عن "الدفاع الادراكي":

> هناك ميل في الأنسان لرؤية ما يريد رؤيتهُ. و لديهم بكل ما تعنيه الكلمة صعوبة في رؤية الأمور ذات الطابع السلبي و سهولة متزايدة في رؤية الامور الايجابية. مثلاً فأن الكلمات التي تشعرنا بالقلق, سواء كانت لأمور تتعلق بخبرة شخصية أو في حالة أجراء تجربة, هذهِ الكلمات يجب علينا التأكيد عليها قبل تقبلها.

---

1 . SOCIAL EVOLUTION, ROBERT TRIVERS.
2 . OPTIMISM: THE BIOLOGI OF HOPE, LIONER TIGER.

ولا نحتاج للأشارة على العلاقة القائمة بين هذا و أفكار التمني التي يقدمها الدين.

النظرية العامة عن الدين كناتج عرضي, كشي مُفيد أخطأ الهدف, هو الذي أُريد أن أؤكد عليه. التفاصيل مُتغيرة و معقدة و قابلة للنقاش. للتوضيح ساستمر بإستعمال نظريتي عن "الطفل البسيط" كممثل لما نطلق عليه نظرية "الناتج العرضي" على العموم. تلك النظرية, التي تقول بأن دماغ الطفل "لأسباب مفيدة" يُمكن أن يكون ضحية عدوى "لفيروس" عقلي, سوف تبدو لبعض القراء بأنها ليست كاملة. ربما يكون العقل مؤهلا ليكون ضحية .. حسناً. و لكن لماذا العدوى بذلك الفيروس و ليس الاخر؟ هل بعض الفيروسات لديها قدرة أكبر على غزو العقل الساذج؟ لماذا "العدوى" تظهر على شكل دين عوضاً عن ...... عن ماذا؟. ما أريد قوله هنا هو أن نوع اللامنطقية التي يصاب بها عقل الطفل ليس مهماً. و عندما يًصاب سيكبر و يعدي الجيل القادم بنفس اللامنطقية, مهما كان نوعها.

وجهة نظر علم إنسانية أتحفنا بها فرايزر و المسماة "الغصن الذهبي" تحتوي على الكثير من انواع الأيمان اللاعقلاني. و عندما يطرأ أحدها ثقافة ما فإنه يستمر و يتطور و يتحول, بطريقة تذكرنا بالتطور الطبيعي. و لكن فرايزر لهُ رؤيا خاصة في تلك بعض المبادئ العامة. كمثال فإن "العلاج السحري", حيث التعاويذ و العزائم تستخدم بعض رموز عن أشياء في العالم الحقيقي و التي يراد التأثير عليها. و من أمثلة ذلك الاعتقاد ذات النتائج المأساوية بأن البودرة المعمولة من قرن حيوان وحيد القرن لديها مفعول المقوي الجنسي لان القرن يُشبه القضيب الذكري المُنتصب. و الحقيقة أن أنتَشار "العلاجات السحرية" يفرض الاقتراح بأن اللاعقلانية التي تصيب العقول الساذجة ليست عشوائية تماماً.

يبدو من المُغري مواصلة البحث بالموضوع فيما إذا كان هُناكَ ما يُشابه التطور بالانتخاب الطبيعي. هل بعض الافكار أكثر قابلية للانتشار من الأخرى لجوهرها أم لأستحقاقها أو لِتماشيها مع الميول النفسية الرائجة حينها, و هل يشرح هذا طبيعة الأديان و صِفاتها كما نراها الآن بطريقة

مشابهة لتلك التي تشرح الحياة العضوية بوآسطة الانتخاب الطبيعي؟ من المُهم أن نميز بأن "الاستحقاق" هنا يعني القدرة على البقاء و الانتشار. و لا تعني الحُكم باستحقاق لقيم أيجابية, كشئ يجعلنا فخورين به كبشر.

ليس من الضروري أن يكون هُناكَ أنتَخاب طبيعي أيجابي. يُدرك عُلماء الطبيعة بأن أنتَشار مورث ما ممكن أن ينتشر في جنس ما فقط لِمجرد كونه محظوظ و ليس لأنهُ جيد. و نُسمي هذا بالانجراف الوراثي. و أهميته مُقارنة بالانتخاب الطبيعي لاتزال موضع جدال. و لكنها الآن مقبولة على نطاق واسع في علم الجينات الجزيئية المدعوة بالنظرية الحيادية. لو قام مورث بالنسخ الى شكل ثاني و لكن بتأثير مطابق لهُ تماماً فإن الفرق حيادي, و الأنتخاب الطبيعي لن يفضل أحدهما على الآخر. على الرغم من ذلك و بالاخذ بعين الاعتبار ما يسمى من قبل الاحصائيين بالأخطاء العينية عبر الاجيال فإن المورث بصورتهِ المُعدلة يمكن أن يحل محل المورث الاصلي في مجموعة المورثات. و هذا تغيير تطوري على المستوى الجزيئي (حتى لو لم يكن هُناكَ تغير مُلاحظ في الجنس بشكل عام). ذلك تطور محايد لا علاقة له بأختيار المورثات الافضل ابداً.

المُقابل الثقافي للأنجراف الوراثي خيار مُقنع لا نستطيع أهمالهُ عند الحديث عن تطور الدين. اللغة تتطور بشكل شبيه للتطور الطبيعي و الأتجاهات التي تتطور بها تبدو بأتجاهات غير مُحددة تماماً كما هو الحال في حالة الأنجراف الوراثي. حيث يتم نقلها بصورة الحضارات بصورة مشابهة للمورثات و تتغير ببطء عبر القرون حتى تصل الى مرحلة لا تستطيع بها الفروع المختلفة التفاهم فيما بينها. من الممكن أن يكون بعض التطور لِلُغات محكوم بشكل من اشكال الانتخاب الطبيعي و لكن الحجة لا تبدو تستحق المتابعة. و سأشرح لاحقا بأن أفكاراً كهذهِ طُرحت في مواضيع الأتجاهات الرئيسية في أختلاف اللغات, كما هو الحال في التغير الكبير في الصوتيات الذي حصل في اللغة الانكليزية بين القرنين الخامس عشر و الثامن عشر. و لكن فرضية كهذه لا تشرح بالضرورة كل ما نراه غالِباً. و يبدو مُحتملا أن اللغات تطورت بما يشبه الأنجراف الوراثي العشوائي. و في أقسام مختلفة في أوروبا تطورت اللاتينية لتصبح لغة أسبانية و برتغالية و أيطالية و فرنسية و

رومانية أضافة للعديد من اللهجات لتلك اللغات. و لا يبدو أبداً أن هُناكَ أي فوائد واضحة لتلك التغيرات التطورية أو أي نوع من "الضغط الانتخابي".

و أنا أنطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل عشوائي من بدايات غير مُحددة, و ذلك خَلَقَ الغِنى المُحير, و الخطير أحياناً, لتعدديتها التي نلاحظها. في نفس الوقت من المُمكن أن شكلاً من أشكال الأنتخاب الطبيعي, متوافقاً مع القواعد الاساسية لِعلم النفس البشري, يؤمن لنا أديان تحتوي على قواسم مُشتركة. الكثير من الاديان, على سبيل المِثال, تعطينا تعاليم غير قابلة للتصديق موضوعياً و لكنها بشكل شخصي جذابة مثل أن شخصياتنا تستمر بالحياة بعد موتنا الجسدي. فكرة الخلود هنا سوف تحيا و تنتشر لأنها تُغذي أفكار الانسان التي يتمناها. و تلك الاحلام لها أعتبارها لان النفسية البشرية لديها, و على درجة عالية و عالمياً, ميول لتصديق أحلامها.

يبدو أنهُ ليسَ هُناكَ من شك بأن العديد من موآصفات الدين مؤهلة بشكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسه و بالتالي البقاء لتلك المواصفات في خليط الثقافات الأنسانية. السؤآل الذي يطرح نفسهُ الآن هو فيما إذا كان هذا التأهيل قد تم الحُصول عليه بـــ"التصميم ذكي" أو أنه نتيجة الأنتَخاب الطبيعي. ربما يكون الجواب مزيجاً من الاثنين. التصميم من طرف حيث القيادات الدينية قادرة بشكل تام على صياغة تلك الافكار التي أدت لِبقاء الدين بشكل فعال. مارتن لوثر عرف بشكل جيد بأن العقلانية كانت هي عدو الديني الاعظم و قد حذرَ مِنها مرارا: "العقلانية هي العدو الأكبر للأيمان و لا يُمكن أن تساعد في الامور الروحانية و لكن تنافي في مُعظم الاحيان الكلام المقدس و تحتقر كُل ما ينبثق من الاله"[1]. و في قول آخر: "منْ يُريد أن يكون مؤمناً عليه يقلع عيون عقلهِ بعيداً". و آخر: "العقلانية يجب تدميرها لدى كُل المؤمنين". لم يكن لدي لوثر أي صعوبة في خلق لسمات لاعقلانية تساعد الدين على البقاء. و لكن هذا لا يعني أنه, أو أي أحد آخر, قد صمم ذلك. من المُمكن أن ذلك تطور بشكل (غير وراثي) بالانتخاب الطبيعي, حيث لوثر نفسهُ لم يكن المُصمم و لكن مجرد ملاحظ ذكي لها.

1. HTTP://JMM.AAA.NET.AU/ARTICLES/14223.HTM

برغم أن الداروينة التقليدية في أختيار المورثات ربما تفضل المورثات التي تُعطي ميلاً نفسياً للدين كناتج عرضي فإنه من غير المُحتمل بشكل كبير بأنها شكلت التفاصيل. لقد نوهت بأنه لو كنا سنطبق شكلاً ما من أشكال نظرية الانتخاب على هذهِ التفاصيل, فإن علينا أن لا ننظر للمورثات و أنما ما يقابلها في الحياة الثقافية. فهل الدين منتوج له نفس خواص الميمات.[1]

تقدم بهدوء، أنك تدوس على ميماتي

و النُقطة التي نتكلم عنها هي داروينية هنا. أصناف المُستنسِخات التي شائت الصدف و كانت جيدة لتُضاعِفَ نفسها و يزداد عددها على حساب المُستنسِخات الأخرى التي جودتها أقل في التضاعف. ذلك هو الشرح الاولي لِلأنتخاب الطبيعي. المُستنسِخ هنا هو المُورثة, شريط للـــ DNA يتضاعف, وبدقة بالغة و على أجيال لا عدد لها. السؤآل المركزي في نظرية الميمات هي عما إذا كان هُناكَ وحدات ثقافية تقليدية تسلك سُلوك المُستنسِخات, مثل المُورثات. لا أقول هنا أن الميمات هي بالضرورة متشابهة مع المورثات, أقول فقط بأنهُ كُلما أقتربت الميمات شبهاً بالمورثات فإن النظرية تعمل بشكل أفضل. و السؤآل هنا هو فيما إذا كان بإمكان نظرية الميمات أن تعمل في تلك الحالة الخاصة المسماة بالدين.

في عالم المُورثات تعمل الأخطاء في النسخ (الطفرات) على أيجاد مورثات بديلة (أليل) في بنك المورثات كبدائل لكل مورثة, حينها نراهم في حالة تنافس مع بعض. تنافس بعضها على ماذا؟ على المكان الخاص للمُورثة في الصبغة الوراثية و الذي من حق هذا الصنف من الأليل. و كيف يتنافسون؟ ليس بمعركة بين الجزئ و الجزئ ألآخر بل بواسطة وكلاء. الوكلاء هم الزوائد الزعنفية, أشياء مثل طول الرجلين أو الفرو الملون: مظهر المورثة يظهر للخارج على شكل تشريحي و كيمياء حيوي أو سلوكي. و مصير المورثة مرتبط بالاجسام الذي يرتبط بها بنظام. و الطريقة التي تؤثر فيها المورثة على هذهِ الاجسام تؤثر على فرص بقائها في بنك المورثات. فيما بعد مرور الأجيال يكثر تواتر المورثات أو يقل في بنك المورثات بحسب قدرة وكلائها من الزوائد الزعنفية.

هل ينطبق نفس الشئ على الميمات؟ من ناحية فأنهم ليسوا أبداً كالمورثات لأنهُم لا يملكون ما يقابل الصبغات الوراثية و لا مواقع لتلك الصبغات أو أليلات أو أعادة تركيب من خلال الجنس. بنك الميمات أقل تنظيماً و ترتيباً من مجموعة المورثات. برغم ذلك, فليس من السخف الكلام عن البنك الميمي و التي يكون لبعضها "تواتر" مُتغير كنتيجة للتفاعل بين ميمات بديلة.

البعض يتحفظ على التفسيرات الميماتية و لأسباب مُختلفة تبنى غالِباً على أن الميمات ليس تماما كالمورثات. التركيب الفيزيائي للمورثات معروف (سلسلة

الــDNA) و تركيب الميمات ليس معروفاً, الميمات المُختلفة تنتقل من وسط فيزيائي لآخر. هل توجد الميمات في الدماغ فقط؟ أو أن كُل نسخة ورقية أو الكترونية لقصيدة فكاهية يحق لنا تسميتها بالــ"ميمة"؟ و مرة أخرى تتنضاعف الجينات بدقة عالية جداً بينما فيما لو تضاعفت الميمات, ألن تفعل ذلك بدقة هابطة جداً؟

تلك المشاكل المزعومة عن الميمات مبالغ بها الى حدٌ ما. و أهم اعتراض عليها هو الزعم بأن الميمات لا تنسخ بدقة عالية بالنسبة لوظيفتها كناسخ دارويني. الأشتباه كالتالي, لو أن "نسبة الطفرات" في الميمات كانت عالية (دقة منخفضة في النسخ) فإن الميمات ستتغير بشكل يقضي عليها قبل أن يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يؤثر على ذبذباتها في بنك الميمات. و لكن تلك المشكلة وهمية. فكر بمُعلم النجارة أو حَجّار من قبل التأريخ وهو يستعرض المهارات للصانع الشاب الذي سيخلفه. لو أن الخليفة قلد بأمانة كُل حركة يدوية للمعلم سنتوقع بكل تأكيد أن الميمات ستتغير بشكل لا يُمكن التعرف عليها بعد عدد قليل من "الاجيال" بين المعلم و الصانع. و لكن الصانع بالطبع لن يحاول تأدية نفس الحركات اليدوية. ذلك سيبدو سخيفاً. عوضا عن ذلك سيُلاحظ الهدف الذي يُحاول المُعلم أن يُحققه ويقلد ذلك. أنه يدق المِسمار حتى يصبح الرأس على مستوى مع لوح الخشب و لايهم عدد ضربات المطرقة, و التي ربما ليس بنفس عدد ضربات المُعلم. تلك هي القواعد التي يمكن أن تعبر خلال الاجيال بدون تغييرات و لا يهم كون طريقة التصرف مُختلفة بشكل ما من شخص لآخر و من حالة لأخرى. عدد الشكات في التطريز و عدد العُقد في شبكة الصيد و طريقة طي الالعاب الورقية و الخُدع المُفيدة في النجارة: كُل ذلك يُمكن أختِزالهِ لِعدة عناصر و التي ستكون لها فرصة المرور عبر الاجيال المُتلاحقة عبر التقليد بدون تغيير. رُبما تختلف التفاصيل و لكن الخلاصة ستمرر بدون تغيير و هذا كُل ما نحتاجه في عملنا على المقارنة بين الميمات و المورثات.

في مقدمتي التي ارسلتها الى سوزان بلاكسميث "**ماكينة الميمات**"[1] طورتُ مِثالاً عن طريقة طي الورق في عمل نموذج من الجنك الصيني. الوصفة كانت مُعقدة. و لها أثنان و ثلاثون خطوة عملية طي (او ماشابه). النتيجة

1 . THE MEME MACHINE, SUSAN BLACKMORES.

النهائية كانت نموذجا ظريفاً و كذلك كان ظريفا في ثلاث خِطوات خلال الفترة "الجنينية" وهي "الرمث" و"الصندوق مع غطاء مضاعف" و "برواز اللوحة". العملية تذكرني بالتأكيد بالطيات التي تحصل في الاغشية الجنينية خلال مراحل تطورها من شكل لآخر. تعلمتُ عمل الجنك الصيني في طفولتي و ذلك من أبي و الذي تعلمها بدورهِ عِندما كان في نفس العمر من أقرانهِ في المدرسة. لعبة الجنك الصيني بدأتها أحدى المشرفات في مدرسة والدي حينها. ثم أنتَشهر الهوس في المدرسة بالجنك الصيني كما ينتشر المرض المُعدي ثم مات الهوس كما ينتهي المرض المعدي أيضاً. و بعد ست و عشرين عاماً و بعد أن ماتت المُشرِفة تلك بزمن طويل بدأتُ أنا في المدرسة ذاتِها. و نشرت الهوس مرة أخرى و أنتشر مرة أخرى, أيضاً كمرض معد و مات بعد ذلك مرة أخرى. أن الواقع بأن مهارات كتِلك تنتشر بهذا الشكل يقول لنا شيئا عن أمانة النسخ في الميمات. و بإمكاننا الفرض بأن الجنك الذي صنعة أقران والدي في العشرينات في تلك المدرسة ليس مُختلفا عن الذي صنعناه نحن بشكل عام في الخمسينات.

نستطيع تفحص الظاهر بصورة أكثر منهجية من خِلال التجربة التالية, أشبه بلعبة الهمس في الاذان. خذ مائتا شخص من الذين لا يملكون اي خبرة عن الجنك الصيني و قسمهم الى عشرون فريقاً بعشرة أشخاص في كل فريق. أجمع رئيس كل فريق حولك و أرهم كيف يصنعون لعبة الجنك الصيني الورقية. أرسل هؤلاء الآن الى الشخص الثاني في الفريق ليعلمه بمفرده طريقة عمل الجنك الصيني من خلال أستعراض طريقة العمل. هؤلاء الاشخاص "الجيل الثاني" بدورهم يعلمون الشخص الثالث كلٌ في مجموعتهِ و هكذا الى أن يتعلم الشخص العاشر في كل مجموعة طريقة عمل الجنك الصيني. قم بجمع الجنكات التي تم عملها في كل فريق و قم بتعليمها مع أسم الفريق و رقم "الجيل" الذي تم صنعه فيها كي تستطيع مراقبتها لاحقاً.

حتى الآن لم أطبق التجربة على أرض الوقع(شخصياً أرغب بتجربتها), لكنني بالرغم من هذا فأنا متأكد من النتيجة. توقعاتي تقول بأنهُ لن ينجح الجميع في نقل الخبرة متكاملة حتى العضو العاشر في كل مجموعة. لكن عدد معين منهم سيقوم بذلك. في بعض الفرق ستظهر بعض الاخطاء. حلقة ضعيفة في السلسلة ربما تنسى خطوة مهمة و كل الافراد بعدهُ سيفشلون

بالمهمة بسببهِ طبعاً. الفريق رقم 4 ربما سينجح بالوصول الى المرحلة "الجنينية", لكنهُ يفشل فيما بعد. العضو الثامن في الفريق رقم 13 قد يحصل على "طفرة" حين يحين دوره. ثم يقوم العضو التاسع و العاشر أستنساخ هذه الطفرة الى أعمالهم.

الآن سأجري توقعات جديدة بخصوص الفرق التي نجحت في نقل الخبرة بنجاح حتى العضو العاشر فيها. أذا قمنا بترتيب الجنكات حسب التلسل الجيلي فأننا لا نرى أي هبوط على المستوى النوعي لكل جيل. أذا قمنا بأعادة نفس التجربة أعلاه تماماً و لكن الخبرة المطلوب نقلها هي ليست طي الورق و لكن أستنساخ لوحة لهذا الجنك الصيني, سنحصل حينها و بشكل مؤكد و بصورة منتظمة هبوط في دقة نقل الشكل في اللوحة من الجيل الاول الى الجيل العاشر.

في التجربة الثانية تحصل جميع الرسوم من الجيل العاشر على درجة مِن الشبه من اللوحة في الجيل الأول. في كُل فريق فأن الجودة تهبط بصورة أكثر أو أقل منتظمة خلال الاجيال. في تجربة الطي فأن الموقف مرتبط بخيارين هما أما النجاح او الفشل التام: الاخطاء تصبح "طفرات رقمية". أما أن لا تحصل أي أخطاء في الفريق و الجنك الصيني في الجيل العاشر يصبح مشابه تماماً للجنك في الجيل الخامس أو الاول. أو أن تكون هناك "طفرة" في جيل معين و كل المحاولات بعدهِ تلد ميتة, تماماً مثل الكثير من الحالات حيث يتم أستنساخ الطفرات بكل أمانة.

ماهو الفرق الجوهري بين تِلكَ المهارتين؟ هل مهارة الطي تحتوي على سلسة من الأفعال المنفصلة و ليس أي منها صعب التنفيذ. في الغالب العمليات تكون مشابهة لـــ: "أطوي طرفي الورقة نحو الوسط". و عضو معين في الفريق رُبما يجد صعوبة في تنفيذ خطوة ما و لكن سيكون واضحا للعضو التالي ما يُريد فعله. و بالتالي فأن خطى لعبة الطي فيها شئ من "التطبيع الذاتي", و ذلك ما يجعلها "رقمية" بطبيعتها. تماما كما هو الحال مع النجار و صانعهُ الذي هدفه يبدو واضحاً عن دق المِسمار بغض النظر عن التفاصيل في عدد ضربات المِطرقة. أما يفهم الشخص الخطوة كاملة أو لا. و على العكس من ذلك فإن الرسم هو مهارة تناظرية و ليست رقمية. الكُل

يستطيع تقليد الرسوم و لكن البعض يفعلها أفضل من الآخرين. و لا أحد ينقل الرسم بأمانة كاملة. الدقة في النسخ تعتمد أيضاً على الوقت و الحِرص على الانتاج الجيد و تِلك أيضاً مُتغيرات. و بعض أعضاء الفريق ربما "يُحسِنون" الرسم بدلا من مجرد نسخ النموذج السابق.

على الاقل فأن الكلمات عندما تكون مفهومة فأنها ذاتية التطبيع بنفس الطريقة التي تعمل بها لعبة طي الورق. و في لعبة الهمس فتُروى قصة أو عبارة للطفل الاول و يُطلب منه أن يمررها للطفل التالي, و هكذا. و عِندما تكون العبارة أقل من سبع كلمات في اللغة المحكية لكُل الاطفال فهُناك فرصة جيدة أن تبقى العبارة بدون تحوير لعشرة أجيال. و عندما تكون بلغة أجنبية غير معروفة بحيث أن الأطفال مُجبرون على التقليد الصوتي بدلاً مِن الكلمات, فإن العبارة الاولى لن تبقى. و التدهور عبر الاجيال مُشابه للرسم و ستتعقد أيضاً. عندما تكون العبارة لها معنى باللغة الام للاطفال و لا تحتوي على كلمات مُقعدة مثل "أنماط زعنفية" أو ما شابهها فإنها تبقى. و عِوضاً عن محاولة تقليد الصوت النمطي, فإن كُل طفل يتعرف على كُل كلمة كعضو في مجموعة المفردات النهائية و يختار الكلِمة نفسها, ربما ملفوظة بطريقة مُختلفة غالِباً, عندما يريد تمريرها للطفل التالي. و اللغة المكتوبة أيضاً لها نفس مميزة التطبيع الذاتي لانه مهما كان الخط مُختلفا بميوله فإن هُناكَ عدداً محدودا من الاحرف على سبيل المثال 28, مهما أختلفت مواصفاتهم.

أن تُظهر الميمات هذه الأمانة العالية في النقل بناء على قدرتها في التطبيع الذاتي يكفي للاجابة عن بعض التساؤلات و الرد على أكثر الاعتراضات شيوعاً في موضوع التناظر بين المورثات و الميمات. و على أية حال, أن الغرض من نظرية الميمات في هذا الطور المُبكر هو ليس لأعطاء تفسير مُفصل لنظرية التطور الثقافية مقابلة لنظرية المورثات لواطسون و كريك. غرضي الرئيسي هنا في الدفاع عن الميمات كان بالطبع لأثبات فكرة بأن المورثات ليست الظاهرة الداروينية الوحيدة التي لدينا, فكرة خاطرت بها في كتابي "**الجين الاناني**" و الذي نجح في أيصالها. لقد أكد هذه الفكرة بيتر ريشرسون و روبرت بويد على النقطة في كتابهم القيم و الفكري "**ليس بالجينات وحدها**", بالرغم مِن أنهما تطرقا لعدم تبني كلمة "ميمة" بذاتها و مُفضلين عليها كلمة "المتغيرات الثقافية". و كتاب ستيفان شينان "**جينات,**

ميمات, و تأريخ الأنسان" الذي تم أستيحائهُ من كتاب أقدم لبويد وريشرسون, "**الثقافة وعملية التطور**". كتب أخرى تتناول الميمات مثل كتاب روبرت أونغر "**الميمة الكهربائية**", و كات ديستين "**الميمة الانانية**" و كتاب "**فيروسات العقل: علم الميمات الجديد**" للكاتب ريتشارد برودي.

و لكن تجدر الاشارة الى أن سوزان بلاكمور في كتابها "**ماكنة الميمات**" هي التي دفعت نظرية الميمات الى الوجود أكثر من أي أحد آخر. أعطتنا مرة تلو الاخرى صورة خيالية عن عالم ملئ بالادمغة (أو أي وسط أو قناة أخرى, كالحواسيب أو أمواج الراديو) و الميمات تتدافع لأحتلالها. كمورثة في بنك المورثات, و الميمات التي تنجح هي الميمات التي تستطيع أن تنسخ نفسها بحيوية. قد يكون السبب كون الميم بحد ذاتهِ جذاباً كما في حالة فكرة الخلود لدى البعض. أو ربما لانها تزدهر في وسط من الميمات الأخرى التي أصبح عددها كبيراً في بنك الميمات. و هنا تنشأ ألأنظمة الميمية المركبة. و كالعادة في الميمات, فإننا نستطيع دائماً فهمها بالعودة لنظيرها في الوراثة الطبيعية.

لغرض تعليمي بحت تناولت موضوع المورثات و كأنها وحدات منعزلة و تتصرف بشكل مُستقل. و لكن بالطبع أنها ليست مُستقلة عن بعضها, و هذا واضح من خلال نقطتين. الاولى, المورثات مصفوفة بشكل خطي على خيوط الصبغات الوراثية, و تميل للتحرك معاً عِبر الاجيال بمُرافقة المورثات المجاورة لها على تلك الصبغات. و نحنُ الاطباء ندعوا ذلك الترابط, بالترابط, و لن اقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع لأن الميمات ليس لها صبغات أو أليلات أو أعادة دمج جنسي كالمورثات. و النقطة الثانية التي يختلف فيها الميم تماما عن المورثات, و هنا لدينا مثال قياسي للميمات. و تتعلق بعلم الاجنة الذي هو علم مختلف تماماً علم الوراثة (و هذا أعتقاد خاطئ شائع عادة بالدمج بينهما). ألأجسام ليست مصفوفة كقطع الموزائيك و كل مورثة لها مهمة وينتمي خاصة بها. ليس هُناكَ ما يربط كل مورثة بعضو أو سُلوك معين في التركيب الأحيائي. كل مورثة تتعاون مع مئات أخرى من المورثات لبرمجة العملية التطويرية التي تظهر في الجسد, بنفس الطريقة التي تشترك فيها كلمات وصفة في كتاب طبخ لتظهر بعد ذلك في الطبق. كُل كلمة في الوصفة لا تقابل لقمة مُعينة في الطبق.

أذن تشترك المورثات بشكل مجاميع تعاونية لبناء الاجسام, و هذا أحد اهم مبادئ علم الاجنة. و مِن المُغري القول بأن الانتخاب الطبيعي يُرشح بعض أنواع المجاميع كشكل من اشكال الانتخاب الجمعي بين المجاميع المختلفة. و هذا شئ يبدو محيراً. في الواقع ما يحصل أن المورثات الأخرى في بنك المورثات عبارة عن جزء كبير من الوسط الذي تُختار فيه المورثات و تُهمل أخرى. لأن كُل مورثة يتم أختيارها كي تكون ناجحة بوجود المورثات الاخرى في مجموعتها, الذين أختيروا أيضاً بنفس الطريقة, و بذلك تظهر ظاهرة المجاميع التعاونية. و يبدو أن لدينا هنا شئ أشبه بالسوق الحُرة عوضاً عن خطة أقتصادية. هُناكَ اللحام و الخباز و لكن هُناكَ وضيفة شاغرة لصُناع التُحف. تلك اليد الخفية للأنتخاب الطبيعي تملأ الفراغ هنا. و هذا شئ مختلف لو كان هناك جهة تخطيط مركزية و التي تُفضل الثلاثي لحام + خباز + صانع التُحف. أن فكرة اليد الخفية التي تشكل هذا المجاميع ستكون مركزية في فهمنا لميمات الدين وتفسير طريقة عملهم.

مجاميع تعاونية مُختفلة للمورثات تظهر في بنك المورثات. بنك الحيوانات المفترسة فيه مورثات تبرمج الحواس لاكتشاف الفريسة و مخالب للأمساك بها و أسنان قاطعة لعلك اللحم و أنزيمات لهضم اللحم و مورثات كثيرة أخرى, كلها مُعيرة بشكل دقيق كي تعمل معاً. و في نفس الوقت ففي بنك المورثات للحيوانات آكلة النباتية توجد مجموعات مُختلفة من المورثات التي يتم تفضيلها للعمل المتبادل مع بعضها. الفكرة التي نعرفها هي أن المورثات يتم تفضيلها بسبب تطابقها مع الظروف الخارجية في الوسط المحيط للكائن الحي: مثل الصحراء أو الغابات أو غيره. و النقطة التي أود التنويه لها هنا هو أن المورثة يتم تفضيلها أيضاً لتطابقها مع مورثات أخرى في بنك المورثات الخاص بها. و المورثة لحيوان مفترس لن تبقى و تستمر في بنك النباتيات, و العكس بالعكس. و على المدى الطويل يتكون بنك المورثات لكائنٍ ما, وهو مجموعة المورثات خلطت مراراً و تكراراً عن طريق التكاثر الجنسي, الذي يتألف من بيئة وراثية حيث يتم أختيار كل مورثة لقدرتها على التعاون. و بالرغم أن بنك الميمات أقل تنظيماً و تخطيطاً مِن بنك المورثات, إلا اننا نستطيع التكلم عن بنك الميمات كـــ"بيئة" مهمة لأي ميمة في النظام الميمي المركب.

النظام الميمي المركب هو عبارة عن مجموعة من الميمات التي لن تنجح على الاغلب بالبقاء بالأعتماد على قدراتِها فقط, لكنها تُصبح قادرة على ذلك بوجود أعضاء آخرين في النظام المركب هذا. في الفقرة السابقة كُنت قد شككت بأن تفاصيل لغة ما و تطورها سيتم تفضيلهُ من قِبل أي نوع من الانتخاب الطبيعي. و أقترحت أن تطور اللغة محكوم بانجراف عشوائي. من البديهي أن بعض الأحرف الصوتية تصل لمسافات أبعد من غيرها في المناطق الجبلية, و لذلك فربما أصبحت خواص للغة المحكية المحلية لمناطق مثل سويسرا و التبت و غيرها. بينما أحرف أخرى تكون أفضل للهمس في الغابات الكثيفة و بذلك تُصبح من خواص لغات الأمازون و ما شابه. و المِثال الوحيد الذي أستشهدت به عن أن اللغات تخضع للانتخاب الطبيعي, (نظرية تطور الاحرف الصوتية بسبب فعاليتها) ليس من هذا النوع. و لكنه ناتج عن ميمات التي تجد لنفسها موقعاً جيداً في نظام ميمي مركب. أحد الاحرف الصوتية يتغير في الاول و لِسبب غير معلوم, ربما لتقليد أحد الاشخاص المُهمين أو المحبوبين, كما يقال عن اللثغة الاسبانية. كيفما بدأ الانجارف اللغوي فأنه بالأعتماداً على تلك النظرية عِند تغير الحرف الاول تتبعه أحرف أخرى مثل عربات القطار لِتقلل من سوء الفهم, و بإستمرار. و في هذهِ المرحلة من العملية أختيرت الميمات من بنوك الميمات الموجودة مسبقاً, و بنيت منها مجموعة ميمات مركبة جديدة.

و الآن لدينا ما يكفي من المعلومات لِتطبيق نظرية الميمات على الأديان. مِن المُمكن تصور أنهُ بعض الافكار الدينية, مثلها مِثل بعض الموروثات, تستمر لانها تستحق ذلك. و تلك الميمات ستبقى في أي بنك ميمي, بغض النظر عن الميمات التي حولها. (أكرر مرة ثانية على أن "الاستحقاق" في هذا السياق لا تعني أبداً وجود قيمة ما للفكرة نفسها و أنما فقط "لقدرتها على البقاء في البنك"). و بعض الافكار الدينية تبقى لأنها متكاملة مع ميمات أخرى متعددة في البنك الميمي كجزء من مجموعة ميمات مركبة. فيما يلي قائمة لبعض الميمات التي يبدو أن لها قدرة على البقاء في البنك الميمي, لأستحقاقها أو بسبب تطابقها و تماشيها مع ميمات اخرى في مجاميع ميمية مركبة:

- ستحيا بعد موتك

- لو مت شهيداً فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمتع بإثنين و سبعين حورية عذراء (فكر قليلا بالعذراوات المساكين).
- الزنادقة و الكفار و المرتدين يجب قتلهم (او معاقبتهم بشكل آخر مثلا تبرء عائلاتهم منهم)
- الأيمان بالله هو أهم عبادة. و عندما تجد بأن أيمانك يهتز عليك العمل بجد لترميمه و أطلب من الله أن يساعدك في ذلك. (في مناقشتي لرهان باسكال نوهت على أنه من المحير أن الله يريدنا حقاً أن نؤمن به. وقتها كان الموضوع عن الادلة و ألآن اصبح لدينا شرح لذلك)
- الأيمان (الأقرار بدون أدلة) عبادة. و كُلما كان أيمانك يُنافي الادلة كلما كان أيمانك اكبر. المؤمنون المميزون يطورون قُدرات على الأيمان بأشياء غريبة لا أساس لها و لا يُمكن أن يكون لها اساس عند مواجهة الادلة, هؤلاء لهم أجر عظيم.
- الجميع و حتى هؤلاء الذين بدون معتقدات دينية, يجب عليهم بشكل مباشر و بدون أي تساؤل أحترام هذه الاشكال من الأيمان (ناقشنا ذلك في الفصل الاول).
- هناك حقيقة أشياء غريبة (مثل الثالوث المُقدس و القيامة و الصعود للسماء) و التي لم نُخلق لِفهمِها. لا تحاول فهمها اساساً لأن مُحاولة فهمها ربما تهدمها. تعلم كيفية قبولها فقط بوصفها بالأشياء الغامضة. تذكر ما قالهُ لوثر بخصوص العقلانية و تخيل كيف سيساعد هذا على الابقاء على مثل هذه الميمات.
- الموسيقا الجميلة و الفن و ألآداب هي في واقعها رموز ناقلة للافكار الدينية.[1]

هناك بعض الظواهر من اللائحة السابقة مما لهُ قيمة مُطلقة للبقاء و سيزدهر في أي تجمع ميماتي مُركب. و لكن و كما هو الحال في المورثات فإن بعض الميمات تبقى فقط على خلفية وجودها مع ميمات مناسبة أخرى, و النتيجة تؤدي الى بناء عدة مجاميع ميمية مركبة بديلة. دينان مُختلفان مثلاً يُمكن أن

1. الفنون بمدارسها و أنواعها المختلفة ممكن أعتبارها مجاميع ميمية مركبة, حيث الفنانون الجدد يقومون بأستنساخ أعمال الرواد و أفكارهم. الافكار الجديدة تستطيع البقاء فقط أذا أستطاعت التأقلم مع البقية. كل هذا البناء الاكاديمي المنظم من تأريخ الفن مع كل ما يملكه من رغبة جامحة في البحث عن الايقونات و الرموز من مختلف الاشكال, من الممكن دراسته كمثال حي للمجاميع الميمية المركبة. بعض التفاصيل ممكن ان تنتشر او تنتهي بسبب علاقتها بأعضاء البنك الميمي التي تنتمي له. غالباً ما يكون للميمات الدينية مكان هنا.

يكونا بدائل بعض لمجاميع ميمية مركبة. و رُبما كانت الميمات الاسلامية نظيراً لِمورثات آكلة اللحوم, و البوذية تشابه النباتيات. الفكرة هي أنهُ ليسَ أحد الدينين بأفضل من الآخر بمعنى ما مُطلق, تماماً كما هو الحال في أن آكلات اللحوم ليست "أفضل" من النباتيات. الميمات الدينية من هذا النوع لا تحتاج الى قدرتها الذاتية للبقاء, و لكن من جهة أخرى, فإنهم يزدهرون مع ميمات أخرى من نفس دينهم, و ليس بوجود ميمات من الدين الآخر. و تبعاً لذلك النموذج, فالروم الكاثوليك و الأسلام مثلاً لم يُصمما من قِبل أفراد, و لكن تطورا بشكل مُستقل كبدائل من الميمات التي ازدهرت برفقة أعضاء أخرى من نفس مجموعة الميمية المركبة.

الأديان المُنظمة يقوم عليها أشخاص: قسس و مطارين و حاخامات و أئمة و آيات الله. و لكن, و مرة أخرى للتأكيد على النقطة التي أُريد توضيحها عن مارتن لوثر, ذلك لا يعني بأنها مصممة أو مخلوقة من الأفراد. حتى في حالة أستغلال الدين و معالجته لمصلحة بعض الأفراد فإن الامكانية القوية تبقى بأن تفاصيل كُل دين قد شذبت بطريقة تطورية لاواعية. ليس بالأنتخاب الطبيعي الوراثي و الذي هو بطئ جداً ليكون سبباً في التطور السريع و المُتنوع للاديان. و دور الانتخاب الطبيعي الوراثي يقتصر على تأمين الدماغ بكل ميوله و أنحيازه, كالجهاز و البرنامج البدائي و الذي يخلق الخلفية للأنتخاب الميمي. و بهذه الخلفية يبدو لي أن الانتخاب الطبيعي بشكل ما يؤمن تفاصيل التطور لدين ما بصورة معقولة. في الاطوار البدائية من تطور الدين و قبل أن يُصبح مُنظماً, تدين الميمات ببقائها لقيمتها المُستقلة و جاذبيتها من الناحية النفسية البشرية. و هُنا تلتقي نظريتيّ الميمات الدينية و الدين كناتج عرضي نفسي. و في المراحل اللاحقة, حيث يصبح الدين مُنظما و مدروساً و مُميزاً عن الاديان الاخرى, تشرح بشكل جيد نظرية المجاميع الميمية المركبة و المتميزات من الميمات المتكاملة. ذلك لا يُلغي الدور ألآخر الذي يلعبه القس و الآخرون لتطويع الدين لمصالحهم. الاديان كما يبدو ولو بجزء ما مُصممة بذكاء, كما هو الحال في المدارس و الموضة في الفن.

الدين الوحيد الذي صُمم كلياً و بشكل مقصود بذكاء هو السينتولوجي[1], و لكني أشكُ بأنه حالة أستثنائية. و المثال ألآخر عن الدين المُصمم كلياً هو المورمون. جوزيف سميث, العبقري الكاذب الذي أخترعه ذهب لحد تأليف كِتاب مُقدس جديد بشكل كامل **(كتاب المورمون)** الف تأريخاً مُزيفا لأمريكا كتبه بلغة انجليزية مُزيفة تعود للقرن السابع عشر. و لكن المورمونية على أية حال تطورت مُنذ زمن صناعتها في القرن التاسع عشر و أصبحت أحد أديان أمريكا التي تعتبر رئيسية, بالطبع, تدعي أنها الديانة الاسرع أنتَشاراً, و هُناك بعض الشائعات عن مُرشح للرئاسة ألأمرَيكية ممن ينتمون اليها.[2]

معظم الاديان تطورت. ومهما كانت نظرية تطور الاديان, فعليها أن تستطيع تفسير السرعة الهائلة للعملية التي تطور فيها الدين, بوجود الظروف المؤاتية, تستطيع الاديان الازدهار. و في مايلي حالة مدروسة.

طائفة شحنات البضائع

مصدري الرئيسي عن طائفة شحنات البضائع هو **دافيد آتينبوروغ** في كِتابه "**السعي في الجنة**"[1]. و الذي تلطف بأهدائهِ لي. النمط نفسه للجميع من أقدم طائفة في القرن التاسع عشر حتى الطوائف الاكثر شهرة و التي نمت في بعد أحداث الحرب العالمية الثانية. و يبدو أنه في جميع الحالات فقد انبهر أهل الجُزُر بروعة أملاك المهاجرين البيض الذين قدموا لجُزرهم من ضمنهم حتى الموظفين و الجنود و المُبشرين. ربما أنهم كانوا ضحية قانون كلارك الثالث و الذي نوهت عنه في الفصل الثاني: "أي تقنية مُتقدمة بشكل كاف لا يُمكن تمييزها عن السحر".

أهل الجزيرة لاحظوا بأن البيض الذين يتمتعون بتلك العجائب لم يصنعوها بأنفسهم أبداً. و عِندما يحتاج شئ ما للاصلاح فإنه يُرسل لِمكان آخر و أشياء أخرى أستمرت بالقدوم في "شُحنات" البواخر, و بعدها بالطائرات. لم يُشاهد رجل أبيض يصنع أو يُصلح شيئا البتة و لا حتى فعلوا أي شئ مما يُمكن أعتباره عملاً مفيداً من أي نوع (الجلوس خلف المكتب و اللعب بأوراق بدا واضحاً بأنه نوع من الطقس الديني). من الواضح أذن بأن "الشحنة" يجب أن تكون ذات أصل غير عادي. و لتعزيز تلك الفكرة, فإن البيض يقومون بأشياء لا يُمكن تفسيرها الا بأنها طقوس دينية:

> يبنون سواري مع حبال مُعلقة بها و يجلسون يستمعون لِصنايدق صغيرة يتوهج منها ضوء و تشع ضجة مُثيرة للفضول و أصوات بشرية خافتة, أقنعوا السكان المحليين بأرتداء زي موحد و المشي في صف مُنتظم ذهاباً و أياباً, من الصعب التفكير بشئ أقل فائدة من ذلك. و بعدها لاحظ السُكان المحليون أنهم وصلوا للجواب على السؤآل الغامض. تلك التصرفات الغير مفهومة هي الطقوس التي يستعملها البيض لأغراء ألآلهة ليُرسلوا الشحنات. و لو أراد المحليون الحصول على شحنة بضائع فإن عليهم فعل ذات الشئ.

من المُلفت للنظر بأن طوائف شحنات البضائع المتشابهة ظهرت بشكل مُستقل و في جُزر متباعدة جغرافياً و ثقافياً. دافيد آتينبوروغ يقص علينا بأن...

1. QUEST IN PARADISE, DAVID ATTENBOROUGH.

عُلماء الأنسان تمكنوا من ملاحظة عوارض لحالتين مختلفتين ظهرت في كاليدونيا الجديدة, اربعة جزر في بحر السالمون و أربعة في فيوجي و سبعة في هيبريد الجديدة و حوالي خمسين في غويانا الجديدة, الغالبية كانت مُستقلة و ليس هُناكَ عِلاقة بين أحداها و الأخرى. غالبية تلك الأديان تتدعي بأن هُناكَ مُخلِصاً ما سيأتي بشُحنة في يوم القيامة الموعود.

أن أزدهار العديد من الطوائف المتماثلة و المستقلة بنفس الوقت يقترح علينا بعض الأمور المشتركة عن النفسية الأنسانية بشكل عام.

أحد الطوائف المشهورة في جزيرة تانا في هيبريد الجديدة (المعروفة باسم فانواتو منذ عام 1980) لايزال موجوداً. تدور حول مُبشر يُسمى جون فروم. هُناكَ ذكر لجون فروم في سجلات الدولة الانكليزية يعود لـــ 1940 و بالرغم صغر عمر الاسطورة عنه فلا أحد يعرف أن كان شخصاً حقيقياً. أحد الاساطير تصفه كرجل قصير بصوت حاد و شعر مُصفف يلبس مُعطفا بأزرار لامعة. أصدر العديد من النبوءات الغريبة و تكبد مشاقا ليقلب الناس ضد المبشرين. و في ألآخر عاد الى الاسلاف بعد أن وعد بعودة ظافرة مع شُحنة عظيمة. و رؤيته عنه القيامة تتضمن "كارثة عظيمة, جبال تسطح و وديان تمتلى و العجائز سيستعيدون صباهم و ألأمرَاض ستختفي و البيض سيطردون من الجزيرة بدون عودة و شحنة ستصل بكميات كبيرة بحيث أن كُل واحد سيحصل على كُل ما يريد.

أكثر ما يُقلق الحكومة هو أن جون فروم تنبأ بأنه عند عودته سيحضر معهُ عُملة جديدة, تحمل صورة جوزة الهند. و لِذلك فإنه على السكان المحليين أن يتخلصوا من كُل العُملة الخاصة بالرجل الابيض. في عام 1941 أدى ذلك لحصول موجة شراء فاقت كل التوقعات. الجميع توقف عن العمل و تضرر أقتصاد الجزيرة بشكل جاد. و أدارة ألأحتِلال سجنت زعماء الحركة و لكن لاشئ نفع للقضاء على الطائفة و هجر الناس الكنائس و المدارس.

بعد ذلك بفترة قصيرة نشأ تلقين جديد بأن جون فروم هو ملك أمريكا. و بحكمته أرسل فرق جيش أمريكية الى جزر هيبريد الجديدة, و أعجب العجائب حصل, لقد كان بينهم رجال سود و لم يكونوا فقراء كأهل الجزيرة أنفسهم و لكن:

> يملكون من الاشياء تماما كما هو الحال في الجنود البيض. و أثارة عارمة اجتاحت الجزيرة المسماة تانا. لقد أقترب يوم القيامة. و بدا بأن كُل شخص يُحضر نفسه لوصول جون فروم. أحد القادة قال بأن جون فروم سيأتي من أمريكا بطائرة و بدأ المئات من الرجال بتنظيف الاحراش في مركز الجزيرة حتى يكون هُناكَ مهبط للطائرة.

و المهبط له برج مُراقبة مصنوع من قصب البامبو و فيه "مُراقب للحركة الجوية" يلبس سماعات رأس مُزيفة مصنوعة من الخشب. و عبارة (طائرة) رسمت على "المهبط" لتعريف طائرة جون فروم بمكان هبوطها.

في عام 1950 أبحر دافيد آتينبوروغ الشاب الى تانا مع مُصور أسمهُ جيفري موليغان لتحري موضوع طائفة جون فروم. و جدوا العديد من الادلة على الدين و تعرفوا في ألآخر على الكاهن الأعلى, رجل اسمه نامباس. نامباس يدعي بأنه يتكلم مع جون بشكل منتظم بواسطة "الراديو". و هذا (الراديو الخاص بجون) عبارة عن أمرأة عجوز مع سلك كهربائي يلف خصرها تصاب بحالة هلوسة و تتكلم بصورة غير مترابطة, و نامباس يُفسر هذا بأنها كلمات جون فروم. نامباس يدعي بأنه عرف مُسبقا بقدوم آتينبورو لرؤيته لأن جون أخبره بذلك بـــ "الراديو". آتينبوروغ طلب أن يرى "الراديو" و لكن طلبه رُفض (و هذا مفهوم طبعاً). و تغير الموضوع و سأل نامباس عما إذا كان قد رأي جون فروم:

> نامباس هز رأسه بالايجاب بشكل مؤكد. "أنا يرى جون كثير مرة"
> "كيف هو شكله؟"
> أشار نامباس بأصبعه علي. "هو يشبه أنتَ. هو لهُ وجه أبيض, هو رجل طويل, هو يعيش في أمريكا جنوبية"

تلك التفاصيل تناقض الاسطورة عن أن جون فروم كان قصير القامة و هذه أحدى الطرق التي تتطور بها الاساطير.

من الامور المُسلم بها بأن عودة جون فروم ستكون في الخامس عشر من شباط فبراير, و لكن ليس من المعروف في أي عام. و في 15 شباط من كُل عام يجتمع أتباعه لأحتفال ديني للترحيب بقدومه. و حتى الآن لم يعد و لكنهم لم ييأسوا. دافيد آتينبوروغ قال لأحد أفراد الطائفة, واسمه سام:

> و لكن يا سام, لقد مضى تسعة عشرَ عاماً منذ الوقت الذي قال فيه جون أن الشحنة ستصل. لقد وعد و وعد و لكن الشحنة لم تصل بعد. اليست تسعة عشر عاماً وقتا طويلا للانتظار؟
> سام رفع عينيه من الارض و نظر الي قائلا: اذا كنت أنت تستطيع الانتظار لألفي عام حتى يعود المسيح و لم يعد, فأنا أذن أستطيع أنتَظار جون أكثر من 19 عاما.

روبيرت بوكمان في كتابه "**هل بإستطاعتنا أن نكون صالحين بدون الاله؟**"[1] يقتبس تماماً نفس الرد السريع و المُدهش لصانع جون فروم, و لكن هذه المرة لصُحفي كندي بعد حوالي أربعين عاماً من لقاء آتينبوروغ.

الملكة اليزابيث و الأمير فيليب زارا المنطقة عام 1974 و بالنتيجة تم رفع الامير الى مرتبة الاله على نموذج جون فروم (مرة اخرى لاحظ السرعة التي تتطور بها تفاصيل الدين و تتغير) الامير رجل وسيم و بهندام عسكري أبيض أنيق وخوذة مُريشة و ليس مفاجئاً بأنه و ليس الملكة قد حصل على هذا السمو بتلك الطريقة, و ذلك بعيداً عن تقاليد أهل الجزيرة و التي تستصعب وجود أنثى الهية.

لا أريد أن أعطي طوئف الشحن الكثير من الاهمية. و لكنهم يُقدمون لنا مثالا ساحراً حديثاً عن الطريقة التي تنشأ بها الاديان من العدم تقريباً. و الأهم أن ذلك يعطينا أربعة دروس عن اصول الدين بشكل عام, و سأستعرضهم بشكل

1 . CAN WE BE GOOD WITHOUT GOD, ROBERT BUCKMAN.

مقتضب هنا. الاول هو السرعة الهائلة التي تنشأ بها طائفة ما. الثاني هو السرعة التي تمحي بها الفكرة الاصلية آثارها. أن جون فروم, على فرض أنهُ وجد حقاً, قد فعل ذلك في مرحلة الذاكرة الحية. و لكن حتى بتلك الآونة الحديثة من التأريخ فإنه من غير المؤكد انه قد وجد أساساً. الدرس الثالث ناخذه من الظهور المُستقل لطوائف مُتماثلة في جزر متباعدة. و الدراسة المنظمة للتشابهات تعطينا نظرة عن قدرة الأنسان النفسية و أستعدادها للتدين. الدرس الرابع, طوائف شحنات البضائع متشابهة, ليس فقط مع بعضها و لكن من الاديان القديمة كالمسيحية التي أنتَشرت عالمياً و رُبما بدأت بطائفة محلية مثل طائفة جون فروم. و بالتأكيد, فإن بعض الدارسين مثل غيزا فيرميس, بروفيسور في الدراسات اليهودية في أوكسفورد يقترح بأن المسيح كان واحِداً من العديد من الشخصيات المؤثرة التي ظهرت في فلسطين في وقتها, و محاطة بالعديد من الاساطير المُشابهة. العديد من تلك الطوائف أندثرت و التي بقيت في رأيه هي التي نراها حتى اليوم. و بمرور القرون شُحِذت بتطورات (أنتخاب ميماتي, لو أردت التعبير عنها بهذا الشكل) لتشكل نموذجاً مُعقداً (أو نماذج أحفاد مختلفة من نفس السلف) و التي سيطرت على مناطق واسعة من العالم اليوم. أن موت شخصية مؤثرة في العالم الحديث مثل هيلا سيلاسي, آلفس برسلي والاميرة ديانا يُعطينا فرصاً أخرى لدراسة النشوء السريع للطوائف و ظواهر تطور ميماتها.

هذا كُل ما أردت أن أقوله عن أصل الاديان, عدا عن فاصل صغير في الفصل العاشر حينها ساناقش ظاهرة طفولية تعرف بأسم "الصديق الخيالي" تحت عنوان "الحاجات" النفسية التي يوفرها الدين.

مِن المتعارف عليه أن الأخلاق تأتي من الدين و في الفصل التالي سأناقش وجهة النظر تلك. و سأحاجج بأن الأخلاق بحد ذاتها هي موضوع دارويني. تماماً كما كان سوآلنا سابقا: ماهي القيمة الداروينية للبقاء التي يقدمها الدين؟ نستطيع طرح السؤآل نفسه عن الأخلاق. الأخلاق بدون شك سبقت الاديان. و كما أعدنا صياغة السؤآل بالنسبة للدين, سنفعل نفس الشئ و ربما نجد أن الأخلاق ربما كانت ناتج عرضي لشئ آخر.

الفصل السادس

الكثير من المُتدينين يجدون صعوبة في تصور كيف أنهُ يُمكن للمرء أن يكون صالحاً بدون دين, أو حتى كيف يُمكن أن يريد أحد أن يكون ذلك بدونه. سأناقش ذلك السؤآل في هذا الفصل. و لكن الشك يمضي لأبعد من ذلك و يقود بعض المُتدينين لنوبات كراهية ضد من لا يقاسمونهم معتقداتهم. و هذا مُهم لأعتبارات أخلاقية تختبئ وراء مواقف دينية أزاء مواضيع أخرى لا علاقة لها بالأخلاق. معظم الأعتراضات على تدريس التطور ليس لها علاقة بالنظرية نفسها أو بأي شئ علمي آخر و لكنها تتسبب في غضب أخلاقي. و تمتد من القول الساذج "لو درست أطفالك بأنهم تطوروا من القرود فيستصرفون كالقرود" و تنتهي بالاسلوب الرفيع الذي يقبع خلفه هدف محدد يعرف بستراتيجية الأسفين الخاص بـــ"التصميم الذكي" الذي تم تعريتهُ بدون رحمة من قبل باربرا فورست و باول كروس في كتاب "**حصان طروادة للخلوقيين: الأسفين من التصميم الذكي**".

يصلني عدد كبير من الرسائل من كثير من قرائي[1] مُعظمهم حماسي و مشجع و البعض ناقد بشكل نافع و قلة من الرسائل القذرة و حتى الشريرة. و الاكثر قذارة و أأسف للقول أنهم بشكل عام و تقريباً بلا أستثناء بدافع ديني. الاشخاص الذين يتم أعتبارهم أعداء للدين يتم عادة التعامل معهم بهذه الطريقة. و هذه, على سبيل المثال, رسالة نُشرت على الانترنت موجهة لبريان فيلمينغ, كاتب و مُخرج الفيلم "**ألإله الذي لم يكن هُناكَ**"[2]. فلم يدعوا للإلحاد بصدق. عنوان الرسالة "**لتحترق بينما نحن نضحك**" و تأريخها 21 كانون الاول 2005 جاء فيها ما يلي:

> أن تجرؤ على هذا. أود أن أبقر بطونكم بسكين و أصرخ من الفرح عندما تقع أحشائكم أمامكم. أنتم تحاولون أشعال حرب مقدسة حتى نستطيع أنا و آخرين مثلي في يوم مشهود نحصل على شرف عمل ما نوهت لهُ؟

و حتى هنا لاتبدوا الرسالة بلغة مسيحية و يبدو أن الكاتب تأخر في معرفة ذلك و لذلك فهو يتابع بشكل أكثر تسامحاً:

---

1. **أكثر مما أتمنى أنني أستطيع الاجابة عليهم بمثل ما يستحقون, الشئ الذي يدعوني للأعتذار فعلاً.**
2. **هذا الفلم الرائع تستطيع ان تشاهدة على** .HTTP://WWW.THEGODMOVIE.COM/INDEX.PHP

و لكن الله علمنا ان لا نسعى للأنتقام بل أن نُصلي لكل من هو مثلك

و لكن يبدو أن لغة التسامح تموت بسرعة:

> سأجد الراحة في معرفة أن عقاب الله سيكون 1000 مرة أبشع من أي شئ أستطيع فعله أنا. و أفضل ما هنالك هو أنك ستتعذب للابد لتلك الذنوب التي تتجاهلها تماماً. أنتَقام الله لا يرحم أحد. و لأجلك, أتمنى أن تتضح الحقيقة لك قبل أن تبدأ السكين بتقطيعك.
> أعياد ميلاد سعيدة.
> ملاحظة: أنت و أصدقائك ليس لديكم أي معلومة عم ينتظرك..
> اشكر الله انني لستُ منكم.

أجد أنه من المحير بصدق أن مجرد اختلاف في رأي ديني يمكن أن يولد حقداً كهذا. و اليكم مثالاً آخر (الكلمات ذاتها) من جعبة الرسائل لمحرر مجلة التفكير الحر لهذا العصر, نشرت من قبل مؤسسة الحرية من الاديان و التي تشن حملات سلمية ضد الحركات المضادة لقانون فصل الدين عن الدولة:

> مرحب يا آكلي الجبن التافهون. نحنُ المسيحيون الاغلبية الفائقة مقارنة بكم أيها الخاسرون. لن يكون هُناكَ فصل للكنيسة عن الدولة و ستخسرون ايها الكفرة...

ماهو موضوع الجبن؟ بعض الاصدقاء ألأمريكان أقترحوا أن لذلك علاقة بالولاية الحرة و يسكانسون, موطن مؤسسة الحرية من الاديان و كذلك مركز لصناعة الجبن الامريكي, و لكن من المؤكد أن هُناكَ سبب آخر لذلك؟ و ماذا عن الفرنسيين "اكلي الجبن و هاربين كالقرود"؟ ما هي الرمزية للجبن؟ لنكمل:

> يا أتفه عبدة الشيطان... مت و أذهب للجحيم... آمل أن يصيبك وباء مؤلم مثل سرطان المخرج و تموت ببطء و ألم حتى تلاقي

> الهك الشيطان... أيها الغبي أن تلك الحرية من الدين لهي شئ مُقرف... و لذلك أيها الشواذ و العاهرات إهدأوا و أنتبهوا لان الله سيأخذكم في اليوم الذي لن تتوقعونه... إذا كنتم لاتحُبون هذهِ البلاد و الأسس التي بنيت عليها فاخرجوا بحق الجحيم منها و اذهبوا الى جهنم.
> ملاحظة: يا عواهر الشيوعيون... خذوا مؤخراتكم السوداء الى خارج الولايات المتحدة... ليس لكم ما تفعلونه هنا. أن الخليقة هي أكثر من دليل كاف على القدرة المطلقة التي يملكها ألإله عيسى المسيح.

لماذا ليست القوة المطلقة لله؟ أو السيد براهما؟ أو حتى يهوه؟

> نحن لن نهدأ. و لو تطلب ألأمرَ في المستقبل أستعمال القوة تذكروا أنكم أنتَم من بدأتم. بندقيتي ملقمة.

لا أستطيع التوقف عن التساؤل, لماذا يحتاج الله لكل هذا الدفاع بتلك الطريقة الشرسة؟ رُبما على المرء أن يفكر بأن الله يستطيع تدبر أمرهُ بنفسه. خذ بالاعتبار أن المُحرر الذي تعرض للتهديد بهذا الشكل الشرس ليس الا سيدة مُهذبة و لطيفة جداً.

رُبما لأنني لا أعيش في أمريكا فإن مُعظم بريد الكراهية الذي اتلقاه ليس بذلك المستوى و لكنها أيضاً لا تستعرض كرم الأخلاق الذي يفترض أن مؤسس المسيحية تميز به. و ما يلي هو رسالة من طبيب بريطاني مؤرخة في آيار 2005, و رغم أنها مملوئة بالكراهية لكنها تبدو لي و كأنها مملوءة بالعذاب أكثر منها الغبث و توحي لنا بوضوح موضوع تأصل الأخلاق و تأصل العداوة نحو الإلحاد. بعد شئ من المقدمات تُسلخ فيها نظرية التطور سلخاً (و السؤآل بسخرية عما إذا كان "العبد الاسود" هو جزء من العملية لا يزال قيد التطور) و الهزء بداروين شخصياً و الاقتباس المزور من هاكسلي على أنهُ مُعادي للتطور و تشجيعي على قراءة كتاب (قرأته) و الذي يحاجج بأن العالم عمره 8000 سنة (هل يمكن أن يكون حقا طبيب؟) ومن ثم يستنتج ان:

كتبك و منصبك في أكسفورد و كُل ما تحُبّ في هذهِ الحياة و كل ما حققته لا يعدو كونه شيئا من العبث... سؤال كامو المحرج يبدو لا مهرب منه هنا: لماذا لا ننتحر جميعاً؟ فلسفتك الحياتية لها بالتأكيد تأثير على الطلاب و الكثير من الاخرين... بأننا تطورنا بمحض صدفة عمياء من لاشئ و سنعود للّلاشئ. حتى لو كانت الاديان ليست صحيحة فإنه من ألأفضل كثيراً أن نؤمن بالاساطير مثل افلاطون إذا كانت تؤدي لراحة البال في الحياة. و لكن فلسفتك تؤدي للعجز و أستعمال المُخدرات و العُنف و الوثنية و العبثية و الى علوم مرعبة و جهنم حمراء على الارض و الحرب العالمية الثالثة... أتساءل عن مدى سعادتك في علاقاتك الشخصية؟ هل أنتَ مُطلق؟ أرمل؟ شاذ؟ منْ هم مثلك ليسوا سعداء مُطلقاً أو انهم يحاولون جاهدين أن يبرهنوا أنهُ ليس هُناكَ سعادة أو معنى لاي شئ.

الموقف في تلك الرسالة كذلك اللهجة ليس الا أحد الأمثِلة الكثيرة. يؤمن هذا الشخص بأن الداروينية عبارة عن عبثية عدمية و أننا تطورنا بصُدفة عمياء (و للمرة المليون أكرر بأن الانتخاب الطبيعي هو تماماً عكس الصدفة) و أننا سنعود للعدم بعد موتنا. و كنتيجة مباشرة للمعنى السلبي المزعوم تأتي كُل أخلاقيات الشر. رُبما أنه لم يعني بجدية بأن موضوع الداروينية تؤدي الى الترمل مباشرة, و لكن عندما تصل رسالتهُ الى ذلك المستوى المسعور من الحقد و الذي ألآحظهُ بشكل عام في مراسلي المُتدينون. لقد خصصت كتابا كاملا "**قوس قزح اللامنسوج**[1]" للمعنى الاعلى و لشاعرية العلم و بشكل خاص و مُطول نقضت تهمة سلبية العبثية, ولذلك سأمتنع هنا عن ذلك. هذا الفصل هو عن الشر و نقيضه الخير و عن الأخلاق, من اين أتت و لماذا علينا الألتزام بها و عما إذا كُنا نحتاج للدين لفعل ذلك.

هل للميول الأخلاقية أصل دارويني؟

العديد من الكتب و منها كتاب روبرت هيند "**لماذا الخير طيب**"[1] و مايكل شيرمر في "**علم الخير و الشر**" [2], وروبرت باكمان "**هل نستطيع أن نكون جيدين بدون الله؟**"[3] و مارك هاوزر "**العقل الأخلاقي**"[4]. كُلها تناقش بأن معنى الصح و الخطأ يمكن أن يأتي من الماضي الدارويني. و هذا القسم هو وجهة نظري الخاصة في هذا الموضوع.

تبدو فكرة الانتخاب الطبيعي غير ملائمة بالمرة لشرح مقدار الخير التي نمتلكه أو حتى شعورنا عن القيم الأخلاقية كالامانة و التعاطف و الاسف. الانتخاب الطبيعي يستطيع شرح الجوع و الخوف و الرغبة الجنسية و كل ما يمكن أن يساهم مباشرة في بقائنا أو الحفاظ على جيناتنا. و لكن ماذا عن الشفقة التي نشعر بها عند رؤيتنا ليتيم يبكي أو أرملة عجوز قانطة تشكو الوحدة؟ ما الذي يدفعنا لأرسال هدية مِن مجهول أو نقوداً أو ملابس لضحايا التسونامي في الطرف ألآخر من العالم لم نراهم قط و أحتمال أن يردوا الجميل لنا هو أقل من أن نفكر به؟ من أين يأتي هذا السامري[5] المتأصل فينا؟ أليس الخير متناقضاً مع نظرية "الجين الاناني"؟ لا... هذا فهم خاطئ للنظرية و مُحزن (و الان أصبح متوقعا دائماً)[6]. من الضروري أن نركز على الكلمات الصحيحة. و ذلك بالتركيز على الجين الاناني, لان ذلك المصطلح هو على النقيض مع مصطلح الكائن الاناني مثلا أو الجنس الأناني. دعوني اشرح.

المنطق الدارويني يفرض علينا أستنتاج أن وحدآت الحياة في تدرجها الطبقي و التي تبقى و تنتقل من خلال الانتخاب الطبيعي تميل لأن تكون أنانية. و

---

1 . WHY GOOD IS GOOD, ROBERT HINDE.

2 . THE SCINCE OF GOOD AND EVIL, MICHAEL SHERMER.

3 . CAN WE BE GOOD WITHOUT GOD?, ROBERT BUCKMAN.

4 . MORAL MINDS, MARC HAUSER.

5. **السامري الصالح هو لقب جاء من المسيحية حول ذلك الرجل الصالح الذي ضرب فيه المسيح مثلاً للطيبة و الاخلاص. (لوقا 10) (المترجم).**

6. **أصبتُ بالاحباط التام عندما قرأت في صحيفة الجوارديان (غرائز الحيوانات, 27 آيار 2006) بأنه كتابي (الجين الاناني) هو كتاب جيف سكيلنك المفضل. أنه المدير العام لجمعية أينرون المشهورة. و هو يقول بأنه حصل على الكثير من أفكاره من تلك الشخصية الداروينية الاجتماعية الموجودة في الكتاب. الصحفي الخاص بالصحيفة , ريتشارد كونيف, أعطى شرح جيد لسوء الفهم هذا على.** HTTP://MONEY.GUARDIAN.CO.UK/WORKWEEKLY/STORY/0,,1783900,00.HTML
و أنا عملت كل ما أستطيع لسد مثل هذه الثغرات لسوء الفهم في فهرس كلمات الاصدار الجديد لكتاب الجين الاناني في ذكراه الثلاثين. و الذي صدر حديثاً من مطبقة جامعة أكسفورد.

الواحِدآت التي تستمر ستستمر على حساب الواحدآت المنافسة لها في نفس الدرجة في الطبقية. و هذا بالضبط ما تعنيه الأنانية بهذا الصدد. السؤآل هو, على أي درجة يكون فعل هذه المورثات؟ كُل فكرة الجين الاناني, و لنركز على الكلمة الاخيرة, هو أن وحدآت الانتخاب الطبيعي (الوحدة التي تهتم بذاتها) ليست الكائن الحي الاناني و ليست المجموعة الانانية أو الصنف الاناني بل هي المورثة (الجين) الاناني. أن الجين بهذا الصدد هو من يبقى للاجيال أو لا يبقى. و على عكس الجينات (و الميمات أيضاً) فإن الكائن الحي أو المجموعة أو الصنف ليسوا بالوحدآت التي يمكن أن تخدمنا بهذا المعنى لأنهم ببساطة لا يصنعون نُسخاً متطابقة لأنفسهم و لا يتنافسون في موضوع النسخ الذاتي. و هذا بالضبط ما تفعله المورثات و هذا هو الأصل المنطقي الذي يبرر أختيار المورثة فقط لتكون الوحدة (الانانية) بالمعنى الداروني لكلمة الأنانية.

أن الطريقة البديهية للمورثات لِضمان "أنانيتها" البقائية في علاقتها مع المورثات الاخرى هو أن تُبرمج الكائنات لتكون أنانية. و هناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء المورثات التي تملكها. و لكن ظروف أخرى تصلح لخطط بقائية آخرى. و هناك بعض الظروف, ليست نادرة بأي شكل, حيث تضمن المورثة بقاءها بجعل الكائن يتصرف بطريقة أيثارية. و هذه الظروف أصبحت مفهومة بشكل جيد في أيامنا و تُصنف على فئتين رئيسيتين. المورثة التي تبرمج الكائن لأيثار الاقارب الحاملين لنفس النوع من المورثات. أي أن هذه المورثة ستخدم المورثات المشابهة لها فقط. مورثة كهذه ستتزايد في بنك المورثات بحيث أن التصرف الايثاري سيصبح هو المعيار العادي لدى هذا الكائن. المثال الاوضح على ذلك هو رعاية الاطفال و لكنه ليس بالمثال الوحيد. فالنحل و النمل و سوس الخشب و نقار الدف كُلها طورت مُجتمعات يقوم فيها الكبار برعاية صغارهم (و الذين يتقاسمون المورثات الايثارية معهم غالِباً). و بشكل عام و كما أستعرض زميلي المتوفي هاميلتون فالحيوانات تميل لرعاية من يقاسمونهم مورثاتهم و الدفاع عنهم و تحذيرهم من الخطر و أيثارهم لأنهم أحصائياً قادرين على حمل نفس النسخ من المورثة نفسها.

النوع الرئيسي ألآخر من الأيثار و الذي له تفسير دارويني مُتكامل هو الايثار المُتبادل (حك لي ظهري لأحك لك). هذهِ النظرية قدمها لأول مرة في ميدان التطور الطبيعي العالم روبرت تريفيرس و غالِباً ما يعبر عنها بمصطلحات رياضية تخص العاب الرهان, و لا تعتمد على تقاسم المورثات. و بالتأكيد تعمل بشكل ممتاز و حتى بشكل أفضل بين كائنات متباينة و مُختلفة و تسمى عندها بالمتعايشات. المبدأ هو نفسهُ في التبادل و المقايضة الذي يعتمدهُ الأنسان. الصياد يحتاج لرمح و الحداد يحتاج لحماً. و اللاتساوي بينهما يؤدي لعقد من نوع ما. النحل يحتاج للرحيق و الزهور بحاجة للألقاح. الزهور لا تستطيع الطيران و بالتالي فإنها تدفع للنحل الرحيق كعمولة لأستعمال أجنحتها. الطير المُسمى بمرشد العسل يستطيع أيجاد عُش النحل و لكنه لايستطيع أقتحامه. و الغرير (البادجر) يستطيع اقتحامه و لكنه بدون أجنحة للبحث عنهم. مُرشد النحل يقود الغرير (و الأنسان في بعض الاحيان) للعسل بطريقة طيران مغرية و لا تُستعمل تلك الطريقة في الطيران لأي غرض آخر. و الطرفان يستفيدان من الصفقة. رُبما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لا يستطيع المُكتشف تحريكه بمفرده. و يطلب المساعدة من الاخرين رغم أنهم سيقاسمونه به لأنه بدون مُساعدتهم لن يحصل على أي شئ. و مملكة الحياة غنية بأمثِلة كهذه عن العلاقات المشتركة: الثيران ألأمرَيكية و العصفور ناقر الثيران, الزهور الحمر و الطائر الونان, البقر و البكتريا المعوية. الأيثار المُشترك يعمل لأن اللاتناظر في الاحتياجات و المقدرات يساعدها في ذلك و لذلك تعمل بنجاح أكبر بين الكائنات المختلفة حيث اللاتناظر أكبر و أوضح.

عند الأنسان تُعتبر النقود و المدخرات أدوات قابلة لأجراء دفوعات مؤجلة. و الاطراف في صفقة ما تتبادل بدون أن تُسلم أو تستلم البضائع بشكل مباشر بل تحتفظ بما يشبه الدين للمُستقبل أو حتى بيع الديون الى الآخرين. و على حد علمي ليس هُناكَ كائنات حيوانية غير أنسانية مِمَن لديهم ما يوازي النقود. و لكن الذاكرة الفردية و الشخصية تلعب دوراً موازيا بشكل غير رسمي. الخفافيش المصاصة للدماء يتعلمون من الذي يستطيعون الاعتماد عليه من ابناء عشيرتهم لدفع ديونهم (بالقيء الدموي) و من أولئك الذين يغشون. و الانتخاب الطبيعي يُفضل اولئك المهيئين بما يتعلق بعدم تناظر الاحتياجات و الفرص للعطاء عند المقدرة و التوقف عنه عند عدم

الاستطاعة. و تفضل أيضاً الميول لتذكر الواجبات مثل تذمر الدببة و مراقبة شروط التبادل و معقابة الغشاشين الذين يأخذون و لا يعطون عندما يأتي دورهم.

و بما أنهُ سيكون هُناكَ غش بشكل دائم فإن الحل المُتوازن سيكون بفرض عقاب على الغشاشين في قوانين "لعبة" الأيثار المتبادل. و النظريات الرياضية للألعاب تسمح بصنفين من الحلول التي تسمح بإستقرار عملية كهذه. "كن لئيماً كُل الوقت", عندما يكون الجميع كذلك فإن الفرد اللطيف لن تسنح له الفرصة ليؤدي عملاً أفضل. و لكن هُناكَ أستراتيجية أخرى تسمح بالاستقرار أيضاً. (الاستقرار هنا يعني عندما يصل عدد الأفراد للمستوى الحرج فلن يكون هُناكَ أي طريقة بديلة تؤدي لنتيجة أفضل). و ملخص الاستراتيجية هذه هو "أبدأ لطيفاً ثم أعط الآخرين الفرصة ليعرفونك, قابل المعروف بالمعروف و أنتقم من التصرفات السيئة". و بلغة العاب الرهان الرياضية فإن هذهِ الاستراتيجية (او ماشابهها) تصنف تحت اسماء مختلفة, و منها "هذه بتلك" و "الانتقام و التبادل". و هي تسمح بالاستقرار التطوري تحت ظروف ما بمعنى لو كانت هُناكَ عشيرة تطغى فيها المُشاركة المتبادلة فلا الفرد اللئيم و لا الفرد الطيف سيكونون قأدرين على أن يتميزوا بأي شكل. هُناكَ تنوعات أخرى من "هذه بتلك" و التي يمكنها أن تعمل بشكل أفضل في ظروف مماثلة.

كنت قد نوهت على القرابة والتبادل كعمودين رئيسيين للايثار في العالم الدارويني, و لكن هُناكَ بناء ثانوي يقع على قمة تلك الاعمدة. و بخاصة في المجتمع الأنساني, بوجود لغة و الثرثرة تصبح السُمعة مهمة. و أحد الأفراد تكون له سمعة كشخص لطيف أو كريم. و آخر له سمعة كغشاش و كسول و لا يلتزم بكلامه. و آخر تصبح له سمعة كريمة و طيبة لكن في نفس الوقت قاسٍ من خلال معاقبته للغش بشكل عنيف. النظرية غير المنقحة عن الايثار المُشترك تتوقع أن تبني الحيوانات سلوكها على تبادل غير واعي لنفس ذلك السلوك لدى أقرانها. و عند الأنسان أردفنا اللغة و قوتها لنشر السُمعة و عادة على شكل لغط كلامي. لا تحتاج للمعاناة الشخصية مثل فشل س من الناس بشراء المشروب لأصدقائهِ في البار. بل تُسمع "على باب الدار" بأن س "بخيل جداً". أو, لأضافة بعض السخرية على الموضوع, بأن ص مثلاً "نمامٌ

رهيب". السمعة مهمة و علماء الطبيعة يستطيعون الاعتراف بأن البقاء الداروينى يقتضي ليس فقط أن يكون الفرد مُشاركاً و لكن أيضاً أن يكون له سمعة جيدة كمُشارك أيضاً. يذكر الكاتب **مات ريدلي** في كتابه "**اصل القيم**"[1], الدراسة توضح مسألة السمعة أضافة لكونهِ مرجعاً مًشرقاً عن الأخلاقية الداروينية أيضاً.[2]

عالم الاقتصاد النرويجأمريكي تورستين فيبلين و عالم الحيوان الاسرائيلي آموتز زاهافي أضافا فكرة جذابة أخرى. الايثار ربما يكون وسيلة لأستعراض السلطة أو التفوق. علماء السلوك قد رصدوا ما يُسمى بــ(فعل الكرماء) و الذي سمي تيمنا بتقليد يتبارز فيه الزعماء المتنافسون في قبائل الشمال الغربي بإقامة مأدبة مدمرة بكرمها. و في حالات التطرف تتمادي النوبات الانتقامية حتى يصبح أحد الطرفين شديد الفقر تاركا الطرف ألآخر ليس بأفضل حال منه. مبدأ فابلان عن "الاستهلاك المظهري" يضرب على الوتر الحساس عند الذي يشاهد المشهد المعاصر. و مُساهمة زاهافي التي أهملها العديد من الطبيعيون حتى وضع الرياضي اللامع آلان غرفين نموذجا رياضيا لها ساهمت في وضع نسخة تطورية لفعل الكرماء. زاهافي درس العصافير الثرثارة البنية التي تعيش و تتكاثر في مجموعات. و مثل العديد من الطيور الصغيرة فإن الثرثار يطلق صيحات تحذير و يترعون بالأكل لبعضهم. و تحقيق دارويني عن ذلك الايثار سيبدو لأول وهلة و كأنه للتبادل و القرابة بين العصافير. و عندما يطعم الثرثار طيراً آخر فهل يتوقع أن بأن يحصل على الطعام منه في وقت لاحق؟ أم أن ذلك فقط يحصل بسبب القرابة الوراثية؟ و تفسير زاهافي غير متوقع بالمرة. الثرثار المتسلط يؤكد هيمنته بإطعام أتباعه. و بإستعمال تعابير تشبيهية لأرضاء زاهافي فإن الطائر المهيمن و كأنه يقول "أنظروا كم أنا مُتفوق بالنسبة لكم, أنا عندي المقدرة على أعطائكم طعاماً" أو "أنظروا كيف أتفوق عليكم بأن أجعل نفسي عرضة للنسور بالجلوس على فرع عال لأعطي أشارة الانذار للباقين الذين يأكلون على الارض". و ملاحظات زاهافي و زملائه ترينا بأن طيور الثرثار

1 . THE ORIGINS OF VIRTUE, MATT RIDLEYS.

2. **السمعة ليست حكراً على الجنس البشري. لقد تم حديثاً التأكد من أنها موجودة حتى في أغلب الحالات التعايشية في مملكة الحيوان.على سبيل المثال العلاقة بين الأسماك الصغار المعروفات بأسم المنظفات و زبائنهم من الاسماك الاكبر. في تجربة معملية تم ملاحظة أن الاسماك الكبيرة التي لاحظت نشاط الاسماك المنظفة مقارنة بغيرها قد أختارت دائماً العودة لهذه المجموعة من الاسماك على حساب منافساتها الكسولات. راجع, ر. بشاري و أ. س. جروتير (** IMAGE SCORING AND COOPERATION ON A CLEANER FISH MUTUALISM, NATURE 441**) 22 حزيران 2006 و الصفحات 975 الى 978.**

تتبارى بشكل دائم على دور الحارس. و عندما يحاول أحد الطيور الاتباع أعطاء الطعام لطائر مهيمن فإن محاولته تقابل برفض عنيف. و مُلخص فكرة زاهافي هو أن استعراض التفوق يتماشى مع كلفته. و المتفوق فقط يستطيع أستعراض تفوقه بتلك الهدايا الثمينة. و بذلك السعر يستطيعون جذب عدد أكبر من الاناث و ذلك بإستعراض الكرم و الاستعداد للمُخاطرة من اجل الاخرين.

لدينا أربعة أسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتع الفرد بالايثار و الكرم و "الأخلاق الحميدة" تجاه الاخرين. الاول هو وجود القرابة الوراثية كحالة خاصة. الثاني وجود رد الجميل المتبادل و المعروف بالمعروف و عمل المعروف "بتوقع" الدفع لاحقا. و ذلك يقودنا للنقطة الثالثة, المنافع الداروينية الناتجة من وجود السُمعة الحسنة للكرم و اللطف. و الرابع لوكان زاهافي محقاً فهناك منفعة أضافية للكرم المتبادل كطريقة لشراء دعاية أصيلة و غير قابلة للتزييف.

معظم الوقت فيما قبل التأريخ عاش الأنسان في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الايثار الأربعة المذكورة من أجل التطور. عشنا في قرى أو قبلها في مجموعات متجولة كما يفعل قرد البابون و بشكل جزئي معزولين عن الجيران أو القرى القريبة. معظم الذين يشاركونا الحياة من الاقارب و قرابتهم لك أكثر بكثير من القرابة للعشيرة الاخرى لك, و هناك الكثير من الفرص لتطور الأيثار. و بشكل عام كنا لنقابل الفرد ألآخر من العشيرة مرة تلو أخرى بغض النظر عن كونه قريبا ام لا. هذه ظروف مثالية لتطور الأيثار المتبادل. و هي أيضاً الشروط المثالية لبناء السمعة و الاعلان عنها للشخص باحد أو جميع الطرق الاربع التي ذكرناها. و الاتجاه الوراثي للايثار يجب أن يفضل من قبل الانتخاب الطبيعي في الأنسان الاول. و من السهل أن نرى لماذا كان أسلافنا جيدين بالنسبة لمجموعاتهم و سيئين و خائفين من المجموعات الاخرى. و لكن ما سبب طيبتنا تجاه بعض؟ بما اننا الان نعيش في مدن كبيرة و لسنا مُحاطين بالاقارب بشكل عام و في كُل يوم نرى أشخاصا لن نراهم بعد ذلك طوال حياتنا, نحن طيبين حتى بالنسبة للاخرين الذين ينتمون لمجموعات خارجة عن نوعنا, كيف هذا ممكن؟

من المهم أن لا نخطئ بتقدير دور الانتخاب الطبيعي. فالانتخاب لا يُفضل تطور من هو مدرك بوعي لما هو جيد بالنسبة لمورثاته. ذلك الادراك كان عليه أن ينتظر حتى القرن العشرين ليصل الى مستوى من الوعي بل الفهم الكامل في حالة قلة من العُلماء المُختصين. القاعدة فيما يفضلهُ الانتخاب الطبيعي عموما هو نشر المورثات التي صنعتهُ. و القواعد بشكل عام و بطبيعتها تخطئ أهدافها أحياناً. و في دماغ هُناكَ القاعدة التي تقول: "أبحث عن احياء صغيرة تزقزق في العش و ادفع ببعض الطعام في الفراغ الاحمر في رؤوسها" تؤدي الى الحفاظ على المورثات التي بنت تلك القاعدة لان الأشياء الصغيرة التي تزقزق ستكون بشكل طبيعي من نسله. و لكن القاعدة تخطئ عندما يصل أبن طائر آخر للعش بشكل ما و ذلك شئ يبرع طائر الواقواق فيه. هل من الممكن أن يكون أندفاعنا الأخلاقي الجيد هو الذي يخطئ الهدف. كما أخطأت غريزة الطائر الاحمر و تسببت له بإجهاد نفسة من اجل طائر الواقواق؟ بل هُناكَ تشبيه أقرب و هو أندفاع الأنسان لتبني طفل. و هنا على أن اسرع بتوضيح أن "أخطاء الهدف" مقصود به المعنى الداروينى البحت. و لا تحمل أي معنى أنتَقاصي بأي شكل من الاشكال.

فكرة "الخطأ" أو "الناتج العرضي" الذي أريد الدفاع عنه يعمل بالشكل التالي. الانتخاب الطبيعي في زمن الاسلاف عندما كنا نعيش في مجموعات جوالة كالبابون برمج في عقولنا الميول الايثارية الى جانب الجنسية و الجوع و الخوف من الاجنبي ..الخ. و عندما يقرأ زوجين من الاذكياء كِتاب داروين فإنهما يعرفان بأن السبب النهائي لأندفاعهم الجنسي هو التكاثر. و يعلمون بأن المرأة لن تحمل لأنها أخذت حبوب منع الحمل. و لكن ذلك لم يؤدي بأي شكل لتخفيض الدافع الجنسي بتلك المعرفة. أن الرغبة الجنسية هي رغبة جنسية في النفس و هي مستقلة تماما عن هدفها الدارويني الذي ساقها. أنها حاجة قوية موجودة بشكل مستقل عن هدفها النهائي.

و أنا أقترح هنا أن الحاجة و الدافع هو نفسه بالنسبة للطف و الطيبة و الايثار و الكرم و التعاطف و الرأفة. في أيام الاسلاف كانت لدينا الفرصة لنكون أيثاريين فقط بالنسبة للاقرباء و من يعتقد انهُ سيبادلنا المعروف. و في ايامنا هذهِ لم تعد تلك القيود موجودة لكن القاعدة بقيت. و لماذا لا؟ أنها كالرغبة الجنسية. ولا نستطيع شيئاً ازاء الشعور بالرأفة عند رؤية شخص

يبكي لمصيبة ما (و ليس بالقريب أو ممن نتوقع منه رد الجميل) تماماً كما لا نستطيع شيئاً ازاء رغبتنا في شخص من الجنس ألآخر (رغم أنه من الممكن أن يكون عقيماً أو غير مهئ للأنجاب). الاثنان خطأ بالهدف أخطاء داروينية: أخطاء مباركة و ثمينة.

لا تفكر و لو للحظة بأن درونة الأشياء يُقلل من قيمة المشاعر النبيلة و الكرم. و الأمرَ نفسه بالنسبة للرغبة الجنسية و التي ادى أستخدامها في اللغة و الثقافة لظهور الكثير من الشعر الباهر و الدراما العظيمة: كما قصائد الحُبّ لجون دون, أو روميو و جوليت. و بالطبع يحدث الشئ نفسهُ بالنسبة للخطأ في الهدف بالنسبة للمشاعر تجاه الاقرباء أو من يبادلون المعروف. العفو عن المدين مثلا عندما نراه خارج الموضوع فهو لاداروايني تماما مثل تبني طفل شخص آخر:

الرحمة لا تعرف القوة
بل انها تنهمر كالمطر اللطيف من السماء
على الارض التي تحتها

الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المسببة للكثير من الطموح الأنساني و الكفاح في الحياة و غالبها يأتي كخطأ في الهدف. و ليس هُناكَ أي سبب لئلا ينطبق الشئ ذاته على الرغبة بالكرم أو التعاطف إذا كان ذلك يأتي من الحياة القروية للاسلاف. الطريقة المثلى للأنتخاب الطبيعي لبناء نوعي الرغبة في وقت الاسلاف هو بتركيب قواعد ما في العقل. و تلك القواعد لاتزال تهيمن علينا حتى اليوم حتى عندما تجعلم الظروف غير مناسبين للغرض الاساسي الذي كان مطلوبا منهم.

قواعد كتلك تتحكم فينا حتى الان ليس بطريقة حتمية و لكن بطريقة مُصفاة بتأثير الادآب و العادات, القوانين و التقاليد و بالطبع أيضاً الدين. و كما تمر الرغبة الجنسية عبر مصفاة الحضارة لتظهر كقصة حُبّ بين روميو وجوليت فإن قواعد أخرى بدائية في الدماغ عن الثأر مثلاً بشكل المواجهات المستمرة

في "**كابوليت و مونتغيو**"[1]: بينما قواعد بدائية أخرى عن الايثار و التعاطف تؤدي بنتيجة أخطاء الهدف لان نشعر بالفرح في مقاعدنا في المنصة عندما يمثل المشهد الاخير في مسرحية شكسبير.

حالة دراسية عن منشأ الأخلاقيات

هو عنها:"سلوكنا فيما يتعلق بالقرارات الأخلاقية هو عبارة عن قواعد عالمية, فرع من العقل قد تطور عبر ملايين السنين ليحتوي على مجموعة من المبادئ تبنى عليها أنظمة أخلاقية. و كما في اللغة, تمر تلك المبادئ التي تقوم عليها قواعدنا الأخلاقية تحت مُستوى رادارنا الواعي".

من الالغاز الأخلاقية التقليدية التي يطرحها هاوسر هي لغز القطار على السكة أو السيارة المُسرعة التي تهدد بقتل عدد مُعين من البشر. القصة الأبسط تتخيل أمرأة اسمها دينيس, تقف بجانب مفصل يدوي يُمكنها خلاله أن توجه القطار لتحويلة فرعية, و بذلك تنقذ حياة الافراد الخمسة العالقين على الخط الرئيسي. للأسف هُناكَ شخص عالق على التحويلة. و لكن بما أنهُ شخصٌ واحد فقط و الاخرين أكثر. فإن غالبية الناس يوافقون على أنه أخلاقياً بل و ربما أجبارياً فأن على دينيس تحويل السكة لتُحافظ على حياة الأفراد الخمسة بقتل ذلك الواحد. و نحن نتجاهل أمكانية أن يكون الشخص على التحويلة هو بيتهوفن مثلاً .. أو صديق حميم.

العمل على مثل هذه التجارب يطرح علينا مسائل يشتد فيها مُستوى الاثارة للالغاز الأخلاقية. ماذا لو كان بالامكان أيقاف القطار بإلقاء حمل ثقيل أمامه من على جسر فوق السكة؟ و هذا سهل: من الواضح أنه علينا أن نرمي الثقل. و لكن ماذا لو كان الثقل الوحيد المتوفر هو رجلٌ سمين جداً يجلس على حافة الجسر و يتأمل في غروب الشمس؟ الجميع تقريباً أتفق على انه من غير الأخلاقي دفع الرجل السمين من على الجسر على الرغم من أنه, من وجهة نظر ما, فإن اللغز مشابه لحالة دينيس, حيث أن دفع ذراع تحويل السكة سيقتل شخص واحد لينقذ خسمة. و لكن غالبيتنا عندهم أحساس قوي بأن هُناكَ أختلافا حرجاً بين الحالتين و لكننا لا نعرف كيف نعبر عنه.

أن دفع الرجل السمين من على الجسر يذكرنا بمعضلة آخرى يطرحهُا هاوسر أيضاً في حساباته. خمسة مرضى في مستشفى و جميعهم يحتضرون, كُل منهم يشكو من عطل عضو مُختلف في جسمه. و بالامكان أنقاذهم جميعا لو وجدنا مُتبرعا لكل عضو في كُل منهم و لكن ليس من مُتبرع. يلاحظ الجراح شخصاً في غرفة الانتظار لديه تلك الاعضاء الخمسة و تعمل بشكل

جيد و جاهزين للنقل و الزراعة. في تلك الحالة لن يوافق أحد تقريباً على القول بأنه من الأخلاقي قتل ذلك الشخص لأنقاذ الخمسة.

و في حالة الرجل السمين على الجسر فإن الاحساس الداخلي لغالبيتنا بأن ذلك الجالس البرئ لا يجب أن يُجر فجأة لموقف سئ لمصلحة آخرين بدون موافقته. و قد عبر عن ذلك بشكل واضح أيمانويل كانط بأن الكائنات العاقلة لا يجب أن تستخدم بدون موافقة كوسائل لِمنع أو أنهاء أوضاع ما حتى لو كانت تلك النهاية لمصلحة الآخرين. هذا يعطينا الفرق الحرج بين الرجل السمين أو الرجل في المستشفى و الرجل العالق على السكة في حالة دينيس. الرجل السمين على الجسر سيستخدم كأداة لأيقاف القاطرة. و هذا يُخالف مبدأ كانط بوضوح. بينما الشخص الذي على السكة لن يستخدم لأنقاذ حياة
الخمسة الاخرين. بل أن محول السكة الذي يستخدم والرجل سئ الحظ لكونه موجوداً عليها. و لكن... عندما يتوضح الفرق بذلك الشكل لماذا يرضينا ذلك؟ بالنسبة لكانط فإن ذلك شئ أخلاقي محض. أما بالنسبة لهاوسر فإن ذلك مبني فينا جميعاً بواسطة التطور.

المواقف الفرضية التي يطرحها هاوسر عن القاطرة تزداد أبداعاً و الدوامة الأخلاقية تزداد تعقيداً و التواءٍ. و يضع هاوسر شخصيات هي نيد و أوسكار, نيد يقف على السكة و خِلافاً لدينيس التي تستطيع تحويل السكة التي يسير عليها القطار. و لكنه يستطيع أن يغير مسيره لمسافة بسيطة فقط ليعود بعدها للسكة الرئيسية في طريقه للاشخاص الخمسة. و بالتالي فأن تغيير المسار لن ينفع و القطار سيدهس الخمسة أشخاص على أي حال عندما يعود للسكة الرئيسية. و لكن هُناكَ شخص سمين جداً على التحويلة و ثقيل بشكل يكفي لان يوقف العربة. هل يجب على نيد تغيير المسار للقطار؟ رد الفعل الاول لمعظم الناس انه لا يجب أن يفعل ذلك. و لكن ما هو الفرق بين حيرة نيد و حيرة دينيس؟ الفرض هنا أن الناس يطبقون مبدأ كانط بالحدس. دينيس يغير مسار القطار ليتفادى صدم الاشخاص الخمسة و الضحية على المسار آخر هو "ضرر جانبي", باستعمالنا لتعبير رامسفيلد الجذاب هنا. دينيس لا تستخدمه من لينقذ الخمسة الآخرين. بينما نيد يستخدم الرجل السمين بالفعل هنا ليوقف القطار, و معظم الناس (ربما بدون تفكير) و منهم كانط (الذي فكر بكل تفاصيلها) يرون أن ذلك فرق مهم جداً.

الفرق يظهر مرة اخرى في معضلة أوسكار. موقف أوسكار مطابق لموقف نيد, بإستثناء أن هُناكَ كتلة ثقيلة من الحديد على التحويلة, و واضح بأن أوسكار لن يفكر و ليس لديه مُشكلة في القرار بتغيير مسار القاطرة. بإستثناء أن هُناكَ شخص يتمشى قبل الكتلة الحديدية. و سيقتل بالتأكيد لو غير أوسكار المسار كما هو الحال مع الرجل السمين. الفرق هو أن الشخص الذي يتمشى في حالة اوسكار لن يُستخدم لأيقاف القطار: بل هو ضرر جانبي كما في حالة دينيس. و كما هو الحال في هاوسر و الكثيرين ممن أجروا تجاربه أشعر بأنه على أوسكار أجراء التحويلة و لكن يصعب علينا تبرير مواقفنا الحدسية. النقطة التي يريد هاوسر التركيز عليها هي أن أخلاقياتنا الحدسية كهذه لا نفكر بها كثيراً و انما تأتي من خلال الاحساس و ذلك بسبب التركة التطورية فينا.

في مغامرة مثيرة في صُلبِ عِلم السلوك قام هاوسر و زملائه بملائمة معضلاتهِ الاخلاقية لتناسب قبيلة كونا, قبيلة كونا الصغيرة هي قبيلة تعيش بمعزل تام تقريباً عن الغرب و ليس لها دين رسمي. و أستبدل الباحثون "القاطرة على السكة" بما يقابلها مما يفهمه السُكان المحليين, كتمساح يسبح نحو قارب. بأستثناء فروق بسيطة غير مهمة عبر أفراد قبيلة الكونا عن نفس الاحكام الأخلاقية التي توصلنا اليها نحن.

هاوسر تساءلَ أيضاً عما إذا كان الافراد المُتدينين يختلفون عن المُلحِدين فيما يتعلق بالحدس الأخلاقي. لو كنا نأخذ أخلاقنا من الدين فإنه من المفترض أن يكون هُناكَ أختلاف. و لكن يبدو أنه لا يوجد. و قد عمل هاوسر مع فيلسوف الأخلاق بيتر سينغر[1] و ركزا على ثلاثة فرضيات محيرة و قارنوا النتائج بين المُلحِدين و المُتدينين. في كُل حالة يُطلب من المشترك أن يقرر إذا ما كان تصرف ما "اجباري" أو "مسموح" أو "ممنوع". و تلك هي النتائج.

1. حالة دينيس. تسعون بالمائة قالوا بأنه من المسموح لها أن تحول مسار القطار, بمعنى قتل شخص لانقاذ خمسة.

1 . M. Hauser and P. Singer, 'Morality without religion', Free Inquiry 26: 1, 2006, 18-19.

2. ترى طفلا يغرق و ليس هُناكَ من منقذ. بإستطاعتك أنقاذه, و لكنك ستتلف بنطالك. سبع و تسعون بالمائة وافقوا أن عليهم أن ينقذوا الطفل (من المدهش أن هُناكَ ثلاثة بالمائة ممن أرادوا الحفاظ على سروايلهم).
3. موضوع زراعة الاعضاء الذي شرحناه سابقا. سبع و تسعون بالمائة وافقوا بأنه من الممنوع قتل الشخص السليم لانقاذ الاخرين بزراعة أعضائه.

الأستنتاج الرئيسي الذي وصل اليه هاوسر و سينغر هو بأنه ليس هُناكَ أحصائياً أي فروق تذكر بين المُلحِدين والمُتدينين من ناحية أتخاذ قرار أخلاقي. و هذا يبدو مُتطابقاً مع وجهة النظر التي اتمسك و العديدين بها, بأننا لسنا بحاجة الى الله لنكون صالحين أو طالحين.

لماذا أكون صالحاً أن لم يكن هناك إله؟

ضروري لنكون صالحين. أشتبه في أن كثيرا من المُتدينين يُفكرون بأن الدين هو ما يدفعهم ليكونوا صالحين خصوصاً أتباع أحد فروع الأيمان الذي يستغل بشكل منظم الشعور بالذنب و تأنيب الضمير.

يبدو لي بأن التفكير بذلك يستدعي وجود عدم ثقة بالنفس بحيث أنه لو الأيمان بالله أختفى فجأة من العالم فإننا جميعا سننقلب لقساة أنانيين نهتم بالمتعة فقط بدون صلاح أو صدقة أو كرم, لاشئ مما يستحق أن يوصف بالجودة على الاطلاق. من المعروف و بشكل واسع أن ديستويفسكي كان له هذا الرأي, مستنتجين ذلك من الكلمات التي وضعها في فم ايفان كرامازوف:

> أيفان لاحظ بجدية بأنه ليس هُناكَ أي قانون في الطبيعة مما يمكن أن يجعل الأنسان يحُبّ الأنسانية و لو أن الحُبّ وجد و لايزال في العالم فإنه ليس ميزه من مزايا قانون الطبيعة لكنه يعود بشكل تام لأيمان الأنسان بخلوده الشخصي. و زاد تعليقاً جانبيا بأن ذلك بالضبط هو ما يحدد القوانين الطبيعية, و ذلك يعني, بأنه لو تحطم أيمان الأنسان بخلوده فلن تتعطل قدرته على الحُبّ فحسب و لكن ستتعطل كُل القوى الضرورية لبقاء الحياة على هذهِ الارض. و الاكثر من ذلك لن يكون هُناكَ أي شئ لاأخلاقي و سيكون كُل شئ مسموحاً حتى أكل لحوم البشر. و أخيراً و كأن كُل ذلك لم يكن كافياً صرح بأن كُل شخص, مثلي و مثلك, مثلا, و الذي لايؤمن بإله أو بخلوده الشخصي, فإن قوانين الطبيعة تقتضي فوراً بأن يكون الشخصية المُعاكسة تماما لقوانين الدين التي سبقتها و أن الانانية و حتى أرتكاب الجرائم سيعتبر ليس فقط مسموحاً بل و أساسيا أيضاً و سيكون هو الاكثر عقلانية و الاكثر نبلاً من أجل البقاء في تلك الظروف".[1]

ربما انها سذاجتي, و لكني أميل لوجهة نظر أقل تهكما عن الطبيعة الأنسانية من ايفان كرامازوف. هل نحتاج حقيقة لان نكون تحت مراقبة الله أو بعضنا البعض كي نتوقف عن الانانية و السلوك الاجرامي؟ أريد و آمل أن اصدق بأني لااحتاج مراقبة كتلك, و لا انت ياعزيزي القارئ. و من ناحية أخرى

1. ديستوفيسكي في رواية الاخوان كارامازوف.

لنقوي ثقتنا و لنستمع الى ستيفن بينكر و تجربته الحقيقية خلال أضراب للشرطة في مونتريال, و الذي وصفه بـــ"**اللوح الاسود**":

> كيافع في كندا الفخورة بإستقرارها و سلامها خلال الستينات كنتُ مؤمناً تماما بالفوضوية التي دعا لها باكونين. و كنت أضحك من رأي اهلي القائل بأنهُ لو القت الحكومة سلاحها فإنها تفتح ابواب الجحيم. و آراؤنا المتفاوتة وضعت قيد الامتحان عندما أضربت قوات الامن في مونتريال في الساعة الثامنة من يوم 17 تشرين الثاني 1969. و عندما بدأ أضراب الشرطة في الساعة 11:20 تعرض أول بنك للسرقة. و عند الظهر أغلقت معظم متاجر مركز المدينة أبوابها بسبب السرقات. و بعد بضع ساعات أحرق سواق التكسي كاراجاً لسيارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. قناص من السقف قتل شرطياً محلياً و اقتحامات حصلت في العديد من الفنادق و المطاعم و حصيلة النهار كانت, ستة بنوك و مئة متجر و 12 حريقا و 40 سيارة مُحملة ببضائع على واجهات المحلات المُهشمة و ثلاثة ملايين دولار أضرار بالمُمتلكات. حتى أضطرت المدينة أن تستعين بالجيش لأحلال النظام. ذلك الامتحان التجريبي لآرائي تركها مُمزقة كخرقة بالية...

ربما أنني أيضاً أميل بسذاجة لتصديق أن الناس سيبقون صالحين في غياب المراقبة الألهية. و لكن من ناحية اخرى, فإن غالبية أهل مونتريال من المفروض أنهم مؤمنين. فلماذا لم يخافوا من عقوبتهِ عندما غاب رجال الشرطة الارضيين مؤقتاً عن الساحة؟ اليس أضراب مونتريال تجربة جيدة لتجربة النظرية القائلة بأن الأيمان بالله يجعلنا صالحين؟ أم أن الساخر مينكين أصاب بملاحظته اللاذعة: "الناس يقولون بأنهم بحاجة للدين في حين أنهم في حاجة للشرطة"

بالطبع فأنه لم يتصرف الجميع في مونتريال بشكل سيئ بمجرد غياب الشرطة عن الساحة. و سيكون من المثير معرفة فيما لو كان هُناكَ أية أحصائية للنزعات و لو بشكل ضئيل, فيما أذا كان المؤمنين سرقوا و حطموا

أقل من غير المؤمنين. و توقعي الغير مبني على أية معلومات هو العكس. هُناكَ من يقول بتهكم أنه لا يوجد مُلحِدين في مخابئ الثعالب. و أنا اميل للشك (مع بعض الادلة بالرغم أنها بسيطة لدرجة انه لا يُمكن الاعتماد عليها لأي أستنتاج) بأن هُناكَ أقلية من المُلحِدين في السجون. أنا لا أزعم بالضرورة بأن الإلحاد يرفع مستوى الأخلاق على الرغم من أن الأنسانية, وهي النظام الأخلاقي الذي يتماشى مع الإلحاد, ربما تفعل ذلك. و الامكانية الاخرى هي أن الإلحاد يتناسب مع عامل مشترك ثالث, كمستوى دراسي أعلى أو ذكاء أو تفكير و التي بشكل عام تتعارض مع الاندفاع الاجرامي. و الابحاث من هذا القبيل لا تدعم بالتأكيد النظرة العامة بأن الدين يتناسب طردياً مع الأخلاق. و التناسب الطردي لا يعني صحة النتيجة و لكن المعلومات التالية و التي وصفها سام هاريس في كتابه رسالة الى وطن مسيحي, لابد أنها مثيرة جدا:

> أن علاقة الدين بالاحزاب السياسية في أمريكا ليس علامة فارقة و لكن ليس من السر أن الولايات الحمراء [الجمهوريين] قد سُميت كذلك نظراً للنفوذ القوي للمسيحية المُحافظة. و لو كان هُناكَ علاقة بين الصحة الاجتماعية و المسيحية المُحافظة فيجب أن نتبينها في تلك الولايات الحمراء في أمريكا. و ضمن المحافظات الــ 25 و التي فيها اقل نسبة جرائم فإن 62% منها تقع في ولايات زرقاء [ديمقراطيين] و 38% تقع في ولايات حمراء. و الواقع أن ثلاث محافظات من أصل خمس و التي فيها أعلى نسبة أجرام في الولايات المتحدة تقع في ولاية تكساس التقية. الولايات الــ 12 و التي تتميز بأعلى نسب سرقات ولايات حمراء. و من الولايات الــ 22 بأعلى نسبة جرائم قتل هُناكَ 17 ولاية حمراء.[1]

أن الابحاث المنظمة تميل بشكل عام لدعم معلومات كهذهِ. في كتابه "**مقال عن الدين و الدولة**" 2005 قارن جورج .س باول سبعة عشر بلداً نامياً و أستخلص النتيجة المرة التي تقول بأن "الايمان المتزايد بالخالق يرتبط أرتباطاً

1. تجدر الاشارة بأن الوآن التحالفات السياسية في أمريكا هي تماماً عكس ما هي عليه في أوربا و باقي العالم حيث اللون الازرق هو لون الاحزاب المحافظة و اللون الاحمر هو لون الاحزاب اليسارية التقليدية.

طردياً مع نسبة أعلى من جرائم القتل و الموت المبكر و العدوى بالامراض الجنسية و حمل صغيرات السن و الاجهاض مقارنة بالدول الديمقراطية و الاكثر صحية". دان دينيت في كتابهِ "**كسر الطوطم**", عقل بسخرية مريرة, ليس على كتاب هاريس, و لكن بشكل عام على دراسات كتلك:

> لسنا بحاجة للقول بأن نتائج كتلك تصدم الزعم القائل بالمثل الأخلاقية العليا و قيمها بين المُتدينين لدرجة أنه اصبح هُناكَ اندفاع من قبل المؤسسات الدينية لدحضهم... يمكننا أن نكون متأكدين من شئ واحد و هو, لو كان هُناكَ أي علاقة أيجابية بين الأخلاقيات و التدين أو الممارسات الدينية أو الأيمان فإنها ستكتشف قريباً, بما أن الكثير من المؤسسات الدينية تسعى بجهد لأثبات أيمانهم التقليدي عن ذلك علمياً. (معجبون تماما بقدرة العِلمْ على أكتشاف الحقيقة عندما توافق ما يؤمنون به). و كل شهر يمضي بدون أكتشاف كهذا يضع خطاً احمراً تحت الشبهة بأن تلك العلاقة ليست موجودة اساساً.

معظم من يُفكر بالموضوع يصل لنتيجة بأن الأخلاقيات الموجودة في غياب الرقابة أكثر صدقاً بشكل ما من تلك التي تتبخر فور أعلان الشرطة للاضراب أو عند أطفاء كاميرا التجسس, سواء كانت الكاميرا حقيقية و مراقبة من قبل مخفر الشرطة أو كانت خيالية في السماء. ربما لا يكون من العدل تفسير السؤآل "لو لم يكن هُناكَ إله فلماذا تزعج نفسك بان تكون صالحاً؟" بتلك الطريقة التهكمية[1]. و يمكن لمفكر ديني أن يعطينا تفسيراً أخلاقيا صادقاً, قد تكون على النمط التالي. "بما أنك لاتؤمن بالله, فإنك لاتؤمن بأن هُناكَ أي قواعد أخلاقية نموذجية. و ربما تحاول أن تكون أنسانا صالحاً بكل الصدق الموجود في الارض و لكن كيف يُمكنك التمييز بين ما هو جيد و ما هو سئ؟ الدين وحدهُ يستطيع تأمين القواعد النموذجية للصالح و الطالح. و بدون الدين عليك أن تخترعها من خلال مُمارساتك. و تلك أخلاق بدون نظام: و هذا ينقض الأخلاق برمتها. فلو كانت الأخلاق مسألة أختيارية لأستطاع هتلر الزعم بأنه أخلاقي بالقياس لنظريته المُتعلقة بتحسين النسل و يستطيع كُل المُلحِدون أن يختاروا شخصياً قواعداً ليعيشوا في

1. بنفس تلك الطريقة التهكمية قام .هـ .ل مينكين بتعريف الضمير كصوت داخلي يتحدث لنا بأن أحد ما ينظر الينا الان.

ضوئها. بعكس اليهود و المسيحيين و المسلمين, الذين يستطيعون الزعم بأن الشر له معنى حقيقي و ازلي و واحد في كُل مكان و بناء عليه فإن هتلر هو شرير بالتأكيد."

حتى و لو كان حقيقيا اننا بحاجة للاله لنكون أخلاقيين, فذلك لن يجعل بأي شكل من الاشكال وجود ألإله أكثر أحتمالاً و لكن أكثر رغبة في وجوده (الكثيرين لا يستطيعون ملاحظة الفرق). و لكن ليس هذا هو المهم. أن مُتديني المُتخيل لا يحتاج للأعتراف بأن تملقهُ للإله هو الدافع لعمل الخير في الدين. بل زعمه كالتالي, لايهم من أين أتى الدافع لعمل الخير و لكن بدون الدين لن يكون لدينا قواعد لتحديد الصالح و التصرف على أساسهِ. حيث كل واحد فينا بمفرده يعطي تعريفه الخاص به عن الاخلاق و يتصرف على ضوئهِ. المبادئ الأخلاقية المبنية فقط على الدين (على خلاف "القاعدة الذهبية" مثلا و التي تعتبر غالِباً متعلقة بالدين و لكن يمكننا أستخلاصها من مكان آخر) نستطيع تسميتها بالمبادئ المطلقة. الخير خير و الشر شر, و ليس علينا أن نقرر بحسب الحالات كمعاناة فرد ما على سبيل المثال. و مُتديني الخيالي يزعم بأن الدين وحده يستطيع أن يكون القاعدة لتحديد ما هو صالح.

بعض الفلاسفة, و كانط بالاخص, جربوا أستخراج أخلاقيات مطلقة ليست من أصول دينية. و كونه هو ذاته كان مُتدينا[1], حيث لم يكن هُناكَ مفر تقريباً في أيامه, فقد حاول كانط أن يبني الأخلاقيات عن الواجبات لأجل الواجبات فقط بدلا عن الله. و تصنيفاته للواجبات المشهورة توجهنا لأن "نتصرف فقط بتلك الحكمة بإعتبارها تسري في نفس الوقت كقانون عالمي عام". و كمثال للتوضيح سنأخذ الكذب. تخيل أن هُناكَ عالماً بأكمله حيث الجميع يكذب بإعتبار أن ذلك هو الاساس و الكذب يعتبر شيئا أخلاقياً و جيداً. في عالم كهذا سيفقد الكذب معناه. الكذب يحتاج لفرضية بأن هُناكَ صدق و حقيقة بالتعريف. و لو أن نظاما أخلاقياً هو شئ علينا اتباعهُ فإن الكذب لا يُمكن أن يكون نظاما أخلاقيا لان المبدأ بذاته يتلاشى معنوياً. الكذب كقاعدة للحياة, لا يُمكن أن تكون مستقرة. و بشكل عام, الانانية و التطفل بإستغلال النوايا

1. **هذا تعريف شائع عن مفاهيم كانط. الفيلسوف المعروف .أ .س غرايلينغ أصر و بشكل مقنع في صحيفة الإنساني الجديد (تموز – آب 2006) بأن كانط كان ملحداً بالامر الواقع لكنه كان يحاول التوفيق مع التدين الذي كان سائداً في عصره.**

الطيبة للاخرين, ربما يكون مفيدا لي كفرد أناني وحيد و يعطيني سعادة شخصية و لكن لا استطيع أن أمل أن يكون الجميع طفيليين و أنانيين بالمبدأ لانني لن احصل على من أتطفل عليه حينها.

المبادئ الكانطية تبدو و كأنها فعالة في حالات الصدق و بعض الحالات الاخرى. لكن ليس من السهل تعميمها على الأخلاقيات العامة. و بالرغم من كانط فإنه من المغري الموافقة مع فرضية المُتدين التخيلي بأن الأخلاقيات المُطلقة تنحدر بشكل عام من الدين. هل يعتبر تخليص مريض بمرض عضال من عذابه و بطلبه هو خطأ دائماً؟ هل من الخطأ المُطلق ممارسة الجنس مع شخص من نفس الجنس؟ هل قتل بويضة مُخصبة يعتبر خطأ مؤكداً؟ هُناكَ من يؤمن بذلك و القواعد عندهم مُطلقة. لا يقبلون أي نِقاش أو جدال. كُل من يُخالفهم الرأي يستحق القتل: نتكلم بالرموز بكل تأكيد هنا, و ليس الكلام حرفيا, ماعدا حالة بعض الاطباء ألأمرَيكيين في عيادات الاجهاض (أنظر الفصل القادم). لحسن الحظ و بشكل عام فالأخلاق لا يجب أن تكون مطلقة.

فلاسفة الأخلاق هم الاخصائيون عندما يتعلق ألأمرَ بالتفكير بالصح و الغير صحيح. كما عبر عن ذلك بالمختصر المفيد روبرت هيند عندما قال بأنهم اتفقوا على أن "الاسس الأخلاقية يفترض ان تكون قابلة للدفاع العقلاني بالرغم من انها ليست بالضرورة مبنية بشكل عقلاني"[1]. فلاسفة الاخلاق يُصنفون أنفسهم بعدة طرق, و لكن التعاريف الحديثة تقسمهم بين "الواجبيون" (كانط كمثال) و "النتائجيون" (يتضمنون النفعيين مثل جيريمي بينثام 1748-1832). الواجبيون هو اسم مفخم للأيمان بأن الأخلاقيات تبنى على أساس طاعة القوانين. و حرفياً هي علم الواجبات حيث أصل الكلمة من الاغريقية و معناها "الشئ الملزم". و هذا ليس تماماً ما يُسمى بالأخلاقيات المُطلقة و لكن في أغلب الحالات في الكتب الدينية لا نحتاج لمعرفة الفرق. المُطلقيون يؤمنون بأن هُناكَ صح مُطلق و خطأ مُطلق, المبادئ هي المهمة دون أي أعتبار للنتائج. النتائجيون أكثر عملية و يعتقدون بأن أخلاقيات عمل ما يجب أن تقاس بناء على نتائجهِ. أحد انواع النتائجية هو النفعية, و هي الفلسفة المرتبطة ببينثام و صديقهُ جيمس ميلل (1773-1936) و أبنه

1 . HINDE 2002, SINGER 1994, GRAYLING 2003, GLOVER 2006.

جون ستيوارت ميل (1806-73). النفعية غالِباً تتلخص بعبارة بينثام البراقة و الغير دقيقة للاسف: "السعادة الكبرى لأكبر عدد من الناس هي القاعدة الاساسية للأخلاقيات و القوانين".

ليست كُل القواعد المُطلقة نابعة من الدين. بالرغم من ذلك من الصعب أن ندافع عن الأخلاقيات المُطلقة على أسس غير دينية. و المنافس الوحيد الذي استطيع التفكير به هو الوطنية و خصوصاً في أوقات الحرب. كما قال المخرج الاسباني المميز لويس بونيل "الله و الوطن فريق لا يُمكن الفوز عليه: يحطمون كُل الارقام القياسية للظلم و أراقة الدماء". ضباط التجنيد يعتمدون بشكل كبير على أحاسيس ضحاياهم بالواجب الوطني. و في الحرب العالمية الاولى أهدت النساء ريشة بيضاء للشباب الذين لا يلبسون الزي الموحد.

لا نريد فقدانك, و لكن نعتقد بأن عليك أن تذهب
لأن الملك و الوطن يحتاجون لك

البشر يحتقرون الفارون الواعون, حتى أولئك الذين في بلد العدو, لان الوطنية تعتبر ميزة مُطلقة. فمن الصعب أن نحصل على مُطلق أكثر من الجنود المتطوعين "أنه وطني سواء كان على حق أو على خطأ", ذلك الشعار الذي يلزمك بقتل كُل من يقع عليه أختيار سياسيوا المُستقبل لأعطائهم لقب عدو. رُبما يفلح منطق النتائجيون في التأثير على القرار السياسي بخوض الحرب و لكن بمجرد أعلان الحرب فإن الوطنية المُطلقة تستلم زمام الامور بقوة و طاقة لا توجد خارج نطاق الدين. و الجندي الذي تدفعهُ أفكاره الأخلاقية النتائجية لعدم تخطي الحدود سيجد نفسه غالِباً في محكمة عسكرية و ربما يواجه الاعدام.

ان الدافع لتلك المناقشة عن الفلسفة الأخلاقية كان فرضية الدين الزاعمة بأنه لو لم يكن هُناكَ إله فإن الأخلاق نسبية و أعتباطية. كانط و آخرون من الفلاسفة الأخلاقيين المُختصين على حده و مع كُل الاعتراف بالتأجج الوطني فإن المصدر المُفضل للأخلاقيات المطلقة يكون عادة كتاباً مُقدسا دينيا من نوع ما و يفسر على أن لديه سلطة أكبر من أن يستطيع تأريخهُ تبريرها. و

بكل تأكيد فإن أتباع السلطة المقدسة يبدون القليل جدا, و لدرجة مؤسفة, من الفضول فيما يتعلق بالاصول التأريخية (المريبة عادة) لكتبهم الدينية. الفصل التالي سيستعرض الناس الزاعمون بأخذهم للأخلاقيات من الكتب المقدسة لا يفعلون ذلك عملياً. و هذا شئ جيد, و هذا الشي يجب عليهم أنفسهم الاقرار به بعد وقفة تفكر بالموضوع.

الفصل السابع

توجد طريقتان يُمكن بهما أن يكون الكِتاب المُقدس مصدراً للأخلاق أو قواعد المعيشة. الاول بالاوامر المباشرة, مثلا عبر الوصايا العشرة و التي كانت أحد أسباب المرارة في الحروب الثقافية في بعض أماكن أمريكا النائية. و الثاني هو بالأقتداء: الله أو أحد الشخصيات المذكورة الأخرى و الذي يجب علينا اعتبارهُ (لنستعمل التعبير الحديث) مثلاً أعلى. و الطريقتان لو تم اتباعهما عقائدياً (والتعبير هنا برمزيته يشير الى أصله, عقيدة) ستقودا لأخلاقيات معينة و أي شخص عصري مُتدين أم لا سيعتبرها (و لا اجد تعبيراً الطف هنا) بغيضة.

للأمانة, فأن الكثير من الانجيل ليس شريراً بشكل مقصود و لكنه غريب بشكل مباشر, تماماً كما هو متوقع من وثيقة أدبية عشوائية لامور غير متعلقة ببعضها أعدت و حُررت و نُقحت و ترجمت و شوهت و "حُسنت" من قبل المئات من الكتاب و المحررين و الناسخين المجهولين بالنسبة لنا و غالِباً غير معروفين من قبل بعضهم البعض و خلال تسعة قرون[1]. هذا هو ما قد يفسر بعض هذه الغرابة المطلقة للأنجيل. و لكن للأسف فأن تلك الوثيقة الدينية هي نفسها التي يرفعها المُتطرفين ليفروضها علينا لتكون المصدر الاساسي للأخلاقيات و قواعد الحياة. هؤلاء الذين يرغبون أن يُبنوا حياتهم بناء على الانجيل, أما لم يقرأوه أو لم يفهموه غالِباً, كما لاحظ الاسقف جون شيلبي سبونغ في كِتابهِ "**آثام الكتاب المقدس**". الأسقف سبونغ على فكرة هو مثال لطيف لرجل الدين المتحرر و صاحب أيمان لا يعترف به غالبية من يسمون انفسهم بالمسيحيين. و خِلافاً لريتشار هالواي المتقاعد حديثا من منصبه كأسقف أدنبرة. الاسقف هالواي يصف نفسه بأنه (مسيحي متعافي). لقيته في مناظرة علنية في أدنبره و كانت أحدى أهم و أكثر اللقاءات أثارة. [2]

العهد القديم

لنبدأ بسفر التكوين و القصة المثيرة للأعجاب لنوح و المأخوذة من اسطورة بابلية لأوتانابشتيم و المعروفة في أساطير أقدم عند كثير من الحضارات. أن اسطورة الحيوانات التي تذهب للسفينة زوجاً زوجاً جذابة جداً و لكن أخلاقيات قصة نوح تستحق التمحيص. نظر الله للبشرية نظرة ظلماء و قرر بإستثناء عائلة واحدة أن يغرقهم جميعاً ومن ضمنهم الأطفال و أيضاً لأسباب جيدة كُل باقي (المفترض انه لاعتب عليهم) الحيوانات ايضاً دفعة واحدة.

طبعاً رجال الدين المُتضايقين سيعترضون بأننا يجب علينا أن لا نأخذ أحداث سفر التكوين بحرفيته. و لكن تلك هي القضية بعينها! نحن نختار و ننتقي المقاطع التي نؤمن بها من الكتاب المقدس و المقاطع التي نعتبرها رمزية أو مجرد حكايات. و أنتقاء و أختيار كهذا هو موضوع أختيار شخصي, تماما كما يختار المُلحِد أن يتبع أخلاقيات كهذه أو تلك كقرار شخصي و بدون أي أسس مُطلقة. و لو أن أياً من هذهِ الاخلاقيات هي "أخلاقيات أختيارية" فكذلك الأخلاقيات الاخرى و بنفس الدرجة.

على كُل حال و بالرغم من النوايا الحميدة لرجال الدين المرموقين فإن الغالبية من الناس لاتزال تأخذ الكتاب المقدس, بضمنها قصة نوح, بشكل حرفي. و أعتماداً على الأحصائيات فالعدد يتضمن 50% من المنتخبين في الولايات المتحدة. و كذلك و بدون شك الكثيرين من القديسين الاسيويين الذين القوا تبعة التسونامي عام 2004 ليس على تحركات الطبقة التكتونية للارض و لكن على ذنوب البشر[1], و تتراوح الذنوب بين الشرب و الرقص في البارات حتى نقض قاعدة العمل في اليوم المقدس. منقوعين بقصة نوح و متجاهلين كُل شي ماعدا تعاليم الانجيل فمن يلومهم؟ كُل ثقافتهم تدفعهم للتفكير بأن الكوارث الطبيعية مُرتبطة بأعمال البشر بدلاً من أرتباطها بشئ غير واعي مثل حركة الطبقة التكتونية للقارات. و بالمناسبة, فإن ذلك الاعتقاد بالاهمية الشخصية المبالغ به لدرجة الأيمان بأن أحداث تهز العالم بحيث أن الله (أو الطبقات التكتونية) مشغول بها. لماذا يجب على الخالق و الذي في عقله تكمن الازلية و الخليقة أن يكترث لتصرفات خاطئة تصدر عن

1. في الموقع التالي .HTTP://UNIVERSIST.ORG/NEWORLEANS.HTM توجد مجموعة مرعبة من الوعاظ من القساوسة الامريكيين حيث يقومون بألقاء اللوم على ذنوب البشر في مسألة أعصار كاترينا الذي ضرب ولاية نيو أورلينز.

أنسان تافه؟ نحن البشر نهوى بل نعطي فخامة لتضخيم "ذنوبنا" الصغيرة لمستويات كونية.

في مقابلة تلفزيونية مع الموقر مايكل براي, أحد ألأمريكين النشطين المُميزين ضد الاجهاض, سألته عن سبب هوس الأنجيليين المسيحين بأمور الجنس الخصوصية كالمثلية و التي لا تؤثر على حياة أحد آخر. و أحتوى جوابه على شئ كالدفاع عن النفس. المُواطنون الابرياء يمكن أن يكونوا ضحايا غير مقصودين عندما يقرر الله أن يضرب مدينة بكارثة طبيعية لأنها تحوي هؤلاء المذنبين. عام 2005 ضرب فيضان مدينة نيو اورليانز الجميلة كنتيجة لأعصار كاترينا. و صدرت تقارير عن الموقر بات روبرتسون أحد اشهر الانجيلين التلفزيونيين في أمريكا و أحد المرشحين السابقين للرئاسة بأنه القى باللائمة على احدى الكوميديات المثليات التي تعيش في مدينة نيو اورليانز.[1] لابد أنك تفكر بأن إلهاً كلي القدرة سيستخدم أسلوبا أكثر دقة في تحديد الهدف لو أراد عقاب مذنب ما: كستكة قلبية مثلاً عوضاً عن مدينة كاملة كانت لسوء حظ ساكنيها مكان سكن فيه زوج من السحاقيات الكوميديات؟

في نوفمبر 2005 قام مواطنوا دوفر في ولاية بنسلفانيا بإقالة الهيئة التدريسية من المتطرفين ذوي السمعة السيئة الذين أرادوا أن يفرضوا تدريس مايسمى "التصميم الذكي". لقد حولوا المدينة الى بؤرة ان لم نقل أضحوكة. عندما سمع بات روبرتسون بأنه تم أبعاد المتطرفين ديموقراطياً في الانتخابات أعطى تحذيراً شديداً لسكان دوفر:

> أحب أن اقول لسكان دوفر بأنه لو حصلت كارثة في منطقتكم, لا تلجأوا للرب. لأنكم رفضتموه من مدينتكم, و لا تتساءلوا لماذا لم يساعدكم عندما تبدأ المشاكل, هذا لو حصلت مشاكل, و أنا لا

---

1. الخبر المنشور في الموقع الالكتروني HTTP://DATELINEHOLLYWOOD.COM/ARCHIVES/2005/09/05/ROBERTSON-BLAMES-HURRICANE-ON-CHOICE-OF-ELLEN-DENERES-TO-HOSTEMMYS/ **ليس مؤكداً, و بغض النظر عن فيما اذا كان صحيحاً او لا فأن الكثير من الناس مؤمنين به لانه تماماً يوافق الخط الذي تنتهجه مقولات القساوسة الانجيليين. من بينهم روبيرتسون في حديثهِ عن الكوارث مثل أعصار كاترينا. شاهد مثلا,** WWW.EMEDIAWIRE.COM/RELEASES/2005/9/EMW281940.HTM. **و الموقع الذي يتحدث بأن قصة اعصار... (يتبع) كاترينا ليست حقيقية** (WWW.SNOPES.COM/KATRINA/SATIRE/ROBERTSON.ASP) **أقتبس هنا مقولات سابقة لروبيرتسون عن احتفال للمثليين سابق حصل في مدينة اورلاندو في فلوريدا. "أريد أن أحذر أورلاندو بأنها تقع في منتصف الطريق لأعاصير خطيرة, شخصياً لكنت حذراً و ما لوحت بهذه الاعلام بوجه الله فيما لو كنت في نفس موقفك".**

أقول بأنها ستحصل. لكن لو بدأت, تذكروا فقط بأنكم صوتتم لأخراج الله من مدينتكم. و في حالة كتلك لاتسألوه العون, لأنه ربما ليس هناك.[1]

بات روبرتسون كان ليبدو كشخصية كوميدية مضحكة عديمة الاذى لو لم يكن يملك كل هذه السلطة و التأثير في الولايات المتحدة.

في تحطيم سدوم وعمورة, كان الأنسان الموازي لنوح و الذي قُدِر لهُ النجاة مع عائلته لانه كان المستقيم الوحيد, كان أبن اخ أبراهيم و أسمهُ لوط. ملاكان على هيئة رجال أرسلوا على لوط لتحذيره و دفعهِ لترك البلدة قبل ان تمطر كبريت. و رحب لوط بالضيوف الملائكة في بيته بينما اجتمع رجال سدوم حول بيته و سألوه بأن يسلم الملائكة لهم حتى يستطيعوا (ماذا غير؟) ممارسة السدومية معهم: "أين الرجال الذين أتو اليك في الليل؟ اجلبهم لنا حتى نستطيع التعرف عليهم" (التكوين 19 : 5) نعم, "نتعرف" كانت الكلمة التي أستخدمتها النسخة المُعتمدة كمعنى تلطيفي و الذي يبدو مُضحكاً جداً في موقف كهذا. و كياسة لوط في رفض طلبهم يقترح علينا بأن الله ربما يُخطط لشئ ما عندما أختاره من بين الجميع كالرجل الوحيد الصالح في سدوم. و لكن الهالة على لوط تتبخر عندما يعرض رفضه: "أرجوكم يا أخوتي لا تفعلوا هذا الشر. أنظروا, عندي أبنتان لم يلمسهما رجل من قبل: دعوني أحضرهما للخارج اليكم و أفعلوا بهم ما يحلوا لكم: و لكن لا تفعلوا شيئا لهؤلاء الرجال: لانهم تحت سقفي(التكوين19: 7 و 8).

مهما قالت لنا هذا القصة الغريبة, فإنها بالتاكيد تخبرنا عن مدى أحترام النساء في تلك الحضارة المُتدينة بعُنف. و عندما تحصل القصة. فأن المساومة التي يضحي فيها لوط بعذرية بناته كانت غير ضرورية لأن الملائكة نجحوا في طرد اللصوص بأن جعلوهم عمياناً بمعجزة فجائية. و بعدها فورا حذروا لوط بأن عليه أن يرحل مع عائلته فوراً لأن المدينة ستدمر. و كل العائِلة هربت بإستثناء زوجته المنحوسة و التي حولها الرب لكومة ملح لأنها أرتكبت معصية – ربما نعتبرها بسيطة بالمقارنة بالعقوبة – التطلع للوراء لرؤية تلك الالعاب النارية.

---

1. بات روبيرتسون في مقابلة تلفزيونية على البي بي سي. HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/2/HI/AMERICAS/4427144.STM.

و أبنتا لوط تظهران بشكل مُختصر مرة اخرى في القصة. و بعد أن تحولت أمهما لكومة ملح عاشتا مع أبيهما في كهف في الجبال. تتحرقان على مصاحبة رجل, و قررتا أن تُسكرا و الدهما و تناما معهُ. و لوط لم يكن في وضع يسمح له بملاحظة أبنته الكبرى التي أقتربت من سريره أو عندما تركتهُ و لكنه لم يكن سكراناً بشكل لم يسمح لهُ بجعلها تحملُ منه (التكوين19: 31–6). و في الليلة التالية أتفقت البنتان على أن دور الصغرى قد حان. و مرة أخرى جعلها لوط حاملاً. لو أن تلك العائِلة المريبة هي أفضل الموجود في سدوم أخلاقياً, ربما يشعر البعض بالتعاطف مع ألإله و قرارهِ باحراقها بالكبريت.

حكاية لوط والسدوميين لها أعادة مماثلة للصدى بشكل مخيف في الفصل التاسع عشر في سِفر القضاة حيث كان أحد رجال الدين يسافر مع محظيته في منطقة جيفا. و قد أمضوا ليلتهم بضيافة رجل عجوز. و بينما كانوا يتناولون العشاء أتى رجال المدينة يقرعون الباب و يطلبون من صاحب المنزل أن يسلمهم الضيف الذكر حتى (يتعرفوا عليه). و بشكل مُطابق تقريباً لما قاله لوط, قال العجوز: "لاَ يَا إِخْوَتِي. لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا. بَعْدَمَا دَخَلَ هذَا الرَّجُلُ بَيْتِي لاَ تَفْعَلُوا هذِهِ الْقَبَاحَةَ. هُوَذَا ابْنَتِي الْعَذْرَاءُ وَسُرِّيَّتُهُ. دَعُونِي أُخْرِجْهُمَا، فَأَذِلُّوهُمَا وَافْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ. وَأَمَّا هذَا الرَّجُلُ فَلاَ تَعْمَلُوا بِهِ هذَا الأَمْرَ الْقَبِيحَ" (القضاة 19:4-223). و مرة أخرى, الأخلاقيات المُحقرة للمرأة تحضر بكل قوة و وضوح. إنني اجد العبارة " افْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ" تثير القشعريرة. تمتعوا بإغتصاب أبنتي و عشيقة الرجل و لكن قدموا الاحترام لضيفي لأنه قبل كُل شي رجل ذكر. و بالرغم من التماثل بين القصتين فإن خاتمتها كانت أقل سعادة للعشيقة من مثيلتها لابنتي لوط.

رجل الدين سلمها للعصابة التي أغتصبتها جماعياً طوال الليل: "فَعَرَفُوهَا وَتَعَلَّلُوا بِهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ إِلَى الصَّبَاحِ. وَعِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَطْلَقُوهَا. [26]فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصَّبَاحِ وَسَقَطَتْ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ الرَّجُلِ حَيْثُ سَيِّدُهَا هُنَاكَ إِلَى الضَّوْءِ" (القضاة19: 25–26). و في الصباح و جد الرجل محظيته

ساجدة على درج المنزل و قال, بطريقة نعتبرها اليوم فظة و قاسية «قُومِي نَذْهَبْ» و لكنها لم تتحرك. كانت ميتة. "[29]وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ وَأَمْسَكَ سُرِّيَّتَهُ وَقَطَّعَهَا مَعَ عِظَامِهَا إِلَى اثْنَتَيْ عَشَرَةَ قِطْعَةً، وَأَرْسَلَهَا إِلَى جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ". نعم ما تقرأهُ صحيحاً. أفتح سفر القضاة الفصل التاسع عشر. دعونا نُحسن الظن و نضعها مع باقي الامور الغريبة الموجودة في كُل مكان في الانجيل. في واقع الامر فأن الموضوع ليس غريباً الى هذه الدرجة التي نقرأهُ فيها, لقد كان هناك دافع – أشعال روح الانتقام, لان هذه الحركة أشعلت حرب أنتقامية تجاه عشيرة بنيامين حيث أكثر من 60000 رجل خسروا حياتهم, كما يصف سفر القضاءة ذلك بتواضع في فصلهِ العشرين. تلك القصة مماثلة بشكل ما لقصة لوط و لا يُمكننا الا أن نتساءل عما اذا كان ذلك الجزء من المخطوط قد وضع بالخطأ في مكان خاطئ من المخطوطة المنسية: مما يوضح العصبية نحو النص المقدس.

أبراهيم عم لوط هو الأب المؤسس للديانات التوحيدية (العظيمة) الثلاث. و تلك المنزلة الأبوية تجعله هو و ليس الله بشكل ما أقل من أن يتبع كمثل أعلى. و لكن من هو الأخلاقي المعاصر الذي يريد أن يتبع خطواته؟ في باكورة حياته الطويلة ذهب أبراهيم لمصر هرباً من المجاعة مع زوجته سارة. لاحظ عندها بأن امرأة بجمالها ستكون مرغوبة من قِبل المصريين و بالتالي ستكون في خطر و كذلك سيكون زوجها. لذلك قرر أن يتظاهر بأنها أختهُ. و بهذا الصدد أخذت و ضُمت لحريم الفرعون و أصبح ابراهيم غنياً بفضل فرعون. الله لم يوافق على هذهِ الصفقة اللطيفة و أرسل طاعوناً على فرعون و منزله (لماذا ليس على ابراهيم؟) و الفرعون المنفعل طلب من أبراهيم تفسيراً عن لم يقل أبراهيم أن سارة هي زوجته. و اعادها له وطردهم من مصر (التكوين 12:18–19) و يال الغرابة, يبدو أن هذان الاثنان حاولا أن يفعلا نفس الشئ مرة أخرى و هذه المرة مع ابيميليخ ملك جيرار. و هو أيضاً دُفع من قِبل ابراهيم ليتزوج سارة و مرة اخرى على انها أخت أبراهيم و ليست زوجته (التكوين20:2–5). و هو أيضاً أبدا الامتعاض بطريقة مشابهة حرفياً لفرعون, واحدنا لا يملك الا أن يتعاطف مع الاثنين. اليس التشابه هذا مؤشراً على أن النص ليس مما يمكن الوثوق فيه؟

تلك الاحداث الغير سارة في حياة سيرة أبراهيم تبدو كهفوات فقط عند مقارنتها بالقصة البغيضة عن كيف أنه كان في طريقه لذبح إبنه أسحق (في الكِتب المُقدسة الأسلامية تُحكى نفس القصة عن الابن ألآخر اسماعيل). الرب أمر أبراهيم بتقديم قُربان على النار من الابن الذي طالما حلم بأن يكون لديه. بنى أبراهيم مذبحاً و وضع حطبُ النار عليه و ربطَ أبنهُ أسحق فوق الحطب. و السكين الحادة كانت في يده عندما تدخل ملاك بشكل درامي و معهُ أخبار بأن الخطة تغيرت في اللحظة الاخيرة: الرب كان يمزح فقط "ليغري" أبراهيم و ليختبر أيمانه. و الانسان الخلوق المعاصر سيتساءل بالتأكيد عن مدى أمكانية تعافي ألطفل بعد صدمة نفسية كهذه. و بمقاييس الأخلاق الحالية فإن تلك القصة تحتوي على العنف ضد الاطفال, الشراسة في السلطة من جهتين مختلفتين, و أول حادثة موثقة أستعملت بها طريقة دفاع (محاكم نيورنبرغ النازية): "لقد نفذت الاوامر فقط", كل هذا مرة واحدة. و بالرغم من هذا فأن تلك الاسطورة هي أحدى الاساسات الرئيسية في الاديان التوحيدية الثلاثة.

و مرة اخرى سيقول عُلماء الدين المُحدثين بأن قصة تضحية ابراهيم بإبنه لا يجب أن تترجم حرفياً كواقعة. و مرة أخرى ايضاً فان ألاجابة الصحيحة لها شقان. الاول هو أن الغالبية العظمى من الناس في عصرنا لايزالون يأخذون الكتاب المقدس كأحداث كوقائع تأريخية, و هؤلاء لديهم قوة و سيطرة سياسية على الاخرين و نحن منهم, خاصة في الولايات المتحدة و العالم الاسلامي. الشق الثاني هو لو لم ناخذ القصة حرفياً فكيف علينا أن نأخذها؟ فقط كحكاية؟ و لكن حكاية عن ماذا؟ بالتأكيد لاشيء يستحق التقدير فيها. أنأخذها كدرس في الأخلاق؟ و لكن ما نوع الأخلاق التي يمكن أن نستوحيها من تلك القصة المُروعة؟ لنتذكر هنا بأن ما أحاول قوله هنا في هذهِ اللحظة هو أننا عمليا لا نستقي أخلاقنا من الكتاب المقدس. أو إذا فعلنا ذلك فإننا سنختار و ننتقي ماهو لطيف و نرمي ماهو دون. و لكن يجب أن يكون لدينا أساس أخلاقي مُستقل و الذي بواسطتهُ نقرر ماهو التصرف الأخلاقي: أساس ,مهما كان مصدرهُ, لكن لا يُمكن أن يكون من الكتاب المقدس ويجب أن يكون المصدر متوفراً للجميع سواء كانوا مُتدينين ام لا.

المُتدينون يحاولون حتى أن يعطوا شخصية ألأله بعض الحشمة في تلك القصة المرعبة. اليس جيداً أن ينقذ الله حياة اسحق في اللحظة الاخيرة؟ و في حالة سقوط أحد القراء ضحية لتلك المقولة سأسرد قصة أخرى من الاضاحي الأنسانية و التي أنتَهت بنهاية أقل سعادة. في سفر القضاة, الفصل الحادي عشر ينذر القائد العسكري جيبثاه لله بأنه لو ضمن لهُ النصر ضد الأمونيين فإنه سيضحي بدون أي استثناء "أول من سيستقبله على ابواب منزله" عندما يعود. و جيبثاه بالتأكيد ينتصر على الامونيين ("بمذبحة عظيمة" كما هو الحال عموما في كتاب القضاة). و يعود للبيت منتصراً. لا مُفاجأة هنا, أن أبنته الوحيدة خرجت لتستقبله (و هي ترقص و تغني) و– للأسف – كانت هي الكائن الحي الاول الذي فعل ذلك. و مفهوم جداً بأن جيبثاه سقط و مزق ملابسه و لكن ليس هُناكَ ما يستطيع فعله. و يبدو أن الله كان ينتظر ضحيتهُ بفارغ الصبر و بناء على الظروف فقد رضيت الفتاة أن تكون الأضحية. و طلبت فقط أن تخلو بنفسها في الجبل لشهرين لتندب عذريتها. و في النهاية عادت بوداعة حيث شواها جيبثاه. و الرب لم يتدخل هذهِ المرة.

أن غضب الله العظيم عندما يتغزل شعبهُ المُختار مع إله آخر منافس لا يشابه أي شئ كمشابهته للغيرة الجنسية في أسوأ حالتها. و مرة أخرى تبدو واضحة لأخلاقي حديث بعيدة كُل البعد عما يمكن دعوته بالمثال الاعلى. أن الاغراء الجنسي المُسبب لعدم الاخلاص مفهوم. حتى لهؤلاء الذين لا يستسلمون لهُ أبداً و هو موضوع متكرر في الروايات و الاعمال الدرامية, أبتداء بشكسبير و حتى كوميديا غرف النوم[1]. و لكن يبدو لنا في الوقت الحاضر بأن الأغراء الذي لا يقاوم للعبث مع آلهة غريبة أصعب من أن نتفهمهُ. و في رأيي الساذج أجد أنهُ من السهل جداً الالتزام بعبارة "لا يكن لك إله غيري": هذا سهل, ربما تفكر, مقارنة بـــ"لا تشتهي أمرأة جارك". أو حمارها (أو ثورها). و بالرغم من ذلك فكان على الرب أن يدير ظهره لبرهة حتى يبدأ أبناء أسرائيل بعبادة بعل أو صورة محفورة اخرى[2] أو في لحظة قاحلة, العجل الذهبي. هذا الطابع المميز لكتاب العهد القديم, و يتكرر بنفس الصورة المتوقعة و بشكل مستمر أشبه بكوميديا غرفة النوم.

1. كوميديا غرفة النوم هو أحد أشكال الفكاهة الدرامية أو الكوميديا المعروفة و التي تتناول الجنس و المفارقات الجنسية كمادة دسمة (المترجم).

2. جوناثان ميلر هو الذي أعطاني هذه الفكرة الفكاهية, من الغريب فعلاً أنه لم يتناولها في مقطع ما في (BEYOND THE FRINGE) أشكره ايضاً على الكتاب الثقافي أعلمني بهِ و القائم على هالبيرتال و مارجاليت, (IDOLATRY, 1992).

أن موسى يمكن اعتباره كمثل أعلى أكثر من ابراهيم لأتباع الديانات التوحيدة الثلاث. ربما يكون أبراهيم الاب الأول لتلك الديانات. و لكن الذي يمكن دعوته بالمؤسس و المُلقن الاول لتلك الديانات هو موسى. و في حادثة العجل الذهبي كان موسى في طريقه لأعلى جبل سيناء يناجي ربهُ و يأخذ منهُ الالواح المنقوشة من قبلهِ. و الناس في الاسفل (لا يُمكنهم معها لمس الجبل و الا الاعدام) لم يُضيعوا الوقت:

وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا من أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ»" (خروج 32: 1).

هارون أمر الجميع بأن يخرجوا كل ما لديهم من ذهب ثم أذابهُ و صنع منه العجل الذهبي و لهذا ألإله المُخترع بنى مذبحاً حتى يبدأ الناس بالتضحية له.

ربما كان عليهم أن يعرفوا عاقبة العبث مع الرب بهذا الشكل. رُبما أنه كان في أعلى الجبل, و لكن بالرغم من ذلك فهو العليم و لم يضيع أي وقت في ارسال آمر الشرطة موسى اليهم بالاسفل. وموسى سارع بالنزول من الجبل حاملا الالواح الحجرية التي نقش عليها الله الوصايا العشرة. و عند وصوله رئى العجل الذهبي و غضب لدرجة أنه أوقع الالواح من يده و تحطمت (الله اعطاه الواحاً بديلة لاحقاً و بذلك رجعت الامور لنصابها). أمسك موسى بالعجل الذهبي و أحرقه و طحنه الى رماد و خلطها بالماء و أرغم الناس على أبتلاعه. ثم قال للجميع في عشيرة ليفي المتدينة لأن يستلوا سيوفهم و يقتلوا أكبر عدد ممكن من الناس. و وصل العدد لحوالي ثلاثة آلآف و ربما يحق لنا أن نأمل بأن ذلك كاف لتخفيف زعل ألإله الغيور. لكن لا, لم ينته الله بعد. ففي ألآية الاخيرة من هذا الفصل المُرعب "هذا الذي يذنب تجاهي سأستأصلهُ مِن كتابي": كانت الضربة الاخيرة بإرسال طاعون على من بقي من الناس (لانهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون).

سفر العدد يخبرنا كيف حرض الله موسى بأن يهاجم الْمِدْيَانِيِّينَ. جيشهُ قام بذبح كُل الرجال و بحرق كُل مدن الْمِدْيَانِيِّينَ و لكنهم لم يقتلوا النساء و الاطفال. و تلك الرحمة التي مارسها الجنود أغضبت موسى و أعطى أوآمرهُ بقتل الصبيان جميعهم و كذلك كُل الاناث الغير عذراوات. "لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ."(العدد 31: 18) لا.. ماكان موسى مثالاً خلقياً عظيماً يحتذى بالنسبة للأنسان المعاصر.

في الوقت الحاضر عندما يحاول المُتدينون المُحدثون الكتابة عن الموضوع و زج معنى رمزي أو مجازي لتلك المذبحة فإن تلك الرموز تأخذ أتجاهاً خاطئاً. الْمِدْيَانِيِّينَ المساكين و بحسب ما نستطيع قوله من الكتب كانو ضحية مذبحة في عقر دارهم. و بالرغم من ذلك يعيش أسمهم في الفكر المسيحي حصرياً في تلك الترنيمة المسيحية (التي لازلتُ أستطيع ترنيمها بلحنين مختلفين بعد خمسين عاماً) و التي تدعو المؤمنين للهجوم الكامل.

يا مسيحي.. هل تراهم
على ارضنا المُقدسة
تجمع جيش الْمِدْيَانِيِّينَ؟
لأهدافٍ دنسة
يا مسيحي قُم و أضربهم
فالنصر يبقى لنا
اضربوهم بعنف حتى
ينتصرُ الصليبُ بنا[1]

يال المساكين الْمِدْيَانِيِّينَ المُفترى عليهم و المذبوحين يذكرون فقط كرمز شعري عن الشر العالمي في أحد ترانيم النصر.

الاله المحلي بعل يبدو و كأنهُ كان دائم الاغراء للعباد الباحثين عن مذبح جديد. و في سفر العدد الأصحَاحُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ أغرت نساء الموآبيين

1. ترجمة بتصرف (المترجم).

الكثيرين من بني أسرائيل أن يضحوا لبعل. ردة فعل الرب كانت تجسيداً للغضب الالهي حيث أمر موسى "خُذْ جَمِيعَ رُؤُوسِ الشَّعْبِ وَعَلِّقْهُمْ لِلرَّبِّ مُقَابِلَ الشَّمْسِ، فَيَرْتَدَّ حُمُوُّ غَضَبِ الرَّبِّ عَنْ إِسْرَائِيلَ". و لا أحد يستطيع الا أن يتعجب على وجهة النظر المُتشددة نحو ذنب مغازلة أحد الآله المحليين. و بالنسبة لقيمنا العصرية و أصطلاح العدالة تبدو تلك الامور لنا أبسط بكثير من تقديم أبنتك لأغتصاب جماعي. و هذا مثال آخر على الهوة الموجودة بين الكتاب المقدس و الأخلاق العصرية (من المغري هنا القول: الحضارية). و بالتأكيد, ذلك يفهم بسهولة باستعمال نظرية الميمات و المواضيع التي تحتاجها الالهة لتستمر في الوجود في بنك الميمات.

ان المهزلة المأسآوية لهوس الغيرة ألإليه من الالهة الأخرى تتكرر خلال العهد القديم. أنها الطلب الاول للوصايا العشرة (التي كتبت على الالواح التي كسرها موسى: الخروج 20, التثنية 5), و تظهر بوضوح أكبر (و بشكل مُختلف) بالوصايا البديلة التي قدمها الله لتحل محل الالواح المكسورة (الخروج 34). و بعد وعدهِ بطرد العموريين و الكنعانيين و الحثيين و الفرزّيين و الحوّيين و اليبوسيين من الشعوب من أرضهم يبدأ الله بأهم الاشياء: الآلهة المنافسة.

> بَلْ تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتَقْطَعُونَ سَوَارِيَهُمْ. فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لإِلهٍ آخَرَ، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلهٌ غَيُورٌ هُوَ. اِحْتَرِزْ من أَنْ تَقْطَعَ عَهْدًا مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، فَيَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ وَيَذْبَحُونَ لآلِهَتِهِمْ، فَتُدْعَى وَتَأْكُلُ من ذَبِيحَتِهِمْ، وَتَأْخُذُ من بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكَ، فَتَزْنِي بَنَاتُهُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ، وَيَجْعَلْنَ بَنِيكَ يَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ. لاَ تَصْنَعْ لِنَفْسِكَ آلِهَةً مَسْبُوكَةً. (خروج 34: 17-13).

بالطبع أعرف بأن الزمن قد تغير و ليس هُناكَ من رجال الدين (بإستثناء طالبان و أشباههم من المسيحيين الأمريكان) من يفكر بنفس طريقة موسى. و لكن تلك هي النقطة التي أُريد أن أركز عليها. كُل ما أُريد أن أؤكدهُ هنا هو بأن الأخلاقيات الحديثة, مهما كان مصدرها, فمصدرها ليس الكتب المقدسة. لا يُمكن للمُتدينين التملص هنا بالادعاء بأن الدين يمدهم بما يشبه شعور

داخلي يجعلهم يتعرفون على ما هو صحيح و ماهو سئ – كمصدر نبيل غير متوفر للمُلحِدين. لا يستطيعون التملص و لن تفيدهم خدعتهم المُفضلة عن تفسير الكتاب بشكل "رمزي" عوضاً عن حرفي. ماهي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية و ماهي الحرفية؟

أن التصفية المذهبية للشعوب التي بدأت في عهد موسى تصل أقصى دمويتها في سفر يوشع, سفر يتميز بمذابحهِ المُتعطشة للدماء و الحقد على الآخر الذي يتوجب ذبحهُ. كما تقول الاغنية البهيجة "يوشع و في معركة أريحا, أهتزت الحيطان و وقعت... ليس هُناكَ أحد مثل يشوع الشيخ عند الأله, في معركة اريحا". " كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ من رَجُل وَامْرَأَةٍ، من طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ" (يوشع 21: 6).

و مرة أخرى يزعم رجال الدين بأن هذا لم يحدث, حسناً, القصة تقول بأن الحيطان تهدمت من أصوات رجالٌ يزعقون و ينفخون النفير, بالطبع لم يحدث ذلك و لكن ليس ذلك ما هو مهم في الموضوع. النقطة هنا هي أن, صح ام خطأ, الكتاب المقدس يفرض علينا بإعتباره مصدر الأخلاق. و قصة يشوع و تدميره لاريحا و أحتلال أرض الميعاد بشكل عام لا يُمكن تمييزها خلقياً عن غزو هتلر لبولندا أو مذبحة صدام حسين بالاكراد و عرب الاهوار. ربما يكون الكتاب المقدس عمل شاعري و خيالي رائع و لكنه ليس بذلك الكتاب الذي يجب أن تعطيه لأطفالك ليستقوا منه أخلاقياتهم. و هنا أُريد الذكر بأن قصة يشوع كانت موضوع تجربة مُثيرة للاهتمام في أخلاقيات الطفل و التي سنناقشها لاحقاً في هذا الفصل.

و على فكرة, لا تظن بان الشخصية الالهية في تلك القصة كان لديها أي أعتراض على المذابح و التدمير الذي رافق أحتلال أرض الميعاد. بل على العكس, فأوامرهُ على سبيل المثال في سفر التثنية كانت مثال لعدم الرحمة. لقد أوضح الفروق بين الأناس الذين يعيشون على الارض الموعودة و أولئك الذين يعيشون بعيداً عنها و الذين يجب أن يستسلموا بهدوء. و في حال رفضهم فيجب قتل كُل الرجال و أخذ كُل النساء للانجاب. و على العكس من ذلك الحكم الذي يبدو بالمقارنة أنسانيا لننظر لما ينتظر اؤلئك المنحوسين بشكل كاف ليكونوا سكان الارض الموعودة: "أَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي

يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ منهَا نَسَمَةً مَّا، بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ ".

هل يعرف هؤلاء الذين يرشحون الكتاب المقدس كمصدر للأخلاق ما هو مكتوب فيه؟ التُهم التالية عقوبتها القتل كما ورد في سفر اللاويين: سب الاهل و الزنا و ممارسة الجنس مع زوجة الاب أو الكنة و المثلية الجنسية و الزواج من امرأة و أبنتها و ممارسة الجنس مع البهائم (و زيادة بالأيذاء فأن البهيمة المسكينة يجب قتلها أيضاً). و يجب أعدامك ايضاً بالطبع كعقوبة للعمل في اليوم المقدس: النقطة تؤكد نفسها مرة تلو الأخرى من خلال العهد القديم. و في سفر العدد يلاقي بني أسرائيل شخصاً يجمع الحطب في الغابة في اليوم المحرم. أوقفوه و سألوا الله ما يفعلون به. و كما تبين لم يكن الله في مزاج لتقبل أنصاف الحلول في ذلك اليوم. "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلاً يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». [36]فَأَخْرَجَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ، فَمَاتَ كَمَا". هل كان لدى جامع الحطب المُسالم زوجة و أطفال ينعوه؟ هل نشج من الخوف عندما أرتفعت أولى الحجرات, و هل صرخ من الالم عدما أصطدمت برأسهِ؟ ما يصدمني في يومنا هذا في قصص كهذه ليس أنها حدثت بالفعل. فربما لم تحدث. ما يجعلني فاغر الفم هو أن بعض الناس يظنون أن عليهم أن يبنوا حياتهم و يتمثلون يهوه كنموذج يحتذى بهديه – و الاسوأ من ذلك بأن عليهم أن يحاولوا أن يفرضوا ذلك الشر الأخلاقي (بغض النظر عن كونه واقعي أم لا) على الاخرين منا.

إن القوه السياسية للوصايا العشرة في أمريكا هي مما يؤسف له بشكل خاص في تلك الجمهورية العظيمة و التي سُنت قوانينها قبل أي شئ آخر من قبل رجال متنورين و علمانيين بشكل كامل. و لو أخذنا الوصايا العشر بشكل جدي لأعتبرنا عبادة الهة أخرى و نحت صور لها كذنوب من تأتي في المرتبة الاولى و الثانية. و عوضاً عن أستنكار عمل طالبان التخريبي الذي فجر بالديناميت تمثال بوذا البامياني في جبال أفغانستان يجب علينا ابداء آيات التقدير لتقواهم المُستقيمة. و ما نفكر بهِ كعمل تخريبي كان بالتأكيد مدفوعا

من شعور ديني صادق الحماس. و ما يؤكد لنا ذلك هو القصة الغريبة التي ظهرت في صحيفة "الانديبنتدت" اللندنية في عددها الصادر في السادس من آب 2005. و على صفحتها الاولى و بالخط العريض كان العنوان: "تدمير مكة", كتبت الاندبيندنت:

> مكة التأريخية, مهد الاسلام, تكاد تدفن تحت هجوم لم يسبق له مثيل من قبل المُتدينين المُتعصبين. كُل التأريخ الغني و المتعدد الاوجه لتلك المدينة المقدسة ذهب... والان تواجه المدينة التي ولد بها النبي محمد الجرافات و بالتغاضي التام من قبل الحكومة الدينية في السعودية و التي يدفعها تفسيرها الحرفي للاسلام لمحو كُل أرثها التأريخي... الدافع خلف ذلك الدمار هو خوف الوهابيين المتطرفين من أن مكاناً بتلك المكانة التأريخية بإمكانه أن يكون سبباً لعبادة الاصنام أو للاشراك بالله. و عبادة آلهة مُتعددة و متساوية و ممارسة الشرك في السعودية لايزال يعتبر جريمة عقوبتها قطع الرأس.[1]

لاأظن بأن هُناكَ مُلحِدا في العالم يُمكن أن يُفكر بأن يهدم مكة بالجرافة أو كاتدرائية شارتر يورك أو نوتردام أو تنين تشو أو معبد كيوتو و بالطبع أيضاً تمثال بوذا الباماياني. و كما قال العالم ألأمرَيكي الحائز على جائزة نوبل ستيفن واينبرغ "الدين إهانة لكرامة الانسان, بهِ أو بدونه فسيكون دائماً هُناكَ أناس طيبون يفعلون الخير و سيئون يفعلون الشر و لكنك تحتاج للدين كي تجعل أناس طيبين يفعلون الشر". بليز باسكال (صاحب الرهان) قال شيئا مشابها: "لا يقترف الأنسان عملاً شريراً بسرور و بشكل كامل الا إذا فعلها بسبب قناعة دينية".

هدفي الاساسي هنا ليس أن أعرض بأنه ليس علينا أن نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة (رغم أن ذلك هو رأيي الشخصي). أن هدفي هو توضيح الواقع باننا (و هذا يتضمن الكثيرين من المُتدينين) في الحقيقة لا نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة. و لو فعلنا, لحفظنا يوم السبت و فكرنا بأنه من المنطقي و العادي

---

1. "جميعنا يدفع ثمن هذا البحر من الجنون للتعصب السعودي", مقولة لجوآن هاري تفضح الوهابية السعودية و تغللها في بريطانيا اليوم. هذا النص تم نشرهُ اولاً في الثامن من شباط **2007** و تم أعادة نشره في مختلف الصفحات على الشبكة العنكبوتية. منها, RICHARDDAWKINS.NET.

اعدام أي شخص لا يفعل ذلك. كنا رجمنا أي عروس لا تستطيع اثبات بأنها عذراوات, و ذلك عندما يعلن الزوج عدم قناعته بذلك. لأعدمنا الاطفال العاقين و و و .. و لكن أنتَظر. ربما أنني لستُ عادلاً هنا. و المسيحيون اللطيفون سيعترضون على هذا الفصل: الكل يعرف بأن العهد القديم ليس لطيفاً. و العهد الجديد بشخصيتها المركزية يسوع أصلح الخطأ و جعل كُل شئ على ما يرام... اليس كذلك؟

هل العهد الجديد بأفضل حال؟

وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا.". الكوميدية ألأمرَيكية جوليا سويني عبرت عن حيرتها من خلال عرضها المسرحي المنفرد "**دعنا نترك ألإله**".[1] اليس هذا ما يفعلهُ المُتطرفون؟ يدفعون الشخص لمقاطعة عائلته ليسهل لهم غسيل دماغه؟ [2]

و بالرغم من قيمهِ العائلية المثيرة للشكوك فقد كانت تعاليم المسيح الأخلاقية ,على الاقل بالمقارنة مع الأخلاقيات الكارثية للعهد القديم, مُثيرة للاعجاب: و لكن هُناكَ تعليمات أخرى في العهد الجديد من النوع الذي لا يفترض أنهُ أنسان جيد أن يتبعها. و هنا أنوه بالاخص للفكرة المركزية للمسيحية "غفران الخطيئة المتوارثة". تلك التعليمات التي تشكل قلب العهد الجديد و تقارب بأخلاقياتها البغيضة قصة أبراهيم و قراره بشوي أبنه أسحق و التي تشابه, و هذا ليس صدفةٍ, كما يوضح غيزا فيرميس في كتابه "**الاوجه المختلفة للمسيح**". الخطيئة الاصلية بحد ذاتها أتت من العهد القديم و من أسطورة آدم و حواء و أرتكابهم الذنب باكلهم من الفاكهة المُحرمة, تبدو بسيطة لدرجة أن بعض التوبيخ كان كافياً. و لكن الطبيعة الرمزية للفاكهة (معرفة للخير و الشر و التي ظهرت بمعرفتهما بأنهما كانا عاريين) كانت كافية لتحويل تلك السرقة الطائشة لتُصبح أماً و أباً لكل ذنب. هم و كل نسلهم حرموا للابد من جنات عدن و منعت عنهم الحياة الابدية و لعنوا لأجيال من العمل الشاق في الحقول و آلآم الولادة.

كل ذلك الانتقام يستمر معنا, كما هو الحال في العهد القديم. العهد الجديد أضافَ ظلما آخر مُطعم بسادومازوشية عنيفة لا تقارن حتى بالعهد القديم. أن من المثير للتساؤل عندما تمعن التفكير, أن دين ما يتبنى أداة للتعذيب و الاعدام كرمز مُقدس و تلبس غالِباً حول العُنق. ليني بروس لديه الحق في الاستهزاء عندما قال: "لو أعدم المسيح قبل عشرين عاماً. سيلبس اطفال المدارس الكاثوليكية كراسي أعدام كهربائية صغيرة حول أعناقهم عوضاً عن

1. جوليا سويني تصيب قلب الحقيقة ايضاً عندما تتطرق و بشكل مختصر الى البوذية. تماماً مثل المسيحية ينظر لها البعض بأنها ديانة أكثر لطف و محبة مقارنة بالاسلام. و في اغلب الاحيان يتم الاشارة الى البوذية كأفضل الاديان. لكن فكرة الانتقال الى درجات ادنى في عملية تناسخ الارواح بسبب الذنوب في الواقع مزعجة جداً. تقول جوليا "لقد كنت في زيارة الى تايلندا و صدف أنني قمت بزيارة أمرأة تقوم برعاية طفل مشوه الى درجة عالية". أضافت جوليا "لا تقولوا يال الطفل المسكين, لانه بالتأكيد قد فعل شئ فضيع في حياته السابقة كي يلد هكذا مشوهاً".

2. دراسات أكثر عمقاً لأساليب أخرى تستخدم لهذا الغرض تستطيع أن تقرأ عنها في (BARKER, 1984). المزيد من التحقيقات الصحفية للثقافات المعاصرة تجدها في (LANE, 1996) و (KILDUFF & JAVERS; 1978).

الصليب". و لكن العقائدية و النظرية العقابية التي بُنيت عليها كانت حتى أسوأ. ذنب آدم و حواء يبدو و كأنه ورث خلال سلالة الذكور, مروراً عبر الحيوانات المنوية كما ورد عن القديس أوغوستين. ما تلك الفلسفة الأخلاقية التي تحكم كُل طفل, حتى قبل أن يولد, ليرث ذنب سلف بعيد له؟ أوغوستين, بالمناسبة, الذي أعتبر نفسهُ نوعاً من السلطة في موضوع الذنوب هو الذي اوجد التعبير "الخطيئة الاصلية". و قبلهُ كانت معروفة بــ"خطيئة الاسلاف". تصريحات أوغوستين و الحوار الدائر بين رؤساء الكنيسة الاوآئل يلخصان بالنسبة لي مدى أنشغال رجال الدين المسيحي لدرجة التلبس بمسألة الذنب. كان بوسعهم تكريس الصفحات للتسبيح للسماء المرصعة بالنجوم أو الجبال بغاباتها الخضراء و البحار و جوقات المساء. تلك الامور أشير اليها في المناسبات, و لكن المسيحية ركزت بشكل كبير على الذنب الذنب الذنب الذنب. ما أتفه ذلك ليكون شغل حياتك الشاغل. سام هاريس عبر عن ذلك بشكل رائع في كتابه "**رسالة الى وطن مسيحي**": "**شغلكم الشاغل هو القلق بسبب أن خالق الكون لايقر بالأشياء التي يؤديها الناس وهم عراة. ذلك التزمت هو مساهمتكم اليومية تجاه البؤس الأنساني**".

ولكن ألآن فأن ألإله السادومازوشي يتجلى في هيئة أنسان, المسيح, ليتعذب و يُعدم كتفكير عن خطيئة آدم المتوارثة. و منذ أن نشر بولس تعاليمهُ البغيضة بدأت عبادة المسيح كشفيع لكل خطايانا. و ليس فقط لخطيئة ادم في الماضي: و كذلك الخطايا المستقبلية و لا يهم أن كان سكان المستقبل سيفعلونها ام لا!

ومن جانب اخر, خطرت للبعض, و منهم روبرت غرافيس في قصته الملحمية "**الملك المسيح**" بان هذا المسكين يهوذا الاسخريوطي قد عومل بصورة غير عادلة تأريخياً, نظراً لأن "خيانته" كانت ضرورية للمخطط الكوني. و يمكن قول نفس الشئ عن قتلة المسيح المزعومين. أذا كان المسيح يرغب بأن تتم خيانته و قتله فداء لنا جميعاً فهل من العدل أن يعلق هؤلاء الذين غسلت خطاياهم كل الذنب بأعناق يهوذا و اليهود عبر القرون؟ لقد أشرت مسبقاً الى تلك اللائحة الطويلة عن الاناجيل الغير رسمية. و أحدها يعتبر الانجيل الضائع الذي كتبهُ يهوذا و قد تُرجم حديثا و بالتالي أصبحت له

سمعة.[1] أن ملابسات أكتشافهِ لازالت قيد التمحيص و لكن على ما يبدو أنهُ ظهر في مصر في الستينات أو السبعينات. و هو مخطوط باللغة القبطية على 62 صفحة بردى و تأريخة الكربوني يعود لـــ 300 ميلادية و ربما كان أصلهُ من مخطوط أقدم باللغة اليونانية. مهما كان الكاتب فإن المخطوط هو وجهة نظر يهوذا الاسخريوطي و يدعي بأن المسيح قد طلب منه أن يلعب هذا الدور. كُل شئ كان جزءاً من الخطة لصلب الميسح حتى يستطيع تخليص الأنسانية. مهما كان ذلك التلقين بغيضاً فإنه يؤكد على أن الحقد كان قائماً على يهوذا منذ ذلك الوقت.[2]

لقد تحدثنا عن الفداء, الذي هو قلب التعليم المسيحي, هذا الشر السادومازوشي البغيض. علينا نبذه كصراخ المجانين الهاربين, لولا أن أنتشاره و تعودنا عليه قد أعاق موضوعيتنا. لو أراد الله أن يغفر ذنوبنا فلماذا لا يغفرهم فحسب, بدون أن يتعذب و يعدم ثمناً لهم – كنتيجة لتلك الحادثة تسبب باللعنة لاجيال المُستقبل القادمة من اليهود ليقاسوا المذابح المدبرة و الاضطهاد لانهم "قتلة المسيح"؟ هل أنتَقل الذنب خلال الحيوانات المنوية أيضاً؟

كما يوضح لنا العالم اليهودي غيزا فيرم فأن بولس كان غارقاً بالنظرية الدينية اليهودية القديمة حيثُ لاغفران بدون دماء.[3] بالتأكيد, ففي رسالته للعبرانيين(22:9) قال ذلك. و علماء الاخلاق المُحدثون في ايامنا هذه يجدون صعوبة في الدفاع عن أي نوع من أشكال الانتقام في نظرية العقاب ناهيك عن نظرية الفداء – كأعدام برئ لغفران ذنوب المذنبين. على أي حال (لايملك المرء الا أن يتساءل), من ذا الذي اراد الله أن يترك أنطباع لديه؟ ربما أمام نفسه – الحاكم و المحكوم و ضحية الاعدام. و كي يكتمل المشهد فأن آدم, الخاطئ المفترض الذي أقترف الخطيئة الاصلية, ليس لهُ وجود بالاساس, حقيقة مزعجة لم تكن معروفة لبولس ربما و لكن من المُفترض أنها معروفة من ألإله الكلي المعرفة (و للمسيح, أذا كان ألهاً؟) – و هذا ينسف كل هذه النظرية من أساسها. و لكن بالطبع فأن قصة آدم و حوآء

1 . Paul Vallely & Andrew Buncombe, "History of Christianity: Gospel according to Judas", Independent 7 Aprile 2006.

2. **في كتابهم (Reading Judas, 2007) القائم على ترجمة أنجيل يهوذا للكاتبتان أيلاين باجيلس و كارين ل. كينغ, يتم أعطاء يهوذا الاسخريوطي صورة كريمة لهذا العدو الازلي و الذي يأتي بصيغة الشخص الثالث في نفس الانجيل.**

3 . Vermes (2000).

كانت رمزية فقط, اليس كذلك؟ رمزية؟ حسناً. لأجل أن يثير المسيح أنطباعاً مؤثراً في نفسه فقد ترك نفسهُ يُعذب و يُعدم في عقوبة مروعة لأجل ذنب **رمزي** أرتكبهُ شخص لم يوجد اصلاً؟ و كما قلت فهي قصة مثيرة للأشمئزاز كصراخ المجانين الهاربين.

قبل أن اترك الكتاب المقدس أحتاج أن أنبه تحديداً لاحد الطرق الغير مستساغة في تعليماته الاخلاقية. من النادر أن ينتبه المسيحيون للقيم الأخلاقية تجاه الآخر التي يروج لها العهدان القديم و الجديد و أنها بالاصل مخصصة للتجمعات الصغيرة و المُغلقة. "أحُبب قريبك" لم تعني ما نظن أنها تعنيه اليوم. بل كانت تعني "احُبب اليهودي الآخر". تلك النقطة أكد عليها بشكل دقيق الطبيب ألأمرَيكي و عالم التطور الأنساني جون هارتونغ. لقد كتب مقالا رائعاً عن التطور و تأريخ الكتاب المقدس و أخلاقيات التجمعات المُغلقة, موضحاً الوجه ألآخر من الصورة حيث العداء تجاه الجماعات الاخرى.

أحِبَّ قَرِيبَكَ

أختفي الى السماء كنتيجة لذلك, سيكون من الضروري أن يقوم قديسوا المحنة بأدارة صفحة الانترنت هذه". (ربما لاتعرف معنى قديسو المحنة هنا.. لاتزعج نفسك فلديك ما هو اهم من ذلك).[1]

ترجمة هارتونغ للانجيل لا تعطي أي قاعدة يمكن أن تؤدي لمثل هذا التعجرف بين المسيحيين. المسيح حدد المجموعة التي سينوبها الخلاص لتكون من اليهود و ذلك بإتباع تقاليد العهد القديم و الذي كان كُل ما يعرفه. يوضح هارتونغ بأن "لا تقتل" لم يقصد بها أبداً ما نظن أنها تعنيه الآن. بل أنها عنت بشكل خاص, لا تقتل اليهود. و كل تلك الوصايا التي تشير الى "القريب" خاصة كذلك. "القريب" تعني الرفاق اليهود. الطبيب و الحاخام شديد التقدير أبن ميمون من القرن الثاني عشر, يشرح معنى "لا تقتل" كالتالي: "عندما يقتل أحد ما أسرائيلياً فهو يخالف أحد الوصايا المانعة لأن الكتاب المقدس يقول, لا تقتل. و أذا قتلَ أحد ما شخصاً بإرادته و بوجود شهود فيجب اعدامه بالسيف. و بالطبع فأننا لا نحتاج لاعدام من يقتل وثنياً." بالطبع!

و يقتبس هارتونغ من السانهدرين (المحكمة اليهودية العليا المرؤوسة من قِبل الكاهن الاكبر) و الذي أصدر بيانات تنحو نفس المنحى حيث قام بتبرئة رجل فرضياً قام بقتل أسرائيلياً بالخطأ بينما كان يحاول قتل حيوان أو وثني. هذا اللغز الأخلاقي المُحير يثير نقطة مهمة. ماذا لو أنهُ قام برمي حجراً على تسعة و تثيين و أسرائيلياً واحِداً و لسوء الحظ قتلنا الاسرائيلي؟ ... هممممم.. صعبة اليس كذلك! لكن الجواب جاهز. "لا مسؤولية تجاه ذلك كون الغالبية كانت من الوثنيين".

يتسعمل هارتونغ العديد من العبارات الانجيلية كما فعلت أنا في هذا الفصل عن غزو الارض الموعودة من قبل موسى و يشوع و القضاة. كنتُ حريصاً على أيضاح بأن المُتدينين لم يعودوا يفكرون بطريقة الكتاب المقدس. و بالنسبة لي فإن ذلك يبين بأن أخلاقنا بغض النظر عن كوننا مُتدينين ام لا, تأتي من مصدر آخر, بغض النظر عن التدين أو عدمه. و لكن هارتونغ يحكي لنا عن دراسة مرعبة قام بها عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين.

1. ربما يتسآءل القارئ الان ما المقصود بقديسوا المحن, لا تشغل نفسك بهذا, فلديك أشياء أهم تشغل نفسك بها.

لقد أعطى تامارين لاكثر من الف طالب أعمارهم بين الثامنة و الرابعة عشر من أسرائيل, نصا عن معركة أريحا من كتاب يوشع.

قال يشوع للشعب: اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَعْطَاكُمُ الْمَدِينَةَ. فَتَكُونُ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا مُحَرَّمًا لِلرَّبِّ. رَاحَابُ الزَّانِيَةُ فَقَطْ تَحْيَا هِيَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهَا قَدْ خَبَّأَتِ الْمُرْسَلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرْسَلْنَاهُمَا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاحْتَرِزُوا مِنَ الْحَرَامِ لِئَلاَّ تُحَرَّمُوا، وَتَأْخُذُوا مِنَ الْحَرَامِ وَتَجْعَلُوا مَحَلَّةَ إِسْرَائِيلَ مُحَرَّمَةً وَتُكَدِّرُوهَا. وَكُلُّ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ تَكُونُ قُدْسًا لِلرَّبِّ وَتَدْخُلُ فِي خِزَانَةِ الرَّبِّ.

ثم سأل تامارين التلاميذ سؤالا أخلاقياً بسيطاً: "هل تعتقد بأن تصرف يشوع و الاسرائيليين صحيح أم خاطئ؟" والخيارات التي كانت لديهم. (أ). صحيح بشكل مطلق. (ب) أقرار جزئي. (ج) خاطئ بشكل كامل. النتائج كانت واضح. 66% صحيح بشكل كامل. و 26 خاطئ بشكل كامل. و 8% أقرار جزئي. اليكم ثلاثة أمثِلة من الذين يعتقدون بصحة الفعل اعلاه بشكل كامل:

برأيي أن يشوع و أبناء اسرائيل فعلوا تصرفوا بشكل صحيح, و اليكم السبب: الله وعدهم بالارض و أعطاهم الأذن بإحتلالها. و لو لم يفعلوا ما فعلوه و لم يقتلوا احداً فلربما كان هُناكَ خطر من احتمال بأن يضيع أبناء اسرائيل بين الغوييم (الغير يهود).

برأيي أن يشوع كان على حق فيما فعل, السبب الاول هو أن الله أمره بالقضاء على الاخرين حتى لا يستطيع بنو أسرائيل أن يضيعوا بين الاخرين ويتعلموا منهم العادات السيئة.

يوشع تصرف بشكل صحيح لأن سكان تلك المنطقة من دين مُختلف و عندما قتلهم يشوع محى أديانهم من الارض.

في كُل حالة من تلك الحالات كان تبرير المذبحة دينيا. حتى في بعض الحالات في حالة الرفض بشكل كامل (ج) تم تبريرها لاسباب دينية. أحد الفتيات مثلاً رفضت غزو يشوع لأريحا بسبب ان أحتلالها يستدعي دخولها:

اظن أن ذلك سيئاً لان العرب نجاسة و عندما يدخل أحد ما أرض نجسة سيصبح نجس أيضاً و ملعون مثلهم؟

و أثنان اخران من الذين رفضوا بشكل كامل تصرف يشوع بسبب أن يشوع دمر كُل شئ, حتى الحيوانات و الأملاك بدلا من أن يضعها في خدمة الاسرائيليين:

أظن أن يشوع لم يتصرف بشكل جيد لانهم كان بإستطاعتهم أن يستخدموا الحيوانات.

أظن أن يشوع لم يتصرف بشكل جيد لانه كان يستطيع أن يترك أملاك أريحا بحالها. لو لم يدمر منازلها لأصبحت للاسرائيليين.

و مرة أخرى. أبن ميمون, الذي غالِباً ما يُستشهد بحكمتهِ العلمية, نرى موقفه بدون شك في أمر كهذا: "أنها وصية ايجابية تدمير الشعوب السبعة, لانه قال: عليكم تدميرهم بالكامل. و لو ترك أي منهم حياً رغم أستطاعة قتله لكان ذلك مخالفة للوصية لانها تقول: "لا تتركوا أي شئ يتنفس على قيد الحياة".

على عكس أبن ميمون فإن الاطفال في تجربة تاميران صغار و أبرياء. و ربما كانت وجهة النظر الوحشية تلك من أهاليهم, أو الثقافة في الوسط المحيط الذي تربوا فيه. و على ما أظن فإن الاطفال في فلسطين قد تربوا بطريقة مماثلة في البلد الذي تشتته الحروب و سيعطون آراء مماثلة و لكن في الاتجاه المعاكس. تلك الاعتبارات تملؤني باليأس. يبدو أنها تستعرض الطاقة الهائلة للدين و بالاخص التربية الدينية للاطفال التي تفرق بين الناس و تبني العداوات التأريخية و الثأر المتوارث. لا أستطيع تجاهل أن أثنان من اصل ثلاثة تبريرات في تجربة تاميران نوهت على الشر المصاحب للمخالطة, بينما الثالث ركز على اهمية قتل الناس لمحي دياناتهم.

تاميران أجرى تجربة مقارنة مثيرة. أعطي نفس النص من كتاب يشوع لـــ 168 طفلاً أسرائيلياً, و لكن استبدل اسم يشوع بإسم "الجنرال لين" و "أسرائيل" أستبدلت بـــ"المملكة الصينية قبل 3000 عام". و هنا ظهرت النتائج معاكسة. سبعة بالمائة من الطلاب وافقوا على تصرف الجنرال لين و خمسة و سبعون بالمائة رفضوه. بعبارة أخرى فأننا عندما سحبنا ولائهم لليهودية من الحسبان وافقت الغالبية على المبدأ الأخلاقي الذي يتفق عليه معظم البشر في الوقت الحاضر. تصرف يشوع كان مذبحة بربرية. و لكن كُل شئ يبدو مُختلفا عند النظر اليه من وجهة نظر دينية. و الفرق يبدأ في مراحل مبكره من الحياة. الدين هو الفرق بين الاطفال الذين يلعنون المذبحة و أولئك الذين يباركونها.

في فصل آخر من بحث هارتونغ ينتقل للعهد الجديد. و لأعطاء مختصر مفيد عن البحث فأن المسيح كان مُكرساً لفكرة المجموعة الداخلية و أخلاقياتها و مايتبعها من عنف تجاه الجماعات الخارجية التي كانت من الامور البديهية في العهد القديم. المسيح كان يهودياً مُخلصاً. أن بولس هو مخترع فكرة أخذ ألإله اليهودي للوثنيين. هارتونغ يقول بصراحة لا أجرؤ عليها. "سيتقلب المسيح في قبره لو علم بأن بولس سيأخذ خطته و يعطيها للخنازير".

هارتونغ يمزح بشكل فكاهي عندما يصل لكتاب رؤيا يوحنا و الذي هو بدون شك أحد أكثر الكتب غرابة في الانجيل. من المفترض أنهُ مكتوب من قبل يوحنا الانجيلي. و كما يصفهُ دليل كين للكتاب المقدس بشكل ظريف, لو نظرنا رسائلهُ على أنها يوحنا بعد الحشيشة فإن كتاب الوحي يعتبر يوحنا بعد تناوله حبوب[1] (LSD)[2]. هارتونغ يلفت أنتَباهنا لجملتين في كتاب الوحي حيث يكون عدد هؤلاء الذين "يُختمون" (بعض الطوائف مثل شهود يهوه يفسرون تلك الكلمة بـــ"يخلصون") محدوداً بـــ144000 شخصاً. هارتونغ يركز على أن كلهم يجب أن يكونوا يهوداً: 12000 من كُل قبيلة من القبائل الاثني عشر. كين سميث يذهب لأبعد من ذلك, مُشيراً الى أن الـــ144000 لا يتضمنون أياً من الذين دنسوا أنفسهم مع النساء مما يعني

1 . SMITH (1995).
2. **أحد عقاقير الهلوسة الكيميائية, أكتشفه الكيميائي السويسري البرت هوفمان عام 1938. (المرجم)**

بأنه ليس هُناكَ نساء في الموضوع و ذلك أحد الاشياء التي بدأنا بالتعود عليه الان.
هناك الكثير في دراسة هارتونغ المسلية. و مرة اخرى أوصي بقراءتها و سألخص بعضها في العبارات التالية:

الكتاب المقدس مُخطط لأخلاقيات الافراد داخل المجموعة, مع تعليمات لذبح و أستعباد ماهو خارجها و السيطرة على العالم. و لكن الكتاب المُقدس ليس شريراً بقيمه و أهدافه أو حتى تعظيمه للقتل و الظلم و الأغتصاب. العديد من الاعمال القديمة فيها ما يشابه ذلك – الالياذة و القصص الايسلانديه و حكايات السوريين القديمة و مخطوطات المايا القديمة أمثِلة على ذلك. و لكن لا أحد يدعو لان تكون الالياذة كأساس أخلاقي. و هنا تكمن المُشكلة. الكتاب المقدس يُباع و يشترى على أنه الطريقة التي يجب على الناس أن يعيشوا بها حياتهم. و تجدر الاشارة الى أنه أكثر الكتب مبيعا عبر التأريخ.

و خشية التفكير بأن الخصوصية محصورة فقط في اليهودية التقليدية فقط, اليكم هذا المقطع من نشيد كتبه آيزاك وات(1674-1748): الذي كتبه و فيه يشكر الله لأنه ولد مسيحياً.

ربي, أنها رحمتك
و ليس الصدفة مثلما يقولون أحياناً
ما جعلني الد بعرق مسيحي
و ليس في بلد وثني أو يهودي

ما يحيرني ليس خصوصية الموضوع و لكن منطقهُ. بما أن العديدون ولدوا لاديان اخرى ليست مسيحية فكيف قرر الله من هم الذين سيكونون سعداء المستقبل ليمنحوا تلك الولادة المُفضله لديه؟ لماذا فضل أيزاك وات و هؤلاء الذين توقع أنهم سينشدون تلك الترتيلة؟ على أية حال, و قبل أن يُخصب وات في رحم أمه, ماذا كان وضع الفئة المفضلة؟ تلك أمور محيرة, لكن

ربما ليست مُحيرة كثيراً للعقول التي تربت على الدين. نشيد أيزاك وات يذكرنا بثلاث صلوات يومية من قبل ذكور اليهود الاثودوكسيين و المحافظين (و ليس المجددين) و التي تتلى بالشكل التالي: "مبارك أنتَ لانك خلقتني غير وثني, مبارك أنتَ لانك لم تخلقني أنثى, مُبارك أنتَ لانك لم تخلقني عبدا".

الدين قوة للتفرقة و بدون شك و ذلك أحد الاسباب الرئيسية التي تؤخذ عليه. و لكن يقال كثيراً و بحق بأن الحروب والعداءات بين الجماعات الدينية أو الطوائف, نادراً ما يكون في الواقع لأختلافات دينية. و عندما يقتل يقتل بروتستانتي كاثوليكياً فهو لا يقول في نفسه "خذ, أيها البائس عبد العذراء الفائح بالبخور القذرة!" بل هو على الاغلب ينتقم لموت بروتستانتي آخر قتل على يد كاثوليكي و ربما في قصة ثأر قائمة عبر الاجيال. الدين هو علامة للتمييز بين داخل الجماعة و خارجها ليس بالضرورة أسوأ من لافتات أخرى كلون الجلد و اللغة أو فريق الكرة المُفضل و لكنها بشكل عام متوفرة عندما لا تتوفر العلامات الاخرى.

نعم, بالتأكيد, أن مشاكل أيرلندا الشمالية سياسية. الجميع يعلم هذا, و هناك بالتأكيد ضغوط أقتصادية و سياسية من قبل فئة تجاه الاخرى و ذلك لقرون مضت. هُناكَ شكاوى و مظالم ليس لها علاقة بالدين. ماعدا أن – و ذلك هام جداً و لا أحد يبدو منتبها لذلك – لو لم يكن هُناكَ دين لما كانت هُناكَ علامات تفرق و تحدد من الذي يجب الضغط عليه و من هو الظالم. و المشكلة الحقيقية في شمال ايرلندا هي تلك العلامات التي يتم توارثها عبر الاجيال. الكاثوليكيين الذين ذهب آباءهم و أجدادهم للمدارس الكاثوليكية يرسلون أبناءهم للمدارس الكاثوليكية. و البروتستانت يفعلون نفس الشئ. الاثنان لهما نفس لون الجلد و يتكلمون نفس اللغة و لديهم نفس الاهتمامات و لكن كان بالامكان أعتبارهم نوعان مختلفان من المخلوقات, عميقة جدا تلك الفروق التأريخية. و بدون الدين و المدارس المعزولة على أساس ديني فلن يكون هُناكَ تفرقة. بدأ من كوسوفو لفلسطين و من العراق للسودان ومن اولستر حتى القارة الهندية, لننظر بدقة لاي منطقة من العالم حيث توجد مشاكل و عداءات بين الجماعات المختلفة. لا أستطيع ضمان أن يكون الدين هو العلامة التي تحدد من هو ضمن المجموعة و من هو خارجها و لكن الرهان على ذلك هو رهان لابأس به على الاطلاق.

في الهند و في وقت التقسيم قتل أكثر من مليون شخص بغارات دينية بين الهندوسيين و المسلمين (و تشرد أكثر من 15 مليون من منازلهم). لم يكن هُناكَ أي فرق سوى الدين الذي حدد من الذي يجب قتله. و بالنتيجة, لم يكن هُناكَ ما يفرقهم سوى الدين. سلمان رشدي تأثر كثيراً بنوبة دينية قاتلة حديثة في الهند عندما كتب مقالا بعنون "الدين, كما هو الحال دائما, هو السم في الدم الهندي". و اليكم المقطع النهائي منها:

> ما الذي يجب أحترامه في ذلك, أو في أي من الجرائم الاخرى التي تحصل في العالم يوميا تحت أسم الدين؟ ما ابرع الدين, في انشاء الطواطم و نتائجها القاتلة و ما اكبر رغبتنا في أن نقتل من اجل ذلك! و عندما نفعل ذلك بشكل كاف فإن نتائج الافعال تلك لها تأثير يجعل عملها مرة أخرى أسهل.
> مشاكل الهند أصبحت مشاكل العالم. و ماحدث فيها حدث بإسم الله.
> المُشكلة أسمها الله.[1]

لا أنكر بأن ميول الانسان القوية للولاء للجماعة و العداوة لمن هم خارج الجماعة موجود حتى في غياب الدين. أن مُعجبي فريق كرة القدم مثال صغير على تلك الظاهرة. و حتى معجبوا الفرق المُختلفة يمكن أن يُقسموا بناء على الدين كما هو الحال في غلاسكو رينجرز وغلاسكو سيلتيك. اللغة (كما هو حال البلجيكيين) و العرق و القبيلة (بالاخص في افريقيا) يمكن أن تكون عوامل تقسيم. و لكن الدين يضخم و يقوي الاذى في تلك التقسيمات بثلاث طرق على الاقل:

- وصم الاطفال. الاطفال يوصفون بـــ "طفل كاثوليكي" أو "طفل بروتستانتي" الخ. و ذلك في عمرمبكر جداً و بالتأكيد مبكر جدا ليكونوا على دراية بالتبعية لاي دين أو حتى التفكير فيه (سأعود لذلك الموضوع في الفصل التاسع).

---

1. نشرت في صحيفة الجارديان في الثاني عشر من آذار عام 2002.
HTTP://BOOKS.GUARDIAN.CO.UK/DEPARTMENTS/POLITICSPHILOSOPHYANDSOCIETY/STORY/0,,664342,00.HTML.

- فصل المدارس. يدرس الاطفال ,مرة اخرى, من عمر مبكر جداً من قبل أعضاء من داخل المجموعة الدينية و بشكل منفصل عن الاطفال الاخرين التابعين لاهل ينتمون لدين آخر. ليس من المبالغة القول بأن المشاكل في ايرلندا الشمالية ستختفي لو تم الغاء التدريس المنفصل.
- تحريم "الزواج المختلط" يقوي من شكيمة الثأر المتوارث بمنع الاختلاط بين الجهات المتعادية. ولو سمح بالزواج المختلط لخفت العداوات بشكل طبيعي.

قرية غلينارم في أيرلندا الشمالية هي موطن آيرل الأنتَرمي. و في أحد الايام التي لاتزال في الذاكرة فعل آيرل ما لم يخطر على بال احد: لقد تزوج بكاثوليكية. و فوراً أسدلت الستائر في كُل منازل غلينام كعلامة حزن. أن رعب "الزواج المختلط" منتشر أيضاً بشكل كبير بين اليهود المُتدينين. الكثيرون من اطفال أسرائيل الذين نوهت عنهم أعلاه نوهوا عن الاخطار المُريعة الناتجة عن "الاندماج" في دفاعهم عن معركة يشوع في أريحا. و عندما يتزودج الناس من أديان مُختلفة يشار اليهم كنذير للشؤم من الطرفين كون زواجهم "مختلطاً" و سيكون هُناكَ معارك على كيفية تربية الاطفال من ناحية العقيدة. و عندما كُنت طفلاً و لاازال احمل مشعل الكنيسة الانجيلية أذكر أنني صُعقت عندما علمت بأنه عندما يتزوج كاثوليكي و أنجيلي فإن الاطفال سيربون دائما على الكاثوليكية. كان بإمكاني أن أفهم بسهولة لماذا يصر كاهن من أي طرف على تلك الشروط. و ما لم استطع فهمه (حتى الان) كان عدم التناظر. لماذا لم ينتقم الكهنة الانجيليون بوضع نفس الشروط ؟ أعتقدت ببساطة أن القسيس العجوز و أبونا الطف و أقل عدوانية من الاخرين.

عُلماء الاجتماع عملوا أستفتاءٍ عن التناغم الديني (الزواج من نفس الدين) و المختلط (الزواج من دين آخر). نورفال د. غلين, من جامعة تكساس في أوستن جمع عدداً من الدراسات حتى 1978 و أجرى تحليلا عليها.[1] و أستنتج أن هُناكَ ميلاً كبيراً للزواج من نفس الدين عند المسيحيين (البروتستانت يتزوج بروتستانت و الكاثوليك كاثوليك الخ, و ذلك يذهب لأبعد

1 . N. D. GLENN, 'INTERRELIGIOUS MARRIAGE IN THE UNITED STATES: PATTERNS AND RECENT TRENDS', JOURNAL OF MARRIAGE AND THE FAMILY 44: 3, 1982, 555–66.

من أن يكون لسبب العادي "لكونه أبن الجيران") و لكن الظاهرة ملاحظة أكثر عند اليهود. من اصل 6021 ممن أجابوا على الاستفتاء ,كان هُناكَ 140 ممن قالوا عن انفسهم انهم يهود و 85,7% منهم متزوجين من يهود. و ذلك أكبر بكثير من النسبة العشوائية التي نتوقعها في الزواج من نفس الدين. و بالطبع ليس بالمفاجأة لأحد كيف يحاول اليهود بشدة منع "الزواج للخارج" و هذا الرغبة تظهر في نكتة يهودية عن الامهات التي تحذر أبنائها من الشقراوات المسيحيات اللواتي يحاولن الايقاع بهم. و اليكم تلك التعليقات من الحاخامات ألأمرَيكيين.

- "انا أرفض عقد قرآن بين زوجين من أديان مختلفة"
- "انا أعقد قرانهما عندما يعلن الزوجان عزمهما على تربية الاطفال كيهود"
- "أنا أعقد قرانهما لو وافق الزوجان على الاستشارة النفسية قبل الزواج"

الحاخامات الذين يوافقون على التزويج بوجود قسيس نادرين جداً ومرغوبين جداً.

حتى لو لم يكن الدين مؤذيا بأي شئ آخر, فإن ميله و تغذيته الدائمة للتفريق بين البشر و زرع و قيادة البشر للميل نحو ماهو "داخل المجموعة" و تجنب من هو خارجها سيكون كافياً لجعله أداة قوية للشرور في العالم.

روح العصر الأخلاقية

الافغاني أو ما يساويهم من المسيحيين ألأمريكان, فإن الغالبية من البشر تصمت حيال ذاك الاتفاق الحر و العام عن مبدأ الأخلاق. و معظمنا لا يسبب معاناة للآخرين بدون سبب, نؤمن بحرية الرأي حتى و أن كنا نعارض ما يقال: ندفع الضرائب و لا نغش و لا نقتل و لا نزني و لا نتصرف حيال الاخرين بغير ما نريد أن يتصرفوا حيالنا. بعض تلك المبادئ الحميدة موجودة في الكتب المقدسة جنباً لجنب مع الكثير مما لا يريد أي أنسان جيد أن يتبعه, و الكتاب المقدس لا يعطي أي قواعد للتمييز بين المبادئ الجيدة من السيئة.

أحدى الطرق للتعبير عن التزامنا المُشترك بالأخلاق هي "الوصايا العشر الجدد". العديد من الأفراد و المؤسسات حاولوا ذلك. ما هو مميز في هذا الموضوع هو أن نتائجهم كانت متشابهة بشكل كبير و النتائج لها مواصفات تتبع الزمن الذي كانوا يعيشون فيه. اليكم لائحة بـــ"الوصايا العشر الجدد" من عصرنا و التي و جدتها على احدى صفحات الانترنت للمُلحِدين.[1]

- لا تتصرف حيال الاخرين بالطريقة التي لا تريدهم أن يتصرفوا بها تجاهك.
- أسعى في كل الاحوال أن لا تسبب اذى.
- عامل أخوانك بالانسانية, و الاحياء الاخرى و العالم بشكل عام بحب و أمانة و أخلاص و أحترام.
- لا تهمل الشر أو تتماهل نشر الخير و لكن كن مستعداً دائما لغفران الاساءة التي ارتكبت بحرية و نالت الندم بصدق.
- عش حياتك بفرح و أندهاش.
- أسعى دائماً للمعرفة المتجددة.
- أختبر و تأكد من كُل شئ: قارن أفكارك مع الوقائع, كن مُستعدا لترك حتى أهم ماتؤمن به إذا لم يتطابق مع الوقائع.
- لا تمنع احد عن أبداء الرأي أو تبتعد عن الآراء التي تخالفك: أحترم دائما رأي الاخرين في أن يكون لهم رأي مختلف عنك.

---

1 . HTTP://WWW.EBONMUSINGS.ORG/ATHEISM/NEWLOC.HTML.

- أبني آرائك الخاصة بك على أسسك العقلانية و من تجربتك الخاصة: لا تسمح بأن يقودك الاخرين بشكل أعمى.
- كن فضولياً في كل شئ.

ليست تلك المجموعة من أعمال حكيم عظيم أو نبي أو حتى أخلاقي مُحترف. بل مجرد كاتب أنتَرنت عادي حاول تلخيص مبادئ الحياة الجيدة المعاصرة بالمقارنة بالوصايا الانجيلية العشر. أنها اول صفحة و جدتها عندما كتبت "الوصايا العشر الجديدة" في محرك للبحث و قصدت ان لا أبحث ابعد من ذلك. النقطة بكاملها هنا هي أن لائحة كتلك يمكن لأي شخص أن يأتي بها في أيامنا. لن يكتب الجميع نفس الوصايا بالضبط طبعاً. ربما يضع الفيلسوف جون راولز عبارة مشابهة لما يلي: "لتكن قاعدتك بالقسمة بغض النظر عن كونك ستكون أول المتحاصصين أو آخرهم" .تلك القاعدة مشتقة من نظام تقسيم الطعام لهي مثال جيد على مبدأ راولز: من يقسم الطعام يكون آخر من يحصل على حصته.

و في ما يختص بوصاياي العشر, سأختار بعض من ما سبق و سأحاول أفساح المجال لامور اخرى:

- تمتع بالحب (على شرط ان لا تؤذي الاخرين) و دع الاخرين يفعلون الشئ نفسه فيما يتعلق بذلك بغض النظر عما هم عليه و الذي ليس من شأنك ابدا.
- لا تقلل من شأن الاخرين و لا تظلمهم على أساس الجنس أو العرق أو (على قدر الامكان) على اساس أنهم أجناس أخرى.
- لا تلقن أطفالك بل علمهم طريقة التفكير المُستقلة و كيفية التأكد من الادلة و كيف يمكنهم مخالفتك في الرأي.
- أحسب حساب المُستقبل بمقياس زمني أطول من حياتك.

ليست الفروق و الاولويات مهمة في مثل هذه الحالات. النقطة هي أننا جميعا تقريباً قطعنا شوطاً كبيراً منذ زمن الكتب المقدسة. العبودية, كانت تعتبر عادية في الكتاب المُقدس و عبر معظم التأريخ الزمني أختفت في الدول

المتحضرة في القرن التاسع عشر. كُل الامم المُتحضرة الآن تقبل ما كان محظورا حوالي 1920 بأن النساء تستطيع الاشتراك في الانتخابات و أنهن مساويات للرجال. في أيامنا و في المجتمعات المتحضرة (تلك المجتمعات التي لا تنتمي اليها السعودية مثلاً) لا تعتبر النساء كممتلكات, كما كان عليه الحال في أيام الكتب المُقدسة. أي نظام عصري سيقاضي ابراهيم بتهمة العنف ضد الطفولة. و لو مضى في خطته لقتل أبنه لكان سيحاكم بتهمة القتل العمد. ورغم كُل ذلك فإن تصرفه الأخلاقي في زمنه كان موضوع أعجاب لانهُ كان طاعة لأوامر الله. متدين أو بدون دين, فقد تغيرنا بشكل كبير تجاه ما نعتبرهُ صحيح أو خطأ. ما طبيعة ذلك التغيير و ما سببه؟

في أي مجتمع توجد هُناكَ قوانين غير مكتوبة تتغير عبر العقود و سنستعير الكلمة (روح العصر) للتعبير عن ذلك. قلت قبل قليل بأن حق المرأة في التصويت موجود الآن في جميع الديموقراطيات في العالم و لكن هذا الاصلاح أتي في وقت مُتأخِر جداً لحد مدهش. اليكم بعض التواريخ التي سمح فيها للنساء بالتصويت.

نيوزيلندا	1893
أستراليا	1902
فنلندا	1906
النرويج	1913
أمريكا	1920
بريطانيا	1928
فرنسا	1945
سويسرا	1971
الكويت	2006

تلك التواريخ الممتدة عبر القرن العشرين هي مقياس للتغير بروح العصر. و المؤشر ألآخر هو تفكيرنا بالعرقية. في أوائل القرن العشرين كان الجميع تقريباً في بريطانيا (و دول كثيرة أخرى) سيحسبون كعنصريين بمقاييس اليوم الحالي. مُعظم البيض كانوا يؤمنون بأن السود (فئة تتضمن الافريقيين و ما لايقاربهم أبدا من الهنود و سكان أستراليا الاصليين) هم فئة وضيعة

بالنسبة للبيض فيما يتعلق بكل شئ تقريباً ماعدا – بصورة متعالية – أحساسهم بالايقاع. جيمس بوند تلك الايام كان البطل البشوش دراموند بولدوغ. و في احدى الروايات "**عصبة السود**" يشير الى "يهود و أغراب و آخرون من الشعوب القذرة". و في رواية "**أمرأة المخلوقات**" يتنكر دراموند بزي بيدرو, الخادم الاسود للامير الوغد. و عند الكشف الدرامي عن هويته للقارئ كما هو الحال بالنسبة للامير بان بيدرو هو دراموند نفسه, كان يستطيع القول: "هل ظننت بأني بيدرو. لم تلاحظ أبداً بأني عدوك اللدود دراموند, منتكر كأسود". و لكنه بدلاً عن ذلك قال "ليست كُل الذقون مستعارة و لكن كُل عبد له رائحة كريهة و لذلك ظننت بأن هُناكَ خطأ ما في ألأمرَ". قرأت تلك الرواية عام 1950, بعد كتابتها بثلاثة عقود, و كان من الممكن (بعد) لصبي أن يتأثر بالدراما و لايلاحظ العنصرية. في أيامنا هذهِ لا يُمكن تخيل ذلك.

كان توماس هنري هكسلي, بمقاييس عصره, رجلا متسنيراً و تحرريا متقدما. و لكن زمانه ليس زماننا و في 1871 كتب ما يلي:

> ليس هُناكَ أنسان عقلاني في الواقع ممن يؤمن بأن الزنجي العادي مساو أو متفوق على الرجل الابيض. و لو كان ذلك صحيحاً فإنه ببساطة من غير المعقول, بأنه فيما لو تغيرت الظروف المُسببة لأعاقته و حصل على حقه الخاص وبدون أي مساعدات سيكون قابلا لمقارعة نظيره الاكبر مخاً و أصغر حنكاً في أي مسابقة تستدعي التفكير و ليس العض. أن المراكز العليا في المجتمع المُتحضر بالتأكيد لن تكون من نصيب أولاد عمنا الداكنين.[1]

من المتفق عليه بين المؤرخين ان لا يحكموا على أقوال من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم. و أبراهام لينكولن مثل هاكسلي, كان سابقاً لعصره و لكن آراءه بالنسبة للعرق تبدو مُتخلفة و عنصرية في أيامنا. و اليكم ما قاله في مناظرة مع ستيفين دوغلاس عالم 1858:

1 . HUXLEY (1871).

سأقول اذن بانني لست, ولم أكن ابداً من مناصري أو مؤيدي موضوع المساواة بين البيض و السود فيما يتعلق بالامور الاجتماعية والسياسية: أنا لست و لم أكن ابداً مؤيدا لحقوقهم في أن يكونوا قضاة أو حتى مُصوتين في الانتخابات أو أعتبارهم مؤهلين لتولي مناصب أو أن يتزوجوا من البيض: و سأقول بالاضافة لما قلت, بأن هُناكَ فروقا فيزيائية بين البيض و السود و التي تجعلني أؤمن بتأييد منعهم من العيش جنبا الى جنب و على قدم المساواة فيما يتعلق بأمور المجتمع و السياسة. و ستتطلب الحياة التي يعيشونها بوجودهم مع بعض أن يكون هُناكَ رئيس و تابع و أنا كما هو الحال مع الجميع من بأن الجنس الابيض مقدر له أن يكون متفوقاً.[1]

لو كان هكسلي و لينكولن أبناء عصرنا هذا لكانوا أول من يستنكر تلك المشاعر و الأفكار المتخلفة. لقد أقتبست منهم فقط لأبين كيف مضت روح العصر الى ألامام. حتى هاكسلي أحد اكبر العقول المُتحررة في عصرهِ و حتى لينكولن محرر العبيد, قالوا أشياء كتلك, فكر فقط بطريقة تفكير الفرد العادي في العصر الفيكتوري. و بالعودة للقرن الثامن عشر فمن المعروف أن جفرسون و واشنطن و آخرون من العصر المتنور كان لديهم عبيد. روح العصر مضت للامام و بعناد لدرجة أننا نأخذها بشكل عادي اليوم و ننسى بأن التغيير هو ظاهرة حقيقية خاصة بحد ذاتها.

هناك من هذه الأمثلة الكثير. عندما حط البحارة الاوربيون على سواحل موريتيوس و رأوا طيور الدودو اللطيفة. لم يخطر ببالهم سوى ضربها بالعصي حتى الموت. لم يكونوا حتى يفكرون بأكلهم – حيث لحمهم وصف بكونه غير مُستساغ). من المُفترض أن ضرب طير مسالم لا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حتى الطيران بالعصا على رأسه كان فقط شيئا لتمضية الوقت. في أيامنا هذه يعتبر سلوك كهذا غير معقول و أنقراض طير من أقرباء طائر الدودو, حتى بسبب حادثة عرضية, و ليس بسبب القتل العمد من قبل الأنسان, يعتبر أمراً مأساوياً.

---

1 . HTTP://WWW.CLASSIC-LITERATURE.CO.UK/AMERICAN-AUTHORS/19TH-CENTURY/ABRAHAM-LINCOLN/THE-WRITINGS-OF-ABRAHARNLINCOLN-04/.

وفقاً للعادات الثقافية الرائجة في أيامنا هذه فأن انقراض فصيلة (Thylacinus) و المعروف بالذئب التاسماني, هي أحدى تلك المئآسي. كانت هُناكَ جائزة لرأس ذاك المخلوق المرثي له الان حتى عام 1909. و في روايات العصر الفيكتوري الافريقية, "**الفيل**" و "**الاسد**" و "**الظبي**" (لاحظ صيغة المفرد الفاضحة) "**البري**" و كل ما يفعل الفرد مع الاحياء البرية, كانوا لعبة و ماذا نفعل باللعبة, ترمها بالرصاص بدون أي تفكير. ليس من أجل الاكل. ليس للدفاع عن النفس. بل "للرياضة". تغيرت روح العصر الآن. و للامانة, هُناكَ من الاغنياء "الرياضيين" من لايزال يرمي حيواناً افريقياً بالرصاص من سيارة لاندروفر و يأخذ معه الرأس المُحنط للبيت. و لكنهم يدفعون الغالي ليفعلوا ذلك, وهم مكروهين بشكل كبير لفعلهم هذا. حفظ حياة الادغال و الحفاظ على البيئة أصبحا من القيم المقبولة و يحافظ عليهما بنفس الدرجة من الاهمية التي كانت في الحفاظ على يوم السبت و تجنب نحت أصنام كآلهة.

عقد 1960 المتحرر, اصبح مثال أسطوري لكل الآراء التقدمية العصرية. و لكن في بداية ذلك العقد كان بأمكان قاضي التحقيق مماشية للعرف, في قضية كتاب "**عشيق السيدة شاترلي**" كان بأمكانهِ سؤال المحلفين: "هل تقبل على أن يقرأ أبنك أو أبنتك اليافعين – لأن البنات قادرات على القراءة كالشباب (هل تصدق انه قال ذلك؟) – هذا الكتاب؟ هل ستترك هذا الكتاب في متناول الجميع في بيتك؟ هل تتمنى حتى أن تقرأ زوجتك أو خدمك هذا الكتاب؟ أن بلاغة السؤآل الاخير تدلنا على السرعة التي تغيرت بها روح العصر.

أحتلال أمريكا للعراق مُستنكر من قبل الاغلبية بسبب الضحايا المدنيين, و لكن هؤلاء الضحايا عددياً اقل بكثير من ضحايا الحرب العالمية الثانية. يبدو بأن هُناكَ أنزياحاً مُستمراً في مقاييس ما هو مقبول أخلاقيا. دونالد رامسفيلد, الذي يبدو لنا مُقرفا و قاسياً في أيامنا, سيبدو كرحيم قلب متحرر لو قال نفس ما قاله خلال الحرب العالمية الثانية. شئ ما تغير خلال العقود. شئ تغير فينا جميعاً, و هذا التغير ليسَ مُتعلقا بالدين. بل أنهُ حدث بالرغم من الدين و ليس بسببه.

التغيير هذا يتجه بشكل واضح بأتجاه واحد, و أغلبنا متفقين بأنه تطور. حتى ادولف هتلر, و الذي يعتبر بشكل واسع بأنه أحد الذين دفعوا بالشر لأبعد ما نتخيل من حدود, لايقارن بغاليغولا أو جينكيز خان. لا شك بأن هتلر قتل عدداً أكبر من الناس و لكنهُ أمتلك تكنولوجيا القرن العشرين لخدمته. هل حصل هتلر على متعته العظمى كما عرف عن جينكيز خان, من رؤية أقارب ضحاياه "يغرقون في دموعهم"؟ نحكم على مستوى الشر عند هتلر بمعايير اليوم, و روح العصر مضت للامام منذ عهد غاليغولا كما فعلت التكنولوجيا. هتلر يبدو أكثر شراً فقط لان معاييرنا عن الموضوع في هذا العصر أكثر رحمة.

خلال فترة حياتي تناقص تداول بعض الكلمات التحقيرية فيما يتعلق بالذم و الافكار الشائعة عن بعض الجنسيات: ضفدع (القب الانكليزي للفرنسيين) و كلب (لقب القادمين من أمريكا اللاتينية) و ديك (لليونانين) و فاصوليا او حمصة (لليهود).. الخ. لن ازعم بأن تلك الكلمات قد أختفت و لكنها مُستهجنة بشكل واسع في الاوساط المؤدبة. كلمة "زنجي" على الرغم أنه لم يقصد بها الاهانة يمكن أستخدامها لتأريخ النثر الانكليزي. و في الحقيقة فإن الاجحاف يكشف لنا شيئا من تأريخ قطعة من الادب. عالم الدين المُحترم من كامبردج. أي سي بوكيت, في وقته, كان قادرا على أن يبدأ فصلا في كتابته عن الاسلام في كتابه مقارنة الديانات بالكلمات التالية: "السامي ليس مُتدينا بديانة بشكل طبيعي, كما اعتبرت في منتصف القرن التاسع عشر. بل هو روحاني". أن الهوس بالعرقية (بدلا من الثقافة) و أستعمال صيغة المفرد "السامي.. روحاني" يكشف لنا محاولة لتصغير شعب كامل الى "فرد بمواصفات" ليس متداولا بأي من مقاييس أيامنا الحالية. و لن يستعمل أي عالم سواء ديني أو في أي مجال اخر, كلمات كتلك. تلميحات كتلك لم تعد موجودة في الكتابات منذ منتصف القرن العشرين. و لكنها كانت واقعاً عام 1941.

لو عدنا اربعة عقود الى الوراء. لتوضح تغير المعايير بدون أي شك. في أحد كتبي السابقة اقتبست من اتش. جي. ويللز "**الجمهورية الجديدة**" و

سأفعل ذلك الان مجدداً لأن في ذلك توضيح صاعق للنقطة التي أريد التأكيد عليها:

> و كيف ستعمل الجمهورية الجديدة الاعراق الاقل شأنا؟ كيف ستعامل السود؟.. الصفر؟ اليهود؟ تلك الجماهير من السود و البنيين و البيض المشوبين و الصفر و الذين لم يصلوا بعد للفعالية المطلوبة؟ حسناً, العالم هو العالم و ليس جمعية خيرية, و أعتقد أن عليهم أن يذهبوا.. و النظام الأخلاقي في الجمهورية الجديدة, النظام الأخلاقي الذي سيسود العالم, سيصاغ بالدرجة الاولى لدعم كُل ما هو أبداعي و عملي و جميل في الأنسانية. أجسام جميلة و قوية و عقول نيرة و قادرة.. و الطريقة التي أتبعتها الطبيعة في صياغة العالم حيث منع الضعيف من نشر الضعف هي الموت.. أن البشرفي الجمهورية الجديدة.. سيكون لديهم من المثالية ما يجعل القتل مبرراً.

كتب ذلك عام 1902 و كان ويللز يعتبر من المُحدثيين في عصره. في 1902 و على الرغم من أن شعورا كهذا لم يكن مقبولا بشكل واسع فإنه كان من الممكن مناقشة فكرة كتلك خلال العشاء. و على العكس من ذلك فإن قراء العصر سيشهقون برعب عند رؤيتهم لعبارات كهذه. نحن مُجبرون على أعتبار أن هتلر, على الرغم مما كان عليه, لم يكن بعيداً عن دائرة روح العصر في زمانه كما يبدوا لنا من خلال نظرتنا العصرية المُتفتحة. كم تغيرت روح العصر بسرعة – و تتغير بالتناظر مع الافكار في كل العالم المثقف.

ماهو أذن مصدر تلك التغييرات الثابتة الاتجاه في الوعي الاجتماعي؟ ليست الاجابة من مسؤوليتي. لأن هدفي يتحقق عندما أبرهن بأنها لم تأتي من الدين بأي شكل. و لو أجبرت على وضع نظرية لذلك فإنني سأبدأ بما يلي. نحتاج لشرح التالي, لماذا تعتبر التغيرات في روح العصر متزامنة بشكل واسع في عدد كبير من البشر, و علينا أيضاً أن نشرح سبب كونها في أتجاه موحد و محدد.

اولاً, لماذا تتزامن عبر العديدين من البشر؟ تنتشر من نفس لنفس من خلال المُحادثات في البارات و حفلات العشاء و من خلال الكتب و المُراجعات و من خلال الجرائد و البرامج التلفزيونية و في أيامنا هذه من خلال الانترنت. تغيرات الطقوس الأخلاقية يشار اليها في المقالات و الراديو و البرامج الحوارية و الخطابات السياسية و في الكوميديا و في مسلسلات التلفزيون و في أنتَخابات مجالس الشعب التي تجعل القوانين تعبر عنها. و يمكن أن يُعبر عنها بتغير تردد الميمة في بنك الميمات, و لن أخوض في هذا الموضوع أكثر من ذلك.

بعضنا يتخلف عن موجة التغيير الأخلاقية لروح العصر و البعض ألآخر يتقدم عليها بشكل بسيط و لكن الغالبية منا في القرن الواحد و العشرين متقاربة و متقدمة عن اسلافنا في العصور الوسطى أو زمن أبراهيم أو حتى الازمنة الحديثة نسبياً في العشرينات من القرن الماضي. الموجة تتحرك بإستمرار و سيجد السابقون في قرن مضى (مثل تي أتش هاكسلي) انفسهم مُتخلفين عن السواد الاعظم في قرن لاحق. بالطبع, ذلك التطور لم يكن سلساً في صعوده بل كان مُتعرجا كأسنان المنشار. كان هُناكَ عقبات محيلة و وقتية كما كان الحال في معاناة أمريكا من حكومتها في مطلع القرن الحالي. و لكن بمقياس الزمن الطويل فإن التطور لايزال يمشي بنفس الاتجاه و بدون أي شك.

ما الذي يدفع روح العصر بذلك الاتجاه؟ لا نستطيع أنكار دور القادة و الذين كانوا سابقين لعصرهم, لقد نهضوا و اقنعوا الاخرين بأن يسيروا معهم. في أمريكا دفعت الفكرة المثالية عن مساواة الاعراق من قبل قادة مثل مارتن لوثر كينغ و من قبل الكوميديين و رجال الرياضة و آخرون من الشخصيات المشهورة شعبيا مثل باول روبنسون و سيندي بواتييه و جيسسي اوينز. كذلك أعتاق العبيد و النساء فإنه يدين الى شخصيات من القادة اللامعين. بعضهم كان مُتدينا و البعض ألآخر لم يكن كذلك. بعض المُتدينين فعلوا ذلك لانهم مُتدينون. و لكن بالنسبة للبعض ألآخر كان الدين مجرد مصادفة. و على الرغم من أن مارتن لوثر كينغ كان مسيحياً فإنه أستقى فلسفته عن اللاعنف من غاندي الذي لم يكن كذلك.

كذلك لدينا مستوى التعليم و بالاخص تزايد تفهمنا بأننا نشترك مع الاخرين بالأنسانية, حتى مع الاشخاص من عرق آخر أو جنس آخر - فكرتان مضادتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس و مصدرهما الاصلي هو علم الطبيعة و خصوصا التطور. أن أحد اسباب مُعاملة السود و النساء و اليهود والغجر في أيام المانيا النازية كان بسبب عدم أعتبارهم سواسية مع البشر. الفيلسوف بيتر سينغر في كتابهِ "**تحرير الحيوانات**" هو أبلغ مثال عن وجهة النظر بأن علينا أن نلغني حاجز الاجناس في تعاملاتنا مع الكائنات الاخرى بما يضمن سعادتها بقدر ما يسمح لها مخها الخاص تقدير ذلك. و ربما هذا تنويه عن الاتجاه الذي ستتحرك به روح العصر في القرون القادمة. سيكون ذلك أستنباطاً طبيعيا للاصلاحات السالفة مثل تحرير العبيد و أنعتاق المرأة.

ان مؤهلاتي كهاوي في علم الاجتماع و علم النفس لا تؤهلاني لشرح سبب التناسق الواسع في تغيرات روح العصر. و يكفي ما ذكرته لشرح الغرض الذي اقصده بإنها تتغير و أنها غير مدفوعة من الدين – و بالتأكيد ليس بسبب الكتب المقدسة. ربما أنها ليست قوة و حيدة كالجاذبية و لكن عدة قوى تتلاعب فيما بينها مثل قانون مور و الذي يشرح سبب التصاعد في قوة الحواسيب الالكترونية. و مهما كان السبب فإن التعاقب المُستمر لمظاهر روح العصر هو أكثر من كاف لنقض الزعم بأننا بحاجة للاله من أن نكون صالحين أو حتى لتحديد ما هو صالح.

ماذا عن هتلر وستالين؟ أليسا مُلحِدين؟

القرن العشرين و تكنولوجيا الاتصالات. و بالرغم من ذلك يعتبر هلتر و ستالين أشراراً بمقاييس كُل العصور و بشكل مُريع.

"هتلر و ستالين كانا مُلحِدان, ماذا تقول عن ذلك؟" يطرح ذلك السؤآل في كُل مُحاضرة عامة القيتها عن موضوع الدين و في كُل مقابلات الراديو كذلك. و تطرح الاسئلة بشكل مشاكس و مشحون بالسخط مع فرضيتين. أولهما: هتلر و ستالين كانا مُلحِدان. و ثانيهما: لقد فعلا كل ما فعلاه لأنهما كانا مُلحِدان. الفرض الاول صحيح في حالة ستالين و مشكوك به في حالة هتلر. الفرضية الثانية لا أعتبار لها, لانها خاطئة. و من غير المنطقي أن نستنتجها من الفرضية الاولى. حتى و لو قبلنا بأن هتلر و ستالين تقاسما صفة الإلحاد المُشتركة و كلاهما كان له شارب ايضاً كما كان لصدام حسين. و ماذا اذن؟ السؤآل المُثير ليس عما إذا كان الشرير (او الطيب) مُلحِداً أو مُتديناً. لسنا بصدد عد الرؤوس و استخلاص لائحتين من الاضداد المتنافسة. الواقع أن أحزمة النازيين منقوش عليها "الله معنا" لا يبرهن على أي شئ, على الاقل ليس بدون مناقشات معمقة. ما يهم هنا ليس موضوع كون هتلر و ستالين مُلحِدين و لكن موضوع إذا ما كان الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الأشياء الشريرة. ليس هُناكَ أي دليل و لو صغيراً يدل على ذلك.

ليس هُناكَ شك بأن ستالين كان مُلحِدا, بالواقع أنه تلقى تعليمه في دير ارثوذوكسي روسي و لم تخف أمه خيبة أملها في انه لم يصبح قسيساً كما ارادت له – و بناء على رأي آلآن بولاك – فإن ذلك كان يسبب العجب لستالين.[1] ربما أن ثقافة ستالين الكنسية الارثوذوكسية الروسية كانت السبب وراء رغبة ستالين الناضج بالقضاء على الكنيسة الاورثودوكسية الروسية و كذلك المسيحية و التدين بشكل عام. و لكن ليس هُناكَ أي أدلة عن أن إلحاده كان سبباً لعنفه. و ربما لم يكن هُناكَ علاقة لذلك مع تربيته الدينية المبكرة الا من خلال تلقينها له أن يوقر الأيمان المُطلق و السلطة القوية و الأيمان بأن الغاية تبرر الوسيلة.

أما الاشاعة بأن هتلر كان مُلحِدا فقد تم أختلاقها بعناية فائقة لدرجة أن العديدين من الناس يصدقونها بدون سؤال و تطرح تلك الفكرة بشكل دائم من

1 . BULLOCK (1991).

محبيها المدافعين عن الدين. الا أن الواقع بعيد عن أي يكون واضحاً. هتلر ولد لعائلة كاثوليكية و درس في مدرسة كاثوليكية و زار الكنائس الكاثوليكية في طفولته. طبعاً لا يُمكن أعتبار ذلك ذو قيمة: لانه من المُمكن بدون شك أن يكون قد تخلى عن التدين لاحقا كما فعل ستالين عندما تخلى عن كنيسة الروس الارثودوكسية بعد أن ترك الدير في تبيليسي. و لكن هتلر لم يعلن تخليه عن معتقده الكاثوليكي علنا و هناك بعض الدلائل من خلال حياته تتبنأ عن أن أنهُ بقي مُتديناً. حتى لو لم يبق معتقدهُ كاثوليكياً فإنه على الاغلب ظل مؤمنا بوجود سلطة مُقدسة. كمثال, أعلن في كتابه "**كفاحي**" بأنه عندما سمع خبر أعلان الحرب العالمية الاولى, "جثوت على ركبتي و شكرت السماء من كُل قلبي و التي جعلتني أعيش في الزمان الذي حصل فيه ما يحصل الان".[1] ذلك كان عام 1914 عندما كان في عمر الخامسة و العشرين. ربما تغير بعد ذلك؟

في 1920 عندما كان هتلر في الحادية و الثلاثين كتب أخلص معاوينه رودولف هيس و الذي أصبح فيما بعد نائبه رسالة الى رئيس وزراء بافارياو "أعرف هتلر شخصياً معرفة جيدة و أنا قريب جداً لهُ. أنه شخصية شريفة بشكل غير عادي, مليئة باللطف و هو مُتدين و كاثوليكي جيد".[2] و بالتأكيد بما أن هيس أخطأ تماماً و بشكل فاضح في موضوع "شخصية شريفة و مليئة باللطف" فربما أخطأ أيضاً في موضوع "الكاثوليكي الجيد"!. ليس هُناكَ ما يمكننا من أن نصف هتلر بـــ"الجيد" في بأي شكل و هذا يذكرني بالحجة الهزلية التي كنت قد سمعتها عن الاقتراح بوجوب كون هتلر مُلحِداً. هتلر كان أنسانا سيئاً و المسيحية تعلمنا ما هو جيد و لذلك فإنه ليس بالامكان أن يكون هتلر مسيحيا!. تلك مقولة لغورينغ عن هتلر. "فقط أنسان كاثوليكي هو من يستطيع توحيد المانيا" و أنا أفترض أن ذلك يعني شخصاً تربى على الكاثوليكية و ليس بالضرورة شخصا مؤمناً بهاً.

في خطابه عام 1933 في برلين قال هتلر "أقتنعنا بأن الناس يحتاجون و يريدون هذا الأيمان. و لذلك فإننا أخذنا على عاتقنا أن نحارب الحركة

1 . Bullock (2005).

2 . http://www.ffrf.org/fttoday/1997/march97/holocaust.html.

هذا المقال يعود لريتشارد ي. سميث و الذي تم نشره بالاصل في (Freethought Today) في شهر آذار 1997, يحتوي على مجموعة من المقولات المتعلقة بالموضوع قيلت من هتلر و نازيين آخرين كما نرى في المصادر المذكورة. في حال غياب المصادر فأن اقتباسي جاء من مقالة سميث ذاتها.

الإلحادية و ليس بشكل أعلان نظري فقط, بل قضينا عليها".[1] ربما يشير ذلك بأن هتلر, كما هو الحال مع الكثيرين, يؤمن بالأيمان و لكنه في 1941 قال لمُساعده الجنرال غيرهارد انجل "سأبقى كاثوليكيا للأبد".

حتى ولو لم يبق هتلر مسيحياً صادقاً فإنه من غير العادي بالتأكيد ان لا يكون متأثراً بالافكار المسيحية التقليدية الازلية التي تلوم اليهود كقتلة المسيح. في خطابهِ عام 1923 في ميونيخ قال "أول ما يجب أن نفعله هو أن ننقذ المانيا من اليهود الذين يفسدون بلادنا... علينا أن نحمي بلادنا من المعاناة التي عاناها الذي مات على الصليب".[2] و في كتاب "**ادولف هتلر: سيرة الحياة المؤكدة**" كتب جون تولاند عن موقف هتلر الديني اوقات "الحل الاخير":

> لازال عضواً مُميزاً في كنيسة الروم الكاثوليك و على الرغم من كرهه للقائمين عليها فإنه لايزال يحمل تعاليمها عن أن اليهود هم قتلة الاله. و لذلك كان القضاء عليهم مُمكنا بدون أي تأنيب ضمير, و من مبدأ كونه اليد التي تنتقم لله – و بذلك يتم الموضوع كما لو أنه ليس شخصياً و بدون أي قسوة.

ان الكره المسيحي لليهود ليس فقط تقليداً كاثوليكياً. مارتن لوثر كان معاديا للسامية. و كتب في مجلس الشعب في مدينة ورمز بانه "يجب طرد جميع اليهود من المانيا" و كتب كتاباً كاملاً "**عن اليهود و اكاذيبهم**" و الذي ربما كان له تأثير على هتلر. لوثر وصف اليهود بـــ"ذرية الافاعي" و نفس العبارة أستخدمها هتلر في خطابهِ المشهور عام 1922. الذي كرر فيه مرارا بأنه مسيحي:

> شعوري كمسيحي يوجهني نحو الهي و مخلصي كمحارب. يوجهني نحو الرجل الذي في وحدته محاطا بقليل من الاتباع عرف حقيقة هؤلاء اليهود و دعى الرجال ليحاربوهم, و أكاد أقسم بأنهُ كمُحارب أعظم منه كمُتألم. و بحُبّ لامتناهي كمسيحي و

1. HTTP://HOMEPAGES.PARADISE.NET.NZ/MISCHEDJ/CA_HITLER.HTRNL.
2 . BULLOCK (2005: 96).

كأنسان قرأتُ تلك العبارات التي تقول لنا كيف وقف ألإله في قدرتهِ أخيراً واخذ السوط بيده لطرد ذرية الافاعي من المعبد. كانت حربهُ مثالاً للعالم ضد السم اليهودي. و اليوم بعد الفي عام, و بأعمق العواطف. أعرف بثقة لم اعرفها قبلاً بأنه من أجل ذلك قد بذل دمائة على الصليب. و كمسيحي لن أسمح لاحد بخداعي و لكن يتوجب على أن أكون مُحارباً للحق و العدالة... و ليس أوضح دليلا على أننا نتصرف التصرفات الصحيحة من الضيق الذي نعانيه. و كمسيحي فإن لدي واجباً تجاه شعبي أيضاً.[1]

من الصعب معرفة إذا ما كان هتلر قد أنتَقى عبارة "ذرية الافاعي" من لوثر. أو أخذها مباشرة من انجيل متى (3,7) كما نفترض أن لوثر قد فعل. و لكن بالنسبة لموضوع مقاضاة اليهود كرغبة من الاله, فإن هتلر عاد اليها في كتابه كفاحي: "و لذلك أؤمن اليوم بأنني أتصرف وفقا لرغبة الخالق الاعظم: و بالدفاع عن نفسي ضد اليهود فإنني أقاتل من اجل الاله" ذلك كان عام 1925. و قد كرر ذلك ثانية في خطابهِ في البرلمان عام 1938, و قال أشياء مشابهة على الدوام خلال حياته المهنية.

أن مقولات كهذه لها ما يساويها من العبارات التي طرحها في "**حوار على المائدة**" و التي عبر فيها عن آراء معادية للمسيحية, تم تسجيلها من قبل سكرتيرتهُ الخاصة. و ما يلي حدث عام 1941:

أن الضربة الاقوى التي أصابت الأنسانية هي قيام المسيحية. المسيحية هي الطفل الغير الشرعي للبلشفية. و كلاهما من اختراع اليهود. أن الكذبة المدبرة فيما يختص بالدين هي ما قدمته المسيحية للعالم...

ان السبب الحقيقي في كون العالم القديم نقياً و صادقاً و مضيئاً هي أنهم لم يعرفوا السوطين الكبيريين .. الطاعون و المسيحية.

---

1. **خطاب ادولف هتلر في 12 من نيسان عام 1922. نشر في** BAYNES **(19:1942-20).**

بعد كُل ما قيل, لا أجد سبباً لأتمنى للايطاليين و الاسبان أن يتخلصوا من مُخدر المسيحية, دعونا نكون الوحيدين الذين لديهم مناعة ضد ذلك المرض.

ان مقولات هتلر في "**حوار على الطاولة**" يحتوي الكثير من تلك الاقتباسات, غالِباً ما يقارن المسيحية بالبلشفية و بعض الاحيان يقارن ماركس بالقديس بولس و لا ينسى أبداً أن كلاهما كان يهوديا (بالرغم من أن هتلر, للغرابة, كان مصراً دائماً على أن المسيح لم يكن يهوديا). من الممكن أن يكون هتلر قد مر بتجارب حتى عام 1941 من النوع الذي كشف له زيف المسيحية. أو انه كان ليس سوى كاذب أنتهازي للفرص ممن لا يُمكن أن نثق بكلامهم, مهما قال؟

هناك مقترح بأن هتلر بالرغم من كلماته و آراء أتباعه عنه, بانه كان مُحتالا يستخدم و يستغل تدين مستمعيه. ربما تناغماً مع نابليون الذي قال: "الدين شئ مُمتاز لأبقاء العامة من الناس هادئين". و أيضاً مع سينيكا الصغير: "الدين من قبل العامة يعتبر حقيقة و من قِبل الحُكماء خدعة و من قِبل الحُكام مُفيداً". لا أحد يُمكنهُ أن ينفي بأن هتلر كان قادراً على عدم الامانة تلك. و لو كان هذا هو دافعهُ لأن يبدو مُتدينا, فعلينا أن نذكر أيضاً بأن هتلر لم يرتكب ما ارتكبهُ من ظلم وحده. و لكن الافعال ذاتها أرتكبت من قبل العديد من الجنود و ضُباطهم و غالبيتهم كانوا مسيحيين. و بالتأكيد فإن أعتقاد الالمان بالمسيحية هو وراء النظرية التي نناقشها الآن – الفرضية التي تشرح لنا عدم صدق هتلر الديني واستغلاله ! أو ربما يكون ألأمرَ بأن هتلر فقط أراد أن يبدي بعض التعاطف مع المسيحية و إلا فلن يحظى نظامه بالدعم الذي حصل عليه من الكنيسة. ذلك الدعم الذي اخذ أشكال متنوعة, و يتضمن ذلك البابا بيوس الثاني عشر و أصراره على ان لا يتخذ موقفاً معادياً للنازية – و هذا موضوع يسبب الاحراج للكنيسة اليوم. أما أن يكون هتلر صادقاً في مسيحيته أو أنه كذبَ فيما يتعلق بذلك ليربح –بنجاح– تعاون المسيحيين الالمان و الكنيسة الكاثوليكية. في كلتا الحالتين فإن شر النظام الهتلري لا يُمكن أعتباره نتيجة للإلحاده.

حتى عند هجومه على المسيحية لم يتوقف هتلر عن أستخدام الرموز الدينية عن تلك القدرة الغامضة التي أختارتهُ من بين الجميع في مهمة مقدسة لقيادة المانيا. كان يدعوا تلك القدرة بالقدوس و في أحيان اخرى بالرب. وبعد "الآنشلوس"[1] عندما عاد هتلر منتصراً من فيينا عام 1938, ذكر الله في خطابه المبتهج و البسهُ شخصية القدرة هذه: "أؤمن بأنها أرادة الله بأن يرسل صبياً الى المملكة و يتركه ليكبر و يرفعه ليكون قائد الامة ليتمكن من أعادة أرض وطنه الى المملكة".[2]

وعندما نجا بأعجوبة من حادثة الاغتيال في ميونيخ في شهر تشرين الثاني 1939, حمدَ هتلر تلك القدرة المقدسة لأنقاذه بأن جعلت سبب أنقاذه هو تغيير برنامجهُ يومها: "أنا الآن مسرور تماما. أن تركي للبرغربروكيلير بوقت أبكر من المعتاد كان تعزيزاً لرغبة تلك الرعاية العليا كي أصل هدفي".[3] بعد فشل هذا الهجوم قام بطريرك ميونيخ, الكاردينال ميشال فاوللبابر, امر بأن تتلى (***Te Deum***) في كاتدرائيته "لشكر الرعاية الالهية بإسم الابرشية لنجاة القائد". بعض أتباع هتلر و بدعم من غوبلز, لم يخفوا الرغبة في أن يأسسوا دينا مستقلاً مبني على الفكرة النازية. و النص التالي, مكتوب من قبل رئيس نقابة التجار يعطي شعوراً بأنه نص دعاء و قانون الايمان حتى أن خاتمته تذكر ألإله المسيحي (الرب).

> آدولف هتلر! نحن متعاضدين معك وحدك! نريد أن نجدد عهدنا الان: في هذهِ الارض نؤمن فقط بآدولف هتلر. نؤمن بأن الفكر الاجتماعي الوطني هو الذي سيحفظ شعبنا. نؤمن بأن الله في السموات هو الذي خلقنا, الذي قادنا و وجهنا و باركنا. و نؤمن بأن هذا ألإله الرب أرسل آدولف هتلر لنا. و ذلك حتى تصبح المانيا القاعدة المتينة حتى الابد"[4]

---

1. **آنشلوس بالألمانية** ANSCHLUSS **:وأيضاً** ANSCHLUSS ÖSTERREICHS **هو الاسم الذي أطلق على العملية التي تم بموجبها ضم النمسا إلى ألمانيا الكبرى على يد ألمانيا النازية و ذلك بتاريخ 13 مارس/آذار عام 1938 . (المترجم).**

2 . BULLOCK (2005: 43).

3. **هذا الاقتباس و تلك التي بعدها مصدرها من مقال آنا نيكول جاليور عن دين هتلر**
HTTP://WWW. FFRF. ORG/FTTODAY/BACK/HITLER. HTML.

4. HTTP://WWW.CONTRA-MUNDUM.ORG/SCHIRRMACHER/NS_RELIGION.PDF

يذكر جونثان كلوفر في كِتابهِ المُميز و المُرعب "**الانسانية: تأريخ الاخلاق في القرن العشرين**" (Yale University Press 2001) التالي: الكثيرين قبلوا بتلك الثقافة الدينية عن ستالين التي تم صياغتها من قبل كاتب ليتواني: "**أقتربت من صورة ستالين, أنزلتها من الجدار و وضعتها على الطاولة و تأملت بها و تمرنت روحياً عليها بينما رأسي مسجى بين يدي. ماذا سأفعل؟ وجه القائد, باعثة على السلام كالعادة, بعينيه الصافيتين اللتين تخترقان كل المسافات. أنني أشعر و كأنه نظرته تخترقني في غرفتي الصغيرة هذه و تنطلق لتحتظن العالم أجمع... مع كل شريان و كل عصب, مع كل قطرة دماء في جسدي أستشعر أنا في هذه اللحظة بأنه كل شئ أختفى من الكون الا هذا الوجه المحبوب و الغالي**". هذا الشكل من التعبد المزيف يبدو شديد القباحة في كتاب كلوفر عندما نقرأ مباشرة بعدهُ عن جرائم ستالين البشعة.

ستالين كان مُلحِدا و هتلر من المُحتمل أنه لم يكن كذلك. لكن حتى لو كان فأن المهم في حوارنا حول تدين ستالين و هتلر هو محور محدد و بسيط. وهو بأنه بعض المُلحِدين يفعلون الشرور و لكنهم لا يفعلوها بإسم الإلحاد. ستالين و هتلر فعلوا العظيم من الشرور بإسم العقيدة و التلقين الماركسي وما يمثالها بإسم نظرية الاجناس اللاعلمية و المحبوكة بهذيانات فاغنرية. لكن الحروب الدينية حصلت بسبب الدين, و تكررت كثيراً عبر التأريخ. ولا أذكر أي حرب حصلت تحت اسم الإلحاد. و لماذا تحصل؟ ربما يكون الدافع للحرب طمعاً أقتصادياً أو طموح سياسي أو تعصب عرفي أو عنصري أو أنتقام أو شكوى أو بدافع من الأيمان الوطني بحق الامة. و القناعة التي لا تتزعزع بأن الدين الذي يؤمن به البعض هو الدين الصحيح الوحيد و بدعم من كتاب مقدس يكرس اللعنة بوضوح ضد كُل الكفار و اتباع الديانات المنافسة حتى الموت و يتوعد المقاتلين في سبيل الله بجنة الشهداء. سام هاريس كالعادة يصيب كبد الحقيقة في كتابه "**نهاية الأيمان**":

> أن خطر الدين هو في أنهُ يجعل من أنسان عادي و طبيعي على جنى ثمار الجنون و اعتبارهم من المقدسات. لأن كُل جيل جديد من الاطفال يُلقن بأن ما يطرحه الدين لايحتاج لاي نقاش لأثباته كما هو ألأمرَ في الطروحات الاخرى, الحضارات لاتزال مهددة

بجيوش اللاعقلانية. نحن و حتى اللحظة نبرر قتل بعضنا البعض من خلال الاشارة الى كتابات قديمة. من كان يعتقد بأن شيئا مأساوياً كهذا يمكن أن يحصل؟

من ناحية أخرى, من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الايمان بشئ ما؟

الفصل الثامن

أنا بطبعي لستُ ذلك الشخص الذي يحب المواجهة. ولا أظنُ أن العداء طريقة مناسبة للوصول للحقيقة و أرفض بشكل مستمر الدعوات لأن اشارك في مناظرات. دعيت مرة لمناظرة مع مطران منطقة يورك, في أدنبره. شعرتُ بالاعتزاز لتلك الدعوة و قبلتها. و بعد النقاش, كتب الفيزيائي المُتدين راسل ستانارد رسالة أدرجها في كتابهِ "**التخلص من الله؟**" و وجهها لصحيفة الاوبزرفر:

> تحت العنوان اللامع (الله يأتي بالمرتبة الثانية أمام عظمة العلم). كتب مراسلكم لشؤون العِلمْ "يوم الاحد الموافق لعيد الفصح دوناً عن باقي الايام" كيف أن ريتشارد دوكنز (وجه أصابات بالغة فيما يتعلق بالفكر) لمطران منطقة يورك في نقاشهما عن العِلمْ و الدين. لقد قرأنا عن (مُلحِدون مبتسمون بتعجرف) حصلوا على عشرة أهداف مقابل صفر للمسيحيين.

و مضى ستانارد بتوبيخه لصحيفة الاوبزرفر لفشلها في نشر خبر عن لقاء لاحق بيننا نحن الاثنين مع المطران من برمنجهام و عالم الفضاء السير هيرمان بوندي في الاكاديمية الملكية للعلوم. و الذي لم تخصص له دعاية كافية لهذا كان بناء أكثر بكثير. أستطيع الموافقة فقط على ما يبديه من سخط تجاه شكلية الدعاية للنقاش. لأسباب شرحتها في كتابي "**القديس الشيطاني**" فأنا لا أشارك في مناظرات مع الخلوقيين مثلاً.

بالرغم من عدم محبتي للصراعات, يبدو لي بأني أكتسبت شهرة كمُجاهد ضد الدين. الاصدقاء الذين يتفقون معي بأنه ليس هُناكَ اله و الذين يتفقون بأننا لا نحتاج للدين كي نكون صالحين, يتفقون كذلك على أننا قادرون على شرح مصدر التدين و الأخلاق بتعابير غير دينية, هؤلاء أتواْ ألي بسؤال مُحير. ما سبب كل هذا العداء؟ ماهي مشكلة الدين؟ هل يُسبب فعلا كل هذا الاذى لدرجة أنهُ يجب علينا فعلا أن نجاهد ضده؟ لماذا لا نعيش و نترك الاخرين يعيشون, كما نفعل في حالة برج الثور و العقرب و الطالع و خطوط الحياة ؟ اليس كُل ماسبق هراء لا يؤذي؟

ربما أرد سريعا بأن العداء الذي أمارسه أو يمارسه بعض المُلحِدين الاخرين تجاه الدين لا يتعدى الكلمات. أنا لا أفكر بأن أفجر أحداً ما أو اقطع راسهُ أو أرجمه أو أحرقه على السيخ أو أصلبه أو أحلق بطائرة في ناطحات السحاب التابعة له, فقط لأنني لا أتفق مع توجههُ الديني. لكن الحديث لا يتوقف عند ذلك عادة. فنسمع حينها شيئأ على وزن: (الا يجعلك كلامك بهذا الشكل تبدو و كأنك مُلحِد مُتطرف, مُتطرف بطريقتك الخاصة كما هو الحال بالذين تصفهم بالتطرف من ذوي الحزام الانجيلي؟). و هنا أُريد أن أفند هذا الاتهام بالتطرف, لانها تتكرر بشكل أكثر من المتوقع.

التطرف و تقويض العِلمْ

بإلتماس مبدأ النسبية الانسانية كقولي: "أنها فقط بمفهومك الغربي عن كلمة (في) نستطيع أن نقول أنني كنت في شيكاغو. و لكن قوم البونغول لديهم معنى مختلف تماما لكلمة (في) و يستعمل هذا التعبير ليكون صحيحاً فقط عندما تكون مؤهلا لأن تأخذ التبغ من كيس الخصوة المُجفف لكبش".[1]

ربما أن العُلماء متطرفون عندما يتعلق الموضوع بمعاني تجريدية لكلمة (الحقيقة). و لكن ذلك ينطبق على كُل الناس. أنا لن اكون مُتطرفا عندما أقول بأن التطور حقيقي أكثر من قولي بأن نيوزيلندا تقع في القسم الجنوبي من الكرة الارضية. نؤمن بالتطور لان الادلة تدعمها. و سنرفضها بين ليلة و ضحاها عندما تظهر أدلة تنفيها. المُتطرف الحقيقي لن يقول شيئا كهذا أبداً.

من السهل جداً الخلط بين التطرف و العاطفة و لربما أبدو عاطفياً عندما أدافع عن التطور أمام المُتطرفين الخلوقيين و لكن ذلك لا يأتي من تنافس مُتطرف من جهتي. بل أن ذلك بسبب أن الادلة الداعمة للتطور قوية بشكل هائل و رفض خصمي لرؤيتها – و غالِباً رفضه للالتفات اليها لأنها تعارض كتابهُ المقدس – يصيبني بالخيبة. و عواطفي تتأجج أكثر عندما أفكر بما يفتقدهُ هؤلاء المُتطرفين المساكين و كل من يتأثر بهم. حقيقة التطور و الحقائق العلمية العديدة الأخرى ساحرة بشكل رائع و جميلة جداً. و من المؤسف أن يموت المرء دون أن يدرك ذلك! و بالطبع فإن ذلك يجعلني عاطفياً. و كيف لا؟ لكن أيماني بالتطور ليس تطرفاً و ليس أيمانا عقائدياً لانني اعرف تماما ما يمكن أن يغير تفكيري, و سأغيره بإمتنان عندما تظهر الادلة الكافية على ذلك.

ذلك يحدث في الواقع. لقد ذكرت قصة رجل كبير مُحترم في قسم دراسة سلوك الحيوانات في أكسفورد عندما كنتُ طالباً في الجامعة. لسنوات عديدة كان يؤمن و يعلمنا بحماس بأن جهاز غولجي (قسم مجهري من باطن الخلية) لم يكن ظاهرة حقيقية بل نوع من الوهم. بعد ظهيرة كُل يوم أثنين كانت العادة أن نستمع لمحاضرة من أستاذ ضيف على الجامعة. وفي أحد تلك الايام كان الاستاذ الزائر أمريكياً متخصصاً في علم الخلية و كانت لديه

1. من كتاب (WHAT IS TRUE), الجزء الاول و الثاني (دوكنز 2003).

أدلة قاطعة عن أن جهاز غولجي كان حقيقياً. في نهاية المحاضرة تقدم الرجل الكبير من المنصة و صافح الاستاذ ألأمرَيكي بحرارة قائلا بحماس – (يا زميلي العزيز, أُريد أن أعبر عن شكري لك, لقد كُنت مخطئا لخمسة عشرة سنة مضت). حينها صفقنا حتى أزرقت أيدينا. ليس هُناكَ من متطرف سيقول ذلك يوماً ما. و عملياً فلا يفعل ذلك كُل العلماء حتى. و لكن كل العلماء يعترفون بهذا التواضع العلمي كمبدأ على العكس من السياسيين مثلاً و الذين سيوصفون بالهرب عندما يفعلون شيئاً مماثلاً . أن ذكريات تلك إلحادثة لم تزل تهز مشاعري حتى اليوم.

كرجل علم فأنا احمل العداء للتطرف الديني لأنه يقوم بالاساءة للمشاريع العلمية بشكل متواصل. أنه يُعلمنا ان لا نُغير رأينا و لا يريد لنا أن نتعلم المعلومات المثيرة المُتوفرة للمعرفة. أنه يقوض العِلمْ و يستنزف الفكر. و أكثر الأمثِلة أثارة للحزن مما اعرف هو الباحث ألأمرَيكي كيرت وايز و الذي يدير **(مركز الابحاث عن الاصل)** في كلية بريان في دايتون بولاية تنيسي. و ليس من الصدفة أن كلية بريان سميت على أسم ويليام جينيكس بريان, المدعي العام الذي قاضى أستاذ العلوم الطبيعية جون سكوبس فيما يمسى (محاكمة القرد) عام 1825 في دايتون. كان بإمكان وايز أن يُحقق حلم صِباه في أن يكون أستاذا للآثار في جامعة عادية, جامعة من أهدافها الحث على (الفكر النقدي) بدلاً عن الفكر الذي يناقض نفسهُ بوضوح الذي نراه في موقع كلية بريان على الانترنت: "**فكر نقدي و انجيلي**". بالتأكيد لقد حصل على شهادته الجامعية من جامعة شيكاغو و حصل على درجتي دكتوراه في الآثار و علم المستحثات من هارفرد (ليس أقل من ذلك) حيث درس تحت اشراف ستيفن جاي غولد (ليس اقل من ذلك). كان مؤهلا و واعداً بمستقبل علمي كباحث شاب و على الطريق الصحيح ليُحقق حلمهُ بالتدريس و أجراء الابحاث في جامعة محترمة.

و لكن شيئاً مأساوياً حصل. لم يأت من الخارج و لكنه اتى من داخل عقلهُ. عقل أضعفتهُ و خربتهُ نشأة دينية مُتطرفة طلبت منه أن يصدق بأن الارض – موضوع دراستهُ في شيكاغو و هارفارد – عمرها أقل من عشرة آلآف عام. لقد كان أكثر معرفة من أن يتجاهل التناقض بين دينه و علمه و هذا التناحر في عقله لم يكن سهلا. في أحد الايام أتى بمقص و أخذ الكتاب

المقدس و بدأ بقراءته من الاول و هو يقص و يرمي كُل جملة يتوجب رميها فيما لو كان العِلم صحيحاً. في نهاية تلك المحاولة الامينة بشكل هائل و المُتطلبة لجهد كبير لم يتبق الكثير من كتابهِ المُقدس بحيث أنهُ كتب:

بعد التجربة, حتى بوجود الهوامش السليمة على الصفحات و جدت أنهُ من المُستحيل أن التقط الكتاب المقدس دون أن ينفرط. وعلي أن اختار بين التطور و الكتاب المقدس. أما أن الكتاب المُقدس صحيح و ان التطور خاطئ. أو أن التطور صحيح و علي أن أهمل الكتاب المُقدس... و في ذلك الوقت قررت أن أتقبل كلام الله و أرفض كُل ما يتعارض معها بما فيه التطور. و بذلك و بحزن شديد, رميت العِلمْ و آمالي العلمية كلها في النار.

أجد ذلك محزناً بشكل مؤلم. فبينما قصة جهاز غولجي تملأ عيني بالدموع أعجاباً, أجد قصة كيرت وايز مأساة تثير الشفقة. الشفقة لوضاعتها. الأذى التي سببتهُ لمُستقبله المهني و سعادتهُ في الحياة هو من عمل يديه, لم يكن ضرورياً, كان من السهل تفاديه. كُل ما كان عليه أن يفعله هو أن يرمي الكتاب المقدس. أو تفسيره بشكل رمزي, أو مجازي, كما يفعل رجال الدين. بدلا من ذلك فعل ما يفعله المُتطرفون و رمي بالعلم و الادلة العقلانية و معها كُل احلامه و آماله.

كورت وايز إنسان صادق, صادق بشكل مؤلم, صدق يصيبك بالصدمة و هذا شئ ربما فريد بين المتطرفين. أعطه جائزة تمبلتون, ربما سيكون متلقيها الاول ذو قلب صادق. وايز يكشف لنا ما يجري في الخفاء في عقول المُتطرفين بشكل عام, عندما تناقض الادلة العلمية أيمانهم. لنستمع لخطبته المنمقة:

على الرغم من وجود اسباب علمية للتصديق بأن الارض ذات عمر قصير, فأنا من المؤمنين بصغر عمرها لان ذلك ما أفهمه من الكتاب. و كما قلت لأساتذتي في الجامعة سابقا, لو كُل أدلة

العالم نقضت معتقد الخلق, فسأكون أول من يعترف بها و لكنني سأبقى خلوقياً لان ذلك ما يشير اليه كلام الله. و هذا هو موقفي.[1]

يبدو أنهُ يقتبس من لوثر الذي ثبت أطروحته الدينية بمسمار على باب الكنيسة في ويتنبرغ, و لكن المسكين كورت يذكرني أكثر بونستون سميث في قصة 1984 لجورج اورويل و الذي يسعى و يعاني لتصديق أن اثنان زائد اثنان يجب أن تساوي خمسة إذا قال الاخ الكبير ذلك. لكن ونستون كان تحت التعذيب و التفكير المزدوج لوايز لم يأت من أوامر تحت التعذيب و لكن من أوامر تبدو غير قابلة للنفي من قبل البعض مصدرها الأيمان الديني الذي يمكن أعتبارهُ هنا كتعذيب عقلي. عدائي للدين قادم لما فعله بكورت وايز. و عندما يكون الدين قادرا على فعل ذلك مع عالم ارض من هارفارد, فكر فقط بما يمكن أن يفعله بآخرين أقل قدرة على التفكير و أقل قابلية على التعقل.

التطرف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلمية للآلاف مما لايحصى من الابرياء ذوو النوايا الطيبة والعقول الشابة المُندفعة. و الدين المُعتدل (اللامتطرف) ربما لن يفعل ذلك و لكنه يجعل الطريق ممهداً للمتطرفين عندما يتم تعليم الاطفال منذ نعومة أظافرهم بأن الأيمان بدون شك قيمة عليا.

الوجه المظلم للاحكام المطلقة

تتحكم بعقول الكثيرين من البشر في العالم اليوم. و الخطورة في معظمها هنا في العالم الاسلامي و الحكومة الدينية ألأمرَيكية (انظر كتاب كيفن فيليبس بعنوان *The Incipient American Theocracy*). الأحكام المطلقة في أغلب أشكالها هي نتيجة أيمان ديني قوي, و تشكل سبباً رئيسياً للفكرة التي تقول بأن الدين يمكن أن يكون قوة شريرة في العالم.

أن أحد أعنف العقوبات في العهد القديم هي التي تُنفذ بحق الكافر. و لاتزال تطبق في بعض الدول. القانون رقم 295 في القانون الباكستاني يفرض عقوبة الموت لتلك (الجريمة). في 18 آب 2001, حُكم على الطبيب المُحاضر يونس شيخ بالموت لكفره. و جريمتهُ كانت بأنه قالَ لطلابهِ بأن محمد لم يكن مُسلما قبل أن يخترع ذلك الدين في الاربعين من عمره. أحد عشر طالباً من طلابه كتبوا به تقريراً للسلطات عن (مخالفتهِ). قانون الكفر في الباكستان يُطبق بشكل خاص ضد المسيحيين مثل آوغستين عاشق "كنغري" مسيح, و الذي حكم عليه بالموت في فيصل آباد عام 2000. أوغستين مسيح, كمسيحي, لم يكن مسموحاً له بالزواج من حبيبة قلبهِ لأنها كانت مُسلمة و – بشكل لايصدق – لا يسمح القانون الباكستاني (والاسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم. و بالتالي حاول أن يعتنق الاسلام و عندها أتهم بأنه يفعل ذلك لدوافع أخرى. ليس من الواضح في التقرير الذي قرأته بأن تلك كان هي الجريمة الرئيسية أو أنها كانت بسبب الزعم بأنه قال شيئاً سيئاً عن أخلاق النبي. و في كلتا الحالتين, فإن ألأمرَ بالتأكيد لايستدعي عقوبة الموت في أي بلد لديها قانون مستقل عن التعصب الديني.

في أفعانستان 2006 حُكم على عبد الرحمن بالموت لانه أعتنق المسيحية. هل قتل أحداً؟ هل أذى أحداً؟ سرق شيئاً؟ تسبب بالضرر لاحد؟ لا. كُل ما فعله هو أنه غير معتقده. بشكل شخصي و داخلي, أصبح تفكيرهُ مُختلِفاً عن التفكير الذي يروق للحزب الحاكم في بلده. و لنتذكر بأن ذلك لم يحدث في فترة طالبان بل في فترة (الحرية) الافغانية تحت سلطة حامد كرزاي, و الذي تسلم السلطة من الحلفاء الذين قادتهم أمريكا. السيد رحمن تخلص من الاعدام, بعد كُل ذلك و لكن فقط بإدعائة الجنون, و بعد الكثير من الضغوط العالمية. و هو الان لاجئ في أيطاليا ليتفادى القتل من قبل المتطرفين المتحمسين لآداء و اجباتهم الاسلامية. لايزال ذلك القانون نافذاً في افغانستان

(المتحررة) بأن عقوبة الردة هي الموت. و لنتذكر هنا بأن الردة لاتعني أي ضرر يلحق بشخص أو أي شئ آخر. أنها فقد جريمة فكرية, كما وصفها جورج أورويل في كتابه (**1984**), و العقوبة الرسمية في القانون الاسلامي هي الموت. و كمثال على تنفيذ ذلك الحكم في 3 ايليول عام 1992 تم قطع رأس صادق عبدالكريم مال الله امام الجموع في السعودية لانه أتهم رسميا بالكفر و الارتداد.[1 ,2]

التقيت مرة في برنامج تلفزيوني مع السيد أقبال ساكراني و الذي نوهت عنه في الفصل الاول كونه قيادي للأسلام (المعتدل) في إنجلترا. واجهتهُ بمدى لامنطقية حكم الردة في الاسلام. حاول التلوي في الرد و لكنه لم يستطع نفيها أو يأسف لها. ظل يحاول تغيير الموضوع قائلا بأنها تفاصيل غير مهمة. هذ الرجل أعطي لقب فارس من الحكومة البريطانية لعملهِ على بناء (علاقات جيدة بين المعتقدات).

لكن دعونا لا نمرر على المسيحية جرائمها. ففي عام 1922 و في بريطانيا, حُكِم على جون ويليامز غوت بالسجن لتسعة اشهر مع الاشغال الشاقة لكفره, لقد شبه المسيح بالمُهرج. و بشكل يكاد لا يصدق, لاتزال العقوبة قائمة في كتب القانون في بريطانيا.[3] في عام 2005 حاولت جماعة مقاضاة محطة البي بي سي بتهمة الكفر لعرضها برنامج جيري سبرينغ, أوبرا.

في الولايات المتحدة, قبعت عبارة (الطالبان ألأمرَيكيين) تحت السطح لسنين طويلة, وفي بحث سريع في غوغل نجد أكثر من دزينة مواقع قد طرحتها. المُختارات التي جمعوها, من القادة المُتدينين ألأمريكان و السياسيين ذوو القواعد الدينية, تصيب بالقشعريرة لتعصبها و عنفها الخالي من الرحمة و الدناءة المُشابهة لحركة طالبان الأفغانية و آية الله الخميني و السلطة الوهابية

---

1. **صادق عبدالكريم مال الله، البالغ من العمر 25 عاماً، ويسكن مدينة القطيف ــ حي القلعة، وهو من عائلة فقيرة. الحكومة السعودية ادّعت عبر بيان صادر من وزارة الداخلية أذيع عبر التلفزيون ونُشر في الصحف المحلية جاء فيه (بأن المدعو صادق عبدالكريم مال الله قد أقدم على سبّ الله وعلى سبّ القرآن، وسبّ النبي محمد). (المترجم).**
2. **إبن وراق (1999:175).**
3. **الحكم الصادر بحق جون وليام لقوله بأن المسيح كالمهرج تم تناوله في THE INDYOEDIA و التي تصدر عن INDEPENDET 29 نيسان 2006. و الادعاء المرفوع ضد شبكة البي بي سي جاء في نشرة أخبار البي بي سي في 20 كانون الثاني 2005.**
HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/L/HI/ENTERTAINMENT/TV_AND_RADIO/4161109.STM.

في السعودية. الموقع المدعو "**الطالبان ألأمرَيكيين**" مصدر غني بشكل خاص بتلك العبارات البغيضة و أولها من شخصية تدعى آن كولتير و التي, كما قال لي زملاء أمريكيون, ليست ساخرة بأقولها. قالت في مجلة الآريون: "يجب أن نحتل بلادهم و نقتل زعمائهم و نحولهم للمسيحية".[1] آخرون من بينهم عضو الكونغرس بوب دورنان قال"لاتستعمل الكلمة Gay (كلمة تطلق على المثليين جنسياً) الا في حالة كونها مختصراً لجملة (Got Aids Yet?) و التي تعني هل اصابك الايدز بعد؟ الجنرال وليام جي بويكين قال "جورج بوش لم ينتخب من أغلبية المصوتين في أمريكا و لكنه تعين في منصبه من الله". و عبارة أخرى في معرض الحديث عن قوانين الحفاظ على البيئة من قبل نائب رونالد ريغان للشؤون الداخلية "لا يجب علينا حماية البيئة لأن عودة المسيح ويوم الحساب قريب جداً". الطالبان الافغانيين و ألأمرَيكيين مثال جيد على ما يحدث عندما يأخذ الناس كتابهم المقدس بشكل حرفي و جدي. انهم يقدمون لنا مثالا عصريا عما سيؤول اليه الحال تحت السلطة الدينية للعهد القديم. كتاب كيمبرلي بلاكر, "**قلب التطرف: اليمين المسيحي في أمريكا**". هو كتاب مكرس لفضح الخطر من المسيحية الطالبانية (و أن لم يذكر بالذات هذا الاسم في الكتاب).

ألأيمان والمثلية الجنسية

في افعانستان وتحت حكم طالبان, كانت العقوبة الرسمية للمثلية الجنسية هي الاعدام, و بطريقة تبدو شهية للبعض و ذلك بدفن الشخص حياً تحت جدار يدفع فوق الضحية. (الجريمة) هنا تمت بشكل شخصي و مورست بين شخصين بالغين لم يتسببوا بالاذى لأي كان, و هنا لدينا مرة ثانية علامة فارقة لتلك الاحكام الدينية المُطلقة. و بلدي أنا ليس له الحق في التعالي هنا. المثلية الجنسية الشخصية كانت تعتبر جريمة حتى عام 1967. في عام 1954 أنتَحر عالم الرياضيات البريطاني آلآن تورينغ و الذي كان مؤهلاً الى جانب جون فون نيومان للقب مُخترع الكومبيوتر بعد أن أتهم بجريمة المثلية الجنسية. أعترف هنا بأن تورينغ لم يدفن حياً بهدم حائط على رأسه

1. HTTP://ADULTTHOUGHT.UCSD.EDU/CULTURE_WAR/THE_AMERICAN_TALIBAN.HTML.

بواسطة دبابة. بل أعطي الخيار بين عامين في السجن (تستطيع تخيل معاملة بقية السجناء له) و بين مُعالجة هرمونية و التي كانت في واقعها محاولة أخصاء كيميائية كانت ستؤدي الى نمو أثداء لهُ, و الجهة الاخرى كان خياره الشخصي, كان تفاحة قام بحقنها بالسيانيد.[1]

بذكائه المتميز كان لتوريغ دوره المحوري في تحطيم الشفرة الالمانية الغامضة أثناء الحرب العالمية الثانية, نستطيع أن نعتبر مساهمة تورنينغ في هزيمة الالمان كانت أكبر من تلك التي لآيزنهاور أو تشرشل. و بفضل تورينغ و زملائه اللامعين في مركز باتشلي بارك للأبحاث عرف جنرالات الحلفاء و خلال فترات طويلة و بشكل متواصل معلومات دقيقة عن تحركات القطعات الالمانية قبل أن يتمكن الضباط الالمان من تنفيذها. و بعد الحرب, عندما لم يعد دور تورينغ سرياً جداً, كان يجب تكريمهُ و أعتبارهُ أحد بطل قومي. عوضاً عن ذلك, فإن ذلك العبقري اللطيف و الغريب الاطوار دُمر تماما لـــ"جريمة" أرتُكِبت بمعزل عن الجميع و لم تؤذ أحداً. مرة أخرى نرى تلك العلامة الفارقة للأخلاقيين المؤمنين الذين يجب عليهم أن يهتموا بما يفعله الاخرون (و حتى ما يفكرون) حتى في عزلتهم.

أن موقف "الطالبان ألأمرَيكيين" تجاه المثلية يجسد أحكام تدينهم المُطلقة. لتستمع للأب جيري فالويل, مؤسس جامعة الحرية: "الآيدز ليس فقط عقوبة الله للمثليين الجنيسيين: بل أنهُ عقوبة الله للمُجتمع الذي يتقبل المثليين".[2] الشئ الذي ألاحظهُ في أؤلئك الناس هو هذا الحب المسيحي للآخر. من ذا الذي يصوت مرة بعد أخرى لرجل قليل الاطلاع و مُتعصب مثل السيناتور جيسي هيلم, الجمهوري في كارولينا الشمالية؟ رجل سمح لنفسهِ بقول التالي: "صحيفة النيويورك تايمز و الواشنطن بوست مُتخمتان بالمثليين. بين كل اثنين هُناكَ مثلي أو سحاقية".[3] الجواب هو أن أؤلئك المصوتون الذين يرون الأخلاقيات من منظارها الديني الضيق و يشعرون بالتهديد من أي شخص لا يشاركهم أيمانهم المطلق.

---

1. HODGES (1983):.

2. **هذا الاقبتاس و غيره من الاقتباسات الاخرى التي سنمر عليها لاحقاً في هذا الفصل مأخوذة من نفس الموقع الخاص بالطالبان الامريكين الذي ذكر**

3. HTTP://ADULTTHOUGHT.UCSD.EDU/CULTURE_WAR/THE_AMERICAN_TALIBAN.HTML.

لقد اقتبست عن بات روبرتسون سابقا, مؤسس التحالف المسيحي. كان مرة مرشحاً جاداً لمنصب الرئاسة الأمريكية من قبل الحزب الجمهوري عام 1988, و حصل على أكثر من ثلاثة ملايين مُتبرع للعمل في حملته الانتخابية, اضافة الى ما يوازيها من الدولارات. هذا الدعم مثير للقلق حين نعلم بأن العبارات التالية هي نموذج متكرر في خطابه: "المثليون يُريدون أن يأتوا للكنيسة و يعرقلوا القداس و يرشون الدم حولهم محاولين أصابة الناس بالآيدز ويبصقون في وجه القساوسة". "صحيفة **بلاند بارنتهود** تعلم الاطفال على الزنا و تعلم الكبار على الزنا و كل أنواع البهيمية و اللواط و السحاق – كُل ما يحرمهُ الكتاب". مواقف روبرتسون نحو المرأة أيضا تدفئ القلوب السوداء للطالبان الافغان: "اعرف بأنه من المؤلم لأمرأة أن تسمع ما أقول و لكنك حينما تتزوجين فإنت قد قبلت برئاسة الرجل. المسيح هو رأس الكنيسة و الزوج هو رأس الزوجة و ذلك هو الطريق الصحيح, نقطة أنتَهى النقاش".

غاري بوتر, رئيس الحركة السياسية الكاثوليكية للمسيحيين, قال: "عندما تتسلم الاغلبية المسيحية قيادة هذا البلد فلن يبقى هُناكَ مذاهب شيطانية و لا توزيع مجاني للأفلام الاباحية و لا مزيد من الكلام عن حقوق المثليين. بعد أن تستلم الاغلبية المسيحية زمام الامور, ستصبح التعدُدية غير أخلاقية و شريرة و لن تسمح الدولة لاي كان بإرتكاب الشر". (الشر) كما هو واضح من العبارة لا يعني عمل أشياء قد يكون لها عواقب سيئة للآخرين. بل تعني الافكار و الاعمال الشخصية و التي لا تروق لـــ(الاغلبية المسيحية).

الأب فريد فيلبس من كنيسة بورو الغربية, هو خطيب لامع آخر مُتلبس بكره شديد للمثليين. عندما ماتت أرملة مارتن لوثر كينغ, رتب الاب فريد مظاهرة في جنازتها و أعلن: "الله يكره اللوطيين و كل الذين يقبلون بهم, و لهذا, فإن الله يكره كوريتا سكوت كينغ وهو الآن يُعذبها بالنار و الكبريت حيث لا تموت الديدان أبدا و لا تخبو النار, و دخان عذابها يصعد عالياً لأبد الآبدين".[1] من الطبيعي أن نأخذ كلمات فريد فيلبس على أنه مجنون, ألمشكلة أن لديه عدداً هائلا من الاتباع و أموالهم. بناء على موقعه في الأنترنت فقد رتب فيليبس 22000 مظاهرة مناهظة للمثلية منذ عام 1991 (أي بمُعدل

1. تم أقتباس هذه المقولة حرفياً من الموقع الرسمي لكنيسة الاب فريد فيلبس. راجع HTTP://WWW.GODHATESFAGS.COM/FLIERS/JAN2006/20060131_CORETTA-SCOTT-KING-FUNERAL.PDF.

مُظاهرة كُل اربعة أيام). في أمريكا و كندا و الاردن و العراق و عرض المتظاهرون شعارات مثل "نشكر الله على الايدز". و من الامور الجذابة في موقعه بشكل خاص نرى عداد آلي لعدد الايام في الجحيم لبعض الشخصيات المثلية المتوفية.

المواقف تجاه المثليين تفضح الكثير عن شكل الأخلاقيات المُستوحاة من الدين. أمثِلة مُشابه نتعلم مِنها بشكل مُشابه هي عن الاجهاض و قدسية الحياة الأنسانية.

الأيمان و قدسية الحياة الأنسانية

تلتمس من العمدة أن التأجيل: "ارجوك", ينشج بوش و يزم شفتيه بيأس و همي, "لا تقتلني".[1] رُبما لقت تلك المرأة تعاطفاً أكبر لو أنها أشارت الى أنها يوماً ما كانت بويضة. أن تناول موضوع البويضة يبدو له من الاثر الكبير على العديدين من المؤمنين. الأم تريزا قالت في خطابها عند حصولها على جائزة نوبل للسلام: "الاجهاض هو الخطر الاكبر على السلام". عفواً... ماذا؟ كيف يمكن لأمرأة تمتلك رأيا مستهلكاً كهذا أن تؤخذ بجدية في أي موضوع جدي. ناهيك عن كون الفكرة جدية لتستحق جائزة نوبل؟ أي شخص رغب و ترك نفسه يخدع بمظاهر التقوى التي عرفناها بهِ عليه أن يقرأ كتاب كريستوفر هيتشينز "**الوضعية التبشيرية: الام تريزا بين النظرية والواقع**".

كي نعود للطالبان ألأمرَيكيين دعونا نستمع الى راندال تيري, مؤسس (حركة الانقاذ), و هي مؤسسة تتدخل لأدخال الرعب في الكادر الطبي العامل في مؤسسات الاجهاض. "عندما أصبح أنا أو أحد مثلي, حاكماً للبلد, من ألأفضل لكم أن تهربوا, لأننا سنجدكم و سنحاكمكم و سنعدمكم. و أعني كُل كلمة قلتها. سأجعل ذلك جزأ من مهمتي بأن تحاكموا جميعكم و تعدموا". تيري هنا يقصد الاطباء الذين يعملون عمليات الاجهاض و بأن مصدر الهامه قادم من أيمانه المسيحي نراه واضحاً في تعليق آخر:

> أريد موجة من الرفض تجتاحكم. أريد موجة من الكره تملأكم. نعم, الكره جيد... هدفنا هو دولة مسيحية. لدينا واجبات أنجيلية و الله نادانا لفتح هذا البلد. نحن لا نريد مساواة و لا نريد تعددية. هدفنا يجب أن يكون بسيطاً. علينا أن نكون دولة مسيحية مبنية على قوانين الله, على الوصايا العشرة. و لا حرج علينا في هذا.

إن الطموح بقيام أقل ما يمكن تسميتها به هي دولة فاشية مسيحية يعتبر نموذجي جداً في حالة الطالبان ألأمريكيين. و كأنها أنعكاس لصورة الدولة الاسلامية الفاشية التي الكثير يطمحون لها في اركان أخرى من العالم. راندال تيري لا يرتقي – بعد – لمركز سياسي. و لكن ليس هُناكَ من مُراقب للمسرح السياسي ألأمريكي في وقت كتابة هذا الكتاب بإمكانه توقع أحتمال حدوث ذلك.

1 . HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/KARLA_FAYE_TUCKER.

نصير المذهب النفعي أو النتائجي سيتناول السؤآل عن الاجهاض بطريقة مغايرة, وذلك بقياس حجم المُعاناة. هل تعاني البويضة؟ المُفترض أن الجواب لا إذاً ما أجهضت قبل امتلاكها لجهاز عصبي, و حتى لو كانت من السن بحيث أن لديها جهاز عصبي فإنها بالتأكيد تعاني أقل ,و لنقل كمثال, بقرة بالغة في المسلخ. هل تعاني المرأة الحامل أو عائلتها لو لم تجهض؟ مُمكن جداً, و على اية حال, و بما أن البويضة لا تمتلك جهازاً عصبياً, الا يجب على الام ذات الجهاز العصبي المُكتمل أن يكون لها رأي؟

مع ذلك فلن أنكر أنهُ من المُمكن أن تكون هُناكَ أسباب النتائجيين لمُعارضة الاجهاض. حجة "المنحدر الزلق" يمكن أن يتبناها النتائجيون (لكنني لن افعل هذا في هذهِ الحالة). ربما أن البويضة لا تعاني و لكن في مجتمع يسمح فيه بإزهاق الحياة البشرية يكمن الخطر في الذهاب لابعد البويضة. أين سنرسم تلك الحدود؟ وأد الاطفال؟ أن لحظة الولادة تعطينا مؤشراً طبيعياً لتعريف القواعد و الحدود, و بالأمكان الجدل بأنه من الصعب أيجاد لحظة أبكر من مراحل تطور الجنين. أن حُجة المُنحدر الزلق يمكن أن تجعلنا نعطي للحظة الولادة مُميزات أكبر مما يتمنى النتائجيون بإستنتاجاتهم ذات الافق الضيق.

الجدلية حول الموت الرحيم أيضاً يُمكن أن توضع في أطار المُنحدر الزلق. لنتخيل عبارة من فيلسوف أخلاقي: "عندما تسمح للاطباء بأن يضعوا حداً لمعاناة المُحتضر, فسيضرب كُل واحد جدته لحد الاحتضار للحصول على أموالها. نحن الفلاسفة ربما نضجنا عن الاحكام المطلقة و لكن عامة الشعب تحتاج أن تلتزم بقوانين مُطلقة مثل "لا تقتل" و إلا فإنها لن تعرف حدودها. تحت طائلة بعض الظروف, يمكن للاحكام المطلقة أحياناً و لأسباب خاطئة في مجتمع غير مثالي أن يكون لها نتائج أفضل من النتائجية الساذجة! نحن الفلاسفة ربما نجد صعوبة في منع أكل الأنسان الميت و الغير مندوب مثل صعلوك مقتول بسبب حادث على حافة طريق, و لكن, و لتحاشي المُنحدر الزلق, فإن الحكم المطلق بتحريم اكل البشر لا يُمكن أن نخاطر بخسارته".

رُبما تُعتبر حجة المُنحدر الزلق طريقة تمكن النتائجيين من أدخال شكل من الحكم المُطلق الغير مباشر. لكن خصومة الاديان للاجهاض لا تزعج نفسها

بالمنحدرات الزلقة. بالنسبة لهم الموضوع أبسط بكثير. البويضة (طفل) قتلها هو جريمة قتل, هذا كُل شئ, أنتَهى. يتبع ذلك الكثير من المواقف المُطلقة. وأولها, أن كل الابحاث الجنينية المُتعلقة بالخلايا الجذعية يجب أن تتوقف, برغم الفوائد الهائلة في البحوث الطبية, لان الخلايا الجنينية تموت أثناء العمل عليها. المفارقة واضحة عندما نعرف بأن المُجتمع يتقبل مسبقاً تخصيب البويضة في الانابيب خارج الجسم و الذي يستميل فيه الاطباء جسم المرأة لأنتاج عدد أضافي من البويضات لأخصابها خارج الجسم. العدد قد يصل لدزينة من البويضات الحية, منها أثنتان أو ثلاث تُزرع في الرحم. من هذه الثلاثة واحدة و بعض الاحيان أثنتان تكمل الحمل. ففي حالة الاخصاب الانبوبي يُقتل بويضات صالحة للحياة في مرحلتين مِن مراحلهِ, و المجتمع بشكل عام ليس لديه أي أعتراض على ذلك. و لخمسة و عشرين عاماً يظل الاخصاب بالانابيب أجراءً نموذجيا لأدخال البهجة في حياة الازواج التائقين للأطفال.

ربما يكون للمُتدينين المُطلقين مُشكلة مع الاخصاب الخارجي. صحيفة الغارديان في 3 حزيران 2005 كتبت قصة مُحيرة تحت عنوان (استجابة زوج و زوجة مسيحيان لنداء من اجل أنقاذ بويضة زائدة من عملية اخصاب خارجي). القصة تدور عن مؤسسة تسمى (ندف الثلج) و التي تهتم بإنقاذ البويضات الزائدة من عيادات الاخصاب الخارجي. "لقد شعرنا حقيقة بأن ألإله يدعونا لمُحاولة أعطاء أحدى هذهِ البويضات - الاطفال - فرصة للحياة". قالتها أمرأة من ولاية واشنطن, و التي كان طفلها الرابع نتيجة ذلك "التحالف الغير متوقع للمسيحيين المُحافظين مع عالم أطفال الانابيب". و لقلقها مِن هذا التحالف فقد قام زوجها بسؤال الكاهن في الكنيسة و الذي أجابه. "لو أردت تحرير عبد فعليك في بعض الاوقات أن تتعاقد مع تاجر العبيد". أعجب عما سيقوله هؤلاء لو عرفوا بأن غالبية البويضات المُلقحة تجهض في الحالة العامة. ربما يعتبرونها نوعا من "التحكم بالنوعية".

بعض المُتدينين لا يستطيعون التمييز بين قتل بضعة خلايا ميكروسكوبية من ناحية و بين قتل طبيب مُكتمل النمو من الناحية الاخرى. لقد أقتبست من راندال تيري مسبقا و حزبه "مهمة الانقاذ". مارك يورغينسماير, في كتابه الذي يصيب بالقشعريرة "**الارهاب في عقل ألإله**" عرض فيه صورة الاب

مايكل باري مع صديقه الاب باول هيل, يمسكان بلافتة تقول: "هل من الخطأ منع قتل الاطفال الابرياء؟". الأثنان, شابان يافعان, يبتسمان بود, بملابس انيقة يبدوان لطيفان, صورة معاكسة تماما للمجانين كما نتخيلهم. رغم ذلك و بمشاركة زميلهما الثالث من جيش الأله فقد جعلوا مهمتهم أحراق عيادات الاجهاض ولم يترددوا في البوح برغبتهم بقتل الاطباء. في 29 تموز 1994 قتل باول هيل الدكتور جون بريتون ببندقية صيد مع مرافقهُ جيمس باريت خارج عيادة بريتون في بنساكولا بولاية فلوريدا. بعدها سلم نفسه للشرطة قائلا بأنه قتل الطبيب ليمنع أي قتل "الاطفال الابرياء" على يده بالمستقبل.

مايكل براي دافع عن مثل هذا التصرف في كُل مقابلة يجريها كهدف أخلاقي نبيل, كما أكتشفت عندما أجريت معه مُقابلة في حديقة عامة في كولورادو سبرينغ و ذلك من أجل البرنامج الوثائقي عن الدين.[1] و قبل أن نأتي الى موضوع الاجهاض, فحصت معايير براي عن الأخلاق المبنية على الكتاب المقدس بسؤاله بعض الاسئلة التمهيدية. أشرت الى أن القانون الانجيلي يحكم على الزاني بالموت رجما. و توقعت أن ينكر هذا المثال الخصوصي لوضوح كونه خارج حدود المعقول و لكنه فاجأني. لقد أبدا رغبتهُ بأن يعدم الزاني بعد محاكمة قانونية عادلة. بعد ذلك أشرت الى أن باول هيل, مع كُل دعم براي, لم يتبع الاجراءات بل تصرف و كأن القانون بيده و قتل الطبيب. براي دافع عن تصرف صديقه الكاهن بنفس الطريقة التي أتبعها عندما أجرى يورغينسماير المُقابلة معه, بأن هناك فرق بين القتل الأنتقامي, مثل قتل طبيب مُتقاعد, و قتل طبيب لازال يعمل و ذلك لِمنعهِ من "قتل ألاطفال". عندها وضعتهُ في الصورة التالية, بفرض أن اعتقاد باول هيل لاشك في امانته, فأن المجتمع سيغرق في فوضى مُرعبة عندما يتخذ كُل فرد فيه قناعاته الشخصية كقانون و يتصرف على أساسها, بدلاً من طاعة قانون البلد. اليس من الصحيح مُحاولة تغيير القانون ديموقراطياً؟ أجاب براي: "تلك هي المشكلة عندما لا يكون لدينا قانون حقيقي قائم و مُسند, عندما تكون قوانينا موضوعة من قبل بشر تتحكم بهم النزوات, كما رأينا في حالة القانون المدعو قانون حق الاجهاض, حيث مجموعة من القضاة قاموا بفرضه على

1. النشطاء المُدافعون عن حقوق الحيوان الذين يهددون بالعنف ضد الباحثين الذين يستخدمون الحيوانات في الابحاث الطبية يبررون أعمالهم بنفس الاهداف الاخلاقية النبيلة تلك.

الشعب..." بعدها واصلنا الجدل حول الدستور ألأمرَيكي و من اين أتت القوانين. موقف براي من ذلك ظهر مُشابهاَ جدا لمواقف المتطرفين الاسلاميين الذين يعيشون في بريطانيا و الذين يصرحون علانية بأنهم يخضعون للشرع الاسلامي فقط و ليس للقوانين الديموقراطية المسنونة في الدولة التي تبنتهم.

في 2003 أعدم باول هيل لِقتلهِ الدكتور بريتون و مرافقه الشخصي قائلا بأنه لو استطاع لفعلها ثانية لانقاذ الاجنة. وقال في مؤتمر صحفي قال بأنه سعيد بأن يموت من أجل قضيته "أؤمن بان أعدامي من قبل الدولة سيجعل مني شهيداً". اليمين المتطرف المناهض لقانون الأجهاض تظاهروا ضد الأعدام في حلف غير مقدس مع اليسار المناهض لحكم الاعدام و التي حرضت حاكم فلوريدا جيب بوش (الاخ الأصغر لجورج بوش) كي "يوقف أستشهاد باول هيل". حيث زعموا من أن القتل القانوني لباول هيل سيشجع حدوث المزيد من جرائم القتل المماثلة, و هذا تماما عكس الهدف المزعوم من عقوبة الاعدام. هيل كان مُبتسما طوال الطريق الى غرفة الاعدام قائلا, "اتوقع جزاء عظيما في السماء.. و أنتظر الفوز العظيم بفارغ الصبر"[1] و أقترح بأن على الاخرين أن يحذو حذوه بذلك العنف. توقع القضاء هجوم أنتَقامي "لأستشهاد" باول هيل, حيث صعدت الشرطة من مستوى الانذار لاعلى مُستوى بينما كان هيل يعدم و العديدون ممن لهم علاقات بالقضية تلقوا رسائل تهديد بداخلها رصاصات مسدس.

كل ذلك الرعب مصدرهُ أختلاف بسيط في وجهات النظر. هُناكَ من الناس و بسبب قناعاتهم الدينية, يظنون بأن الاجهاض قتل و مُستعدون للقتل دفاعاً عن البويضة, و التي يسمونها "طفلاً رضيعاً". من جهة أخرى هُناكَ من هم صريحون بشكل مماثل و مؤيدون للاجهاض, و منهم من لديه قناعات دينية مختلفة أو بدون, مع أخلاق مبنية على النتائجية. هؤلاء يرون أنفسهم أيضاً مثاليين يقدمون خدمة طبية للمريض يحتاجها, و الذين لكانوا قد وضعوا أنفسهم تحت رحمة دجال جاهل في شارع خلفي. كُل طرف يرى الطرف ألآخر قاتلا أو داعياً للقتل. الطرفان, بإلقاء الضوء عليهم, متساويان في الصدق.

1. وفقاً للمعلومات التي نشرتها قناة فوكس للاخبار. HTTP://WWW.FOXNEWS.COM/STORY/0,2933,96286,00.HTML.

أحدى المتحدثات بإسم عيادة أجهاض أخرى وصفت باول هيل كمجنون خطر. و لكن من هُم مثله لا يفكرون بأنهم مجانين خطرين بل يفكرون بأنهم طيبين و أخلاقيين و مقادين من الله. بالتأكيد, لا أظن أن باول هيل كان مُضطرب عقلياً و لكنه فقط مُتدين. خطر؟ نعم و لكن ليس مضطرب عقلياً. مُتدين بشكل خطر. من وجهة نظر أيمانهِ الديني فإن هيل كان مُحقا و أخلاقياً تماماً عندما رمى الدكتور بريتون بالرصاص. ما هو خاطئ في هيل هو أيمانه الديني بحد ذاته. مايكل براي أيضاً, عندما قابلتهُ لم يعطني إنطِباعاً عن أنهُ مُضطرب عقلياً. بل أنهُ حتى أعجبني. فكرت بأنهُ أنسان أمين و مُخلص, يتكلم بهدوء و عمق تفكير و لكن عقله للاسف كان غارقا في ترهات دينية مسمومة.

أن مُعظم مُعارضي الاجهاض بقوة هم من المُتدينين العميقين و مؤيدي الاجهاض الصادقين, بغض النظر عن كونهم مُتدينين شخصيا ام لا, يلحقون غالِباً بالغير مُتدينين, فلاسفة الأخلاق النتائجيون و غالِباً يستعملون سؤال جيرمي بويثام. "هل يستطيعون المعاناة". باول هيل و مايكل براي لم يروا فرقا أخلاقيا بين قتل بويضة و طبيب غير أن البويضة بالنسبة لهم "طفلا" بريئا لايلام. النتائجيون يرون أن هناك كل الاختلاف هنا. أن بويضة مُبكرة لها مظهر و شبهاً للدعموص (جنين الضفدع). الطبيب هو أنسان بالغ لهُ آمال و تطلعات و مخاوف, مخزن أنساني مدهش ملئ بالمعرفة و القدرة على الشعور العميق و من المرجح أن هُناكَ أرملة يائسة و يتامي و ربما أهل كبار في السن يحبونه جداً.

باول هيل سبب معاناة عميقة و حقيقة و دائمة لبشر لديهم أجهزة عصبية قادرة على المعاناة. بينما ضحيتهُ الطبيب لم يفعل شيئاً كهذا. البويضات المبكرة ليس لها جهاز عصبي و بالتأكيد لا تعاني. ولو أن البويضة المجهضة المُتأخِرة مع جهاز عصبي تعاني ليس لانهم بشراً, بالرغم أن كُل معاناة محزنة بعمق. ليس هُناكَ أسباب عامة لأفتراض بأن البويضة الأنسانية في أي عمر تعاني أكثر من بويضة بقرة أو خروف في نفس مرحلة التطور. و هناك كُل الاسباب لأفتراض بأن البويضات كلها, أنسانية أو غيرها, تعاني أقل بكثير من البقرة البالغة أو الخروف البالغ في المسلخ, خصوصاً في

المسالخ الشرعية حيث, و لأسباب دينية, يجب أن يكونوا في كامل وعيهم عند أجراء طقس قطع جناجرهم.

مِن الصعب قياس المُعاناة,[1] و التفاصيل من المُمكن نقاشها. لكن هذا لا يؤثر على المبدأ الاساسي و الذي يركز على الفرق بين النتائجيين العلمانيين و فلاسفة الاخلاق المُطلقة المُتدينين.[2] أحدهم يبحث فيما إذا ما كانت البويضة تُعاني و الاخر يبحث في كونهم بشراً. تستطيع أن تسمع أخلاقيون متدينون و هم يناقشون أسئلة من قبيل "متى تصبح البويضة المُتطورة أنسانا؟". أن الأخلاقيين العلمانيين سيسألون, "ليس من المهم كونها أنساناً ام لا (هل يعني ذلك أي شئ لمجموعة من الخلايا؟). في أي عمر تصبح بويضة متطورة ,لاي كائن كان, قادرة على الشعور بالالم؟"

حجة بيتهوفن الكاذبة

"ماذا عن إنهاء الحمل, أريد رأيك. الأب مُصاب بالسفلس و الام مُصابة بالسل. من اطفالهم الاربعة الذين ولدوا فأن الاول اعمي و الثاني مات و الثالث اطرش و متخلف و الرابع مُصاب بالسل أيضاً. ماذا كُنت لتفعل؟"
"كنت لأنهي الحمل"
"أذن لكنت قد قتلت بيتهوفن الان"

الأنترنت يغرق بالمواقع التي تلقب نفسها بـــ(أنصار الحياة) مِمَن يكررون هذهِ القصة السخفية, و يغيرون فيها بحيوية طائشة. اليكم وجهاً آخر للقصة "لو علمتَ بأن أمرأة حامل و كان لديها 8 أولاد, ثلاثة طرشان و اثنان عميان و واحد متخلف (كل ذلك لانها مصابة بالسفلس) هل ستنصحها بالأجهاض؟ في هذه الحالة فأنت قتلت بيتهوفن اذن".[1] هذه الصياغة تنزل بترتيب الموسيقار العظيم من خمسة الى تسعة في ترتيب الأخوان و ترفع عدد الاعضاء المولودين طرشاناً الى ثلاثة و العميان الى أثنان و تعطي السفلس للأم بدلاً عن الاب. أغلب المواقع الثلاثة و الاربعين التي وجدتها عند بحثي عن صياغات مختلفة لهذه الحجة لا تعزي القصة لموريس بارينغ و إنما لبروفيسور يسمى ل. ر. آغنيو من جامعة كاليفورينا للطب و الذي وضع الحزورة لطلابة و قال لهم "تهانينا, لقد قتلتم بيتهوفن للتو". دعونا هنا نعذر البروفيسور ل. ر. آغنيو نظراً للشك الكبير بجود مثل هذه الشخصية. من المدهش كيف تنتشر تلك الأساطير. لا أستطيع معرفة فيما لو إذا كان بارينغ هو من أسس هذهِ الاسطورة أم أنها وجدت قبلهُ.

أما عن كونها مُلفقة فهذا أكيد. أنها مزيفة بكاملها. الحقيقة أن لودفيغ فاي بيتهوفن لم يكن الطفل التاسع أو الخامس. أنما هو البكر – بالتحديد الثاني لكن أخوه الاول مات في مهده وكان ذلك شائعاً أيامها, و لم يكن, على حد علمنا, أعمى أو أطرش أو مُتخلف أو غبي. ليس هُناكَ أي أدلة على أن اياً من أبويه كان مريضاً بالسفلس, مع العِلمْ أن أمه ماتت بداء السل و كان ذلك مرضاً منتشراً حينها.

1. HTTP://WWW.WARROOM.COM/ETHICAL.HTM.

في الحقيقة و الواقع فأن هذه القصة أسطورة متكاملة, مُفبركة و محاكة بشكل مدروس و تنتشر من قبل أناس مُهتمين بنشرها. ولكن كون هذه الحجة كذب فاضح فهذا لا شأن لانه بما نناقضه الآن. حتى لو لم تكن كذبة, فإن الحجة المُستقاة مِنها سيئة للغاية. بيتر و جين ميداور لم يحتاجا للشك بالقصة ليثبتا كذب الحجة: "الفكرة وراء تلك الحجة الصغيرة خاطئة بشكل يقطع الانفاس. طالما بأنه ليس هُناكَ علاقة سببية تذكر بأنه أذا كانت الام مُصابة بداء السل و الاب مُصاب بالسفلس فهذا سيؤدي لولادة عبقري موسيقي مثل بيتهوفن, فانه أحتمال أن يحرم العالم منه بواسطة الاجهاض بأحتمالية ليس أكبر من حرمانهُ مِنه بسبب البتولية".[1] أن النقض الساطع للحجة من الزوجين ميداور لا غبار عليه (كي أستعير هنا أحدى قصص روالد داهل القصيرة, فأن القرار العشوائي برفض أجهاض مماثل عام 1888 كانت نتيجتهُ آدولف هيتلر). لكنك لست بحاجة كي تكون عبقرياً – و لا حتى متحرر من نوع معين من التربية الدينية – لتعرف القصد. من المواقع الثلاثة والاربعين لـــ(أنصار الحياة) يعرضون أوجهاً مُختلفة لقصة بيتهوفن الاسطورية و التي أتاني بها غوغل بينما كنت أكتب هذا المقطع, لم ينتبه أيا منهم للامنطقية الحجة. بل كلها (و كلها صفحات دينية) وقعت ضحية الكذبة بنجاح. أحد تلك المواقع ذكر بأن المصدر هو ميداور. مُتحمسين جداً لتصديق كذبة متجانسة مع معتقدهم, لدرجة أنهم لم يلاحظوا حتى بأن ميداور أقتبس هذه الحجة فقط كي ينسفها من أساسها.

ان ميداور على حق تماما عندما أشار بأن الأستنتاج المنطقي لحجة "القدرة الأنسانية الكامنة" هو إننا نمنع أنسانا من نعمة الوجود كلما مررنا فرصة لممارسة الجنس. كُل رفض لاي عرض للاتصال بين شخصين خصبين هو وفقاً لمنطق (أنصار الحياة), هو مساوي لقتل طفل مُحتمل! حتى الدفاع عن النفس في حالة الاغتصاب يمكن أن يعتبر قتلاً لطفل مُحتمل (و هُناكَ الكثير من "انصار الحياة" من الذين يرفضون الاجهاض حتى للمرأة التي حملت بعد تعرضها لحادثة أغتصاب شرسة). نرى بوضوح سوء المنطق لحُجة ببيتهوفن. أنها غباء غير طبيعي يعبر عنه بالاغنية اللامعة "كل نطفة مقدسة" و التي يغنهيا مايكل بالين مع كورس من مئات الاطفال في فيلم مونتي بايتون معنى الحياة (شاهده من فضلك إذا لم تفعل بعد). أن كذبة بيتهوفن

1. ميداور و ميداور (1977).

الكبرى هي مثال نمودجي لشكل الفوضى المنطقية التي نغرق فيها عندما تمتلأ عقولنا بالاحكام الدينية المُطلقة.

لاحظ بأن "أنصار الحياة" هنا لاتعني بشكل ما نصرة الحياة بكل أشكالها على الاطلاق. بل انها تعني نصرة الحياة الأنسانية فقط. أن المطالبة بحقوق خاصة فريدة من نوعها لخلايا النوع (هوموسابيان) يصعب أن تتفق مع واقع التطور. وهذا بالطبع لا يقلق المناهظين للاجهاض و الذين لا يفهمون بأن التطور أمر واقع! لكن دعوني بأختصار أوضح الحجة للمناهظين للاجهاض و الذين ربما أقل خبرة بالساحة العلمية.

أن وجهة نظر التطور بسيطة جداً. أن الجزء الانساني الموجود في البويضة لا يملك مركزاً أخلاقياً مطلقاً. لا يُمكن ذلك بسبب التطور المُستمر مع الشمبانزي و أبعد, و مع كُل كائن حي على الكوكب. لنفهم هذه النقطة, تخيل بأن كائنا متوسطاً و لنقل اوسترابيثيسوس آفارانسيس, قد نجح بالبقاء و تم اكتشافهُ في منطقة نائية من أفريقيا. هل يعتبر هذا الكائن أنسانا أم لا؟ بالنسبة لشخص نتائجي مثلي, السؤآل لايستحق حتى الاجابة, لان ذلك لن يغير شيئاً. مِن الكافي هذا الانبهار و الشرف بلقاء "لوسي" جديدة. أما المؤمن بالاحكام المطلقة فأن عليه أن يجيب على هذا السؤآل, ليستطيع أن يطبق مبادئ الأخلاق الخاصة و التي تضمن مُميزات خاصة و فريدة للبشر لانهم بشر. و أذا أحتاج الامر فأن هؤلاء المؤمنين بالاحكام المطلقة ربما سيحتاجون محاكم, كما كان الحال في زمن التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا, لتحديد فيما لو كائنا ما يعتبر أنساناً.

و حتى لو كان هُناكَ جواباً واضحاً في حالة الأوسترالوبنثوكوس, فإن الاستمرارية المُتدرجة التي لامهرب منها في التطور الطبيعي تقول لنا بأنه يجب أن يكون هنالك كائنٌ ما "متوسط" قريبٌ بشكل كافي "للحدود" بين الانواع كي تصبح تلك المبادئ الأخلاقية غير واضحة و غير مُطلقة. الطريقة ألأفضل هنا هو أن نقول بأنه ليس هُناكَ حدود في التطور. الحدود الوهمية هذه تظهر بسبب أن أشكال الحياة المتوسطة في تأريخ التطور قد أنقرضت. بالطبع, من الممكن الجدل في أن الأنسان لديه القدرة على المعاناة أكثر من أي كائن آخر. و يُمكن أن يكون ذلك حقيقيا فعلاً, و بالتالي يمكن أن

نعطي الأنسان وضعاً خاصا بسبب تلك القيمة. لكن أستمرار التطور يرينا بأنه ليس هُناكَ فرق مطلق. وان التطور يهدم بشكل صارخ التمييز الذي تمارسه الاحكام المُطلقة. أن الادراك لتلك الحقيقة ليس هيناً, و ربما فأن الدافع الرئيسي للخلوقيين ليعارضوا التطور هو خوفهم مما يؤمنون بانه النتائج الأخلاقية المترتبة عليه. أنهم مُخطئون بذلك, لكن على أي حال, فمن المؤكد انه من المحير أن نظن بأن الحقيقة يمكن أن تتغير فقط لأعتباراتنا الأخلاقية.

كيف يفتح الاعتدال الديني الباب واسعاً للتطرف

بحرب نووية. حيث يفسرونها على أنها "أرمجدون"[1] و التي بناء على تفسيرهم الغريب و المنتشر لدرجة مُقلقة لكُتاب الوحي, سوف تعجل القدوم الثاني للمُخلص. يشير سام هاريس في كِتابهِ **(رسالة الى وطن مسيحي)** الى المضاعفات الخطرة لمثل هذا الاعتقاد و التي لا أحلم بأن أكتب افضل منها:

> لهذا السبب فليس من المبالغة القول بأن نسبة لابأس بها من ألأمرَيكيين سينظرون بغمرة الى غيمة عش الغراب النووية إذا تحولت نيويورك مثلاً الى كرة من النار لأن هذا حسب مُعتقدهم, بأن افضل ما يمكن أن يحصل على وشك الحصول: عودة المسيح. و هنا يستوجب الاشارة لما لا شك فيه بأن أيمانا بهذا الشكل لن يساعدنا في بناء مُستقبل زاهر – خصوصاً فيما يتعلق بالمجتمع و البيئة أو الجغرافيا السياسية. تخيل العواقب لو أن جزء لا بأس بهِ من الحكومة ألأمريكية يؤمن فعلاً بأن العالم على وشك الزوال و أن نهايتهُ ستكون رائعة. أن الواقع بأن حوالي نصف ألأمرَيكيين يبدو وكأنهم يؤمنون بذلك, و بالتحديد بسبب أعتقاداتهم الدينية, يجب أن يعتبر أخلاقياً و فكرياً حالة طارئة.

أذن, هُناكَ أناس ممن يأخذهم معتقدهم الديني تماماً خارج حدود "روح العصر" الأخلاقية و الاحترام المتبادل. أنهم يُمثلون ما أسميتهُ الجانب المظلم من الاحكام الدينية المُطلقة, و غالِباً ما يتم وصفهم بالمُتطرفين. لكن نقطتي في هذا الفصل هي في أن المُتدينين, و حتى المعتدلين منهُم, يساعدون في خَلقَ جو الأيمان الديني و الذي يزدهر فيه التطرف.

في تموز عام 2005, وقعت لندن ضحية لهجوم أنتَحاري مُنظم: ثلاث قنابل في قطار الانفاق و واحدة في باص. لم يكن بسوء الهجوم على برجي مركز التجارة العالميين في 2001 و لم يكن غير متوفع – بالتأكيد, فلندن أصبحت مهددة بحادثة كتلك منذ اليوم الذي تبرع فيه طوني بلير بنا نحن الرافضين كأصدقاء بوش في احتلال العراق– بالرغم من ذلك فقد فأن الانفجارات نشرت الرعب في كل بريطانيا. أمتلات الصحف بتحليلات غير مُجدية عن

---

1. أرمجدون أو هرمجدون هي كلمة جاءت من العبرية هار– مجدون أو جبل مجدو ، حسب المفهوم التوراتي هي المعركة الفاصلة بين الخير و الشر أو بين الله و الشيطان و تكون على إثرها نهاية العالم.

الاسباب التي تدفع أربعة شباب لتفجير أنفسهم لأشلاء و قتل الكثيرين من الابرياء معهم. القتلة كانوا مواطنين بريطانيين عاديين, يلعبون الكريكيت و يتصرفون بلطف, تماماً هذا النوع من الشباب الذين كنت لتستمع بصحبتهم.

لماذا فعل اؤلئك الشباب اللطفاء هذه فعلتهم؟ على النقيض من نظائرهم الفلسطينيين, أو الكاميكازي اليابانيين أو نمور التاميل في سريلاكا, فإن تلك القنابل البشرية لم ينتظروا بأن عائلاتهم سيحتفى بها أو أنهم سيعيشون على تقاعد الشهيد. على العكس فبعض أقاربهم كان عليهم الهروب و الاختباء. أحدهم جعل زوجته الحامل الى أرملة و طفلهُ الرضيع الى يتيم. أن تصرف هؤلاء الشباب الاربعة لا يُمكن أن يوصف بأقل من أنه كارثي, ليس فقط لهم و لضحاياهم, بل لعائلاتهم و لكل الجالية المُسلمة في بريطانيا, و التي يجب عليها الآن مواجهة ردة الفعل. الاعتقاد الديني حصراً هو من القوة كي يكون دافعاً لشخص سليم و محترم بشكل عام الى مثل هكذا جنون تام. و مرة أخرى, سام هاريس يتناول أسامة بن لادن قائد منظمة القاعدة كمثال (و الذي بشكل عام ليس له علاقة بتفجيرات لندن) و يشرح الموضوع بوضوح رائع. ما الذي يدفع أي شخص لتدمير مبنى مركز التجارة العالمي و كل من فيه؟ أن وصف بن لادن بـــ(الشرير) هو مُحاولة للتهرب من الاجابة الصريحة لسؤآل مهم جداً.

> إن الاجابة على هذا السؤآل واضحة جداً – حتى ولو كانت الاجابة مطروحة بوضوح تام لدرجة الغثيان من بن لادن نفسهُ. الاجابة هي في أن رجال أمثال بن لادن يؤمنون حقيقةٍ بما يقولون بأنهم يؤمنون به. أنهم يؤمنون بحقيقة القرآن حرفياً. لماذا بدل تسعة عشر شخصا مثقفاً من الطبقة الوسطى حياتهم لنيل شرف قتل الآلاف من البشر؟ ببساطة لأنهم يؤمنون بأنهم سيذهبون مباشرة الى الجنة بعملهم هذا. من النادر الحصول على مثل هذا التفسير الواضح و المتكامل للسلوك ألانساني. لماذا نتردد في قبول تفسير كهذا؟[1]

1. HARRIS (2004: 29).

المحرر المُحترم موريل غراي, الذي يكتب في صحيفة هيرالد في مدينة غلاسكو, كتب في 25 تموز 2005 شيئا مماثلاً و في حالته كان الحديث عن حادثة لندن.

لقد القي اللوم على الجميع, بدأ بثنائي الشر جورج بوش الابن و توني بلير, الى تقاعس (الجالية) المُسلمة. لكن الموضوع لم يكن أكثر وضوحاً مما هو عليه الآن بأن هُناكَ سبباً واحداً للوم, و هكذا كان دائماً . أن سبب هذا البؤس و الفوضى و العنف و ألارهاب و الجهل هو بالطبع الدين نفسه, حتى لو بدا من السخف أن نوضح شيئا بديهياً كهذهِ الحقيقة, لكن الحكومة و الاعلام ماهرين جداً بالتظاهر بأن ألأمرَ ليس كذلك.

سياسيونا الغربيون يتفادون الاشارة للدين و بدلا عنه يصفون حربهم بالحرب ضد (الارهاب), كما لو أن الارهاب هو روح أو قوة بأرادة خاصة و لها افكارها الخاصة بها. أو انهم يصفون الارهابيين كما لو أنهم مدفوعون من (شر) خالص. و لكنهم ليسوا مدفوعين من قبل الشر. مهما كنا نظن بأننا مخدوعون, فإنهم مدفوعون, كما هو الحال في حال المسيحيين الذين يقتلون أطباء الاجهاض, بما يعتقدون بأنه الحق و يفعلون بصدق ما يقولهُ دينهم لهم كي يفعلوه. أنهم ليسوا مجانين. بل أنهم متدينين مثاليين و من وجهة نظرهم عقلانيين. ينظرون الى تصرفاتهم على أنها صالحة, ليس بسبب نظرة شخصية مشوهة للواقع و ليس بسبب أنهم متلبسون بالشيطان, بل لانهم قد تربوا, من المهد, كي يكون لهم أيمان ديني تقي و بدون شك او تسآؤل. سام هاريس يقتبس من أنتحاري فلسطيني فشل بتفجير نفسهُ قوله بأن ما دفعه لقتل الاسرائيليين هو (حُبهُ للشهادة... لم أطمح للانتقام لشئ. فقط أردت أن أصبح شهيداً). في 19 تشرين الثاني 2001 نشرت صحيفة النيويوركر مُقابلة أجراها حسان نصرا مع أنتَحاري آخر فشل في محاولته, شاب فلسطيني مؤدب عمرهُ 27 سنة رمز له (س). أن بلاغتهُ في وصف سحر الجنة بشاعرية من قبل الزعماء و المدرسيين الدينيين المعتدلين جعلني أفكر بأن أعطيها هنا مساحة اكبر قليلاً:

سألتهُ, أين تقع تلك الجاذبية للشهادة؟

أجاب (قوة الروح تجذبنا للاعلى, بينما المادية تجذبنا للاسفل) و أسترسل قائلاً (ان المُصمم على الشهادة يصبح منيعا ضد الجاذبية المادية. و مُخطط العملية سألنا, ماذا لو فشلت العملية؟ فقلنا له مهما حصل فأننا اليوم سنقابل النبي و الصحابة أن شاء الله)

ثم أكمل (لقد كنا نحلق و نسبح في الشعور بأننا سندخل الابدية حالاً. لم يكن لدينا أي شك. أقسمنا على القران, و أمام الله قسما لاعودة عنه. هذا القسم الجهادي يدعى بيت الرضوان و سُمي على أسم حديقة في الجنة مُخصصة للأنبياء و الشهداء. أعرف بأن هُناكَ أربعة طرق أخرى للجهاد. و لكن هذهِ رائعة, بل أروعهم. كُل العمليات الاستشهادية عندما تتم في سبيل الله فأن ألمها أقل من عضة بعوضة).

س عرض علي الشريط الذي وثق المُخططات النهائية للعملية. في هذا الفلم المنمش رأيته مع اثنين آخرين في حوار ديني بأسئلة و أجوبة حول الظفر بالشهادة....

بعد ذلك ركع الشباب و معهم قائد العملية و وضعوا يدهم اليمنى على القران. قائد الخلية قال: (هل أنتَم جاهزون؟ غداً ستكونون في الجنة).[1]

لو كنت أنا (س) فستعترينى الرغبة بأن اسأل قائد العملية: (حسناً, في هذهِ الحالة, لماذا لا تقف عند كلمتك؟ لماذا لا تؤدي العملية الانتحارية بنفسك و تأخذ أسرع الطرق للجنة؟ ما هو عصي على فهمنا هو – و أكرر النقطة لأنها مُهمة جداً – أن هؤلاء يؤمنون فعلاً بما يقولون أنهم يؤمنون بهِ. ما يجب أن نفهمهُ هو بأنهُ علينا أن نلوم الدين نفسه و ليس التطرف الديني, كما لو أنه صنف مُرعب من النشوز عن الدين الحق و المُسالم. لقد أصاب فولتير كبد الحقيقة من زمن بعيد: (هؤلاء الذين بإستطاعتهم أن يدفعوك للتصديق

1. **حسان نصرا في** ('AN ARSENAL OF BELIEVERS) **في التاسع عشر من تشرين الثاني 2001. على صحيفة النيويوركير.**
HTTP://WWW.BINTJBEIL.COM/ARTICLES/EN/011119_HASSAN.HTML.

باللامعقول يستطيعون دفعك لأرتكاب المظالم) و أيضاً بيرتراند راسل: (الكثيرون من الناس يفضلون الموت على التفكير, وهم يموتون فعلاً).

طالما اننا نتقبل بأنهُ يجب علينا أحترام الأيمان الديني فقط لانه أيمان ديني, فسيكون من الصعب علينا أن نستثني أيمان أسامة بن لادن و الانتحاريين من هذا الاحترام. البديل, بديهي لدرجة لايحتاج التوضيح, أهمال مبدأ الاحترام للأيمان الديني. وهذا سبب من الاسباب التي تجعلني أفعل كُل ما بوسعي لأنبه الناس للأيمان الديني بحد ذاته, و ليس فقط ضد ما يسمى الأيمان (المتطرف). أن تعاليم الدين (المعتدل) برغم أنها ليست متطرفة بحد ذاتها, الا أنها دعوة مفتوحة للتطرف.

قد يقول قائل بأن الأيمان الديني بحد ذاته ليس شيئاً مميزاً بحد ذاتهِ. حُب الوطن أو الطائفة المذهبية يُمكن أن تكون مهداً لنوعها الخاص من التطرف, اليس كذلك؟ نعم, يمكنها ذلك, كما حصل مع الكاميكازي اليابانيين و نمور التاميل السريلانكيين. و لكن الايمان الديني هو مبيد فعال لكل أنواع المنطق العقلاني و الذي عادة يتفوق على كُل الأشكال الاخرى. و ذلك غالِباً بسبب الوعود البسيطة و الخادعة بأن الموت ليس هو النهاية و أن هُناكَ جنة خاصة للشهداء بمتع أضافية. و كذلك لان الأيمان بطبيعته لا يتقبل اي شك او تسآؤل.

المسيحية, تماما كالأسلام, تعلم الاطفال بأن الايمان دون سوآل هو فضيلة. لا يجب عليك أن تجادل بما يؤمن به أحد. عندما يعلن أحد ما بأن شيئا ما هو جزء من مُعتقدهِ, فإن بقية المجتمع, سواء كان مؤمناً بنفس الشئ أو بشئ مُختلف أو حتى بلاشئ, مجبر و بشكل مزوع فينا, أن (تحترم) ذلك بدون أي سؤال, احترام يمتد حتى الوقت الذي يكشف فيه عن نفسه بمجزرة مُرعبة كما في تدمير برجي مركز التجارة العالمي أو حادثة لندن أو مدريد. عندئذ سنسمع جوقة عظيمة من النقاد, كرجال الدين و قادة الجاليات (بالمُناسبة, من الذي أنتَخبهم؟) يصطفون لشرح أن هذا التطرف هو صورة مشوهة للدين (الحقيقي). لكن كيف يمكن أن يكون هُناكَ تشويه للدين, عندما الدين نفسهُ لا يملك قاعدة ثابتة للتعريف بأن كل ما يخالفها يصبح نشوزاً و تشويه؟

منذ عشر سنين ذكر ابن وراق,[1] في كتابه المُميز **(لماذا أنا لستُ مسلماً)** نقطة مُشابهة من وجهة نظر لدارس مثلهُ مُتعمق بالأسلام. البديل الجيد لعنوان الكتاب ممكن أن يكون **(أسطورة الاسلام المعتدل)** و الذي هو عنوان مقال أحدث في مجلة سبكتاتور في لندن 30 تموز 2005 كتبه دارس آخر هو باتريك سوكديو, مدير وكالة الدراسات الاسلامية و المسيحية. (غالبية المُسلمين يعيشون حياتهم اليوم بدون اللجوء للعُنف, مع أن القرآن القران خليط من كل شئ, لو أردت السلام, فهُناك آيات مُسالمة, و لو أردت الحرب فستجد آيات جهادية).

سوكديو يشرح كيف طور عُلماء الاسلام في محاولة للألتفاف حول التناقضات العديدة في القرآن, مبدأ الناسخ و المنسوخ, حيث أن النصوص المُتأخِرة تنسخ النصوص المُبكرة. للأسف فأن الآيات السلمية في القران مُعظمها مُبكر و تأريخها يعود الى الوقت الذي كان فيه مُحمد في مكة. و آيات الجهاد تأريخها مُتأخِر, بعد نزوحهِ الى المدينة. و الخلاصة هي:

> سحر كلمة (الاسلام سلام) بطلت منذ حوالي 1400 سنة. فقط لمدة 13 عاماً كان الاسلامُ سلاماً و لاشئ غير السلام... لكن بالنسبة للمسلمين المُتعصبين – كما هو الحال عند مُشرعي القرون الوسطى و الذين طوروا الاسلام التقليدي – فإنه من الاصح أن يقال (الاسلام هو الحرب). أحد تلك الاحزاب الاسلامية الأكثر تعصبا في إنجلترا (الغرباء) أكد بعد تفجيرات لندن (أي مُسلم لايعترف بأن الارهاب هو جزء من الاسلام يعتبر كافراً) والكافر يعني الغير مسلم, وهي كلمة تُعتبر أهانة كبيرة للمسلم طبعاً.
>
> قد يفكر البعض بأن يكون هؤلاء الذين نفذوا العمليات الانتحارية ليسوا جزءا من المُجتمع الاسلامي في بريطانيا و يتبعون التفسير المُتعصب للأسلام, لكنهم حقيقة كانوا جزء من صميم المُجتمع الاسلامي و مدفوعين من التفسيرات الشائعة للاسلام؟

---

1. **ابن وراق ولد عام** 1946 **، هو اسم القلم لمؤلف علماني من أصل باكستاني و مؤسس المعهد العلماني للمجتمع المسلم** INSTITUTE FOR THE SECULARISATION OF ISLAMIC SOCIETY **، كما أنه عضو في زمالة البحوث العليا في مركز التحقيق وا لبحث** CENTER OF INQUIRY **حيث يركز في دراساته على النقد القرآني. (المترجم).**

بشكل عام (و هذا ينطبق على المسيحية تماماً كما هو الحال مع الاسلام) فالخطر الحقيقي في الموضوع يكمُن في أن الاطفال يتم تلقينهم بأن المُعتقد بحد ذاته فضيلة. أن المُعتقد شر بحد ذاته لأنه لايتطلب أي تبريرات ولا يتحمل ادلة مضادة. أن تدريس الاطفال بأن الأيمان بدون سؤآل فضيلة بحد ذاته يوفر أرض خصبة – و بوجود عناصر أخرى ليس من الصعب توفيرها – كي يصبحوا أدوات قتل جاهزة للحروب الجهادية أو الصليبية في المُستقبل. أن المناعة ضد الخوف بسبب الوعود بجنة الشهداء تجعل من الأيمان الديني يستحق مكانة عالية في تأريخ السلاح, جنبا الى جنب مع القوس و الخيل و الدبابة و القنبلة العنقودية. لو درس الاطفال بأن التساؤل و التفكير بما يؤمنون به, بدلا من تعليمهم بأن من أسمى الفضائل هو الايمان بدون سوآل, فلن يكون هُناكَ أنتَحاريون. الانتحاريون يفعلون ما يفعلوه لأنهم يؤمنون حقيقةٍ ما تعلموه في دروس الدين: بأن و آجباتهم تجاه الله تسبق كُل الأولويات الاخرى و أن الشهادة ستكافأ بجنة الفردوس. ليس من الضروري أن يكونوا قد درسوا هذا على يد مُتطرف مُتعصب, بل ربما رجل مُحترم و لطيف, مدرس دين عادي أجلسهم في الصف و علمهم يهزون رؤوسهم البريئة بشكل أيقاعي بينما يتعلمون كُل كلمة من كتابهم المُقدس كالببغاوات. الأيمان يُمكن أن يكون خطيراً جداً, و زرعه بشكل مدروس في عقول الاطفال البريئة السهلة المنال جريمة جسيمة جداً. و الى الطفولة نفسها و أنتَهاك حقوق الطفولة بأسم الدين, ننتقل الى الفصل التالي.

الفصل التاسع

سأبدا بقصة قصيرة من القرن التاسع عشر في أيطاليا. لا أقصد هنا بأن قصة مرعبة كهذه يمكن أن تحصل اليوم. لكن الموقف العقلي الذي تتبئنا عنه لايزال متداولا للاسف, حتى وإن كانت التفاصيل العملية ليست كذلك. أن تلك المأساة الأنسانية من القرن التاسع عشر تلقي الضوء و بدون رحمة على المواقف الدينية الحالية للدين حيال الاطفال.

عام 1858 تم أختطاف ادغاردو مورتارا, طفل في السادسة من العمر لابوين يهوديين, عنوة و بالقانون من الشرطة البابوية بأمر من المُحققين. ادغاردو أخذ بالقوة من أمهُ التي تشهق بالبكاء و أبيه المذهول الى بيت التنصير (بيت مُخصص لتحويل المسلمين و اليهود للمسيحية) في روما, و من وقتها نشأ كرومي كاثوليكي. بأستثناء بضعة زيارات تحت مراقبة شديدة من القساوسة, لم يستطع أهله رؤيته أبداً, القصة رواها دافيد كرويتزر في كتابه الرائع **اختطاف ادغاردو مورتارا.**

قصة ادغاردو لم تكن بشكل من الاشكال غير عادية في أيطاليا وقتها, و السبب لهذه الاختطافات الرهبانية كان نفسهُ دائماً. في كُل حالة فأن الطفل كان قد تم تعميدهُ بشكل سري في وقت سابق, عادة من قبل مربية كاثوليكية, و بعد فترة يسمع المُحققون الكنسيون بموضوع التعميد.[1] لقد كان من أحد الامور المركزية في الأيماني الرومي الكاثوليكي وقتها بأنه بمجرد تعميد الطفل, مهما كانَ غير رسمي أو سري, فإن الطفل قد تحول بلارجعة الى المسيحية. في عالمهم, فإنه من غير المعقول السماح لـــ(طفل مسيحي) بالبقاء مع أبوين يهوديين. استمروا في هذا الموقف الغريب والقاسي بصمود, و بكل أخلاص, بالرغم من الفضائح التي أيقضها في العالم. ذلك الهيجان قد نفثهُ الصحيفة الكاثوليكية **سيفيلتا كاتوليكا** و عزتهُ لسلطة اليهود الاغنياء – يبدو مألوفا, اليس كذلك؟

بغض النظر عن الدعاية التي نشأت فإن قصة ادغاردو مورتارا برمتها قصة نموذجية للكثير غيرهُ. في أحد الايام تولت رعايته آنا موريسي, فتاة أمية كاثوليكية كانت في الرابعة عشر من عمرها آنذاك. مرض حينها الطفل و

1. **المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المعتمد بالماء بطريقة أو بأخرى. (المُترجم).**

أصيبت الفتاة بالفزع لخوفها من أن يموت. وبما انها تربت على الايمان الاعمى بفكرة بأن الطفل الذي يموت بغير معمودية سيعاني في جهنم للابد, فقد سألت النصيحة من جار كاثوليكي و الذي علمها كيفية تعميدهُ. فعادت الى المنزل ورشت بعض الماء من سطل على رأس الطفل ادغاردو و قالت (أعمدك بإسم الاب و الابن و الروح القدس). وهذا كُل شئ. مُنذ تلك اللحظة أصبح ادغاردو رسمياً مسيحي. بعد أعوام عندما سمعت الشرطة الكنسية بالحادثة, تصرفوا فورا و بشكل حاسم و لم يعطوا أي تفكير للنتائج المأساوية لتصرفهم.

من المدهش بأن طقساً كهذا يمكن أن يؤثر بشكل عظيم على عائِلة كاملة تسمح الكنيسة الكاثوليكية بهِ (ولاتزال تسمح) بأن يُعمَد أي شخص من قبل أي شخص آخر. المعمدان لايجب أن يكون قسيساً. لايحتاج ألأمرَ موافقة من الطفل أو من أي من أفراد عائلتهِ أو أي أحد آخر. لاشئ للتوقيع. و لايحتاج ألأمرَ لأي شهود. كُل ماهو ضروري هو رشة من الماء و بعض الكلمات و طفل لاحيلة له و مربية مغسولة الدماغ بالغيبيات. الواقع, أن تلك الاخيرة هي الوحيدة الضرورية, بفرض أن الطفل صغير جداً ليعرف ما الذي يحدث, فمن يدري؟ أحدى الزميلات ألأمريكيات التي تربت على الكاثوليكية كتبت لي ما يلي: (كنا نُعمد العابنا. لا أذكر أن أحداً منا عمد أحد أصدقائنا البروتستانتيين و لكني متأكدة من أن ذلك قد حصل و يحصل اليوم. لقد جعلنا من العابنا كاثوليكيين صغاراً و اخذناهم للكنيسة و عملنا لهم أول مناولة. لقد كان تم غسول أدمغتنا لنصبح أمهات كاثوليكيات صالحات في وقت مبكر جدا).

لو أن فتيات القرن التاسع عشر كن مثل زميلتي كاتبة الرسالة فإنه من المفاجئ بأن قضايا مثل ادواردو مورتارا لم تكن شائعة أكثر مما كانت فعلاً. مثل هذه القصص كانت شائعة بشكل مزعج في أيطاليا القرن التاسع عشر و التي تتركنا مع السؤآل البديهي. لماذا أستخدم اليهود في دولة البابوية بنات كاثوليكيات كخادمات مع العِلمْ بالمخاطر المترتبة على ذلك؟ لماذا لم يحرصوا على توظيف مُستخدمة يهودية؟ الجواب, مرة أخرى, ليس لهُ عِلاقة بالمنطق بل متعلق بالدين كلياً. اليهود احتاجوا خادمات ممن لا يمنعهم دينهم من العمل يوم السبت. من غير المتوقع ان تقوم خادمة يهودية بأجراء طقس معين لأنقاذ طفل من ملجئ الايتام الروحي ذلك. لكنها لن تشعل ناراً أو

تنظف بيتاً يوم السبت. و لهذا السبب فإن العائلات اليهودية التي تستطيع تأمين خادمة في بولونيا الايطالية, أختاروا الكاثوليكيات لهذا العمل.

في هذا الكتاب تعمدت غض الطارف عن ذكر تفاصيل الرعب الذي أرتكبه الصليبيون و محاكم التفتيش الأسبانية. الاشرار و القساة موجودون في جميع الاديان و كُل زمان و مكان. لكن هذهِ القصة عن المحاكم الايطالية و موقفها حيال الاطفال مثال عملي يكشف لنا الفكر الديني و الشر الذي يحصل فقط لان الفكر القابع خلفها ديني. أولاً الاعتقاد الديني الغريب بأن رشة ماء و بعض الادعية يُمكن أن تغير حياة الطفل بشكل كلي, دون أحترام رغبة الاهل أو موافقة الطفل نفسه أو سعادته و صحته العقلية... بل بدون أدنى أحترام لكُل ما يمليه المنطق العادي و ما يراه الشعور الأنساني كشئ ضروري. الكاردينال آنتونيللي قالها علناً حينها في رسالة الى ليونيل روتشيل, أول عضو برلمان يهودي في بريطانيا, والذي كتب مُحتجا على قضية أختطاف ادواردو. أجاب الكاردينال بأنه لم يستطع التدخل و أضاف (ربما تلك فرصة للأشارة الى أنه و أن كان صوت الطبيعة قوي, فإن صوت الواجبات الدينية المُقدسة أقوى). وبهذه الجملة فأن واجبه تجاه هذه القضية قد أنتهى.

ثانياً فأن الموقف الغريب حيث القساوسة و الكاردينالات و البابا يبدون و كأنهم لا يفهمون بشكل عام مدى الأذى الذي يتسببون به للمسكين أدواردو. ذلك يتجاوز قدرتنا على الفهم لكنهم يؤمنون بصدق بأنهم يفعلون الخير لهُ بأخذهِ من أهلهِ و أعطائهُ تربية مسيحية. يبدو وكأنهم يشعرون بواجب الحماية تجاههُ! أحدى الصحف ألأمريَكية الكاثوليكية دافعت عن موقف البابا و قالت بأنهُ من غير المعقول في بلد مسيحي أن يتم (ترك طفل مسيحي ليربيه يهودي), و نادت هنا بمبدأ الحرية الدينية (أن حرية الطفل في أي يكون مسيحياً دون الزامهُ بأن يكون يهودياً.. و حماية الاب المُقدس للطفل في وجه كُل شراسة التطرف للكفار و المتعصبين, هو المثال الأكبر للأخلاقيات التي لم يرى مثلها العالم منذ أجيال). هل يوجد تضليل صارخ لاستعمال كلمات مثل (الزام) و (شرس) و (متطرف) و (متعصب) أكثر من ذلك؟ رغم ذلك فكل المؤشرات تشير الى أن المُؤمنين الكاثوليكيين, من البابا و نزولاً, يؤمنون بصدق بأن ما يفعلونهُ صحيح: أخلاقي بشكل مطلق و مهم لسلامة الطفل. تلك هي سلطة (الأغلبية "المعتدلة") الدين التي تطغى على

الحكم المنطقي و تشوه الأخلاق الانسانية. أن صحيفة الكاتوليكو صرحت بحيرتها حول السبب الذي يجعل الغالبية تفشل في روية حجم المعروف الذي أدته الكنيسة لأدواردو مورتارا عندما أنقذته من عائلته اليهودية:

> لو أن ايا منا فكر بالأمرَ بجدية و قارن ظروف اليهود – بدون كنيسة حقيقة و بدون ملك و بدون وطن, مُتفرقين و يعتبرون غرباء أينما كانو على وجه الارض, بل أكثر من ذلك, مكروهين أيضاً للوصمة البشعة التي تلاحقهم كقتلة المسيح... سيفهم فوراً الميزة الكبيرة التي من بها البابا على مورتارا الصبي.

ثالثاً يأتينا هنا الغطرسة الدينية حيث المُتدينيين و بدون أي دليل (يعرفون) بأن الأيمان الذي ولدوا عليه هو الأيمان الوحيد الحق و كل شئ آخر هو أنحرافات أو بكل بساطة مزيفة. أن الاقتباس أعلاه يُعطينا مثالاً حياً عن موقف الجانب المسيحي. و ربما يبدو من الجور أن نساوي بين الطرفين في هذهِ القضية, لكن الوقت مُناسب لنلاحظ بأن عائلة مورتورا كانت لتستطيع أسترداد ادواردو لو أنهم قبلوا بعرض القساوسة و وافقوا على أن يتعمدوا كذلك. لقد أختطف ادواردو بسبب رشة ماء و بضع كلمات بلا معنى. تلك هي حماقة العقول المُلقنة بالدين, رشتان من الماء هما كُل ما يحتاجه الموقف كي تعود الامور لمجاريها. بالنسبة للبعض منا فأن رفض الاهل يشير الى العناد غبي. آخرين يعتقدون بأن التزامهم المبدأي يدخلهم في لائحة الاستشهاديين الطويلة من اجل مختلف الاديان عبر الاجيال.

(لتكن مُطمئنا سيد ريدلي كن رجلاً: بإذن الله سنشعل شمعة بيومنا هذا في إنجلترا واثق بأنها لن تطفأ ابدا). لا شك بأن هُناكَ أسبابا تجعل الموت في سبيلها نبلاً. لكن كيف يمكن للشهداء ريدلي و لاتيمر و كرامر أن يتركوا أنفسهم يحرقون بدلاً عن ترك التزامهم بالاقلية البروتستانتيه لمصلحة الاكثرية الكاثوليكية – هل لها معنى حقيقي من أي طرف تؤكل البيضة المسلوقة؟ هذا هو العناد – أو المثير للأعجاب إذا كنت تعتقد ذلك – القناعة في الفكر الديني تصل لدرجة أن الزوج مورتورا لم يستطيعوا أن يستغلوا الفرصة المعروضة عليهم و المتمثلة بطقس التعميد التافه. ألم يكن بإستطاعتهم الضغط على أنفسهم و الهمس بكلمة (لا) أثناء تعميدهم؟ لا, ذلك

لأنهم تربوا في وسط مُتدين (معتدل) و أخذوا التمثيلية السخيفة بشكل جاد. بالنسبة لي, أعتقد بأن المسكين ادواردو الصغير – ولد بدون رغبته في عالم يسيطر عليه الفكر الديني, لاحول له وسط جبهات مختلفة, حُرِم من أبويه من خلال فعل تم بنية طيبة لكن مضاعفاته كانت شديدة القسوة لطفل صغير بمثل عمره.

رابعاً فأن الافتراض بأن طفلا في السادسة من عمره يمكن أن يقال عنهُ بأن لهُ دين, سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو أي شئ آخر. أن فكرة تعميد طفل بدون علمه أو فهمه للموضوع يستطيع تغييره من دين لآخر في لحظات يبدو سخيفاً – لكن ليست أسخف من وصم طفل بأي من الاديان في المقام الاول. ماكان مُهما في حالة ادواردو لم يكن (دينه) – لأنه كان صغيراً جداً على أمتلاك رأيهُ الديني الخاص – لكنهُ العطف و الاهتمام من أبويه و أهله و الذي حُرِمَ منهم بسبب قسيسين يعيشون البتولية لايتفوق على وحشيتهم المشوهة الا بلادتهم و عدم فهمهم لشعور الأنسان الطبيعي – تلك القسوة التي تأتي بسهولة لنفوس أختطفها الأيمان الديني.

حتى بدون الأختطاف الجسدي, اليس نوعاً من العنف ضد الطفولة أن نفرض على الاطفال بأن لديهم أيمانا هم في الحقيقة أصغر من أي يتفكروا به بأنفسهم؟ رغم ذلك فإن تلك الممارسة تستمر حتى يومنا هذا و تقريباً بدون أي أستغراب. التساؤل عن هذا الموضوع بالذات هو هدفي الاساسي في هذا الفصل.

الاعتداء الجسدي و النفسي

جنسياً (الغلمانية)[1] هذهِ الهستريا الجماعية تذكرنا بشكل أو بآخر بظاهرة مطاردة الساحرات في أوربا العصور الوسطى. في تموز عام 2000 نظمت صحيفة **أخبار العالم**, التي تعتبر برغم المنافسة الصحيفة الانكليزية الأكثر أثارة للقرف, مُسابقة أطلقت عليها أسم (أسم و عار) و التي قامت بما يشبه تحريض الناس عن الهجوم على الغلمانيين. و هوجم منزل طبيب للأطفال من قبل المُتطرفين الذين كما يبدو لايعرفون الفرق بين طبيب الاطفال و الغلماني (Pediater و Pedophile).[2] الغوغاء الهستيرية الغلمانيين وصلت لأبعاد وبائية و الاهالي شعروا بالرعب. أن الاطفال اليوم ممنوعين مِن حرية التجول بحرية كالتي كانت من مُتع الطفولة في الماضي (عندما كان خطر التحرش الفعلي ربما ليس اقل من الخطر المحسوس حاليا).

للأنصاف فإن صحيفة أخبار العالم في الوقت الذي طرحت فيه تلك الحملة, كانت المشاعر متأججة بسبب جريمة مروعة و بدافع جنسي, أرتكبت بحق طفلة في الثامنة حيث أختطفت في مقاطعة سوسكس. بالرغم من ذلك فإنه من الخطأ الواضح بأن الانتقام من كل الغلمانيين بسبب القلة الذين هم قتلة أضافة لشذوذهم. المدارس الداخلية الثلاث التي درست فيها كان فيعل أساتذة مودتهم للأولاد الصغار تتعدى حدود المسموح به. و هذا في الحقيقة كان يجب أن يكون داعياً للتعنيف. رغم ذلك لو أنهم, و بعد خمسون عاماً, هوجموا من قبل أشرار أو محامون بشكل ليس أفضل من قتلة الاطفال, سأكون مجبرا كي ادافع عنهم, حتى وأن كنت ضحية أحدهم في وقت ما (موضوع محرج فيما عدا ذلك كان تجربة عديمة الاذى).

لقد حملت الكنيسة الكاثوليكية حملا ثقيلاً من العار ذو الاثر الرجعي. ولاسباب عديدة فأنا لا أحُبّ الكنيسة الكاثوليكية. لكنى لاأحُبّ الظلم بدرجة اكبر. ولا أستطيع الا التساؤل عما إذا كانت تلك المنظمة قد تحملت سوء السمعة بشكل غير عادل فيما يتعلق بهذه القضية, و خصوصا في أمريكا. أن الاستياء من الكهنة المنافقين و الذين وضيفتهم تتلخص في تعظيم الشعور بالذنب للـــ(الخطايا). بعد ذلك تأتي الخيانة للثقة من قبل شخص ذو مركز, و

---

1. **الغلمانية أو الاشتهاء والولَعُ بالأطفال (PEDOPHILIA) من الاضطرابات الجنسية يتميز هذا الاضطراب بوجود خيالات جنسية مثيرة مرتبطة بالأطفال غير البالغين الذين تقل أعمارهم عن 13 سنة. (المترجم).**

2. HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/L/HI/WALES/901723.STM.

الذي تدرب الطفل على توقيره منذ نعومة أظافره. هذه الاسباب الاضافية لاستياء يجب أن تجعلنا أكثر حذرا من أن نسارع بأصدار أحكامنا. كذلك علينا أن ندرك مدى قدرة العقل على أعداد ذكريات مزيفة, خصوصا عندما يكون هُناكَ مُعالجون عديمي الضمير و مُحامون جشعون في الصورة. أن العالمة النفسية اليزابيت لوفتوس أبدت شجاعة عظيمة, في وجه المصالح الشخصية الضيقة, عندما شرحت كم من السهل أستخراج ذكريات كاذبة تماماً بالرغم من أنها تبدو بالنسبة للضحية و كأنها ذكريات حقيقية.[1] هذا مضاد بشكل صارخ للتوقعات حيث القضاة و هيئة المحلفين تتأثر بسهولة لشهادات صادقة لكنها مزورة بالرغم من ذلك.

في تلك الحالة الخاصة في أيرلندا حتى لو لم يكن هُناكَ أيذاء جنسي فإن عنف الاخوان المسيحيين,[2] المسؤولين عن أدارة المدارس في أيرلندا حيث قسم كبير من ذكور البلد, عنفٌ أسطوري. نفس الشئ يمكن أن يقال عن الراهبات الساديات اللاتي يدرن العديد من مدارس البنات. ملجأ المجدلية سئ الصيت, الذي كان موضوع فيلم بيتر مولان أخوات المجدلية, أستمرحتى عام 1996 لمدة أربعين عاماً. اليوم فأنه من الصعب أن تأخذ تعويضاً عن الجلد من أخذك تعويضا عن دغدغة جنسية, ولا ينقص عدد المحامين النشطون بالبحث عن الضحايا الذين ماكانوا ليأبهون بالماضي البعيد. حيث ربما يوجد الكثير من الذهب في ذلك التحرش الجنسي منذ زمن بعيد, بعضهم, منذ فترة بعيدة جداً لدرجة أن المُدعى عليه يمكن أن يكون ميتاً بدون امكانية أن يحكي القصة من وجهة نظره. الكنيسة الكاثوليكية دفعت أكثر من مليار دولار حول كتعويضات.[3] ربما الموقف مثير للتتعاطف معهم حتى تتذكر من أين كانت لهم لتكون هذه المبالغ بالمقام الاول.

بعد مُحاضرة في دبلن بدأ الحضور بطرح الاسئلة, سُئلت عن رأيي بتلك الحوادث البارزة لقضايا الاعتداء الجنسي من قبل القساوسة الكاثوليكيين في أيرلندا. أجبت, من اللاشك فيه أن الاعتداء الجنسي شئ مروع, لكن حجم الأذى على المدى الطويل يمكن تخيلهُ أقلُ من الاذى النفسي الذي يتعرض له الطفل جراء نشأتهِ الكاثوليكية. كان الرد آني و جاء في وليد اللحظة, تفاجئتُ

---

1. LOFTUS و KETCHAM **(1994)**.
2. **راجع جون ووتر على صحيفة آيرش تايم:** HTTP://ONEINFOUR.ORG/NEWS/NEWS2003/ROOTS/.
3. HTTP://WWW.RICKROSS.COM/REFERENCE/CLERGY/CLERGY426.HTML.

حقيقة بأنهُ أستقبل بالتصفيق الحماسي من الجهور الايرلندي (و الذي كان مؤلفاً من النخبة المثقفة في دبلن و لا يُمكن أعتبارهم يمثلون البلد بشكل عام). لقد تم تذكيري بتلك إلحادثة لاحقاً عندما وصلتني رسالة من أمرأة أمريكية في الاربعينات من عمرها و نشأت على الكاثوليكية. قالت بأنها عندما كانت في السابعة من عمرها, مرت بحادثتين مؤلمتين. حيث قام القس بالاعتداء عليها جنسياً في سيارته, و تقريباً في نفس الوقت ماتت صديقتها الصغيرة في المدرسة و ذهبت لجهنم لأنها كانت بروتستانتيه. هذا ما كان على كاتبة الرسالة التصديق على أي حال بسبب التلقين الرسمي للكنيسة التي تنتمي عائلتها اليها. نظرتها كبالغة لكلا الحادثتين الاول جسدي و الاخر معنوي, كان الحادث الثاني يفوق الاول بكثير. حيث كتبت:

> التعرض للأعتداء الجنسي من قسيس يترك خلفهُ شعور بالقرف بالنسبة لفتاة بالسابعة من عمرها, لكن ذكرى صديقتي تذهب للجحيم كان شعوراً لاحدود له من الخوف البارد. لم أتأرق ليلة واحدة بسبب حادثة القسيس – لكني قضيت ليال من الرعب أفكر بأن أناس أحبهم سيذهبون للجحيم. كنت أعاني كوابيساً لهذا السبب.

يجب الاعتراف, بأن الملاطفة الجنسية التي عانتها في سيارة القس كانت خفيفة بالمقارنة مع, مثلا, الألم و القرف لصبي تم أغتصابهُ شرجياً. في أيامنا هذهِ لاتتكلم الكنيسة الكاثوليكية عن الجحيم بكثرة كما فعلت سابقاً. لكن المثال يرينا على الاقل بأن الاذى النفسي يمكن أن يتجاوز الاذى الجسدي. يُقال بأن الفريد هتشكوك, المُخرج العظيم في فن أرعاب الناس, كان يقود سيارتهُ عبر سويسرا عندما أشار فجأة عبر زجاج السيارة قائلا, (شئ أكثر رعباً لم أرى في حياتي). كان عبارة عن قسيس يتكلم مع طفل صغير و يدهُ على كتف الصبي. هتشكوك أخرج رأسهُ من نافذة السيارة وصرخ (اركض يا بني, أنجو بحياتك).

(العصي و الحجارة يمكن أن تكسر عظامي, لكن الكلمات لا يُمكن أن تؤذيني). هذا المثل صحيح طالما أنك لاتؤمن بالكلمات. لكن في حال أن تربيتك كلها و كل ما قيل لك من الاهل و الأساتذة و رجال الدين جعلتك

تؤمن, بصدق و بشكل كامل, بأن المذنبين يحترقون في الجحيم (أو أي شئ آخر متزمت من التلقين مثل كون المرأة ملك لزوجها), فإنه من المُمكن تماماً أن يكون للكلمات أثر مُستمر و مؤذ أكثر من الافعال. أنا مقتنع بأن عبارة "الأعتداء على الطفولة" ليس فيها مبالغة عندما نصف ما يفعله المعلمون و رجال الدين بالاطفال و تشجيعهم على الأيمان بأشياء مثل أن عقوبة عدم الاعتراف بالذنوب هي الجحيم الابدي.

في الوثائقي جذرة الشر؟[1] و الذي نوهت عنهُ سابقاً, أجريتُ مقابلات عدة مع ممثلي الطوائف الدينية حيث قوبلت بالنقد لأنني أخترت أحد ألأمرَيكيين المُتطرفين و ليس أحد القادة المُعتدلين المحترمين, مثلاً رؤساء الاساقفة.[2] يبدو و كانه نقد في محلهِ, بإستثناء أن ما يبدو مُتطرفاً في عيون الناس في بدايات القرن الجديد ماهو الا التيار المُعتدل في أمريكا. أحد ضحايا مقابلتي و الذي روع جمهور بريطانيا كان الأب تيد هاغارد من كولورادو سبرينغ. لكنهُ أبعد ما يكون من أن يكون متطرفاً في أمريكا بوش. "الأب تيد" هو رئيس رئيس الجمعية ألانجيلية الوطنية, التي لها ثلاثين مليون عضو, و يزعم بأن له الشرف بمكالمة هاتفية كل يوم أثنين حيث يشاوره الرئيس بوش. لو أردت ان أجري مُقابلة مع مُتطرف حقيقي بمعايير أمريكا العصرية, لكان على أن اقابل أحد هؤلاء الذين يدعون للدولة الدينية في أمريكا بشكل علني. زميلاً امريكياً قلقا كتب لي:

> أنتم الاوروبيون بحاجة لمعرفة بأن هُناكَ شراذم متدينة تتنقل مُبشرة بالعودة لقوانين العهد القديم – قتل المثليين جنسياً و خلافه – و بحصر المناصب العامة بالمسيحيين فقط, بل حتى حق التصويت. أن الطبقة المتوسطة تهلل لمثل هذا الخطاب. أن لم يتيقظ العلمانيون فسيكون هؤلاء هم التيار المُعتدل في دولة أمريكا الدينية.[3]

---

1. المُسلسل مترجم الى العربية متوفر على الشبكة. (المترجم).
2. تمنيت مقابلة أسقف مدينة كانتربيري, و كاردينال مدينة ويستمنستر و كذلك الحاخام الاكبر في بريطانيا. جميعهم أعتذروا عن المُقابلة و بالتأكيد فأن لهم أسبابهم المُقنعة. أسقف مدينة أوكسفورد وافق على لقائي و كان شخصية متعاطفة و أبعد ما يكون مِن أن يكون متطرف تماماً مثل الاخرين الذين بالتأكيد لكانوا مثلهُ.
3. المقطع القادم يبدو حقيقياً, بالرغم من أنني شككت بأنه ما سوى خدعة هجائية لمنظمة (THE ONION) الدينية: WWW.TALK2ACTION.ORG/STORY/2006/5/29/L 95 855/959. هذه ما سوى لعبة الكترونية بأسم دعهم خلفك: (تخيل أنك جندي مشاة في قرقة شبه عسكرية لمجموعة تعمل من أجل تحويل أمريكا لدولة مسيحية دينية و تحقق حلمها بسلطان المسيح الدنيوي الكامل فوق جميع

شخصٌ آخر أجريت لقاء معهُ في البرنامج كان الاب كينان روبرتس, من ولاية كولورادو كذلك. الاب روبرتس لهُ جنونهُ الخاص الذي هو عبارة عما يسميه بيت الجحيم. بيت الجحيم هو مكان يُجلب الاطفال أليه من أهاليهم أو مدارسهم المسيحية, حيث يتم زرع الذعر بهم لما يُمكن أن يحدث لهم بعد الموت. مُمثلون يلعبون أدواراً و لوحات عن بعض انواع "الخطايا" مثل الاجهاض أو المثلية الجنسية كذلك شيطان يقف مرتدياً ملابس قرمزية يشمتُ ضاحكاً. هذه كانت المُقدمة فقط. أما الجحيم, فسيتم تمثيله بصورة أكثر واقعية حيث رائحة الكبريت المُحترق و صراخ الملعونين الابدي و كل لوزمها الاخرى.

بعد أن شاهدت تلك التمارين المسرحية و التي بدا فيها الشيطان شريراً بشكل أشبه لوغد في مسرحية درامية من العصر الفيكتوري, أجريت مقابلة متع الأب روبرتس بوجود الممثلين. قال لي بأن العمر الامثل للاطفال لزيارة بيت الجحيم هو أثني عشر عاماً. صدمتُ لوهلة لكنني سألته عما إذا كان هذا يقلقهُ أن يعاني طفل في الثانية عشرة من كوابيس بعد رؤيته للعرض. أتوقع أن جوابه التالي كان صريحاً:

> شخصياً أفضل أن يفهموا بأن الجحيم هو المكان الذي لايريدون الذهاب اليه أطلاقاً. الافضل أن تصلهم رسالتي هذهِ وهم في الثانية عشر من أن لا تصل لهم مطلقاً و أتركهم يعيشون حياة الخطيئة و فقدانهم للرب يسوع المسيح. ولو سبب ذلك لهم بعض الكوابيس فأن ما سوف يحصلون عليه أهم و أنبل لتحقيقهُ في حياتهم من مجرد بعض الكوابيس.

أذا ما كان الشخص فعلاً يؤمن بما يقول الاب روبرتس فسيجد أنهُ من المقبول أن ترويع الاطفال.

الخلائق.... أنت في مهمة – دينية و عسكرية – كي تقوم بتنصير او قتل كل الكاثوليكيين و اليهود و المسلمين و البوذيين و المثليين و كل الاخرين الذين يطمحون للفصل بين الدين و الدولة...). راجع العنوان التالي: HTTP://SCIENCEBLOGS.COM/PHARYNGULA/2006/05/GTA_MEET_LBEF.PHP: **كذلك توجد مراجعة على العنوان التالي:** HTTP://SELECT.NYTIMES.COM/GST/ABSTRACT.HTML?RES=F1071FFD3C550C718CDDAA0894DE404482.

لا يُمكننا أهمال الاب روبرتس بأعتباره مُتطرف مجنون, كذلك تيد هاغارد, فهو ينتمي للتيار العام في أمريكا المعاصرة. بل لكنت لأتعجب فيما لو تجاهلوا الفكرة الأيمانية لبعض أقرانهم في التدين و المُقتنعين بأن المرء قادر على سماع صراخ الملعونين فيما لو اصغى بحدة لأنفجار البراكين.[1] و أن الدودة المُقسمة العملاقة التي يعثر عليها في في جيوب رملية حارة في أعماق البحار ماهي الا تحقق لنبوءات أنجيل مرقس 8 : 47 (وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ أَعْوَرَ من أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ النَّارِ. **حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ**). مهما كانت صورتهم عن الجحيم فيبدو و كأن كل هؤلاء المُتحمسين لنيرانها يشتركون بلذة الشماتة من الخاسرين و بأنهم من بين الناجين, أول من قال بذلك من عُلماء الدين, القديس توماس الاكويني, في كِتابهِ "سوما تيولوجيكا": (القديسون سينعمون بالحياة السعيدة و بركة ألإله الوافرة و بحيث يسمح لهم برؤية عقوبة الملعونين في جهنم). ما أرحم هذا الرجل.[2]

الخوف من نار الجحيم يمكن أن تكون ملموسة جداً, حتى بين العقلانيين في أمور أخرى. بعد برنامجي الوثائقي عن الدين حصلتُ من بين الرسائل العديدة التي تلقيتها الرسالة التالية من سيدة تبدو بلاشك ذكية و صادقة:

> داومتُ في مدرسة كاثوليكية منذ الخامسة من عمري و لقنت من قبل الراهبات اللواتي أستخدمن العصي و السياط و العكازات. في سن المراهقة قرأت لداروين, و ما قاله عن التطور بدا طبيعياً جداً للجزء المنطقي من عقلي. لكنني قد مررت مررت بالكثير من النزاعات في حياتي, و الخوف العميق من الجحيم و نيرانها يطفو دائماً على السطح. خضعت للمعالجة النفسية و بفضل هذا أستطت الخوض في بعض المصاعب السابقة, لكنني لا أشعر بأنني تغلبت على هذا الخوف العميق.

---

1. HTTP://WWW.AVL611.ORG/HELL.HTML.

2. **على نفس المنوال نرى آن كولتير تعبر عن التعاطف الانساني المسيحي بقولها: (أنا متأكدة بأنه لا أحد من أخوتي بالايمان يجرؤ على القول بأنهم لا يضحكون سعداء بفكرة أحتراق دوكينز في الجحيم).** (COULTER 2006:268).

أكتب لك الآن كي أرجو منك أرسال أسم و عنوان المُعالجة النفسية التي أجريتَ معها اللقاء في حلقة هذا الأسبوع و المُتخصصة بهذا النوع من الخوف.

تأثرتُ كثيراً بهذه الرسالة, حاولت بشكل مؤقت كبت الاسف على أنهُ ليس هُناكَ جحيم لمثل هذهِ الراهبات و أجبتُها بأن عليها الثقة بعقلانيتها كهبة عظيمة و التي – على عكس البعض ألآخر الأقل حظاً – تمتلكها فعلاً. الكهنة و الراهابات و الذين يختلقون كل هذه العذابات الجهنمية التي لا نهاية لها و يضخمونها لدرجة كبيرة كي لا يظهر مدى سخافة الفكرة من أساسها. يكفي لجحيم حقيقي أن يكون مُزعجاً بشكل كافي كي يكون مرعباً. لكن عليهم تصويرهُ على درجة أقسى ما يمكن الانسان تخيله من رعب كي يكون التفكير في أحتمالية عدم وجودهِ مُحاطةً بشئ من الرهبة. ساعدتها كذلك على الاتصال بالمعالجة النفسية التي نوهت عنها, جيل ميتون, أمرأة لطيفة و صادقة بعمق كُنتُ قد أجريت معها مُقابلة أمام العدسة. جيل نفسها تربت في كنف طائفة أكثر من مُقرفة تسمى (الاخوة الخالصة): مزعجة لدرجة أن هُناكَ موقع أنتَرنت مُخصص كليا لرعاية الذين أستطاعوا الأفلات منه .www.peebs.net,

جيل ميتون نفسها نشأت كي تكون مرعوبة من الجحيم, لقد هربت من المسيحية بالغة و الآن تساعد و ترشد المصدومين في طفولتهم مثلها: (عندما ارجع بذاكرتي للطفولة, أرى الخوف هو المسيطر عليها. الخوف كان من عدم قبولي في الحياة و لكن أيضاً من اللعنة الابدية. و بالنسبة لطفل صغير فإن صورة نيران الجحيم و صرير الاسنان حقيقية جداً و ليست مجازية على الاطلاق). طلبتُ منها أن تقص لنا ما قيل لها عن الجحيم في طفولتها, و أجابتها كانت مُثيرة للعواطف تماماً كتعابير وجهها خلال فترة الصمت الطويل و التردد قبل أن تجيب: (أنهُ لغريبٌ جداً.. أليس كذلك؟ بعد كُل هذا الوقت يبدو وكأنه لايزال لذلك القدرة على .. التأثير علي.... عندما... عندما تسألني هذا السؤآل. الجحيم هو مكان مُخيف. أنه الرفض الكامل من الله. أنها اللعنة التامة, حيثُ النار حقيقية و العذاب حقيقي و ستستمر للأبد و ليس هُناكَ من مفر).

ثم أستطردت تخبرني عن مجموعة الدعم التي تقودها لمساعدة الهاربين من طفولة مشابهة لطفولتها, و شرحت مدى صعوبة الهروب بالنسبة للبعض: (أن تختار طريقك على درجة هائلة من الصعوبة. لأنك تترك ورائك مجموعة كبيرة من العلاقات الأجتماعية و نظام مُتكامل قد نشأت و ترعرعت فيه, تترك خلفك نظام أيماني كنت قد تسمكت به لسنوات طويلة. و في كثير من الحالات تخسر عائلتك و أصدقائك... و تصبح ببساطة غير موجوداً بالنسبة لهم). أستعطت أن أعطي خبرتي الخاصة بالموضوع من خلال الرسائل التي وصلتني من العديد من قرائي ألأمريكان الذين تركوا دينهم نتيجة قرائتهم لكتبي. البعض بإرتباك يستطرد ليقول بأنه لم يجرؤا على أخبار أقربائهم أو انهم اخبروهم وكانت النتائج كارثية. ما يلي هو نموذج لذلك. الكاتب طالب طب أمريكي.

> أحسست بدافع لكتابة البريد الالكتروني هذا لاني أشاركك وجهة نظرك بالنسبة للدين, وجهة النظر التي – كما تعرف بالتأكيد– معزولة في أمريكا. نشأتُ في عائلة مسيحية و برغم أن فكرة الدين لم ترق لي ابداً إلا أنني و فقط منذ مدة قصيرة صارت لي الجرأة لأخبر أحداً. هذه المرة كانت صديقتي و التي أنتَابها الرعب. كُنت أعرف بأن إعلان الإلحاد يمكن أن يسبب صدمة و لكنها الان تنظر لي كشخص مُختلف. حيث لاتستطيع الوثوق بي و تعلل ذلك بأن أخلاقياتي لاتأتي من الله. لا أعرف إن كنا سنجتاز هذه المحنة سوية, و لا أُريد أن أشارك أحداً بمُعتقداتي من المُقربين لي لأني أخاف ردة فعل الكراهية.. لا أتوقع رداً منك. أنا اكتب فقط لاني أملاً بالتعاطف و تدرك مدى حيرتي. تخيل أن تخسر شخصاً تحبهُ و يحُبك بسبب الدين. وبغض النظر عن رؤيتها لي بأن وثني من غير إله فإن علاقتنا ممتازة بشكل تام. ذلك يُذكرني بملاحظتك بأن الناس يفعلون أمورا مريضة بإسم معتقداتهم. شكرا لاصغائك.

أجبت على رسالة الشاب السئ الحظ و أشرت الى أنه أيضاً أكتشف شيئا عن صديقتهِ في نفس الوقت الذي أكتشفت هي شيئاً عنه. هل هي حقيقة شخص مُناسب له؟ أشك في ذلك.

لقد ذكرت مسبقاً الكوميدية ألأمرَيكية جوليا سويني و كوميديتها العنيدة و المُضحكة عن معاناتها لأيجاد شئ ما في الدين يستحق لاجلهُ أنقاذ هذا ألإله الذي آمنت به بطفولتها من شكوكها كأنسانة بالغة. بالنتيجة أنتَهت مساعيها نهاية سعيدة وهي الآن نموذج محبب للمُلحِدين الشباب في كُل مكان. ربما تكون الخاتمة هي أكثر المشاهد أثارة للمشاعر في عرضها (ترك الله). لقد جربت كُل شئ.. و من ثم ...

بينما كنت امشي مِن مكتبي الى بيتي عبر حديقتي الخلفية, أنتَبهت لذلك الصوت الخافت الصغير الهامس في رأسي. لست متأكدة من طول الفترة و لكن فجأة أصبح الصوت أعلى بديسيبل واحد. و همس: (ليس هُناكَ إله).
حاولتُ اتجاهلهُ و لكنه أصبح اعلى بشكل بسيط. (ليس هُناكَ إله.. ليس هُناكَ إله...أسمعي .. ليس هُناكَ إله...)
أرتعشت في كُل جسمي.. أحسست و كأنني أنزلق من على عوامة.
ثم فكرت (و لكني لا استطيع. لا أعرف إذا ماكان بإمكاني عدم الأيمان بالله. أحتاج الله... لدينا تأريخ معهُ)
(لكني لاعرف كيف لا أؤمن بالله. لا أعرف كيف يفعل المرء ذلك. كيف تستيقظ, كيف تمضي يومك؟) أحسست و كأن الارض تتأرجح تحتي.
فم فكرت.. (حسناً, لأتمالك نفسي. لنجرب وضع نظارات اللاأيمان بالله للحظة, لثانية فقط. فقط ضع نظارة اللاأيمان بالله و الق نظرة حولك و ثم القيها بعيداً) و وضعت النظارة و نظرت حولي.
يُحرجني أن اقول لكم بأنني أصبتُ بالدوار. بالواقع فكرت (كيف يمكن للأرض أن تبقى مُعلقة في السماء؟ هل تعني بأننا نتجول في الفضاء؟ هذا يبدو خطيراً جداً) أردتُ أن أجري و التقط الارض عند و قوعها من الفضاء بيدي.
عند ذلك تذكرت (آها.. نعم بالتأكيد, الجاذبية و العزم المحوري سيحافظان على دوراننا حول الشمس و لفترة طويلة جداً بعد).

عندما شاهدتُ العرض (**ترك الله**) في مسرح لوس أنجلس. هزتني مشاهدةُ بعمق. و خصوصاً عندما قصت جوليا عن ردة فعل أبويها عندما علموا من مقال صحفي بأنها قد شفيت من المسيحية:

> المُكالمة الاولى و التي كانت أشبه بالصراخ من أمي. (مُلحِدة .. مُلحِدة ؟!؟!)
> ثم أتصل أبي و قال (لقد خُنتِ عائلتك و مدرستك و مدينتك) أحسستُ و كأنني قد بعتُ أسراراً عسكرية للروس. كلاهما قال بأنهما لن يتكلما معي بعد الان. أبي قال (لا اريدك حتى أن تأتي لجنازتي). بعد أن أغلق سماعة الهاتف قلتُ في نفسي: (حاول فقط أن تمنعني).

أن موهبة جوليا سويني هي في أن تجعلك تضحك و تبكي في أن واحد:

> أعتقد بأن أهلي كانوا سيصابون بخيبة أمل بسيطة لو قلت لهم بأني لا أؤمن بالله بعد الآن و لكن أن أكون مُلحِدة فهذا شئ آخر بالمرة.

كتاب دان باركر (**فقدان الأيمان بالأيمان: من خطيب الى مُلحِد**) هو قصة أنقلابه التدريجي من كاهن مُتطرف مُخلص يسافر من مكان لآخر ليخطب في الجموع الى مُلحِد قوي و واثق من نفسه اليوم. ما تجدر الاشارة اليه هو أن باركر أستمر بالحفاظ على القناع الديني في خُطبهِ الدينية لفترة حتى بعد أن أصبح مُلحِداً, ذلك لأنها المهنة الوحيدة التي يعرفها و شعر بأنه حبيس شبكة من العلاقات و العادات الاجتماعية. و الآن يعرف باركر الكثيرين من رجال الدين ألأمرَيكيين الآخرين الذين يعانون من نفس الموقف الذي كان هو فيه و أفصحوا لهُ عن أحاسيسهم بعد قرائتهم لكتابه. لايجرؤون على أعلان إلحادهم حتى لأقرب الناس, الى حد الرعب ردة الفعل المتوقعة. أن قصة باركر تنتهي نهاية سعيدة. بدايةٍ فإن أبواه صعقا بشكل عميق و مُحزن و لكنهما أصغيا الى عقلانيته الهادئة و أنتهى الامر بأن أصبحا مُلحِدين أيضاً.

كتبَ لي أستاذان في جامعة أمريكية واحدة كل على حدا عن أهاليهما. أحدهم قال بأن أمهُ تعاني من حزن مُزمن لأنها تخاف على روحهُ الخالدة. و الاخر كتب بأن أبوه تمنى أنهُ لم يولد, مُقتنع تماما بأن أبنه سيخلد في جهنم. هؤلاء أساتذة جامعيين على درجة عالية من الثقافة واثقون من دراساتهم و نضجهم العقلي. بل يُفترض أنهم تركوا أهلهم خلفهم بمسافة بعيدة في كُل مواضيع المعرفة و ليس فقط الدين. تخيل الآن فقط كيف يبدو عذاب القبر لمن هم أقل ثقافة و أقل أستعداداً علمياً و بلاغياً من هؤلاء الاساتذة؟ أو من جوليا سويني, ليستطيعوا النقاش من زاويتهم الخاصة أمام أفراد العائِلة القساة. كما كان الحال ربما مع العديد من مرضى جيل ميتون.

في بداية حديثنا التلفزيوني وصفت جيل هذا النوع من التربية الدينية بأنه شكل من أشكال العنف النفسي و قد عدت لتلك النقطة كما يلي: (لقد أستعملتي عبارة العنف الديني و لو طلبت منك المقارنة بين الاذى الحاصل من تربية الطفل ليؤمن بالجحيم... فكيف تكون المقارنة بين ذلك و بين الصدمة الحاصلة من الاعتداء الجنسي؟ فأجابت), (هذا سؤال صعب جداً... أعتقد أنا هُناكَ الكثير من التشابه بالواقع, لأنه في كلا الحالتين هو أستغلال للثقة. أنهُ حرمان للطفل من حق الاحساس بالحرية و الانفتاح و و بأنه قادر على التواصل بالعالم من حولهُ بطريقة طبيعية... أنه نوع من الأستصغار, أنه حرمان للفرد من أن يكون هو نفسهُ في كلا الحالتين).

دفاعاً عن الاطفال

الدولية, المستفيدة من سلسلة المحاضرات التي شارك بها, أن تنظم حملة ضد الخطابات و النشرات المؤذية و المخربة. جوابهُ كان صارخا بالرفض لمثل تلك الرقابة: (أن حرية التعبير هي حرية أثمن من أن نتدخل بها). و لكنه أستطرد بعدها ليفاجئ حتى نفسه كليبرالي عندما دعا لأستثناء مهم في حالة خاصة جداً:

> ... تعليم الاطفال الديني و الأخلاقي و خاصة ما يحصل عليه الاطفال في المنزل, حيث يُسمح للاهل – يتوقع منهم – أن يقرروا لأطفالهم ماهو الحق وما هو الباطل, ماهو الصحيح وما هو الخاطئ. ما أقوله هو بأن للطفل حقه الانساني بأن لا يتم أعاقة عقلهُ بتعريضهُ لأفكار مؤذية من الآخرين, كائناً من يكونوا. فالأهل هنا لايملكون رخصة ألهية لحشو اولادهم بأفكارهم الشخصية, لاحق لهم بالحد من أفق المعارف لاطفالهم و تربيتهم في بيئة من العقائد و الغيبيات أو الاصرار عليهم بأن يتبعوا نفس سراط معتقدهم الضيق و الشائك.
> بأختصار, للأطفال الحق بأن لا تحشى عقولهم بهراء لامعنى لهُ, ومن واجبنا كمجتمع أن نحميهم من هذا. و بالتالي يجب علينا ان لا نسمح للاهل بأن يلقنوا أولادهم على سبيل المثال الأيمان بحرفية الكتاب المقدس أو بأن الكواكب تؤثر على حياتهم, تماماً كما لا نسمح لهم بأستخدام العنف ضد أطفالهم أو حبسهم في زنزانة.

بدون شك, فإننا بحاجة لمثل هكذا بيان قوي, من شخص يحظى بمميزات كبيرة. لكن أليس أعتبار شئ ما كهراء هو مسألة رأي فقط؟ ثم الا يدفعنا تغيير مفاهيمنا العلمية بشكل جذري للعديد من المرات الى ان نكون حذرين بأخذ مثل هذه الآراء القاطعة؟ قد يعتقد بعض الباحثين بأنه من الهراء أن نعلم التنجيم أو حرفية الكتاب المقدس, لكن هُنالكَ آخرون من الذين لهم رأي آخر بالموضوع تماماً, اليس لهم الحق لأن يُعلموا ذلك لأطفالهم؟ اليس من الغرور الأصرار على أن يتعلم الاطفال التفكير بصورة علمية؟

أريد أن أشكر أهلي لانهم أدركوا بأنهُ من حق الطفل أن يتعلم **كيف** يفكر و ليس بـــ**ماذا** سيفكر. لو أن الادلة العلمية عُرضت عليهم بشكل كامل و صادق, حينها لو أكتشفوا عندما يكبرون بأن الكتاب المقدس حرفياً صحيح و أن حركة الكواكب يمكن أن تؤثر على مسار حياتهم, فهذا من حقهم. النقطة المهمة هنا هي أنه من حقهم وحدهم أن يقرروا ما سيعتقدون و يفكرون بهِ و ليس من حق آباءهم بأن يفرضوا ذلك عليهم. ذلك بالطبع مهم بشكل خاص عندما نتذكر بأن هؤلاء الاطفال سيكونون آباء الجيل التالي و حينها يستطيعون تمرير ما تربوا عليه من التلقين الذي شكلهم.

يقترح همفري, بأنه طالما أن الاطفال صغارٌ و ضعفاء و بحاجة للحماية فإن الوصاية الأخلاقية الحقيقية تقوم على محاولة أمينة لتوقع تلك الأختيارت التي كان سيفعلها الطفل لصالحهِ فيما لو كان كبيراً وقادراً على الاختيار. و قد ذكر مثالاً مؤثراً عن فتاة صغيرة لقبائل الانكا وجدت بقاياها المتجمدة من 500 عام في جبال البيرو عام 1995. أن عُلماء الأنسانيات الذين وجدوها توصلوا الى أنهُ تم التضحية بها بطقس ديني. فيلما وثائقيا عن هذه (العذارء المتجمدة) الصغيرة تم عرضهُ في التلفزيون الأمريكي. و قد دُعي المُشاهدون لـــ:

الاندهاش بهذا الالتزام الروحي لكهنة الأنكا و ليقاسموا الفتاة كبريائها في رحلتها الأخيرة و فرحتها بإنها قد اختيرت لشرف التضحية. و الرسالة التي وصلت للمشاهدين من البرنامج كانت في الواقع بأن الذبائح الأنسانية بطريقتها الخاصة كانت أحدى الاختراعات الثقافية المُدهشة, جوهرة أخرى في تاج التعدُدية الثقافية, إذا أردت القول.

همفري مصدوم و كذلك أنا:

كيف يمكن لأحد أن يجرؤ حتى على أن يقول ذلك؟ كيف يجرؤون على دعوتنا حيث نجلس في غرف معيشتنا و نشاهد التلفاز بأن نشعر بالنشوة و نحن نتأمل طقساً أجرامياً, قتل طفل غير بالغ من قبل جماعة من كبار السن الأغبياء و المُنتفخين بالغيبيات و

الجهل؟ كيف يجرؤون على دعوتنا لأن نجد شيئاً جيداً في تأمل فعل لاأخلاقي ضد شخص آخر؟

ومرة أخرى يشعر القارئ المُتحرر ربما بوخزة من التقزز. لاأخلاقية, بمقاييسنا, بلا شك, و سخيفة, و لكن ماذا عن مقاييس قبائل الأنكا؟ بالتأكيد, بالنسبة للأنكا كان ذلك فعلاً أخلاقيا و و أبعد ما أن يكون سخيفاً بل و مُشرعاً من ما يملكون من مقدسات؟ الفتاة الصغيرة تلك كانت بلا شك مؤمنة بصدق بالدين الذي نشأت عليه. ومن نظن أنفسنا لنستعمل كلمات مثل (جريمة) و نحكم على كهنة الانكا بمقاييسنا عوضاً عن مقاييسهم؟ ربما كانت تلك الفتاة منتشية بالسعادة لقدرها و كانت تؤمن حقيقة بأنها ذاهبة مباشرة لجنة أبدية, لامعة برفقة أله الشمس الدافئة. أو ربما كانت تصرخ من الرعب, و هذا على الغالب أكثر واقعية.

ان نقطة همفري هنا – نقطتي أيضاً – هي أنه بغض النظر عن كونها ضحية برغبتها أو لا فأن هُناكَ سبباً يجعلنا نفترض بأنها لن تكون راغبة بذلك لو كانت تمتلك الوقائع. وكمثال لنفترض بأنها تعرف بأن الشمس هي عبارة عن كرة من الهيدروجين حرارتها أكثر من مليون درجة مئوية تتحول تلقائياً للهيليوم بالانصهار النووي و أنها تكونت من قرص غازي تشكلت منه بقية أجزاء المجموعة الشمسية بما فيها الارض, بالتكاثف... فرضاً, عند ذلك, لن تعبدها الفتاة على أنها إله, و هذا بدوره سوف يغير أعتباراتها كي تكون ضحية لأكرامها.

لانستطيع لوم كهنة الأنكا لجهلهم و ربما من القسوة نعتهم بالغباء و البلادة. لكنهم يلامون لأملاء معتقداتهم الخاصة على طفلة أصغر من أن تستطيع أن تقرر إذا ما كانت تريد عبادة الشمس ام لا. و النقطة الاضافية لهمفري هي أن الوثائقي المُعاصر و نحن جمهورهُ, نلام أيضاً لرؤيتنا شئ جميل في موت طفلة صغيرة (كشئ يغني ثقافتنا المُشتركة). نفس الظاهرة تجاه العادات الغريبة للطوائف الدينية و تبرير العنف بإسمها مرة تلو الأخرى. أنه المصدر الاساسي للصراع الداخلي لدى المُتسامحين المتحررين من الناس, و الذين لايستطيعون من جهة تحمل المعاملة القاسية ومن جهة اخرى قد تم تدريبهم من داعاة النسبية على أحترام ثقافة الآخرين بنفس مستوى أحترامهم لثقافتهم.

أن بتر العضو الجنسي للنساء (يدعى أحياناً بختان البنات) مؤلم لدرجة فضيعة جداً, أنهُ يقضي على المتعة الجنسية للمرأة (ربما يكون هذا هو الهدف بالاصل). النصف الاول من العقول المُتحررة تُريد القضاء على تلك المُمارسات و النصف الاخر, على اية حال, (يحترم) الثقافات المذهبية و يشعر بأنه ليس علينا أن نتدخل عندما يريدون (هم) أن يبتروا (بناتهم).[1] النقطة بالطبع هي أن (بناتهم) هم في الحقيقة هن بنات (أنفسهن) و رغباتهم لايجوز أن يتم التغاضي عنها. سيقول أحدهم: ماذا لو أرادت الفتاة نفسها أن تختتن؟ لكن هناك سوآل أكثر تعقيداً يجب الاجابة عليه. ماذا لو عندما تكبر أصبحت على أطلاع كامل كأمرأة بالمضاعفات التي يعنيها ان تكون مختونة, و تمنت لو أنها لم تختتن أبداً؟ همفري يشير الى أنه ليس هُناكَ مِن امرأة ناضجة بشكل ما نجت من الختان عندما كانت طفلة تتطوع لأجراء تلك العلمية لاحقا في حياتها.

بعد مناقشة دارت حول الآميش و حقوقهم في تربية (أطفالهم) بطريقتهم أنزعج همفري من حماسنا كمجتمع لـــ:

> الحفاظ على التعدُدية الثقافية. حسناً, ربما تود أن تقول أنه من الصعب بالنسبة للطفل أن يربى لأبوين من الآميش أو الجسيد أو الغجر و يصبح بهذا الشكل الذي يشكلهُ أبويه عليه و لكن ستكون النتيجة على الاقل أستمرار تلك التقاليد الثقافية الساحرة. ألن تفقر حضارتنا الأنسانية بأختفاء تلك العناصر؟ أنه لمِن المُشين أن يضحي ربما بأفراد للمحافظة على تعددية كهذه. لكن رأيكم هو بأنهُ هذا الثمن الذي يدفعهُ المُجتمع. بإستثناء, و أجد نفسي مرغما على تذكيركم, أننا لاندفعهُ, بل هُم (الاطفال) الذين يدفعونهُ.

حضى هذا الموضوع بأهتمام شعبي عام 1973 عندما أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة قراراً نهائياً في قضية و يسكنسون ضد يودير, و التي تناولت حق الأهل في أخراج أولادهم من الدراسة لأسباب دينية. الآميش هم مجاميع تعيش في مجتمعات مُغلقة في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة

1. لقد أصبحت هذه الممارسة عادية في بريطانيا اليوم. أحد مُفتشي المدارس ذو المراكز العليا روى لي عن بنات في لندن عام 2006 و الذين تم أرسالهم لأحد (الاقرباء) في برادفورد لختانها. و الدوائر الرسمية تتحاشى التدخل لخوفها من أتهامها بالعنصرية من قبل (الجالية) المسلمة.

ألأمرَيكية وغالِباً ما يتكلمون لهجة المانية قديمة تسمى بالدوتش البنسلفاني, ويتجنبون بدرجات مُختلفة كل من الكهرباء و مُحركات الحرق الداخلي و السحاب في الملابس و مظاهر اخرى من الحياة العصرية. هُناكَ بالتأكيد شئ جذاب في العيش بجزيرة عيشة القرن السابع عشر. الا يستحق ذلك الحفاظ عليه من أجل الحفاظ على هذه التعدُدية الأنسانية؟ الطريقة الوحيدة للحفاظ عليه هي في السماح للآيميش بأن يربوا أبنائهم بطريقتهم الخاصة و حمايتهم من التأثير المُخرب للحياة العصرية. لكن هنا يجب علينا أن نسأل, اليس للاطفال الحق في أن يكون لهم رأيهم الخاص بالموضوع؟

طرحت القضية على المحكمة العلياعام 1972 عندما سحب بعض آباء الآيميش أبنائهم من المدرسة الثانوية. فكرة التعليم نفسها بعد سن معين كانت مناهضة للقيم الدينية لطائفة الآيميش, خاصة المناهج العلمية منها. ولاية ويسكنسون قاضت الاهل بدعوى حرمان الابناء من حقهم في التعليم. وبعد مرورها بالعديد من المكاتب وصلت الدعوى للمحكمة العليا في الولايات المتحدة و التي حكمت لصالح الآباء.[1] حيث أغلبية الآراء, كما كتب رئيس المحكمة وارن برغر, جاء فيها ما يلي: (كما نرى من السجلات أن التعليم الالزامي لأطفال الايميش بعد سن السادسة عشر يشكل تهديدا حقيقياً يُمكنهُ تقويض مجتمع الآيميش و مُمارساته الدينية الموجودة حالياً و عليهم أما أن يتركوا الأيمان و ينصهروا في المجتمع العريض أو أن يُرغموا على الهجرة لأماكن أكثر تقبلاً لأمور كهذه).

أما عن آراء الاطفال فقد حرص ويليام دوغلاس عن سؤال الاولاد أنفسهم, هل يودون فعلا أن يقطعوا دراستهم؟ هل يودون فعلاً البقاء على دين الآميش؟ نيكولاس همفري ربما كان سيذهب لأبعد من ذلك. حتى ولو وافق الاولاد على أن يبقوا ضمن الآميش فهل سيكون رأيهم هو نفسهُ لو عرفوا عن الخيارات الأخرى؟ كي يكون لذلك مصداقية, الا يجب أن نرى بعض الشباب من العالم الخارجي مُعلنين عن رغبتهم بالانضمام للآميش؟ الحاكم دوغلاس أستمر و لكن بطريقة أخرى. فهو لم يجد أي سبب خاص للأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الأهل الدينية في القرار عما إذا كان سيسمح لهم

---

1. HTTP://WWW.LAW.UMKC.EDU/FACULTY/PROJECTS/FTRIALS/CONLAW/YODER.HTML.

بمنع ابناءهم من الدراسة. لأنه لو كان الدين سبباً للأستثناءات, أفلن يكون هُناكَ رأي علماني يعطيهم هذا الحق؟

أن الأغلبية في المحكمة العليا أخذوا قراراتهم بناء على الفكرة الايجابية بأن وجود نظام رهباني, يغني مجتمعنا. لكن كما أشار همفري, فهناك فارق جوهري. أن الرهبان يتطوعون لحياة الرهبنة بمحض أرادتهم. أطفال الآميش ماكانوا أبداً ليتطوعوا للدخول لهذه الطائفة. لقد ولدوا داخلها ولم يكن لهم أي رأي في الموضوع.

هناك شئ أستصغاري مذهل في هذه التنازلات اللاإنسانية, حيث يتم التضحية بأشخاص, في هذه الحالة الاطفال, على مذبح (التعدُدية) للحفاظ على مجموعة من التقاليد الدينية. نحنُ الآخرون سعداء بسياراتنا و حواسيبنا و لقاحاتنا و مُضاداتنا الحيوية. لكنكم أيها النماذج المضحكة الصغيرة بقبعاتكم و سراويلكم الطويلة و لهجتكم القديمة و مراحيضكم الترابية, أنتم تغنون حياتنا بذلك. بالطبع يجب أن نسمح لك بأن تضع أولادك بالفخ الزمني للقرن السابع عشر حيث تقبعون أنتم, و إلا فأننا نفقد شيئا لايعوض: جزء من التعدُدية الرائعة للثقافة الأنسانية. أن جزء صغيراً مني يرى بعض القيمة في ذلك, و لكن الجزء الاكبر مِني يحس بالغثيان لمجرد التفكير بذلك.

فضيحة تربوية

بفخر. بعض الاغنياء طلب منهم وضع مبالغ بسيطة (2 ميلون جنيه أسترليني في حالة أيمانويل) التي تدفع الحكومة مقابلها حوالي (20 مليوناً للمدرسة أضافة لمصاريفها و الرواتب المستقبلية) كما تعطي للمُتبرعين حق تقرير المبادئ الاخلاقية التي تسعى لها المدرسة و تعيين المُدير و المُوظفين و أي الطلبة يحق له الدخول و من لايحق له ذلك و أشياء كثيرة أخرى.

عشرة بالمائة من التبرعات تأتي من السير بيتر فاردي, بائع سيارات غني وعنده رغبة أمينة بإعطاء أطفال اليوم الثقافة التي يتمنى لو حصل عليها, .ورغبة أقل أمانة بدس قناعاتهِ الدينية الخاصة.[1] يبدو كما لو أن فاردي تورط مع مجموعة من الاساتذة المتطرفين دينياً و المتأثرين بالنموذج الامريكي ,و على رأسهم نيغل ماكويد, الذي يدير كلية أيمانويل بعض الاحيان وهو الآن مدير كُل مدارس فاردي. أن مستوى فهم ماكوي للعلوم يمكن أن نحكم عليه من خلال أيمانه بأن العالم خُلِقَ منذ أقل من عشرة آلاف سنة و من قوله التالي: "لكن القول بأننا تطورنا من أنفجار و بأننا كنا قردة, شئ غير معقول خصوصاً عندما ننظر لتعقيد الجسم الأنساني... عندما نقول للاطفال بإنهُ ليس هنا أي غاية من حياتهم وبأنهم عبارة عن تفاعلات كيميائية ليس الا, فإنك لاتساعدهم على بناء أي ثقة بالنفس".[2]

ليس هُناكَ من عالم يعتقد بأن الطفل هو (تفاعلات كيميائية). أن أستعمال العبارة هذه في ذلك السياق هو جهل صارخ, كما هو الحال في تصريح (الخوري) واين مالكولم, رئيس كنيسة حياة المدينة في هاكني في شرق لندن و الذي, بحسب مقال في الغارديان في 18 نيسان 2006: (يشكك بالادلة العلمية للتطور). أن فهم مالكولم للادلة التي يشكك بها يمكن قياسهُ مِن تصريحهُ بأنهُ "من الواضح أن هُناكَ حلقة مفقودة في سجلات الحفريات لكائنات متوسطة المُستوى في التطور. لو أن ضفدعاً تحول لقرد, الا يجب أن يكون هُناكَ مجموعة كبيرة من (القرادع)"؟

المناهج العِلمية ليست من أختصاص ماكويد أيضاً و علينا, للأمانة, أن نوجه للمسؤول عن المناهج العلمية في هذا المشروع, ستيفن لايفيلد. في 21 أيلول

1. يبدو كأن أتش أل مينكين كان يتنبأ عندما كتب (في أعماق قلب كل أنجيلي يوجد بائع سيارات فاشل).
2. راجع (Times Educational Supplement) في الخامس عشر من تموز **2005**.

2001 القى السيد لايفيلد محاضرة في كلية أيمانوئيل عن (التدريس العلمي: وجهة نظر الكتاب المُقدس). نص المُحاضرة نشر على موقع مسيحي في الانترنت (www.christian.org.uk). و لكنك لن تجده الآن هناك. لقد رفعته المنظمة المسيحية في اليوم التالي لأشارتي لهُ في مقال كتبتهُ في صحيفة الديلي تلغراف في 18 اذار 2002, و عرضت أفكاره لتشريح مُحرج.[1] على أيه حال فإنه من الصعب محي أي شئ بشكل دائم من الشبكة العنكبوتية. ذلك لأن مُحركات البحث للأسراع من عملها ولو بشكل جزئ تقوم تخزين نسخ من المعلومات في حواسيبها و هذه المعلومات تبقى لبعض الوقت حتى بعد أزالة المعلومة الأصلية. أحد الصحفيين البريطانيين, آندور براون, المسؤول الاول عن مواضيع القسم الديني في الاندبدنت أستطاع الحصول على مُحاضرة لايفيلد و تحميلها من غوغل و نشرها على موقعهِ الخاص حيث لا يستطيع أحد محيها.
http://www.darwinwars.com/lunatic/liars/layfield.html
ستلاحظ بأن الكلمات المُختارة من قبل براون للرابط لها معنى مُسلي بحد ذاتها. و لكنها تفقد قدرتها على الادهاش عندما تطلع على محتويات المُحاضرة ذاتها.

و بخصوص الموضوع ذاته, فعندما كتب أحد القراء يسأل كلية أيمانويل عن سبب رفعها للمحاضرة من الموقع, حصل على الاجابة المراوغة التالية من الادارة و مرة اخرى يسجلها آندرو براون:

> أن كلية أيمانويل كانت مركزاً لمناظرة تتعلق بتدريس الخلوقية في المدارس. عملياً فأن كلية أيمانويل تلقت العديد الكبير من المكالمات الصحفية. ذلك تطلب كمية كبيرة من وقت المدير و مساعديه. و كلهم لديهم واجبات أخرى ليقوموا بها. لذلك قمنا برفع مُحاضرة ستيفن لايفيلد مؤقتا من موقعنا.

---

1. HTTP://WWW.TELEGRAPH.CO.UK/OPINION/MAIN.JHTML?XML=/OPINION/2002/03/18/DOL 801.XML

ولا شك في أن أدارة المدرسة كانت مشغولة جداً بشرح موقفهم للصحفيين عن سبب تدريسهم للخلوقية. لكن لماذا أذن رفعوا نص المحاضرة من الموقع و التي تشرح تماماً موقفهم من الموضوع حيث كان بأمكانكم الطلب من الصحفيين الرجوع اليهو توفير عليهم الكثير من الوقت؟ لا, لقد رفعو مُحاضرة رئيس قسم العلوم لانهم لاحظوا أن عليهم أن يخفوا شيئاً. اليكم هذا المقطع من بداية نص المحاضرة.

> دعونا نقول منذ البداية بأننها نرفض تلك الفكرة التي, و ربما بشكل غير مقصود, أنتشرت بواسطة فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر بأنه هُناكَ كتابين (كتاب الطبيعة و الكتاب المقدس) و الذان يجب دراستهما بشكل كلٌ على حِدى بحثاً عن الحقيقة. لكننا بالعكس نقف بحزم وراء القول بأن الله تكلم بشكل مسؤول و معصوم عن الخطأ في صفحات الكتاب المقدس. ومهما بدا ذلك هشاً, بالاخص لثقافة مدمنة التلفزيون وفاقدة للايمان, فنحن متأكدين أنه من أمتن القواعد للتأسيس و البناء عليه.

عليك أن تقرص نفسك بإستمرار لتعرف بأنك لاتحلم. ليس هذا كاهناً في خيمة في الاباما و لكنه رئيس الهيئة العلمية في مدرسة تصب فيها الحكومة البريطانية المال, و محل فخر و أعتزاز لطوني بلير. السيد بلير نفسهُ يعترف بأنه مسيحي مؤمن, كان على رأس حفل الافتتاح عام 2004 لاحدى المدارس الجديدة في سلسلة مدارس فاردي.[1] ربما تكون التعدُدية ذات قيمة مرغوبة, لكن التعدُدية هنا قد فقدت صوابها.

يمضي لايفيلد بتحديد مُقارنات بين العِلمْ و قصة الخلق, وفي كُل مرة يبدو هناك تناقضاً فأنهُ ينصح بقصة الخلق. أنهُ يشير الى أن علم الارض الآن أصبح ضمن منهج الدراسة الوطني و يعلق على ذلك بقوله: "أنه من المهم لهؤلاء المُدرسين في هذا الاختصاص في المنهج الدراسي أن يطلعوا على مقالات وايتكومب وموريس حول جيولوجيا الطوفان". نعم, أنه "الطوفان العظيم" الذي يشير اليه لايفيلد. أنهُ يتكلم عن سفينة نوح! – حينما يُمكن للاطفال أن يتعلموا المثير من الحقائق مثل أن أفريقيا و أمريكا الجنوبية كانتا

1. HTTP://WWW.GUARDIAN.CO.UK/WEEKEND/STORY/0,,1389500,00.HTML.

مُلتصقتين و تبتعدان عن بعضهما بالسرعة التي تنمو بها الاظافر. و اليك مقطعا آخر من لايفيلد (رئيس الهيئة العلمية) عن طوفان نوح كتفسير سريع لظاهره, و التي تبعا للأدلة الجيولوجية أستغرقت ملايين السنين:

> بناء على النموذج الجيوفيزيائي الرائع لدينا علينا الاعتراف بأن هناك طوفان عالمي أجتاح العالم تماماً كما هو مذكور في سفر التكوين (الفصل 6-10). وأذا كانت القصة المقدسة ذات مصداقية و ان سلالة الانساب (مثلاً في التكوين و متى و لوقا) متكاملة بشكل كبير, علينا توقع بأن تلك الكارثة العالمية حدثت في الماضي القريب. تأثيرها شامل و واضح في كُل مكان. من أهم هذه الادلة هي تلك التي توجد في المستحاثات الصخرية, و مخزون الطاقة الهيدروكربونية الكبير (بترول و غاز و فحم) و تكرر تلك القصص (الاسطورية) لطوفان عظيم عند العديد من الحضارات في العالم. وبأن أمكانية بناء سفينة مليئة بممثلين عن جميع الكائنات الحية و بقائهم و أستمرار حياتهم فيها لسنة كاملة حتى وقت أنحسار الماء مدون و بشكل جيد من قبل العديدين و منهم جون وودمورابي.

بشكل ما يبدو ذلك أسوأ من التصريحات لاشخاص ليسوا من ذوي الاختصاص مثل نايغل ماكويد أو البيشوب واين مالكولم أعلاه, ذلك لان لايفيلد شخص متخصص علمياً. و اليكم مقطعاً آخر مثير للدهشة:

> كما ذكرت سابقا فإن المسيحيين و لأسباب جيد جداً يعتبرون العهد القديم والعهد الجديد مصدرين موثوقين فيما يجب علينا الايمان به. أنهما ليسا وثيقتين دينييتين فقط. بل يوفران صورة دقيقة لتأريخ الارض و الذي نتجاهلهُ مخاطرة بمسؤوليتنا.

ان الادعاء بأن الكتاب المقدس يقدم لنا صورة دقيقة للتأريخ الجيولوجي سيصيب أي باحث ديني ذو سمعة طيبة بالجنون. صديقي ريتشارد هاريس, بطريرط أكسفورد وأنا كتبنا رسالة مُشتركة لطوني بلير و جمعنا تواقيع ثمانية خوارنة و تسع عُلماء طبيعيين. منهم رئيس الجمعية العلمية الملكية

(سابقاً أقرب مُستشار علمي لطوني بلير) و مُديرا قسمي الفيزياء و الطبيعة في الجمعية الملكية و الفلكي رئيس المرصد الملكي (رئيس الجمعية الملكية حالياً) و مدير متحف التأريخ الطبيعي في لندن و الفارس دافيد آتيبورو و الذي هو ربما الشخصية الاكثر تقديراً في إنجلترا. ومن الخوارنة فكان واحِداً من الروم الكاثوليك و سبعة من الانجيليين – رؤساء الطوائف الدينية في كُل البلد. اليكم نص الرسالة:

دولة رئيس الوزراء!
نحن مجموعة من العلماء و رجال الدين, نكتب لك للتعبير عن مدى قلقنا بخصوص المناهج العلمية في كلية أيمانويل التكنولوجية في كاتشهيد. التطور هو نظرية علمية ذات قيمة معرفية كبيرة و قادرة على شرح الكثير من الظواهر في كثير من المجالات. و بالامكان تشذيبهُا و تأكيدهُا بل و قابلة للتطويع من خلال تدقيق حريص على الدلائل المطروحة. المُتحدث الرسمي للمدرسة المذكورة أعلاه يزعم بأنهُ مسألة (أعتقاد) على نفس المستوى مع قصة الخلق المذكورة في الكتاب المُقدس, و التي لها وظيفة ثانية و هدف آخر. أن هذا الزعم يجانب الصواب.
المسألة تتخطى ما يتم تعليمهُ في مدرسة معينة ما. حيث يزداد القلق الآن حول ما سوف يتم تعليمهُ و كيف سيتم أعادة هيكلة المناهج في الجيل القادم من المدارس الدينية. نحنُ نرى بأن المنهج التدريسي في مدارس مشابهة لكلية أيمانويل التكنولوجية يجب ان يخضع لرقابة شديدة لظمان أحترام متبادل للمناهج العلمية و الدينية.
مع كل التقدير

وصلنا رد متثاقل و غير شافي من مكتب رئيس الوزراء يلمح فيه الى النتائج الجيدة للخريجين من المدرسة و التقرير المبالغ في تعاطفهِ من قبل دائرة الاشراف التربوي. ربما لم يخطر للسيد بلير أنه هناك مشكلة ما في هيئة الاشراف التربوي إذا كان مفتشوا مكتب الرقابة على التعليم قد أعطوا تقريراً جيداً عن مدرسة يتم فيها تعليم بأن كُل الكون بدأ في زمن بعد أن تمكن الانسان من جعل الكلاب حيوانات اليفة.

ربما يكون المقطع الاكثر إزعاجا في مُحاضرة لايفيلد هو نهايتها "ماالذي يمكن فعله الآن؟". حيث يذكر بعض الأساليب لاستعمالها من قبل الاساتذة الراغبين بأدخال المسيحية المُتطرفة في المناهج العلمية. و كمثال فهو يحث الأساتذة على:

> أنتبه لكُل موقف يتم فيه طرح فكرة قِدم الارض (ملايين أو مليارات السنين) بشكل صريح أو يتم التنويه لها في كتاب أو سؤال أو من قبل زائر, ثم أشر بلطف بأن الطرح خاطئ. وكُلما كان ذلك مُمكنا علينا أن نعطي البديل (ألأفضل دوماً) الانجيلي الذي يفسر هذه المعلومات. علينا تناول بعض الأمثِلة من كُل كتب الفيزياء و الكيماء و الأحياء في المقررات المفروضة و كُلٌ بدوره.

بقية محاضرة لايفيلد لاتعدو عن كونها منهج دعائي و مصدر لأساتذة مادة الاحياء و الكيماء و الفيزياء المُتدينين من الذين يرغبون بهدم المناهج المثبتة علمياً و أبدالها بنصوص من الكتاب المُقدس دون الخروج عن حدود المناهج المقررة تربوياً لكل المدارس.

في الخامس عشر من نيسان عام 2006 أجرى جايمس نوتي, أحد أكثر محرري البي بي سي خبرة مُقابلة إذاعية مع السير بيتر فاردي. الموضوع الاساسي كان عن تحقيق جنائي لأتهامات أنكرها فاردي عن رشاوى مختلفة -مثلاً القاب تنبيل بمستويات مختلفة- قد عرضت من قبل حكومة بلير لبعض الاغنياء كمحاولة لاشراكهم في مخططات (المدينة الاكاديمية). نوتي سأل فاردي أيضاً عن موضوع نظرية الخلق, وفاردي نفى بأصرار بأن تكون كلية أيمانويل تدرس طلابها أفكار الخلوقية. أحد خريجي كلية أيمانويل, بيتر فرنش,[1] صرح بأصرار مماثل على أنه, "تم تدريسنا بأن عمر الارض ستة الاف عام"[2] فمن منهم يقول الحقيقة؟ لانعرف ذلك و لكن محاضرة ستيفن لايفيلد وضعت الخطوط العريضة لتدريس المناهج العلمية بشكل صريح و

1. أخبار جمعية الإنسانيون البريطانية (آذار – نيسان 2006)
2. لكي يتخيل القارئ حجم الخطأ في هذا التصور أستطيع أن اذكر بأن هذا الاعتقاد اشبه بالاعتقاد بأن المسافة بين نيويورك و سانفرانسيسكو هي 7.1 متر.

واضح جداً. ألم يقرأ فاردي مُحاضرة لايفيلد؟ ألا يعرف فعلاً ما ينوي رئيس قسم العلوم في أكاديميته فعله؟ لقد جمع بيتر فاردي أمواله من بيع السيارات المُستعملة. هل ستشتري واحدة منه؟ وهل ستبيعه -كما فعل طوني بلير- مدرسة بعشر ثمنها و تعرض دفع كُل مصاريف تشغيلها؟ لنكن مُتسامحين مع بلير و نفترض بأنه, على الاقل, لم يقرأ محاضرة لايفيلد. أظن بأن الأمل بأن ينتبه للموضوع الآن سيكون مبالغاً فيه.

المدير ماكويد جاء بدفاع عن ما يعتقدهُ كما يبدو بانهُ روح الأنفتاح في مدرستهِ , دفاع مثير للاستغراب لتلك اللهجة الاستصغارية فيه:

> المثال ألأفضل الذي يمكننى أن أعطيه عن الانفتاح هنا في شكل محاضرة فلسفية قمت بأدارتها لطلبة الصف السادس. شاكيل كان جالسا هناك يقول بأن القرأن صادق وفيه نجد كل الحق" بينما كلارا تجلس هناك و تقول "لا, الأنجيل فيه كل الحق" و بدأنا بالحوار حول التشابهات و التناقضات الموجودة في تلك الكتب. و أتفقنا بأنهُ لا يُمكن أن يكون كلاهما على حق. و خلاصة قلت "آسف يا شاكيل, أنتَ مُخطئ, الانجيل هو الكتاب الذي فيه كل الحق" فقال: "آسف ياسيد ماكوي, أنتَ مُخطى, بل هو القران". بعدها ذهببا للغداء في صالة الطعام و أستمر النقاش هناك. أن هذا ما نريدهُ. نريد لاطفالنا أن يعرفو لماذا يؤمنون بما يؤمنون بهِ و الدفاع عنه.

يالها من صورة جذابة. شاكيل و كلارا ذهبا للغداء سوية, يناقشان بحماس البراهين و يدافعان عن اعتقاديهما الغير متوافقين. لكن هل فعلا هذا شئ جذاب في الحقيقة؟ اليست في الحقيقة صورة مُحزنة تلك التي رسمها ماكويد؟ ما الذي يبنى شاكيل و كلارا حُججهُما عليه؟ ما هي الادلة التي أتى بها كلاهما لدعم كلامهُ في نقاشهما الحماسي و البناء؟ كلارا و شاكيل زعما كلاهما ببساطة بأن كتابهُ المقدس أفضل من الكتاب الآخر. و هذ كل شئ. هذا كُل ما يبدو أنهم قالوه و هذا كُل ما يُمكنك قوله بالتاكيد عندما يكون ما درستهُ هو أن الحقيقة تأتي من كتابٌ مقدس عوضاً عن الادلة. كلارا و

شاكيل و كل أصحابهم لم يحصلوا على معلومة. لقد خذلوا من قبل مدرستهم و مسؤليها آذوهم, ربما ليس جسديا و لكن عقلياً.

الوعي مرة أخرى

درجات الخيال أن تتخيل كنيسة أو جامع يُصدر قراراً بمثل هذا التواضع؟ الا يجب أن يجبروا على ذلك؟ أنا شخصياً أنتميت الى طائفة (الاذكياء), و أحد الاسباب لذلك هو أنني كنت فضوليا لأرى إذا ما كان ممكناً لكلمة كهذه أن تُشحن لتدخل ميمية اللغة. لا أعرف, و أود أن أعرف فيما إذا كانت كلمة **(Gay)** و التي تعني سعيد و مرح أساساً قد دخلت اللغة بطريقة مدروسة للتلاعب على اللغة أو أنها حصلت مصادفة.[1] أن حملة (الاذكياء) قابلت معاضة شديدة في بداياتها عندما رفضها بعض المُلحِدين خوفاً من أن يوصفوا بالتكبر. أن حركة الفخر بالمثلية **(Pride)**, لحسن الحظ لم تعاني من ذلك التواضع الزائف و الذي ربما كان سبب نجاحها.

في فصل سابق كنت قد طرحت موضوع "رفع الوعي" بصورة عامة, و بدأت بمنجزات مناصري المرأة بجعلنا ننتبه عند سماعنا عبارة مثل "المُتحدث الرسمي" عندما يكون الحديث عن أمرأة, أو نقرأ في الصحف عبارة مثل (سائق السيارة إمرأة) ولا نرى عبارة (سائق السيارة رجل). و هنا أُريد أن أرفع الوعي بطريقة أخرى. أعتقد بأن علينا جميعا أن نجفل عند سماعنا بأن طفلاً صغيراً يوصم بأنه يتبع دين ما. الاطفال صغار جداً على أن يقرروا وجهة نظرهم عن نشأة الكون و الحياة و الأخلاق. أن العبارة ذاتها (طفل مسيحي) او (طفلٌ مسلم) يجب تزعج السمع كصرير الاظافر على السبورة.

اليكم هذا التقرير بتأريخ 3 أيلول 2001 من راديو آيرلندا أف أم.

> تلميذات كاثوليكيات واجهن معارضة من المُحافظين عند محاولتهم الدخول لمدرسة الصليب المقدس الابتدائية للبنات الكائنة في شارع آرديون في شمال بلفاست. ضباط الشرطة الملكية و الجيش البريطاني أزاحوا المعارضين الذين حاولوا سد طريق المدرسة. تم رصف حاجز من شرطة مكافحة الشغب للسماح للاطفال بالمرور عبر المُحتجين الى المدرسة. المحافظين أستهزأوا و صرخوا كلمات طائفية بينما أهل

1. أعتماداً على قاموس أكسفورد الانكليزي فأن كلمة (GAY) ظهرت في لغة السجن الامريكي العامية سنة **1935**. عام **1955** قام الكاتب بيتر وايلدبلود بتعريفها في كتابه المشهور (AGAINST THE LAW) على أنها كناية أمريكية للشخص المثلي الجنس.

الاطفال, منهم من هو في سن الرابعة, رافقوهن الى المدرسة. عندما دخول الآباء و الاطفال من باب المدرسة رمى المحافظون المدرسة بالزجاجات الفارغة و الحجارة.

أي شخص عادي سيصدم من حدث كهذا يحصل لفتيات صغيرات. أحاول هنا بكل الوسائل أن أدفع الجميع للشعور بالصدمة أيضاً ضد فكرة وصمهن بـــ(تلميذات كاثوليكيات) بحد ذاتها. (و كما أشرت اليهم في الفصل الاول فأن كلمة المُحافظين هي كناية لوصف الايرلنديين الشماليين البروتستانتيين, تماماً كما تستعمل كلمة الوطنيين كناية بالكاثوليكيين. أناس لا تتردد في وصف أطفال صغار ككاثوليكيين أو بروتستانتيين و لكنهم يترددون بنعت نفس المواصفات الدينية, مع انها أكثر موضوعية, للبالغين من الارهابيين و العصابات).

مجتمعنا, و يتضمن أيضاً اللادينيون, قد تقبل فكرة غير معقولة عن أنه من الطبيعي ومن الحق أن يتم تلقن الاطفال الصغار دين آباءهم, و الصاق علامات دينية عليهم –"طفل كاثوليكي", "طفل بروتستانتي", "طفل يهودي", "طفل مسلم" و الخ. لكنهُ لاتوجد علامات مناظرة مثلاً: ليس هُناكَ طفل محافظ, أو ليبرالي ولا طفل جمهوري أو ديموقراطي. الرجاء, أرجوكم أن تلفتوا أنتَباهكم لهذا الموضوع عند سماعكم لشئ كهذا أفعلوا شيئاً. الطفل ليس طفلاً مسيحياً أو مسلماً بل هو طفل لأبوين مسيحيين أو مسلمين. تلك التعاريف, بالمناسبة, هي طريقة عظيمة للفت أنتَباه الاطفال أنفسهم. الطفل الذي يقال لهُ بأنهُ (طفل لابوين مسلمين) سيعرف فوراً بان الدين هو شئ لهُ أن يختاره – أو يرفضه – عندما يصبح في عمر يؤهله لذلك.

دراسة الاديان المُقارنة ذات فائدة عظمى. شخصياً بدأت شكوكي عندما كنت في حوالي التاسعة من العمر, عندما عرفت (من أهلي و ليس من المدرسة) بأن المسيحية التي تربيت عليها هي أحد الأنظمة الايماينة العديدة المُتناقضة في العالم. هذا بالطبع يخيف المدافعين عن الاديان الذين لاحظوا هذا الشئ. و بعد قصة مسرحية الميلاد في الاندبندنت, لم تصل أي رسالة للمُحرر تشتكي من تمييز الاطفال ذو الاربع سنوات و وصفهم بدياناتهم. الرسالة السلبية الوحيدة وصلت من (حملة التعليم الحقيقي) و التي قال المتحث بإسمها

نيك سيتون, بأن تدريس الديانات المُتعددة خطر لأن "الاطفال في أيامنا هذهِ يتعلمون أن الديانات جميعها ذات قيمة متساوية و هذا يعني بأن دينهم ليس له أي قيمة خاصة". بالتأكيد, هذا هو المقصود من ذلك و هذا المتحدث بإسم المنظمة له كل الحق في أن يكون قلقاً. في مناسبة أخرى قال نفس الشخص "أن التعريف بأن كُل الديانات لها نفس المصداقية هو خطأ. الكل له الحق بألأعتقاد بأن أيمانه أفضل من الأخرين, سواء كانوا من الهندوس أو اليهود أو المسلمين أو المسيحيين – وإلا فما المعنى وراء أمتلاكنا للأيمان؟"[1]

و أنا بدوري أتسآئل. ما هذا الكلام الفارغ! أن الأديان مُتناقضة فيما بينها. فماذا يعني أن يكون أيمانك أفضل؟ لإن غالبيتهم لا يُمكن أن يكونوا "افضل من الاخرين". لِندع الاطفال يتعلمون الاديان المُختلفة و لندعهم يلاحظون التضارب و ليستخلصون آرائهم الخاصة بهم عن نتائج هذا التضارب. أما بخصوص كون أحدها "حق" او لا فلندعهم يقرروا ذلك بأنفسهم عندما يصبحون في عمر يؤهلهم لذلك.

التعليم الديني كجزء من الثقافة الأدبية

أن انجيل الملك يعقوب من 1611 الطبعة المُعترف بها – يتضمن بعض المقاطع من الأدب البارز بحد ذاته و السرد الرفيع (وقد قيل لي بان الطبعة العبرية الاصلية تتضمن ذلك ايضاً). لكن السبب الرئيسي لان يكون الانجيل الانكليزي أحد أجزاء التعليم الادبي هو أنه مصدر رئيسي للثقافة الادبية. نفس الشئ ينطبق على ألآلِهة الأغريقية و الرومانية, فقد درسناهم دون المُطالبة بالأيمان بهم. و اليكم الآن لائحة سريعة عن جمل أدبية أستوحيت من الانجيل و التي تستعمل بشكل شائع في الادب و الحوارات و من بعض الاشعار العظيمة للكليشيهات المبتذلة و من الامثال و حتى الثرثرة.

جنة عدن • ضلع آدم • أكرم قريبك • أشارة قابيل • قديم قدم ميتوشالح • باع حقوق بكريته • سُلم يعقوب • أعمى في غزة • العجل المُسمن • العليقة المشتعلة • أرض العسل و اللبن • العين بالعين و السن بالسن • لؤلؤة العين • النجوم في فصولها • ضحية الفداء • ملكة سبأ • حكمة سليمان • صبر أيوب • كلٌ بميعاد • من السيوف مناجل • لنأكل و نشرب فغداً سنموت • صوت صارخ في البراري • سترى عيونكم • زنابق الارض • دانيال في قفص الاسد • أزرع ريحاً و أحصد العواصف • سدوم و عمورة • ليس بالخبز وحده يحيا الانسان • ملح الارض • أدر خدك الآخر • أرمي اللآلئ للخنازير • ذئب بذياب الحملان • البكاء و صرير الاسنان • من ليس معي فهو ضدي • لا كرامة للأنبياء في ارضهم • فتات مائدة الاغنياء • أجمعوا كنوزكم في السموات • علامة الزمان • فريسي • أيها العبد الصالح المؤمن • أعزل الخراف عن الجداء • أنني أغسل يدي • دع الاطفال يأتون أليّ • السامري الصالح • يمشي على الماء • الخروف الضال • الابن الضال • القي الحجارة الاولى • توما الشكاك • الطريق الى دمشق • أيها الموت أين شوكتك • أظفر في العين • جذرة الشر • جاهد في طريق الصلاح • كل اللحم قش • المركب المتارجح • أنا البداية و النهاية • اليوم العظيم • من الاعماق أصرخ اليك, الهي • الشمس تشرق على الاشرار و الابرار

كل واحدة مِن هذه التعابير و الجمل أو الكليشيهات أتية مُباشرة مِن أنجيل الملك يعقوب. إن الجهل بالانجيل يؤدي لفقر في امكانية تقدير الادآب, اليس كذلك؟ وليس فقط الادب الرفيع و الجاد. مايلي قصيدة من أبداع اللورد جاستيس باون, و الذي كان عضواً في محكمة بريطانيا العليا, غنية بالابداع.

المطر النازل على الاخيار
لا يؤثر بشئ على الاشرار
لانهم يحتمون من هذه الامطار
بمظلات يصنعها الاخيار

لكن المتعة تخبو إن لم تكن تعرف تلميحات المقطع من انجيل متى 45:5 "فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ". و كذلك النقطة التي اشارت لها اليزا دوليتل في (**سيدتي الجميلة**) وهي تحلم بما تتمناه لمن جعل نفسه عليها معلماً, سوف لن تفهم هذه النقطة من قبل من هو جاهل بنهاية يوحنا المعمدان الذي فقد رأسهُ:

شكرا أيها الملك, قلتها بصدق شديد
رأس هينري هينجز هو كل ما أريد

شخصياً فأنا أرى بي. جي. وولدهاوس أعظم كاتب كوميدي أنكليزي. و أراهن أن نصف جمل اللائحة الانجيلية التي نوهت عنها يمكن العثور عليها في نصوصه. أن كتب وولدهاوس غنية بعبارات أنجيلية أخرى و ليست مما تضمنت لائحتي و ليست مما يستعمل في اللغة التعبيرية أو الامثال. لنستمع الى وصف لبيرتي ووستر عن الاستيقاظ مع صداع سببه الكحول: "حلمت بأن أحداً يغرسُ مساميراً في رأسي, ليست مسامير عادية من التي تستعلمها جيل زوجة هيبير بل حارة لدرجة الاحمرار". بيرتي نفسه فخور جداً بفوزهِ بنجاحهِ الفكري الوحيد الذي حصل عليه من خلال دراسته للكتاب المقدس في المدرسة.

ما ينطبق على النصوص الكوميدية الانكليزية ينطبق بشكل أكبر على النصوص الادبية الجادة. نصيب شاهين قام بحساب عدد الاقتباسات الانجيلية

في روايات شكسبير ووصل حتى 1300 عبارة, رقم منتشر بشكل واسع و جدير بالثقة.[1] تقرير الادب الانجيلي المنشور في فيرفاكس في فيرجينيا (الممولة من سيئة الصيت مؤسسة تيمبلتون) يُعطينا أمثلة كثيرة و يبين بشكل واسع أتفاق أساتذة الادب على أن عبارات الأنجيل ضرورية لتقدير المادة الدراسية.[2] و بدون شك فالموضوع هو نفسه بخصوص الادب الفرنسي و الالماني و الروسي و الايطالي والاسباني و كل اللغات الاوروبية الأخرى. بالنسبة للمتكلمين بالعربية أو الهندية فخبراتهم بعلوم القرآن و البهاغافاد جيتا ضروري أيضاً لجعلهم قادرين على تقدير التراث الادبي للغاتهم. و أخيراً و لختم الموضوع فإنك لاتستطيع تقدير فاغنر (الذي قيل عن موسيقاه بأنها أفضل مما تبدو لسامعيها) بدون أن تمر في طريقك على آلهة الشمال القديمة.

لا أريد أن أثير الملل بشرحي لكل التفاصيل. ربما قلت ما يكفي لكن دعوني هنا أؤكد على نقطة, لأقناع قرائي القدامى بأن وجهة النظر الإلحادية لاتبرر رمي الكتب المقدسة خارج نطاق مناهجنا الدراسية. و بالتأكيد فلا شيئ يمنعنا من أن نكن الولاء للتقاليد الثقافية و الادبية تجاه, على سبيل المثال, اليهودية و المسيحية أو الاسلامية, بل وحتى الاشتراك في الطقوس الدينية المُتبعة في الزواج و العزاء, بدون أن نحتاج ان نقتبس ايمانهم بالخوارق التي ترعرت الى جانب تلك التقاليد تأريخياً. نستطيع ترك الأيمان بالله دون خسران العلاقة مع التراث الثمين.

1. شاهين قام بكتابة ثلاثة كتب عن الاقتباسات الانجيلية في المسرحيات الكوميدية و المأساوية و الواقعية كل على حدى. المجموع بـــ 1300 تتم الاشارة له في: HTTP://WWW.SHAKESPEAREFELLOWSHIP.ORG/VIRTUALCLASSROOM/STRITMATTERSHAHEENREV.HTM.
2. HTTP://WWW.BIBLELITERACY.ORG/SECURE/DOCUMENTS/BIBLELITERACYREPORT2005.PDF.

الفصل العاشر

"هذا الكتاب يملأ فجوة مُهمة جداً". تلك الدعابة تصلح لاننا نفهم المعنيين المُتضادين لها. بالمصادفة, كنت أعتقد بانها نكتة مُخترعة و لكن, ولدهشتي, وجدت أنها أستعملت فعلاً و بكل براءة من قبل دار النشر.
راجع:
http://www.kcl.ac.uk/kis/schools/hums/french/pgr/tqr.html
هناك يتم الحديث عن كتاب "ملأ فجوة مهمة جداً" في الادب الموجود عن حركة ما بعد الواقعية. يبدو أنه من المناسب جداً أن يكون هذا الكتاب المعترف به كزائد عن الحاجة عن ميشيل فوكو و رونالد بارث و جوليا كريستيثا و آخرون من رموز الفرانكوفونية.

هل يملأ الدين فجوة مهمة في حياتنا؟ غالِباً ما يقال بأن هُناكَ فجوة في الدماغ يجب ملأها بالأله: هناك حاجة نفسية للاله – صديق مُتخيل, أب, أخ أكبر, أب الاعتراف, شخص محل ثقة – وهذه الحاجة يجب أشباعها سواء كان الله موجوداً ام لا. لكن هل من المُمكن أن يكون من ألأفضل أن نملأ تلك الفجوة بالله و ليس بشئ آخر يجعلنا حالة أفضل؟ علم ربما؟ فن؟ صداقة؟ إنسانية؟ حُبّ الحياة في العالم الحقيقي بدون الحاجة للأيمان بحياة أخرى خلف القبر؟ حُبّ الطبيعة أو ماسماه عالم الحشرات العظيم أي. أو. ويلسون بـــ**(بيوفيليا)**.[1]

خلال عصور مختلفة لعب الدين اربعة ادوار رئيسية في حياة الأنسان وهي: تفسير و حث و عزاء و الهام. تأريخياً فقد طمح الدين لتفسير و جودنا و الطبيعة من حولنا و الكون الذي وجدنا أنفسنا بهِ. دورهُ هذا في ايامنا هذه قد تولاه العِلمْ بشكل كامل, و قد تعرضت لتلك الفكرة في الفصل الرابع. أما بالنسبة للحث فما أعنيه هو تلك التعاليم الأخلاقية لما يفترض ان نعيش وفقاً لها, وقد غطيت ذلك في الفصل السادس و السابع. حتى الآن لم أتناول موضوعي العزاء و الألهام, و في هذا الفصل الاخير سوف نتعرض لهما بشكل وجيز. و كتمهيد للعزاء نفسه, أُريد أن ابدأ بظاهرة طفولية تسمى بـــ(الصديق المُتخيل) و التي بإعتقادي لها علاقة مباشرة بالأيمان الديني.

بينكر

في أعتقادي أن كريستوفر روبين ما كان ليصدق بأن صغير الخنزير بيغليت و الدبدوب بووه (شخصيات كارتونية) تكلما معهُ. و لكن هل كان وضع بينكر مُختلفاً؟

بينكر – هذا ما ادعوه – هو سري الكبير
بينكر هو السبب في أنني لا أشعر بالوحدة أبداً
لو جلست على السلالم أو لعبت على السرير
أو أينما ذهبت, فبينكر سيكون معي
نعم... أبي ذكي, انه من نوع الرجال الاذكياء
و أمي هي ألأفضل منذ بداية العالم
و نانا هي نانا و أنا أناديها نان
و لكنهم جميعا لا يرون بينكر
بينكر يتكلم دائما, لاني أعلمه الكلام
بعض الاحيان نتكلم بشكل مُضحك كالصرير
و بعض الاحيان يصرخ بزمجرة...
ويجب أن اساعده لان حنجرته تؤلمه
نعم... ابي ذكي, انه من نوع الرجال الاذكياء
وامي تعرف كُل ما يمكن للمرء معرفتهُ
ونانا هي نانا و أنا أناديها نان
و لكنهم لا يعرفون بينكر
بينكر شجاع كالاسد عندما يركض في الحديقة
بينكر شجاع كالنمر عندما يستلقي في الظلام
بينكر شجاع كالفيل و أبدا ... أبدا لايبكي
إلا (مثل الاخرين) عندما يدخل الصابون في عينيه...
نعم... أبي هو أبي ... أنه من النوع الابوي من الرجال
وامي هي امي ... كما تستطيع الامهات ان تكون
ونانا هي نانا ... و أنا أناديها نان
و لكنهم لايحبون بينكر
بينكر ليس طماعا, و لكنه يحب كل شئ يؤكل
لهذا فعلي أن اقول للناس عندما يعطوني قطع الحلوى

"آه... بينكر يريد أيضاً, فهل يمكن أن تعطيني اثنين؟"
و بعد ذلك آكل أنا نيابة عنهُ "لأن أسنانهُ جديدة"
حسنا, أنا أحُبّ ابي ... و لكنه لايملك الوقت للعب
و أحُبّ امي كثيراً... و لكنها مشغولة بعض الاحيان
و عادة أنا في خلاف مع نانا عندما تريد تمشيط شعري بالفرشاة
و لكن بينكر دائما بينكر, و دائماً موجود معي
أ. أ. ميلن, من قصيدة, **الآن أصبحنا ستة**

هل ظاهرة الصديق المُتخيل وهم أكبر, من صنف مُختلف عن خيال الاطفال العادي؟ أن تجربتي بهذا الصدد لن تُساعد كثيراً هنا. و كالكثير من الاهل, فقد قامت أمي بتدوين كل عباراتي الطفولية. بأستثناء بعض الالعاب التقمصية (أنا الان هو الرجل على القمر... أقود السيارة... و أنا البابلي) فمن الواضح أنني كنت مِن مُعجبي التقمص بالدرجة الثانية (أنا الآن بومة تتظاهر بأنها ناعورة) و التي ممكن أسقاطها على (أنا الان صبي صغير يتظاهر بأنه ريتشارد). لم أؤمن على الاطلاق بأني أحد تلك الأشياء و أعتقد أن الحال نفسه في أغلب العاب الصبيان التقمصية. و لكن لم يكن لدي بينكر. وفقاً لأعترافات أؤلئك البالغين عن أصدقاء طفولتهم المتخيلين فإن بعض هؤلاء الاطفال الطبيعيين على الاقل كان مؤمناً حقا بأن لديه صديقاً خيالياً, و في بعض الاحيان, يرونهم كهلوسة حقيقية و واضحة. أشتبه بأن هذهِ الظاهرة الطفولية يمكن أن تكون نموذجا جيداً لفهم الأيمان التوحيدي لدى البالغين. لا أعرف إذا ما كان علماء النفس قد درسوا تلك الظاهرة من وجهة النظر تلك, و لكن بحثا كهذا يستحق التعمق فيه. رفيق و محل للثقة, بينكر لمدى الحياة: ذلك بدون شك أحد الادوار التي يلعبها الله – أنها الفجوة التي ستبقى فارغة اذا ما أختفى الله.

طفلٌ آخر, فتاة, لديها "رجل صغير بنفسجي", و الذي كانَ حقيقياً و مرئي بالنسبة لها. ويظهر بلمعة خاطفة في الهواء مع أصوات رنانة. يزورها بإنتظام و خصوصاً عندما تشعر بالوحدة و بتواتر يقل مع كبرها في السن. في أحد الايام و قبل أن تذهب للروضة, الرجل الصغير البنفسجي أتي اليها, مسبوقا بالصوت الرنان, ليعلن لها بأنه لن يزورها بعد الآن. أحزنها ذلك, و لكن الرجل البنفسجي قال لها بأنها تكبر الآن و لن تحتاج اليه في المستقبل.

الآن عليه تركها ليتمكن من الأهتمام بأطفال آخرين. و وعدها بأن سيعود اليها في حال حاجتها اليه بشكل ضروري فعلاً. و قد عاد اليها, بعد عدة أعوام في حُلم, عندما كان لديها مشاكل شخصية تتعلق بما تريد أن تفعل في حياتها. حيث فُتح باب غرفة نومها و ظهرت عربة مُحملة بالكتب يدفعها... الرجل البنفسجي الصغير. فسرت ذلك كنصيحة بأن عليها أن تبدأ بالدراسة, نصيحة أخذت بها و حكمت بانها جيدة فيما بعد. القصة تدفعني لذرف الدموع و هي أكثر ما نستطيع الاقتراب لتفهم دور المواساة و النصح للأله المُتخيل. شخصية تبدو حقيقية جداً لطفل و تعطيه راحة حقيقية و نصائح جيدة. بل ربما أفضل من ذلك: الصديق الخيالي – و الأله الخيالي – يملكان كل الوقت و الصبر لتكريس كُل أنتباههم لمن يعاني من صعوبات. و هما أرخص بكثير من المُعالجين النفسيين أو المُستشارين المحترفين.

هل تطورت ألآلِهة كناصحة و مواسية من هذه الظاهرة, كصنف من "البيدومورفوس" النفسي؟ البيدومورفوس هو أستمرار الشخصية الطفولية لما بعد البلوغ. الكلاب البيكينية لها تلك الخاصية, فالبالغين منها يشبهون الجراء. ذلك أحد الانماط المعروفة من تأريخ التطور, و مقبول بشكل واسع كنمط مهم يفسر بعض الصفات الأنسانية كالجبين المُنتفخ و الحنك الضيق عند الأنسان. التطوريون وصفونا كقرود يافعة و ذلك صحيح بالتأكيد لأن أحداث الشمبانزي و الغوريلا تشبه الأنسان بكثير مما تفعله كبارها. هل يمكن أن يكون الدين قد تطور بالاصل من تأجيلات متدرجة عبر الاجيال, بداية من النقطة التي يترك فيها الاطفال "بينكراتهم". تماما كما تباطأنا نحن من خلال التطور في تسطيح جبهاتها و أظهار النتوءآت في أحناكنا؟

و كي نكون موضوعيين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأحتمال المعاكس. عوضاً عن أن يتطور ألإله من سلفهِ بينكر, فهل يمكن أن يكون بينكر قد تطور من سلفهِ الأله؟ يبدو ذلك أقل احتمالاً بالنسبة لي. لقد دفعني للتفكير بذلك عندما كنت اقرأ للطبيب النفس ألأمريَكي جوليان جاينس في كتابهِ **(أصل الوعي في العقل ذو المزدوج)** كتاب غريب كما ينبئ عنوانه عنه. أحد تلك الكتب التي هي أما نفايات بكاملها أو أنتاج لعبقري. و لاشئ بينهما!. ربما الاحتمال الاول لكنني لا أريد الرهان عليه.

لاحظ جاينس بأن أكثر الناس يدركون عملياتهم الفكرية كنوع من المخاطبة بين "الأنا" و نصير داخلي آخر في الرأس. اليوم نعلم بأن كلا "الصوتين" يعودان لنا, و عندما لانعرف ذلك فإننا نعامل على أننا مرضى نفسيين. حدث ذلك لفترة وجيزة مع أيفلين ووف. حيث قال لصديق بصورة مباشرة: أنا لم أرك منذ فترة طويلة و لكني أيضاً لم اقابل الكثير من الناس لانني – هل تعلم؟ – كنت مجنونا لفترة" بعد شفائه كتب ووف رواية **(محنة جلبرت بينفولد)** حيث يصف فيها فترة الهلوسة و الأصوات التي سمعها في رأسهِ.

جاينس يقترح نظريتهُ بأنه في وقت ما قبل 1000 ق. م. لم يكن الناس مُنتبهين لوجود الصوت ألآخر –نفس الصوت الذي سمعه جلبرت بينفولد– يأتي من الشخص نفسه. بل أنهم تصوروا بأنه كان صوت الاله: أبولو مثلاً أو عشتار أو يهوه أو أغلب الظن, إله محلي منزلي, يعطي نصائحاً أو أوامراً. جاينس أستطاع تحديد منطقة صوت ألآلِهة في القسم المعاكس للقسم المتحكم بالقدرة على سماع الصوت المسموع. أن القضاء على النفسية الثنائية, وفقاً لجاينس, هو تحول تأريخي. أنهُ ذلك المفصل الزمني عندما عرف البشر بأن الاصوات التي تبدو خارجية هي في الحقيقة داخلية. جاينس يذهب حتى لأبعد من ذلك بتحديد أن الفترة الزمنية لذلك الحدث التأريخي هي نفسها الفترة التي بدأ فيها وعي الأنسان بالبزوغ.

يوجد مخطوط مصري قديم عن ألإله الخالق بتاح و التي تصف الالهة المُختلفة الاخرى كأوجه مُختلفة لــ"صوت" أو "لسان" بتاح. الترجمة العصرية رفضت كلمة "صوت" واستبدلتها بمفاهيم مجسمة لعقل بتاح. جاينس رفض تلك القراءة المتكلفة و فضل أن يأخذ المعنى الحرفي بشكل جدي. الالهة كانت هلوسات صوتية تتكلم داخل رأس الأنسان. يذهب جانيس بإقتراحاته لأبعد من ذلك بأن الآلهة تطورت من ذكريات الملوك الميتين و الذين بشكل او بآخر لايزالون يسيطرون من خلال الاصوات المتخيلة في رؤوس أتباعهم. بغض النظر عن كونك تجد لذلك أي مصداقية أو لا, فإن كتاب جاينس مُثير للفضول بشكل كاف ليستحق الذكر في كتاب عن الدين.

والآن لنتحول الى أمكانية الأستعارة من كتاب جاينس لبناء نظرية حول أن الالهة و أصدقاء الطفولة الخياليين يسلكون نفس المنحى التطوري, لكن على

العكس من نظرية البيدومورفوس. نستطيع تلخيصها بأن تلاشي النفسية الثنائية لم يحصل بصورة فجائية بل تطورت بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عند تلك اللحظة حيث الهلوسات الصوتية و الرؤى تم تجاهلها كأشياء غير حقيقية. بشكل يعاكس لفرضية البيدومورفوس, الآلهة المتخيلة أختفت من عقول الكبار أولاً و بدأت بالاختفاء في فترات ابكر و ابكر وصولاً للطفولة, حتى لم يبقى منها اليوم الا ظواهر مثل بينكر أو الرجل النفسجي الصغير. المُشكلة في هذهِ الفرضية بأنها لاتفسر بقاء ألإله عند البالغين في يومنا هذا.

ربما كان من ألأفضل أن لانعامل الآلهة كأسلاف لبينكر, أو العكس بالعكس, لكن أن نعتبر كلاهما كأعراض جانبية لنفس الظاهرة النفسية. الآلهة و الاصدقاء الخياليين لديهما القدرة على تحقيق الطمأنينة و اعطاء مساحة واسعة لتجربة أفكارنا الجديدة. و بهذا لانكون قد أبتعدنا كثيرا عن الفصل الخامس و الأعراض الجانبية لنظرية تطور الدين.

العزاء

حتى لو لم يكن موجوداً. كما اشرت سابقاً, فإن دينيت في كتابهِ **(كسر التعويذة)** يفرق بين الأيمان بالاله و الأيمان بالأيمان, ذلك النوع من الأيمان المرغوب أن نؤمن به حتى لو كان الأيمان بحد ذاته خاطئا: " أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي" (مرقس 24:9). يتم حث المؤمنين لترديد أيمانهم, بغض النظر عن اقتناعهم بهِ أم لا. ربما لو كررت شيئا بشكل كاف, فإنك ستنجح بإقتناع نفسك بأنه حقيقي. و أعتقد أننا جميعا نعرف البعض ممن يبتهجون بالأيمان الديني و يرفضون أي هجوم عليه بينما يعترفون بتردد بأنهم لايمتلكونه أنفسهم. لقد دهشت أنا شخصياً عندما أكتشفت كتاب من الطراز الاول لبطلي الشخصي بيتر ميداور **(حدود العلم)**, من أصدار جامعة أوكسفورد, 1984, ص96: "أنا أأسف لأنني لا أؤمن بالله ولا بالأجوبة الدينية بشكل عام, لأنني مقتنع بأنه هذا كان ليعطيني الرضا و العزاء للكثير من المحتاجين لذلك, في حال كان من المُمكن الكشف عن بعض الاسباب العلمية او الفلسفية الناجعة للأيمان بالله".

مُنذ قرآئتي لوجهة نظر دينيت, بدأت أجد سبباً لأستخدامها مرة تلو الاخرى. بالكاد أكون مُبالغا عندما أقول بأن غالبية المُلحِدين الذين أعرفهم يُخفون إلحادهم خلف واجهة دينية. هم أنفسهم لايؤمنون بأي شئ خارق و لكنهم يحتفظون برقعة ضبابة من الأيمان اللاعقلاني. يؤمنون بالأيمان. أنه لمن المذهل عدد البشر الذين لايستطيعون التمييز بين (س شيء حقيقي) و (أيمان البشر بكون س حقيقي هو أمر مرغوب). ربما هم أنفسهم لاينتمون للفئة التي تقع بهذا الخطأ المنطقي و لكنهم يعتبرون الحقيقة غير ذات أهمية مقارنة بالمشاعر الأنسانية. لا أُريد الانتقاص من المشاعر الأنسانية. لكن لنكن صريحين هنا فيما نتكلم عنه هنا: هل نتحدث عن المشاعر أم الحقائق. من المُحتمل أن كلاهما مهمان لكنهما ليسا نفس الشئ.

على أي حال فإن فرضيتي مبالغ فيها بل و خاطئة. لا أملك أي أدلة على أن المُلحِدين لديهم أي ميول عامة نحو البؤس أو قلق ملئ بالندم. بعض المُلحِدين سعداء. آخرين بؤساء. وبصورة مُماثلة, فإن بعض المسيحيين, اليهود, المسلمين, الهندوس و البوذيين تعساء بينما آخرين منهم سعداء. ربما تكون هُناكَ دلائل أحصائية عن العلاقة بين السعادة و الأيمان (أو عدمه) و لكني أشك بأن هُناكَ تأثير قوي بأتجاه ما أو آخر. أنا أجد أن السؤآل هو عما إذا

كان هُناكَ سبباً ما كافي للشعور بالاكتئاب لو عشنا بدون الله. بل على العكس سأنهي هذا الكتاب بالمُحاججة بأنهُ من السهل أن نصرح بأنه من الممكن لأحدنا أن يعيش حياة سعيدة و مفعمة بدون دين الخوارق. لكن أولاً علي أن أمر على الزعم القائل بأن الدين يعطينا العزاء.

العزاء, وفقاً للمعجم اللغوي, هو تخفيف الحزن أو القلق النفسي. سأقسم العزاء الى صنفين.

- أولا: العزاء المباشر المحسوس. عندما يعلق شخص على جبل بارد في الليل فإنه ربما يجد العزاء في كلب السانتبرنارد الكبير, ولن ننسى بالطبع برميل الكونياك المُعلق حول رقبته. طفل يبكي يمكن أن يُعزى بضمة من سواعد قوية و بكلمات هادئة تهمس في أذنهُ.
- ثانيا: العزاء بإكتشاف واقع لم يكن يُحسب لهُ حِساب سابقاً أو أكتشاف طريقة جديدة للنظر الى واقع موجود. أمرأة قُتل زوجها في الحرب ربما تشعر ببعض العزاء عندما تعرف بأنها حامل بطفله أو بأنه مات كبطل. بإمكاننا أن نجد العزاء بالعثور على طريقة تفكير جديدة بموضوع ما. يشير أحد الفلاسفة بأنه لاشي يستحق الذكر يحصل عندما يموت أنسان كبير في السن. فالطفل الذي كان هو سابقا قد مات منذ فترة طويلة, و ليس بسبب توقفه عن الحياة فجأة بل بالبلوغ. أن كُل واحد من أعمار شكسبير السبع "يموت" بأنتقالهِ ببطء من مرحلة لأخرى. من وجهة النظر هذهِ فإن تلاشي الرجل العجوز لايختلف كثيراً عن "موتاته" البطيئة خلال حياته.[1] الشخص الذي يكتئب من فكرة موتهِ ربما يجد العزاء في وجهة النظر الجديدة هذهِ. و ربما لا. لكن هذا مثال فقط عن قدرة العزاء بالتأمل. أما طريقة مارك توين بأستبعاد الخوف من الموت فهي شئ آخر:"انا لاخاف الموت. لقد كنت ميتاً لمليارات السنين قبل أن ألد ولم يسبب لي ذلك أية حرج". ذلك البيان المُختصر لايغير شيئاً من الواقع بحتمية الموت. لكنه يعطينا طريقة جديدة لرؤية تلك الحتمية و ربما يكون فيها بعض العزاء. توماس جيفرسون أيضا لم يكن يخاف الموت ولم يكن يؤمن بأي نوع من حياة ما بعد الموت حسب ما

1. حسبما أتذكر فأن فيلسوف جامعة أوكسفورد ديريك بارفيت قام بعرض وجهة النظر هذه. السبب وراء أنني لم أبحث في مصدر هذه المقولة هو أنني أستخدمها فقط كمثال جانبي عن عزاء الفلسفة.

يرويه كريستوفر هيتشنز في مذكراته: "عندما بدأت حياتهُ بالغروب كتب جيفرسون أكثر من مرة لأصدقائه بأنه يواجه النهاية الحتمية بدون أي أمل أو خوف. هذا يؤكد لنا بصورة غير قابلة للشك بانه لم يكن مسيحياً."

الآن فربما الفكر المتين جاهز لتصريح بيرتراند راسل الصارخ. في أطروحته عام 1925 "ما أؤمن به":

> أؤمن بأنني عندما سأموت فإنني سأتعفن, و لن يبقى شئ مني. لستُ شاباً و لازلت أحُب الحياة. لكن علي أن أزدري الارتعاش من رعب فكرة الزوال. السعادة بحد ذاتها سعادة حقيقية لأن لها نهاية, و لايفقد الحُبّ أو الفكر قيمتهُ بسبب عدم دوامه. الكثيرين من الرجال وقفوا بفخر مرفوعين الرأس على المشنقة, هذا الفخر ذاته يُرشدنا لمكانة الأنسان في الكون. حتى عندما بدأنا نرتجف أمام نوافذ العِلمْ المفتوحة بعد الطمأنيية الدافئة للأساطير الأنسانية التقليدية, فإن هذا الهواء النقي يمنحنا قوة و الفضائات اللامتناهية لها عظمتها الذاتية.

لقد تأثرت كثيرا بأطروحة راسل عندما قرأتها في مكتبة المدرسة في عمر السادسة عشر, لكنني نسيتها. من الممكن أنني لاشعورياً بجلتُ راسل (ولاشعورياً بجلتُ دارون) عندما كتبت (**القسيس الشيطاني**) عام 2003.

> هناك شيئ أكثر من مجرد العظمة في تلك النظرة للحياة, رغم ما تبدو عليه من كئآبة و برود فهي غطاء واقي من الجهل المريح. هُناكَ شئ مُنعش بعمق بالوقوف منتصباً وجها لوجه مع ريح الحكمة القوية: ييتس "الريح التي تعصف عبر ممرات النجوم".

كيف يمكن أن يقارن الدين مع العِلمْ مثلاً في تأمين هذان النوعان من العزاء؟ لننظر الى الصنف الأول, فمِن المعقول جدا بأن ذراع الله القوية و حتى ولو كانت خيالية تماماً, تستطيع العزاء بنفس طريقة ذراعي صديق, أو كلب

السانتبرنارد مع برميل الكونياك حول عنقه. لكن بالطبع يمكن للطب العلمي أن يعطي عزاءٍ و بشكل عام أكثر فعالية من الكونياك.

لننتقل الآن للنوع الثاني من العزاء فمِن السهل الأعتقاد بأن الدين يمكن أن يكون فعالاً بشكل كبير. الناس الواقعون في كوارث عظيمة يقولون غالِباً بأنهم حصلوا على العزاء بالتفكير بأن ذلك كله جزء من المخطط الالهي الأعظم. و بأن شيئاً جيداً سيأتي من ذلك عندما يحين الوقت. بالنسبة لمن يخاف الموت فإن الأيمان بأن يمتلك روحاً لاتفنى يمكن أن يكون له عزاء, إلا إذا كان يؤمن بأنه سيذهب للجحيم أو عذاب القبر. المُعتقدات الكاذبة يمكن أن تكون غنية بالعزاء تماماً كالحقيقة حتى اللحظة التي ينجلي فيها الوهم. هذا ينطبق على المُعتقدات غير الدينية أيضاً. أن شخصاً مصاباً بسرطان مُميت ربما يتعزى بكذبة من طبيب يقول لهُ بأنه قد شفي, تماما كشخص قيل له بأنه شفي بشكل صادق. وألايمان القلبي الصادق بحياة مابعد الموت لهُ من المناعة ضد انجلاء الوهم أكثر من الطبيب الكاذب. أن كذبة الطبيب تبقى فعالة حتى تُصبح أعراض المرض غير قابلة للشك. لكن المؤمن بحياة مابعد الموت ليس لن ينجلي الوهم عنهُ أبداً.

أستطلاعات الرأي تظهر بأن 95% من الشعب ألأمريكي يؤمنون بأنهم سيقومون من موتهم. بغض النظر عن كل الأستشهاديين الطموحين, لا أمتلك تحاشي سوآلي عما هو عدد الأفراد بين من يزعمون ذلك ذات الموقف الديني المتحضر يؤمنون به فعلاً من صميم قلبهم. لو كانوا فعلا صادقين, الا يجب عليهم جميعا أن يتصرفوا مثل رئيس الدير في آمبلفورث؟ عندما قال له الكاردينال بازل هيوم بأنه يحتضر, شعر رئيس الدير بالفرح لأجله و قال: "مبروك! أنها أخبار سارة فعلاً, كم كنت أتمنى أن أرافقك".[1] رئيس الدير على ما يبدو كان مؤمناً صادقاً. لكن كون قصته نادرة و غير متوقعة هو السبب الذي يجعلها مفارقة تشد أنتباهانا لدرجة الضحك, بطريقة مشابهة للصورة الساخرة التي تظهر فيها أمرأة عارية تحمل يافطة "مارس الحُبّ لا الحرب", و بجانبها رجل يقول لنفسه "هذهِ ما أدعوه حقاً صراحة!". لماذا لا يتصرف كُل المسيحيين و المُسلمين بطريقة رئيس الدير عندما يسمعون بأن صديقاً قد توفي؟ عندما يقول طبيب لأمرأة مؤمنة بأن لها بضعة أشهر فقط

1. HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/L/HI/SPECIAL_REPORT/1999/06/99/CARDINAL_HUME_FUNERAL/376263.STM.

في الحياة. لماذا لا تضيئ بالفرح و اللهفة المُفرحة, كما لو كانت قد حصلت على اجازة في سيشيل بالسحبة؟ "لا أستطيع الانتظار". لماذا لايعطيها زوارها رسائل لتوصلها لمن رحلوا قبلها؟ "قولي لعمي الحبيب عندما تلتقينه".

لماذا لايتكلم المؤمنون بتلك الطريقة عندما يكونون في حضرة أنسان يحتضر؟ هل لأنهم لايؤمنون بتلك الامور لكنهم يتظاهرون بالأيمان بها؟ أو أنهم يؤمنون بذلك و لكنهم يخافون الموت نفسه. و لسبب وجيه, لأن جنسنا هو الجنس الوحيدة التي لايسمح لها بالذهاب للبيطري ليضع بدون لمعاناتهِ بدون ألم. لكن في تلك الحالة, لماذا يأتي الأعتراض الاكبر على الموت الرحيم و الانتحار من المتدينين؟ في نموذج رئيس الدير للموت فسيكون من المتوقع بأن يكون المُتدينون هم الأقل تعلقاً بالحياة الارضية؟ لكن بالرغم من ذلك فإنك عندما تقابل شخصاً معارضاً بشكل عاطفي لموضوع الموت الرحيم أو المساعدة على الموت, فإنك تستطيع المراهنة بكمية كبيرة من المال على كونهُ مُتديناً. السبب الرسمي يمكن أن يكون بأن كل أشكال القتل خطيئة. ولكن لماذا تعتبرها خطيئة إذا كنت تعتقد بصدق بأنك تُسارع برحلة الشخص هذا الى الجنة؟

أما موقفي من المساعدة على الموت فإنه مشتق من ملاحظات مارك توين التي أقتبستها أعلاه. الموت لايختلف عن عدم الولادة – سأكون تماما كما كنت في أيام وليم الفاتح أو زمن الديناصورات أو التريلوبايت. ليس هُناكَ ما أخافه في ذلك. لكن تجربة الموت بحد ذاتها يمكن, و تبعا لحظنا, أن تكون مؤلمة و غير سارة– تجربة من النوع الذي أصبحنا مُعتادين بالحماية منه بالتخدير العام, مثل أستئصال الزائدة الدودية. لو كان حيوانك الاليف يتألم محتضراً فسيتم أتهامك بقسوة القلب إذا لم تأخذهُ للبيطري ليعطيهِ مُخدراً عاماً لايستيقظ منه أبداً. لكن عندما يمارس طبيبك نفس العلمية الرحيمة عليك و أنت تعاني آلآم الموت فهو يخاطر بأن يصبح مُلاحقا بتهمة القتل. عندما سأشرف على الموت, فإني أرغب بأن تطفأ حياتي تحت المُخدر العام, تماما كما لو كنت زائدة دودية مُلتهبة. لكن من ذا الذي له مثل هذا الحظ؟ لان حظي العاثر جعلني عضواً في جنس "الأنسان" عوضاً عن, على سبيل المثال, كانيس فاميلياريس أو فليس كاتوس. هذا سيكون حالي على اية حالة ,

إلا في حال أنتَقالي لمكان أكثر تنوراً مثل سويسرا أو هولندا أو أوريغون, لماذا تلك الاماكن المتنورة نادرة جداً؟ غالباً بسبب النفوذ الديني.

ربما يقال, اليس هُناكَ فرق هام بين سماحك أستئصال الزائدة الدودية و انتزاع الحياة؟ في الحقيقة, لا, ليس هُناكَ فرق إذا ماكنت ستموت قريبا بأي حال من الاحوال. و ليس أذا كنت ممن لديهم أيمان صادق بحياة مابعد الموت. لو كان لديك هذا الأيمان, فإن الموت لايعدو عن كونه ممراً من هذهِ الحياة لحياة أخرى. لكن عندما يكون الممر مؤلماً, فأن الحاجة لعبوره بدون التخدير العام تبدو أشبه بالرغبة بأستئصال الزائدة الدودية بدون مخدر. أن اؤلئك الذين يرون في الموت نهاية بدلاً عن كونهِ ممراً هم الذين يجب عليهم بسذاجة أن يرفضوا الموت الرحيم و المساعدة على الموت. إلا أن اؤلئك هم الذين يدعمون كِلا الفكرتين.[1]

ماذا سنقوم بتفسير ما رصدتهُ كبيرة الممرضات التي أعرفها, ممن لديها خبرة طويلة بأدارة دار للعجزة حيث حالات الموت حدث يتكرر بشكل شبه متواصل؟ لقد لاحظت عبر السنين بأن الأفراد الاكثر خوفا من الموت هم المُتدينون. كنت أتمنى أن يتم تدعيم ملاحظاتها أحصائياً و لكن, على فرض بأنها على حق, فما الذي يحدث هنا؟ مهما كان ألأمرَ فإنه لايدعم قدرة الدين على طمأنة المحتضرين.[2] الكاثوليكيين ربما يخافون حياة البرزخ؟ الأسقف المُقدس هيوم ودع صديقاً بالكلمات التالية: "حسناً, وداعا اذن. أراك في البرزخ, على ما اعتقد." على ما أعتقد, هنا, تبدو لي كغمزة من الشك في تلك العينين اللطيفتين العجوزتين.

ان التلقين عن حياة البرزخ يكشف لنا لامعقولية بنية الفكر الديني. أنها شكل من أشكال دائرة أستقبال المهاجرين الألهية, غرفة أنتِظار لأرواح الموتى ذوي الذنوب التي لاتكفي لأرسالهم مباشرة للجحيم و لكنهم لايزالون مُحتاجون للتطهير و الفحص قبل أن يتم أرسالهم الى الجنة الخالية من

---

1. **في أستطلاع للرأي عن الموقف من الموت بين المُلحِدين ألأمريكان وجد مايلي: 50% أرادوا احتفاء طقسي بذكرآهم, 99% أيدوا فكرة المساعدة على الموت من قبل متخصصين للذين يرغبون بذلك. 75% أرادوها لأنفسهم, 100% رفضوا أي علاقة بالعاملين بالمستشفيات التي تروج للافكار الدينية. راجع** HTTP://NURSESTONER.COM/MYRESEARCH.HTML.

2. **لي صديق أسترالي طبع في رأسي عبارة رائعة حول ظاهرة زيادة التدين في خريف العمر: "هل تشتهد في الدراسة للأمتحان النهائي؟".**

الذنوب.[1] في العصور الوسطى قامت الكنسية ببيع صكوك الغفران مقابل المال. الناس كانت تدفع لتقليل عدد معين من الأيام في البرزخ, و الكنيسة و بكل دقة تقطع الانفاس أصدرت شهادات موقعة تحدد عدد الأيام التي تربحها بعد أن دفعت ثمنها المُحدد. الكنيسة الكاثوليكية مؤسسة قام ربحها ربما على كلمة "الحرام" التي أخترعت خصيصاً لأجلها. و من بين كُل الطرق و الحيل لقنص الأموال فإن بيع "صكوك الغفران" هو أحدى أبشع طرق النصب في التأريخ, له ما يقابله حديثاً على الانترنت وهو ما يعرف برسائل نيجيريا لكنه صكوك الغفران كان أكثر نجاحاً بكثير.

و حتى زمان متأخر كعام 1903, فإن البابا بيوس العاشر قام بتحديد جداول بعدد الأيام التي يستطيع كل من في التدرج الكنسي أعطائها للأعفاء من عذاب البرزخ: الكاردينالات مئتي يوم و رؤساء الأساقفة مئة يوم و الاساقفة خمسون يوما فقط. في هذا الوقت على اي حال, لم تبع صكوك الغفران بالمال مباشرة, فمنذ القرون الوسطى فلم يكن المال هو العملة الوحيدة التي يستطيع البشر دفعها للحصول على أجازة من البرزخ. كان بالأمكان الدفع من خِلال الصلوات أيضاً, الصلوات الشخصية خلال حياتك أو صلوات الاخرين لأجلك بعد موتك. الدعاء كان للبيع أيضاً. لو كان الفرد غنياً فبأستطاعهِ شراء الراحة لروحهِ الى الابد. الكُلية التي أعمل بها في أكسفورد, الكلية الجديدة, أنشأت عام 1379 من قبل أحد أعظم المُحسنين في ذلك القرن, ويليام ويكيهام الذي كان أسقف ونشستر. أن أسقفاً من العصور الوسطى يمكن أن يصبح بيل غيتس عصره و يتحكم بما يوازي وسائط المعلوماتية (نحو الله), و يحشد الأموال الطائلة. أبرشيته كانت واسعة بشكل غير عادي و قد أستعمل ويكيهام غناه و نفوذه لتأسيس مؤسستين تعليميتين عظيمتين, احداهما في وينشستر و الاخرى في أكسفورد. التعليم كان مهما لويكيهام, لكن و بما ثابت في كتب التأريخ في الكلية الجديدة الذي نشر عام 1979 في الذكرى الستمائة للتأسيس, بأن الهدف الرئيسي للكلية "كمعبد كبير حيث الصلوات تقرأ شفاعةٍ لروحهِ. لقد خصصت موارد لخدمة عشرة قساوسة و ثلاثة كُتاب صلوات و ستة عشر مرنماً, و أوصى بأنه في حالة

1. لا يجب الخلط بين حياة البرزخ و حياة النسيان, حيث يرسل الاطفال الرضع الغير معتمدين بعد موتهم. وكذلك الاطفال المجهضين؟ و المؤودين؟ حالياً فأن البابا بينيدكتوس السادس عشر قام بألغاء حياة النسيان. هل هذا يعني بأن أرواح كل الاطفال التي سقطت هناك فجأة بدأت تحلق في السموات؟ أم أنهم سيبقون في مكانهم بينما الموتى الجدد يتم العفو عنهم؟ أم أن جميع البابوات السابقين قد كانوا على خطأ بالرغم من عصمتهم؟ أنها هذه الاشياء التي يفترض علينا جميعاً (أحترامها).

ضعف موارد الكلية مالياً فسيكونوا هم الوحيدين الذين يبقى دخلهم ساريا". ويكيهام ترك الكلية الجديدة بأيدي الهيئة الادارية, مجموعة ذاتية الانتقاء و التي استمرت بالوجود لأكثر من ستمائة عام. يبدو أنه كان واثقاً بأننا سنستمر بالدعاء لروحه خلال هذه القرون.

الآن يوجد قس واحد[1] في الكلية و بدون أي كاتب صلوات, و هذا الشلال المتواصل من الصلوات على روح ويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلصت الى الى صلاتين في العام. فرقة الترنيم وحدها مازالت تحصد النجاحات بموسيقاها التي اقل ما يقال عنها ساحرة. حتى أنني أشعر ببعض الذنب, كأحد الاعضاء من الهيئة الادارية, لخيانة الامانة. بمفهوم زمانهِ فأن ويكيهام فعل بشكل مشابه لشخص غني في أيامنا من الذين يهبون الكثير من المال لمؤسسة تضمن له تجميد جسده و أبقاءه معزولاً عن الهزات الارضية, والحروب النووية, والاخطار الاخرى, حتى زمن لاحق حيث يكون الطب قد توصل الى لمعرفة كيفية أرجاعه و شفاء العلة التي كان يشكو منها. لكن هل نحن الاعضاء الاداريين اللاحقين على أتصال بالمؤسس؟ لو كانت الاجابة بنعم فنحن أذن في صحبة جيدة. المئات من المُحسنين ماتوا واثقين ممن وظفوهم و دفعوا لهم ليصلوا لهم في البرزخ. لا أستطيع تمالك نفسي من التساؤل كم من الاعمال الفنية و الكنوز المعمارية في القرون الوسطى بدأت كعربون مِن أجل الابدية و التي تمت خيانتها الان.

و لكن ما يسحرني فعلا في موضوع حياة البرزخ هو تلك **(الأدلة)** التي يعرضها رجال الدين لأثبات وجودها, دليل ضعيف بشكل صارخ لدرجة أن الجدية التي ترافق طرحهُ تجعلهُ يبدو كوميدياً. أن النص حول البرزخ في الموسوعة الكاثوليكية فيه جزء يسمى "البراهين". الدليل الاساسي على وجود البرزخ هو ما يلي. لو أن الموتى ذهبوا مباشرة للجنة أو لجهنم وفقاً لذنوبهم على الارض, لما كان هُناكَ أي معنى للصلاة و من أجلهم. "فلماذا الدعاء للميت, إذا لم يكن هُناكَ أيمان بأن قوة الدعاء تؤمن بعض العزاء لاولئك الذين لم تنقطع عنهم بعد رحمة الله". نحن فعلاً ندعوا للميت, أليس كذلك؟ و لهذا فأن البرزخ موجود, وإلا فإن صلواتنا ليس لها معنى! هذا هو مثال لما بكل جدية يتم القبول به كبرهان في الفكر الديني.

1. القس هي أمرأة – ماذا كان سيقول الاسقف ويليم؟

هذا الاسلوب الغير عادي و **العقيم** في الأستنتاج يتم أستخدامهُ بأطار أوسع في تدعيم الحجة العزائية. حيث يجب أن يكون هنالك إله, هكذا يبدأ البرهان, لأنه لو لم يكن هناك أله فإن الحياة ستكون خالية و عديمة المعنى كصحراء قاحلة من العبثية حيث لاشئ يعني شيئاً. كيف يمكن أن يكون من الضروري الأشارة ألى أن المنطق هنا يسقط عند الحاجز الاول؟ ربما الحياة فعلاً خالية. و ربما يكون صلواتنا للموتى عديمة المعنى. أفتراض العكس هو أفتراض للحقيقة تماماً للنتيجة التي نريد أثباتها. أن المقياس المنطقي هو برهان دائري واضح. الحياة لرجل ما بدون زوجهُ يُمكن أن تكون حقا لاتحتمل, عقيمة و فارغة و لكن ذلك لا يمنعها للأسف من أن تكون ميتة. هُناكَ شئ طفولي في الأفتراض بأن شخصاً آخر (الاهل في حالة الأطفال و الأله في حالة البالغين) لديه مسؤولية أعطاء حياتك معنى و هدف. يوجد أشخاص في اللحظة التي يلوون بها كاحلهم ينظرون حولهم لأيجاد شخص ليقاضوه. أحد ما يجب أن يكون مسؤولاً كي أشعر بالسعادة و أحد ما يجب أن يكون مذنباً عندما أتألم. هل هي الطفولية وراء تلك "الحاجة" لإله؟ هل سنعود الى بينكر مرة اخرى؟

وجهة النظر الناضجة على العكس من ذلك, وهي بأن حياتنا مفعمة المعنى, مليئة و رائعة بقدر ما نختار لها أن تكون. و نستطيع بكل تأكيد أن نجعلها رائعة جداً. لو أعطى العِلمْ العزاء من المسائل اللامادية فإن هذا يأخذني الى آخر ظاهرة سأتناولها هنا, الا وهي الالهام.

الالهام

أستعرض كم نحن محظوظين بأننا نعيش, بالمقارنة مع غالبية البشر الذين يمكن أن ينشأؤوا من قرعة الدي.أن.أي في الواقع لن يولدوا أطلاقاً. و لهؤلاء المحظوظين بشكل كاف ليكونوا هنا, أوضحت مدى قصر الحياة نسبياً كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كُل ما هو قبل و بعد تلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميت أو المستقبل المجهول. نحن محظوظون بشكل غير عادي لنجد انفسنا داخل بُقعة الضوء تلك مهما كان زمن وجودنا ضئيلاً تحت الشمس. و لو ضيعنا ثانية منه مُدعين الفراغ أو (كالأطفال) الملل, فأننا نرتكب ظلماً كبيراً بحق كل هؤلاء البليارات من الذين لن يحصلوا على الحياة أساساً؟ العديد من المُلحِدين قالوها بأفضل مما قلتها أنا, أن معرفتنا بأننا نملك حياة واحدة فقط يجعلها أعظمُ قيمة. أن وجهة النظر الألحادية بذلك داعمة للحياة و معززة لها, وبنفس الوقت لا تتلوث بالأوهام الشخصية أو أحلام التمني أو الأشفاق على الذات كأولائك الذين يتصورون بأن الحياة تدين لهم بشئ ما. تماماً كما آميلي ديكنسون كتبت:

لان كل لحظة فيها لا تعود
هذا ما يجعلها بهذه الروعة

لو أن موت الله سيترك خلفهُ فجوة فإن كل أمرؤٌ سيملؤها بطريقتهُ الخاصة. طريقتي الخاصة تحتوي على جرعة كبيرة من العلم, المسعى الأمين و المنتظم للوصول الى الحقيقة عن العالم الحقيقي. نظرتي لمساعي البشر في فهم الكون كمشروع لبناء النماذج. كُلٌ منا يبني في رأسهِ نموذجاً للعالم الذي نحن فيه. النموذج الاصغر للعالم هو النموذج الذي أحتاجهُ أسلافنا للبقاء في عالمهم. الانتخاب الطبيعي قام ببناء برنامج للمُحاكاه و طهرهُ من فيروساتهِ و جعله مُتأقلماً مع العالم المُحيط بأسلافنا في الاحراش الافريقية: عالم ثلاثي الأبعاد من عناصر متوسطة الحجم, تتحرك بسرعات متوسطة بالنسبة لبعضها. كعلاوة غير متوقعة فأن أدمغتنا أصبحت قوية بشكل كاف لأستيعاب نموذج لعالم أكثر غِنى من تلك البيئة المتوسطة النفعية التي أحتاجها أسلافنا من أجل البقاء. الفن و العلم أمثلة ساطعة على تلك العلاوة. دعوني أرسم صورة أخيرة لأيصال فكرة قوة العِلمْ في للأرتقاء بالوعي و منح السلام للنفس.

أم البراقع

المرئي. لكن تلسكوبات أخرى "ترى" من خلال موجات أكس أو الموجات الراديوية و تعطينا صوراً خصبة مُختلفة لسموات بديلة. بصورة أبسط فإن بعض الكاميرات مع فلتر مُناسب تستطيع "رؤية" الأشعة الفوق البنفسجية و أخذ صور لزهور تظهر مجالاً غريبا من الخطوط و البقع التي هي مرئية من قِبل, و تبدو كأنها "مصممة" لذلك, لعيون الحشرات و التي لا تستطيع أعيننا المجردة رؤيتها أبداً. عيون الحشرات لديها نافذة طيفية مُشابهة لعيوننا لكنها مُزاحة بشكل بسيط لأعلى البُرقع. الحشرات عمياء بالنسبة للضوء الأحمر و تبصر بصورة أكثر منا في الاشعة الفوق البنفسجية, في أعماق تلك "الحديقة الفوق البنفسجية".[1]

ان الاستعارة المجازية للنافذة الضيقة و التي تتسع لأستقبال طيف أكبر يمكن أستخدامها في مجالات علمية أخرى. نحنُ نعيش قريباً من المركز لمتحف عملاق من المقادير الضخمة و نرى العالم بأعضائنا الحسية و جهازنا العصبي و الذي بدوره لهُ القدرة لمعرفة و فهم مجال ضيق من المجاميع المتوسطة الحجم و المُتحركة بسرعات متوسطة. نشعر بالقدرة على الاستيعاب عندما يتعلق ألأمرَ بأشياء تتراوح مساحاتها بين بضعة كيلومترات (منظر من قمة الجبل) الى أعشار الميليمترات (رأس الدبوس). خارج هذا النطاق فأن حتى مُخيلتنا تقف مشلولة و حينها نحتاج لمُساعدة الاجهزة و الرياضيات, التي لحسن الحظ نستطيع تعلم أستعمالها. أن حيز الاحجام و المسافات أو السرعات التي تتعامل معها مُخيلتنا لاتعدو عن نطاق ضيق يقع في وسط حيز عملاق من المُمكن, بداية من المقاييس الذرية في الطرف الأصغر الى ألأحجام الفلكية الآينشتاينية في الطرف الأكبر.

ان مخيلتنا قاصرة بشكل مؤسف عن التعامل مع مسافات خارج النطاق المتوسط الذي ألفهُ أسلافنا. نحنُ نحاول تخيل الألكترون كأنهُ كرة صغيرة في مدار حول مجموعة من كريات أكبر هي البروتونات و النيوترونات. لكنها ليست كذلك على الاطلاق. الألكترونات ليست كريات صغيرة, بل ليس كمثلها شئ نستطيع التشبيه بهِ. بل ليس من المؤكد حتى أن كلمة "شبه" تعني أي شئ عندما نحاول التلحيق من أفق الحقيقة البعيد هذا. مُخيلتنا ليست

1. **الحديقة الفوق بنفسجية: كان عنوان أحدى محاضراتي في الجمعية الملكية, و التي قامت البي بي سي ببثها في التلفزيون تحت أسم أكثر عمومية (النضوج في الكون). السلسة كلها بخمسة حلقات موجودة على قرص دي في دي و بالامكان شرائها على:** WWW.RICHARDDAWKINS.NET/HOME.

مُؤهلة بعد لأختراق هذا الوسط الكمي. لاشئ في هذا النطاق يتصرف بالطريقة التي تتصرف بها المادة في الوسط الذي تطورنا فيه و أعتقدنا بأن المادة يجب أن تتصرف بقوانينه. ولا نستطيع حتى التعامل مع الأشياء التي تسير بسُرع قريبة من سُرعة الضوء. حواسنا العامة تخذلنا, لأن هذه الحواس تطورت في عالم حيث لاشئ فيه يتحرك بسُرع عالية و ليس فيه أشياء صغيرة جداً أو كبيرة جداً.

في نهاية بحث شهير عن "العوالم الممكنة" كتب العالم البيولوجي العظيم جي بي أس هالدين: "شخصياً فأنا أشك بأن الكون ليس فقط أغربُ مما نعتقد, و أنما أغربُ مما نستطيع أن نتخيل... و أعتقد بأنه توجد أشياء أخرى في السماء و الارض أكثر بكثير مما حلمت بهِ فلسفة ما أو تقدر أن تحلم بهِ.

أن الشخص الذي أكتبُ هذا الكتاب لذكراه أعتاش على غرائب العلم التي كان يدفعها الى حدود الفكاهة. ما يلي مأخود من نفس الخطاب الأرتجالي كامبريدح عام 1998 الذي أقتبست منه سابقا في الفصل الاول: "أن الواقع بأننا نعيش في قعر بئر الجاذبية على سطح كوكب يغطيه غاز و يدور حول كرة نووية مُلتهبة على بعد تسعين مليون ميل, و أعتبارنا أن كل ذلك أمر طبيعي يجب أن يعطينا فكرة عن مدى أنحراف الاعتبارات لدينا". فبينما لعب كُتاب الخيال العلمي على ساحة الغرائب العِلمية لأيقاض فضولنا لهذا الغموض, أستعمل دوغلاس آدمز نفس الافكار لأضحاكنا (الذي قرأ كتابه دليل المسافر الى المجرة ربما يفكر بــ"عامل اللااحتمالات اللانهائية", مثلا). الضحك ربما يكون أفضل رد فعل على بعض الغرائب المُحيرة في الفيزياء الحديثة. البديل هو البكاء, أفكر بعض الاحيان.

الفيزياء الكمية, ذروة أنجازات الجهود العلمية للقرن العشرين, تعطينا تنبوءات دقيقة بشكل مدهش عن العالم الحقيقي. ريتشار فاينمان شبه دقتها في قياس المسافات, مثلاً قياس عرض أمريكا الشمالية, بدقة قياس عرض شعرة من رأس الأنسان. هذا النجاح في التنبؤ يجعل نظريات فيزياء الكم حقيقة بشكل ما, حقيقة كأي شئ نعرفهُ, حتى أكثر الوقائع الحسية العادية. بالرغم من ذلك فإن الافتراضات التي تتطلبها النظريات الكمية لاعطاء تلك الدقة في التنبؤ على درجة من الغرابة لدرجة أن فاينمان العظيم بذاته أجبر على

التصريح بالعبارة التالية (هناك العديد من الروايات عن تلك العبارة وما سأذكره هو التعبير الاكثر أناقة): "من يعتقد بأنه يفهم نظرية الكم... فهو لايفهم نظرية الكم". [1]

نظرية الكم غريبة جداً لدرجة أن الفيزياييين يلجأؤون لبعض "التفسيرات" المُتناقضة لها. و يلجأون هنا هي الكلمة الصحيحة. في كتابه **نسيج الحقيقة**, يلجأ دافيد دويتش التفسير القائل بــ"العوالم المتعددة" لنظرية الكم, ربما لان أسوأ ما يمكن أن نقوله عن هذا التفسير بانهُ تبذير غير مبرر. أنها تشترط وجود عدد كبير و متزايد بسرعة من الاكوان المتوازية و التي لا يُمكن لأحدها أكتشاف ألآخر الا من خلال المتنفس الضيق لتجارب الفيزياء الكمية. في بعض هذهِ الاكوان فأنا ميت منذ زمن, و في البعض الآخر فانت تمتلك شوارب خضر, وهكذا.

التفسير البديل الغير معقول الآخر هو "تفسير كوبنهاغن"– ليست تبذيراً و لكنهُ متناقض بشكل صارخ. ارفين شرودينغر سخر منها بمثاله الشهير عن القطة. حيث قطة شرودينغر محبوسة في علبة تحتوي على نظام قتل يقدحهُ حدث ميكانيكي كمي. قبل فتح العلبة فنحن لانعرف إذا ماكانت القطة ميتة ام لا. الاحساس العام لنا يحدثنا بأن القطة بداخل العلبة أما حية أو ميتة. تفسير كوبنهاغن يناقض الحس العام: حيث كل ما لدينا داخل العلبة قبل أن نفتح العلبة هو الاحتمالية. و في اللحظة التي نفتح بها العلبة, فان العامل الموجي يسقط لنقف حينها مع حدث واحد: القطة ميتة أو القطة حية. حتى لحظة فتح العلبة فأن القطة ليست بحية و ليست بميتة.

تفسير "العوالم المتعددة" لنفس الحدث هو أن القطة في بعض الاكوان ميتة و في البعض ألآخر حية. كِلا التفسيرين لا يرضيان الحس العام أو الحدس لدى الأنسان. الفيزيائيين المتمرسين لايأبهون بأي منهما. ما يهمهم هو بان الحسابات الرياضية تعمل و أن التنبؤات تؤكدها التجارب المعملية. الكثير منا يبدو متردداً للحاق بهم. نبدو و كأننا نحتاج الى تصور مرئي لما يحدث "حقيقةٍ". و أنا افهم بأن شرودينغر بالاصل قد عرض مسألة التجربة الفكرية للقطة بهدف أستعراض ما بدا له غير عقلانياً في تفسير كوبنهاغن.

---

1. هناك تعبير مشابه لنيلز بور "من لم يصعق لنظرية الكم فهو لم يفهمها بعد".

العالم البيولوجي لويس ولبريت يؤمن بأن غرابة الفيزياء المعاصرة ماهي الأ قمة من جبل الجليد الذي يختفي تحتها. العِلمْ بشكل عام, بعكس التكنولوجيا, يعارض الحس العام.[1] ولبرت يعطينا مثالهُ المُفضل: بأن عدد الجزيئات في كأس الماء اكثر من عدد كؤوس الماء في البحر". وبما أن للماء دورة على الارض ففي كُل مرة يشرب أحدنا فيها كأسا من الماء فأن جزيئاً واحِداً على الاقل قد مر في مثانة أوليفر كروموبل. بالطبع لايوجد شئ مميز فيما يخص كروموبل أو المثانات. ألم تتنفس الآن جزيئاً من النتروجين من الذي تنفسته الاغوانة الثالثة على يسار شجرة السيكاد الطويلة؟ ألست سعيدا لكونك تعيش في عالم حيث يمكن أطلاق تخمينات كهذه و لديك الملكات لمعرفة السبب؟ كذلك أمكانية تفسيرها للآخرين ليس كرأي أو أعتقاد فقط و لكن كواقع يُرغمون على تقبله عندما يفهمون وجهة النظر العقلانية لطرحك؟ ربما هذا ما قصده كارل ساغان عندما شرح الدافع لكتابة **الكون الملعون بالاشباح: العِلمْ كشمعة في الظلام**: "عدم تفسير العِلمْ يبدو لي شيئاً غير عقلاني. فعندما تقع في الحُبّ فإنك تود اخبار العالم كلهُ بذلك. هذا الكتاب هو أعتراف شخصي يعكس قصة الحُبّ الطويلة في حياتي للعلم".

التطور لأشكال الحياة المُعقدة, بل وجودها في كون يقبع تحت ظل قوانين فيزيائية, هو شيء مذهل بالروعة – هل يمكن أن يكون كذلك لو لم يكن الذهول شعوراً موجوداً فقط في الادمغة التي هي عبارة عن ناتج عن تلك العملية المذهلة. أذن, هُناكَ الحس الانساني حيث وجودنا لايجب أن يكون مذهلاً. أتمنى بأنني اتحدث بالنيابة عن أخوتي في الانسانية و أصر على أن ذلك, بالرغم من كُل شئ, مذهل للغاية.

تفكر بالموضوع. على كوكب واحد, ربما الوحيد في الكون, تتجمع جزيئات و التي بشكل طبيعي لاتأسس أي شئ معقد أكثر من قطعة صخر رمادية. تكتلات من هذه الجزيئات تتجمع بتعقيد هائل يجعلها قابلة للركض و القفز و السباحة و الطيران و الرؤية و السمع و التقاط و أكل قطع مُعقدة حية أخرى, في بعض الاحيان تستطيع التفكير و الشعور و الوقوع في حُبّ تجمعات مُعقدة أخرى من الجزيئات. نحن نفهم اليوم كيف أن كل هذا ممكناً, و لكن

---

1. ولبرت **(1992)**.

فقط منذ عام 1859. قبل ذلك كانت بالتأكيد تبدو غريبة جداً جداً. ألآن و الفضل لداروين, فإنها غريبة فقط. داروين أمسك بالنافذة الضيقة للبرقع وسحبها فاتحاً أياها تاركاً طوفان من المعرفة يتدفق, معرفة جديدة مثيرة للشغف, قوتها ترفع الروح الأنسانية لمستويات لا مثيل لها – الا ربما أكتشاف كوبرنيكوس بأن الارض ليست مركزاً للكون.

"قل لي": سأل فيلسوف القرن العشرين العظيم لودفيغ ويتغينشتاين صديقه "لماذا يقول الناس دائماً بأنهُ كان من الطبيعي للأنسان أن يفترض بأن الشمس تدور حول الارض وليس بأن الارض تدور؟" أجاب الصديق "ذلك حدث بالتأكيد لان الأمر يبدو و كأن الشمس تدور حول الأرض" فأجاب ويتغينشتاين مُصراً, "لكن, كيف كان يجب أن تبدو عليه الارض لتبدو و كأنها تدور؟" بعض الاحيان أقتبس هذهِ العبارة من ويتغينشتاين في محاضراتي و أتوقع أن يضحك المُستمعون, لكنهم بدلاً من ذلك يغرقون في صمت عميق.

في هذا العالم المحدود الذي تطورت فيهِ أدمغتنا يبدو معقولاً بصورة أكبر أن الأشياء الصغيرة تتحرك بينما الكبيرة تبدو و كأنها خلفية للحركة هذهِ. عندما تدور الأرض فإن الأشياء التي تبدو كبيرة لأنها قريبة مثل الجبال و الاشجار و الابنية و حتى الشوارع, كلها تتحرك بتزامن مع بعضها و مع المُلاحظ أيضاً, بحركة نسبية بالنسبة للأجرام السماوية مثل الشمس و النجوم. أن أدمغتنا التي تطورت تعطينا وهماً عن حركاتهم عوضاً عن الجبال و الاشجار على هذا السطح.

أود الآن أن أتابع الكلام عن النقطة أعلاه, عن أن الطريقة التي نرى بها العالم, و السبب الذي نشعر بسببه بأن بعض الأشياء سهلة الفهم بشكل حدسي و الاخرى صعبة هي أن أدمغتنا ذاتها ماسوى أعضاء تطورت: حواسيب داخلية تطورت لتُساعدنا على البقاء في العالم – سأستعمل مصطلح العالم المتوسط – حيث الأشياء المُهمة للبقاء لم تكن كبيرة أو صغيرة جداً, عالم كانت فيه الأشياء أما ساكنة أو تتحرك ببطء مقارنة بسرعة الضوء, و حيث كانت الاشياء ذات الاحتمالات الصغيرة تعتبر مستحيلة ببساطة. أن النافذة في برقعنا الفكري ضيقة جداً لأن أسلافنا لم يحتاجوا لنافذة أوسع لتساعدهم على البقاء.

العِلم علمنا, تماماً على العكس من حدسنا المتطور, بأن ما يبدو صلبا كالكريستال و الحجر يتالف في الحقيقة بشكل كلي تقريباً من الفراغ. ألصورة المألوفة لذلك بأن يتم تشبيه نواة الذرة بذبابة في مُنتصف ساحة كرة قدم. الذرة التالية لها تقع خارج هذا الملعب. هذا يعني بأن أكثف و أقسى و أصلب حجر في "الحقيقة" ماسوى فراغ تام على الاكثر, تنتشر فيه بعض الجزيئات البعيدة عن بعضها لدرجة أنهُ من المفترض أهمالها. لماذا أذن تبدو الصخرة صلبة و تعطينا الشعور بأنها منيعة الاختراق؟

لن أحاول تخيل كيف ستكون أجابة ويتغينشتاين على سؤالي هذا. لكن كعالم في التطور سأجيب بالشكل التالي. أن أدمغتنا تطورت لتساعد أجسامنا لأيجاد طريقها عبر العالم الذي هو على المستوى الذي تعمل به تلك الاجسام. لم نتطور للتجول في عالم الذرة. ولو كان ألأمرَ كذلك, فلربما كانت أدمغتنا قادرة على رؤية بأن الحجارة مليئة بالفراغ. الحجارة تبدو صلبة و قاسية لأيدينا لان أيدينا لاتستطيع أختراقها. وهذا لا علاقة لهُ بالمسافات التي تفصل بين الجزيئات التي تشكل المادة أو أحجامها. لكن له علاقة بحقول القوى الملازمة لتلك الجزيئات المتباعدة في تلك الأشياء "الصلبة". من المفيد لأدمغتنا أن تقوم **بأختراع** مُصطلحات مثل الصلابة و القسوة, لان ذلك يساعدنا على أن نحرك أجسامنا عبر عالم تكون فيه الاجسام – التي ندعوها بالصلبة – غير قادرة على أحتلال مكان غيرها.

الآن سنأخذ أستراحة قصيرة للراحة هنا مع قصة مضحكة, من كِتاب لجون رونسون تحت عنوان "**الرجل الذي يحدق بالعنزات**":

> هذهِ قصة حقيقية. في صيف عام 1983. الجنرال البرت ستوبلبين الثالث يجلس خلف مكتبه في البنتاغون و يُحدق بالحائط الذي تملأهُ النياشين العسكرية. أنها تعطي صورة مفصلة عن سيرتهُ العسكرية الطويلة و المُميزة. أنه رئيس المُخابرات العسكرية الاميريكية ولديه ستة عشر الف جندي تحت أمرته. ... يترك نظرتهُ تمر عبر تلك النياشين وصولاً للحائط ذاته. هُناكَ شئ يشعر بأن عليه أن يفعله حتى لو كانت الفكرة ذاتها تشعرهُ

بالرعب. يُفكر بالخيارات التي أمامه. يستطيع البقاء في مكتبهِ هذا أو أن يدخل المكتب المُجاور. هذهِ هي الخيارات التي يقف أمامها. لقد عقد العزم على فعل ذلك. سيدخل للمكتب المجاور. ينتَصِب واقفاً و يأخذ خطوة من خلف طاولة مكتبهِ و يبدأ بالمشي. قصدي هو, يفكر الجنرال, مم تتألف الذرة؟ فراغ! و أسرع الخطى. مم أتألف أنا؟ فكرَ ملياً. ذرات! بدأ بالهرولة تقريباً. و مما يتشكل معظم الحائط؟ يفكر ملياً. ذرات! كل ما علي هو أن أقوم بدمج هذهِ الفراغات... حينها صدمَ الجنرال أنفهُ بشدة على حائط مكتبهِ. اللعنة, لقد فشل الجنرال ستوبيلين بالذهاب للمكتب المجاور عبر الحائط. ما هو الخطأ الذي يعاني منه و الذي يجعلهُ عاجزاً عن فعلِ ذلك؟ ربما أن البريد المتراكم على مكتبه يجعلهُ أقل تركيزاً مما يتطلب لفعلِ ذلك. الجنرال متأكد تماماً بأن القدرة على أختراق الاشياء ستصبح يوماً ما سلاح عادي لجمع المعلومات الأستخبارية. و عند حدوث ذلك, أه, فأنه من الغباء الاعتقاد بأننا سنستيقظ لعالم تهددهُ الحروب. فمن هذا الذي سيتحرش بجيش قادر على فعلِ هذا؟

الجنرال ستوبيلين يتم وصفه بكل أستحقاق بأنهُ "**مُفكر غير عادي**" في موقع لمنظمة يديرها الآن مع زوجته بعد تقاعده.[1]

ولأننا تطورنا في العالم المتوسط فإننا نجد من السهولة و بشكل بديهي فهم أفكاراً مثل: "عندما يتحرك الجنرال بسرعة متوسطة و التي تتحرك بها أشياء أخرى في هذا العالم المتوسط و يصطدم بشئ جامد ينتمي للعالم المتوسط كحائط مثلا, فإن تقدمه يتوقف بأصطدام مؤلم" أدمغتنا ليست مُجهزة لتخيل كيف لو كنا نيوترونيون و نمرق عبر الحائط خلال الفجوات الواسعة التي "حقيقةٍ" يتشكل منها الحائط. ولا يستطيع فهمنا التعامل مع ما يحدث عندما تتحرك الأشياء بسرعات قريبة لسرعة الضوء.

الحدس الأنساني بدون مساعدة, تطور و تعلم في العالم المتوسط كما هو, بل يجد من الصعب التصديق بغاليليو عندما قال بأن قذيفة مدفع و ريشة

.1 .WWW.HEALTHFREEDOMUSA.ORG/ABOUTUS/PRESIDENT.SHTML

ستصلان سوية للارض عند وقوعهما من برج عال بشرط عدم وجود أحتكاك مع الهواء. ذلك لانهُ في العالم المتوسط يوجد أحتكاك بالهواء بصورة دائمة. لو تطورنا في الفراغ لتوقعنا أن تصل الريشة و قذيفة المدفع في نفس اللحظة. نحن كائنات تطورنا في العالم المتوسط و هذا يحد من قدراتنا التخيلية. لان النافذة الصغيرة في برقعنا تسمح لنا برؤية العالم المتوسط فقط, إلا أذا كنا موهوبين بشكل خاص أو متعلمين بشكل جيد.

هناك بعض الحاجات التي يجب علينا نحن الحيوانات أن نعايشها ليست في العالم المتوسط فقط, لكنها في العلم المجهري للذرات و الالكترونات أيضاً. الاشارات العصبية التي نفكر مِن خلالها و نعتمد عليها في تخيلاتنا تقع في العالم المجهري. لكن أسلافنا في الغابات لم يحتاجوا لعمل أي شئ بخصوص ذلك, لم يتخذوا ابداً قرارات من هذا النوع الذي يساعد أو يسهل على اتخاذها فهم العالم المجهري. لو أننا كنا بكتريا و نكافح بشكل دائم ضد حركات الجزيئات حولنا, سيكون ألأمرَ مختلفاً. لكننا المتوسطيون كبيرون جداً في الحجم لنلاحظ الحركة الصغيرة. بنفس الشكل فإن حياتنا محكومة بالجاذبية لكننا لانأبه تقريباً لقوة الشد السطحي المرهفة هذه. أن حشرة صغيرة ستلتزم بهذه الاولوية و لن تجد أن قوة الشد السطحي مرهفة مطلقاً.

ستيف غراند, في كتابهِ "**الخلق: الحياة و طريقة صناعتها**". يضرب الفأس على جذور فكرنا تعاملنا الدائم معهُ كمادة فقط. لدينا ميول للتفكير بأنهُ فقط "الأشياء" الصلبة هي أشياء "حقيقية". تردد الامواج الكهرومغناطيسية في الفراغ تبدو "غير حقيقية". عُلماء القرن التاسع عشر تخيلوا بأن الامواج يجب أن تكون أمواجاً تتحرك "في" وسط ما. ولم يكن هكذا وسط معروفاً لأحد, لذلك أخترعوا وسطاً و أطلقوا عليه أسم الاثير حامل الضوء. لكننا نجد من السهولة فهم المادة "الحقيقية" فقط لأن أسلافنا تطوروا للبقاء في العالم المتوسط, حيث للمادة مفهوم قابل للأستعمال.

من ناحية أخرى, حتى نحن الكائنات المتوسطة نستطيع أن نرى بأن الدوامة المائية هي "شئ" حقيقي تماماً كالحجارة, حتى لو كانت المادة في الدوامة تتغير بإستمرار. في الصحراء التنزانية و تحت ظل البركان المقدس لقبائل الماساي, توجد كومة هائلة من الرماد منذ الانفجار عام 1969. حيث قامت

الريح بأعادة تشكيلها. لكن الجميل في الأمر هو أنها "تتحرك" فيزيائياً. انها مايعرف بالبارشان (تلفظ باهكاهن). الكومة كلها تمشي عبر الصحراء بإتجاه الغرب و بسرعة حوالي 17 متراً في العام. أنها تحافظ على شكلها الهلالي و تزحف بإتجاه القرون. الريح تهب و تحمل الرمل عاليا و عندما تصل حبة الرمل للقمة تهبط الاسفل على المنزلق إلحاد داخل الهلال.

بالحقيقة و الواقع فحتى البارشان يبدو كـــ"شئ" أكثر من موجة. الموجة تبدو و كأنها تتحرك بشكل أفقي عبر البحر, لكن جزيئات الماء تتحرك بشكل عمودي. بنفس الشكل, فإن الامواج الصوتية تنتقل من المُتكلم للمستمع لكن جزيئات الهواء لاتفعل ذلك. لان ذلك سيصبح رياحاً و ليسَ صوتاً. وقد أشار ستيف غراند بأننا أشبه ما نكون بالامواج من أن نكون كـــ"أشياء" ثابتة. و دعى القراء للتفكير بــــ... :

> ... بذكرى من زمن الطفولة. شئ مما تتذكره بشكل واضح, شئ بإستطاعتك رؤيته و الأحساس به بل حتى الاحساس برأئحته ربما, كما لو أنك كنت هناك. فقد كنتَ هُناكَ في ذلك الوقت, اليس كذلك؟ وإلا فكيف يمكنك أن تتذكره؟ والان اليكم القنبلة المفاجئة: أنتَ لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من جسمك اليوم كانت هُناكَ عندما حصلت تلك إلحادثة... المادة تتنقل من مكان لآخر و تتجمع بشكل مؤقت لتشكلك. فمهما كنت, فإنك لستَ المادة التي تتكون منها. أذا لم تشعر بالقشعريرة في مؤخرة عنقك, فإقرأ هذا ثانية حتى يحصل ذلك, لانه هذا مهم.[1]

"الواقع" ليست كلمة نستطيع استخدامها ببساطة. لو أن للنيوترون دماغاً تطور من أسلاف نيوتريونية الحجم لقال بأن الصخور في "الواقع" تتكون على الغالب من فراغات. لدينا أدمغة تطورت في العالم المتوسط لأسلافنا الذين لم يستطيعوا المشي عبر الصخور و بالتالي فإن "الواقع" الذي نعرفهُ هو "الواقع" الذي تكون فيه الصخور صلبة. "الواقع" بالنسبة لحيوان ما هو ما يحتاجهُ دماغهُ لمساعدتهِ على البقاء. ولأن أجناس مختلفة من الكائنات تعيش في

---

1. ربما يشكك أحد بمدى مصداقية الحقيقة التي يتطرق لها غراند هنا, مثلاً فيما يتعلق بالعظام. لكن المعنى المقصود من هذه الفرضية بدون أي شك صادق. نحن أشبه بأمواج أكثر من كوننا أجسام مادية.

عوالم مُختلفة فسيكون لدينا بالمحصلة مجموعة كبيرة مُحيرة من "الواقعـــ"ات المُختلفة.

مانراه في العالم الحقيقي ليس العالم الحقيقي بدون مكياج و لكنه نموذج للعالم الحقيقي, منظم و منسق بمعلوماتنا الحسية – نموذج مبني بشكل مفيد للتعامل مع العالم الحقيقي. طبيعة هذا النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات. الحيوان الطائر يحتاج لعالم بنموذج مُختلف عن الحيوان الماشي أو الزاحف أو السابح. أن للمُفترس نموذج مُختلف عن الضحية و حتى لو كانت عوالمهم مُتقاطعة. دماغ القرد يجب أن يكون لهُ برنامج ثلاثي الابعاد في عالمه المليء بالاغصان. بينما دماغ حيوان البوتمان لايحتاج برنامج ثلاثي الابعاد, لانه يعيش على سطح المستنقعات في عالم ثنائي الابعاد. دماغ حيوان المول يستدعي برنامجا مُخصصا للتعامل مع عوالم ما تحت الارض. و جرذ المول العاري ربما كان له برنامج مشابه لحيوان المول. لكن السنجاب فألاحتمال الاكبر بأن لهُ برنامج أشبه ببرنامج القردة عن العالم الذي حوله على الرغم مِن أنه من القوارض كجرذ المول العاري.

لقد أستعرضت في كتابي, **صانع الساعات الاعمى** و غيرهُ بأن الوطاويط يمكن أن "ترى" الألوان بإذانها. نموذج العالم الذي يحتاجه لمساعدته في التوجه خلال العالم الثلاثي الابعاد لألتقاط الحشرات يجب أن يكون مُماثلا بالتأكيد للنموذج الذي تحتاجهُ الطيور لتنفيذ نفس العلمية. و الواقع بأن الوطواط يستعمل الصدى لتعديل المُتغيرات في نموذجهِ بينما يستعمل الطائر الضوء, هو فقط مسألة عرضية. شخصياً أعتقد بأن الوطواط يستخدم الألوان المفهومة مثل "الاحمر" و "الازرق" كرموز داخلية لأشياء ذات قيمة عالية بين أشكال الصدى المُختلفة, مثل التردد السمعي لسطح ما, تماما كما يفهم الطائر نفس الألوان كأشكال متمثلة بأمواج الضوء الطويلة و القصيرة. النقطة هنا هي أن طبيعة النماذج محكومة بكيفية أستعمالها و ليس بشعور نموذجي تجاهها. الدرس الذي نستقيه من الوطواط هو أن الشكل الداخلي العام للنموذج – على عكس المُتغيرات التي تتجدد دائما بسبب المتحسسات العصبية – لايعدو عن كونهِ تأقلم لطريقة الحيوان في العيش, تماماً كالجناح و الأرجل أو الذيل متأقلمين معهُ.

هالداين, في مقاله عن "العوالم المحتملة" و الذي أقتبست منهُ أعلاه, قال شيئاً مُماثلاً عن الحيوانات التي تسيطر حاسة الشم على عوالمها. كتب بأن الكلاب تستطيع التمييز بين نوعين مُتشابهين جداً من الحموض الدسمة – حمض الكابريليك وحمض الكابريوك – كل منهما تم تخفيفهُ بنسبة واحد الى مليون. الفرق الوحيد بين هذين الحمضين هو أن سلسلة كابريليك أطول من سلسة كابريوك بذرتي كربون فقط. هالداين أعتقد بأنه ربما كان من المُمكن للكلاب أن تصنف الحموض "حسب ترتيب وزنها الجزيئي" بناء على رائحتها, تماما كما أن الأنسان قادر على ترتيب أوتار البيانو بحسب اطوالها بناء على النغمات.

هناك حمض دسم آخر, كابريك, مُماثل للحمضين الاخرين, مع ذرتي كربون أضافيتين في أهم سلاسلها الجزيئية. و ربما يستطيع الكلب الذي لم يقابل حمض الكابريك من قبل أن يتخيل رائحتهُ تماماً كما نحن نستطيع أن نتخيل بوقاً يعزف نغمة أعلى من التي سمعناها مسبقاً. بالنسبة لي يبدو معقولاً جداً أفتراض بأن الكلب أو وحيد القرن يمكن أن يُعالجا مزيجاً من الروائح كما هو الحال في الموسيقى المُتناغمة. ربما يكون هُناكَ أختلافات. ربما ليست لحناً, لأن الألحان مبنية على نغمات تبدأ أو تنتهي مع بفوارق زمنية مُحددة, على عكس الروائح. ربما تستطيع الكلاب و وحيدي القرن أن تستوعب الروائح كالألوان. هذه الفكرة من المُمكن أن تكون هي نفسها فيما يخص الوطاويط.

مرة أخرى فإن الأشارات التي ندعوها بالالوان هي أدوات تستعملها أدمغتنا للتمييز بين الظواهر الهامة في العالم الخارجي. الألوان المفهومة – ما يدعوه الفلاسفة بـــ كواليا – ليس لها معنى ذاتي متصل بطول معين لموجة الضوء. بل أنها مجرد علامات مُتوفرة للدماغ عندما يبني على أساسها نموذجهُ للعالم الخارجي, و ذلك لخلق تمايزات و التي بدورها مهمة بشكل خاص للحيوان المعني بألأمرَ. في حالتنا, أو حالة الطير, فأنها تعني أختلاف طول الموجة الضوئية. في حالة الوطاويط, فأنا أفترضت, انها ربما تعني اختلاف الأسطح بإختلاف نوع موجة الصدى أو قوامها, رُبما حمراء بالنسبة للسطح اللامع و زرقاء بالنسبة للمخملي و خضراء للمادة الخشنة. و في حالة الكب أو وحيد القرن, فلماذا لاتكون رائحة؟ أن القدرة على تخيل عالم غريب كالذي

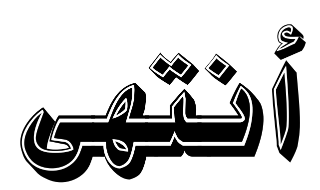
للوطاويط أو لوحيد القرن أو لعالم الزواحف أو جرذ المول أو عالم البكتريا أو الصراصير, هي واحدة من الهبات التي أعطانا العِلمْ أياها عندما يقوم بتمزيق ذلك القماش الاسود لبرقعنا و يدفعنا لنشاهد العالم الاكبر في الخارج و يجعلنا نبتهج بذلك.

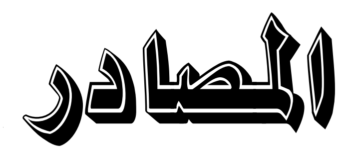
أن الاستعارة اللغوية عن العالم المتوسط – هذه المجموعة من الظواهر التي تسمح لنا فتحة البرقع الضيق برؤيتها – يمكن تطبيقها أيضاً على مجالات و "أطياف" أخرى. يمكننا أن نفترض سلماً قياساً من اللاأحتمالات, بنافذة ضيقة أيضاً تسمح لأمكانياتا الحدسية و التخليلة النفاذ خلالها. على أحدى أطراف ذلك السلم اللااحتمالي نجد أحداث ممكنة و التي ندعوها بالمستحيلة. المعجزات أحداث ذات لاأحتمالية عظيمة جداً. كأن يلوح تمثال السيدة العذارء لنا بيده. أن الذرات التي يتكون منها هذا النصب تتذبذب للامام و الخلف. ولأن عددها كبير جداً و لعدم وجود أتفاق مسبق على الحركة بإتجاه معين, فأن اليد تبقى ساكنة صخرية تماماً كما نراها في العالم المتوسط. لكن من المحتمل أن الذرات المهتزة في تلك اليد أن تتحرك "صدفة" كلها بأتجاه واحد و في نفس الوقت. ومرة اخرى, و أخرى... في هذهِ الحالة ستتحرك اليد و سنراها تلوح لنا. ذلك يمكن أن يحدث و لكن أحتمال عدم حدوث هذا كبيرة جداً بحيث اننا لو بدأنا بكتابة النسبة الاحتمالية عند بداية الكون فأننا لم تنته بعد من كتابة الاصفار حتى يومنا هذا. أن القدرة على حساب أحتمال كهذا –القدرة على أن نحدد أحتمالية أشياء مستحيلة بدل من أهمالها لعجزنا– هو مثال آخر لذلك التحرر الفكري الذي أغنى به العلم الروح البشرية.

ان التطور في العالم المتوسط قد زودتنا بأمكانيات ضعيفة للتعامل مع احداث ذات لاأحتمالية عالية. لكن في الفضاء الكوني الواسع و في الازمنة الجغرافية فإن الاحداث التي تبدو مُستحيلة في عالمنا المتوسط تصبح حتمية. العِلمْ يفتح لنا تلك النافذة الضيقة التي تعودنا رؤية طيف الأحتمالات من خِلالها. لقد تحررنا بفضل قدراتنا الحسابية و الفكر العقلاني لدرجة أنهُ صار بإمكاننا التعامل مع مجالات من الاحتمالات كانت في زمن ما خارج نطاق قدراتنا أو كانت مسكونة بالتنانين. لقد أستغلينا هذه النافذة العريضة مسبقاً في الفصل الرابع, حيث تعرضنا للأحتمالية نشوء الحياة و كيف يمكن لحدث كيميائي كهذا بإحتمالية تقترب للمستحيل أن يحصل بوجود عدد كاف من

السنين الكوكبية. هناك تناولنا أيضا موضوع الأكوان المحتملة, لكل منها قوانينه و ثوابته, و الضرورة الآنثروبولجية (الانسانية) التي تنص على أننا نتواجد في أحد هذه الاكوان القليلة القابلة لنشوء الحياة.

كيف يمكننا تفسير مقولة هالداين "مُحير أكثر مما نستطيع أن نتخيل"؟ محير أكثر من نستطيع مبدئياً أن نتخيل؟ أم فقط مُحير أكثر من قدرتنا على التخيل, مع الاخذ بعين الاعتبار مدى محدودية عقولنا المتطورة في العالم المتوسط؟ هل نستطيع بالتمرين و التجربة أن نعتق أنفسنا مِن العالم المتوسط و نمرق برقعنا الاسود و نصل لمستوى حدسي – على الاقل رياضي – لفهم الامور الصغيرة جداً و الكبيرة جداً و السريعة جداً؟ لا أعرف الاجابة على ذلك صراحة, لكنني سعيد جداً كوني أحيا في الزمن الذي تُدفع فيه الأنسانية بأتجاه حدود الفهم القصوى لما نستطيع تعلمهُ. بل ربما سسنكتشف يوماً ما بأنهُ ليس هُناكَ حدود لذلك.





- Adams, D. (2003). The Salmon of Doubt. London: Pan.
- Alexander, R. D. and Tinkle, D. W., eds (1981). Natural Selection and Social Behavior. New York: Chiron Press.
- Anon. (1985). Life - How Did It Get Here? By Evolution or by Creation? New York: Watchtower Bible and Tract Society.
- Ashton, J. E, ed. (1999). In Six Days: Why 50 Scientists Choose to Believe in Creation. Sydney: New Holland.
- Atkins, P. W. (1992). Creation Revisited. Oxford: W. H. Freeman.
- Atran, S. (2002). In Gods We Trust. Oxford: Oxford University Press.
- Attenborough, D. (1960). Quest in Paradise. London: Lutterworth.
- Aunger, R. (2002). The Electric Meme: A New Theory of How We Think. New York: Free Press.
- Baggini, J. (2003). Atheism: A Very Short Introduction. Oxford: Oxford University Press.
- Barber, N. (1988). Lords of the Golden Horn. London: Arrow.
- Barker, D. (1992). Losing Faith in Faith. Madison, WI: Freedom From Religion Foundation.
- Barker, E. (1984). The Making of a Moonie: Brainwashing or Choice? Oxford: Blackwell.

- Barrow, J. D. and Tipler, F. J. (1988). The Anthropic Cosmological Principle. New York: Oxford University Press.
- Baynes, N. H., ed. (1942). The Speeches of Adolf Hitler, vol. 1. Oxford: Oxford University Press.
- Behe, M. J. (1996). Darwin's Black Box. New York: Simon & Schuster.
- Beit-Hallahmi, B. and Argyle, M. (1997). The Psychology of Religious
- Behaviour, Belief and Experience. London: Routledge.
- Berlinerblau, J. (2005). The Secular Bible: Why Nonbelievers Must Take Religion Seriously. Cambridge: Cambridge University Press.
- Blackmore, S. (1999). The Meme Machine. Oxford: Oxford University Press.
- Blaker, K., ed. (2003). The Fundamentals of Extremism: The ChristianRight in America. Plymouth, MI: New Boston.
- Bouquet, A. C. (1956). Comparative Religion. Harmondsworth: Penguin.
- Boyd, R. and Richerson, P. J. (1985). Culture and the Evolutionary Process. Chicago: University of Chicago Press.
- Boyer, P. (2001). Religion Explained. London: Heinemann.
- Brodie, R. (1996). Virus of the Mind: The New Science of the Meme. Seattle: Integral Press.
- Buckman, R. (2000). Can We Be Good without God? Toronto: Viking.
- Bullock, A. (1991). Hitler and Stalin. London: HarperCollins.

- Bullock, A. (2005). Hitler: A Study in Tyranny. London: Penguin.
- Buss, D. M., ed. (2005). The Handbook of Evolutionary Psychology. Hoboken, NJ: Wiley.
- Cairns-Smith, A. G. (1985). Seven Clues to the Origin of Life.
- Cambridge: Cambridge University Press.
- Comins, N. F. (1993). What if the Moon Didn't Exist? New York: HarperCollins.
- Coulter, A. (2006). Godless: The Church of Liberation. New York:
- Crown Forum.
- Darwin, C. (1859). On the Origin of Species by Means of Natural Selection. London: John Murray.
- Dawkins, M. Stamp (1980). Animal Suffering. London: Chapman & Hall.
- Dawkins, R. (1976). The Selfish Gene. Oxford: Oxford University Press.
- Dawkins, R. (1982). The Extended Phenotype. Oxford: W. H. Freeman.
- Dawkins, R. (1986). The Blind Watchmaker. Harlow: Longman.
- Dawkins, R. (1995). River Out of Eden. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Dawkins, R. (1996). Climbing Mount Improbable. New York: Norton.
- Dawkins, R. (1998). Unweaving the Rainbow. London: Penguin.
- Dawkins, R. (2003). A Devil's Chaplain: Selected Essays. London: Weidenfeld & Nicolson.

- Dennett, D. (1995). Darwin's Dangerous Idea. New York: Simon & Schuster.
- Dennett, D. C. (1987). The Intentional Stance. Cambridge, MA: MIT Press.
- Dennett, D. C. (2003). Freedom Evolves. London: Viking.
- Dennett, D. C. (2006). Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon. London: Viking.
- Deutsch, D. (1997). The Fabric of Reality. London: Allen Lane.
- Distin, K. (2005). The Selfish Meme: A Critical Reassessment. Cambridge: Cambridge University Press.
- Dostoevsky, F. (1994). The Karamazov Brothers. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2003a). Lost Christianities: The Battles for Scripture and the Faiths We Never Knew. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2003b). Lost Scriptures: Books that Did Not Make It into the New Testament. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2006). Whose Word Is It? London: Continuum.
- Fisher, H. (2004). Why We Love: The Nature and Chemistry of Romantic Love. New York: Holt.
- Forrest, B. and Gross, P. R. (2004). Creationism's Trojan Horse: The Wedge of Intelligent Design. Oxford: Oxford University Press.
- Frazer, J. G. (1994). The Golden Bough. London: Chancellor Press.

- Freeman, C. (2002). The Closing of the Western Mind. London: Heinemann.
- Galouye, D. F. (1964). Counterfeit World. London: Gollancz.
- Glover, J. (2006). Choosing Children. Oxford: Oxford University Press.
- Goodenough, U. (1998). The Sacred Depths of Nature. New York: Oxford University Press.
- Goodwin, J. (1994). Price of Honour: Muslim Women Lift the Veil of Silence on the Islamic World. London: Little, Brown.
- Gould, S. J. (1999). Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life. New York: Ballantine.
- Grafen, A. and Ridley, M., eds (2006). Richard Dawkins: How a Scientist Changed the Way We Think. Oxford: Oxford University Press.
- Grand, S. (2000). Creation: Life and How to Make It. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Grayling, A. C. (2003). What Is Good? The Search for the Best Way to Live. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Gregory, R. L. (1997). Eye and Brain. Princeton: Princeton University Press.
- Halbertal, M. and Margalit, A. (1992). Idolatry. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Harris, S. (2004). The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason. New York: Norton.
- Harris, S. (2006). Letter to a Christian Nation. New York: Knopf.

- Haught, J. A. (1996). 2000 Years of Disbelief: Famous People with the Courage to Doubt. Buffalo, NY: Prometheus.
- Hauser, M. (2006). Moral Minds: How Nature Designed our Universal Sense of Right and Wrong. New York: Ecco.
- Hawking, S. (1988). A Brief History of Time. London: Bantam.
- Henderson, B. (2006). The Gospel of the Flying Spaghetti Monster. New York: Villard.
- Hinde, R. A. (1999). Why Gods Persist: A Scientific Approach to Religion. London: Routledge.
- Hinde, R. A. (2002). Why Good Is Good: The Sources of Morality. London: Routledge.
- Hitchens, C. (1995). The Missionary Position: Mother Teresa in Theory and Practice. London: Verso.
- Hitchens, C. (2005). Thomas Jefferson: Author of America. New York: HarperCollins.
- Hodges, A. (1983). Alan Turing: The Enigma. New York: Simon & Schuster.
- Holloway, R. (1999). Godless Morality: Keeping Religion out of Ethics. Edinburgh: Canongate.
- Holloway, R. (2001). Doubts and Loves: What is Left of Christianity. Edinburgh: Canongate.
- Humphrey, N. (2002). The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology and Evolution. Oxford: Oxford University Press.
- Huxley, A. (2003). The Perennial Philosophy. New York: Harper.
- Huxley, A. (2004). Point Counter Point. London: Vintage.

- Huxley, T. H. (1871). Lay Sermons, Addresses and Reviews. New York: Appleton.
- Huxley, T. H. (1931). Lectures and Essays. London: Watts.
- Jacoby, S. (2004). Freethinkers: A History of American Secularism. New York: Holt.
- Jammer, M. (2002). Einstein and Religion. Princeton: Princeton University Press.
- Jaynes, J. (1976). The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind. Boston: Houghton Mifflin.
- Juergensmeyer, M. (2000). Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence. Berkeley: University of California Press.
- Kennedy, L. (1999). All in the Mind: A Farewell to God. London: Hodder &c Stoughton.
- Kertzer, D. I. (1998). The Kidnapping ofEdgardo Mortara. New York: Vintage.
- Kilduff, M. and Javers, R. (1978). The Suicide Cult. New York: Bantam.
- Kurtz, P., ed. (2003). Science and Religion: Are They Compatible? Amherst, NY: Prometheus.
- Kurtz, P. (2004). Affirmations: Joyful and Creative Exuberance. Amherst, NY: Prometheus.
- Kurtz, P. and Madigan, T. J., eds (1994). Challenges to the Enlightenment: In Defense of Reason and Science. Amherst, NY: Prometheus.
- Lane, B. (1996). Killer Cults. London: Headline.
- Lane Fox, R. (1992). The Unauthorized Version. London: Penguin.

- Levitt, N. (1999) Prometheus Bedeviled. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.
- Loftus, E. and Ketcham, K. (1994). The Myth of Repressed Memory: False Memories and Allegations of Sexual Abuse. New York: St Martin's.
- McGrath, A. (2004). Dawkins' God: Genes, Memes and the Meaning of Life. Oxford: Blackwell.
- Mackie, J. L. (1985). The Miracle of Theism. Oxford: Clarendon Press.
- Medawar, P. B. (1982). Pluto's Republic. Oxford: Oxford University Press.
- Medawar, P. B. and Medawar, J. S. (1977). The Life Science: Current Ideas of Biology. London: Wildwood House.
- Miller, Kenneth (1999). Finding Darwin's God. New York: HarperCollins.
- Mills, D. (2006). Atheist Universe: The Thinking Person's Answer to Christian Fundamentalism. Berkeley: Ulysses Books.
- Mitford, N. and Waugh, E. (2001). The Letters of Nancy Mitford and Evelyn Waugh. New York: Houghton Mifflin.
- Mooney, C. (2005). The Republican War on Science. Cambridge, MA: Basic Books.
- Perica, V. (2002). Balkan Idols: Religion and Nationalism in Yugoslav States. New York: Oxford University Press.
- Phillips, K. (2006). American Theocracy. New York: Viking.
- Pinker, S. (1997). How the Mind Works. London: Allen Lane.

- Pinker, S. (2002). The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature. London: Allen Lane.
- Plimer, I. (1994). Telling Lies for God: Reason vs Creationism. Milsons Point, NSW: Random House.
- Polkinghorne, J. (1994). Science and Christian Belief: Theological Reflections of a Bottom-Up Thinker. London: SPCK.
- Rees, M. (1999). Just Six Numbers. London: WeidenfeJd & NicoJson.
- Rees, M. (2001). Our Cosmic Habitat. London: Weidenfeld & NicoJson.
- Reeves, T. C. (1996). The Empty Church: The Suicide of Liberal Christianity. New York: Simon & Schuster.
- Richerson, P. J. and Boyd, R. (2005). Not by Genes Alone: How Culture Transformed Human Evolution. Chicago: University of Chicago Press.
- Ridley, Mark (2000). Mendel's Demon: Gene Justice and the Complexity of Life. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Ridley, Matt (1997). The Origins of Virtue. London: Penguin.
- Ronson, J. (2005). The Men Who Stare at Goats. New York: Simon & Schuster.
- Ruse, M. (1982). Darwinism Defended: A Guide to the Evolution Controversies. Reading, MA: Addison-Wesley.
- Russell, B. (1957). Why I Am Not a Christian. London: Routledge.
- Russell, B. (1993). The Quotable Bertrand Russell. Amherst, NY: Prometheus.

- Russell, B. (1997a). The Collected Papers of Bertrand Russell, vol. 2: Last Philosophical Testament, 1943-1968. London: Routledge.
- Russell, B. (1997b). Collected Papers, vol. 11, ed. J. C. Slater and P. Köllner. London: Routledge.
- Russell, B. (1997c). Religion and Science. Oxford: Oxford University Press.
- Ruthven, M. (1989). The Divine Supermarket: Travels in Search of the Soul of America. London: Chatto & Windus.
- Sagan, C. (1995). Pale Blue Dot. London: Headline.
- Sagan, C. (1996). The Demon-Haunted World: Science as a Candle in the Dark. London: Headline.
- Scott, E. C. (2004). Evolution vs. Creationism: An Introduction.
- Westport, CT: Greenwood.
- Shennan, S. (2002). Genes, Memes and Human History. London: Thames & Hudson.
- Shermer, M. (1997). Why People Believe Weird Things: Pseudoscience, Superstition and Other Confusions of Our Time. New York: W. H. Freeman.
- Shermer, M. (1999). How We Believe: The Search for God in an Age of Science. New York: W. H. Freeman.
- Shermer, M. (2004). The Science of Good and Evil: Why People Cheat, Gossip, Care, Share, and Follow the Golden Rule. New York: Holt.
- Shermer, M. (2005). Science Friction: Where the Known Meets the Unknown. New York: Holt.
- Shermer, M. (2006). The Soul of Science. Los Angeles: Skeptics Society.

- Silver, L. M. (2006). Challenging Nature: The Clash of Science and Spirituality at the New Frontiers of Life. New York: HarperCollins.
- Singer, P. (1990). Animal Liberation. London: Jonathan Cape.
- Singer, P. (1994). Ethics. Oxford: Oxford University Press.
- Smith, K. (1995). Ken's Guide to the Bible. New York: Blast Books.
- Smolin, L. (1997). The Life of the Cosmos. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Smythies, J. (2006). Bitter Fruit. Charleston, SC: Booksurge.
- Spong, J. S. (2005). The Sins of Scripture. San Francisco: Harper.
- Stannard, R. (1993). Doing Away with God? Creation and the Big Bang. London: Pickering.
- Steer, R. (2003). Letter to an Influential Atheist. Carlisle: Authentic Lifestyle Press.
- Stenger, V. J. (2003). Has Science Found God? The Latest Results in the Search for Purpose in the Universe. New York: Prometheus.
- Susskind, L. (2006). The Cosmic Landscape: String Theory and the Illusion of Intelligent Design. New York: Little, Brown.
- Swinburne, R. (1996). Is There a God? Oxford: Oxford University Press.
- Swinburne, R. (2004). The Existence of God. Oxford: Oxford University Press.

- Taverne, R. (2005). The March of Unreason: Science, Democracy and the New Fundamentalism. Oxford: Oxford University Press.
- Tiger, L. (1979). Optimism: The Biology of Hope. New York: Simon & Schuster.
- Toland, J. (1991). Adolf Hitler: The Definitive Biography, New York: Anchor.
- Trivers, R. L. (1985). Social Evolution. Menlo Park, CA: Benjamin/ Cummings.
- Unwin, S. (2003). The Probability of God: A Simple Calculation that Proves the Ultimate Truth. New York: Crown Forum.
- Vermes, G. (2000). The Changing Faces of Jesus. London: Allen Lane.
- Ward, K. (1996). God, Chance and Necessity. Oxford: Oneworld.
- Warraq, I. (1995). Why I Am Not a Muslim. New York: Prometheus.
- Weinberg, S. (1993). Dreams of a Final Theory. London: Vintage.
- Wells, G. A. (1986). Did Jesus Exist? London: Pemberton.
- Wheen, F. (2004). How Mumbo-Jumbo Conquered the World: A Short History of Modern Delusions. London: Fourth Estate.
- Williams, W, ed. (1998). The Values of Science: Oxford Amnesty Lectures 1997. Boulder, CO: Westview.
- Wilson, A. N. (1993). Jesus. London: Flamingo.
- Wilson, A. N. (1999). God's Funeral. London: John Murray.

- Wilson, D. S. (2002). Darwin's Cathedral: Evolution, Religion and the Nature of Society. Chicago: University of Chicago Press.
- Wilson, E. O. (1984). Biophilia. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Winston, R. (2005). The Story of God. London: Transworld/BBC.
- Wolpert, L. (1992). The Unnatural Nature of Science. London: Faber & Faber.
- Wolpert, L. (2006). Six Impossible Things Before Breakfast: The Evolutionary Origins of Belief. London: Faber & Faber.
- Young, M. and Edis, T. eds (2006). Why Intelligent Design Fails: A Scientific Critique of the New Creationism. New Brunswick: Rutgers University Press.

الفهرس

أتقدم بالشكر و التقدير و الامتنان الى كُل من ساهم بطبع النسخة العربية و الترويج لها و نشرها بالرغم مما قد يعنيه ذلك في بعض الاحيان من مُخاطرة بحياتك

شكر خاص لـ ...

شبكة المُلحدين العرب (http://www.el7ad.info)

تحية حُبّ و أحترام إنساني خالصة الى الجميع

بسام البغدادي

تستطيع الاتصال بي للحديث عن أي شئ يدور ببالك على العنوان التالي

Al.Baghdady@Gmail.com